اندريه جيد

مُزيِّفو النّقود

ترجمة
بهيج شعبان

مراجعة
هنري زغيب

عويدات

النص كاملاً

للمؤلف
في سلسلة ماريان

- قوت الأرض/٢٤٠ صفحة/١٩٨٤
- مزيفو النقود/٥٢٨ صفحة/١٩٨٤
- السامفونيا الراعوية/١٢٨ صفحة/١٩٨٥

حقوق لوحة الغلاف الأصلية محفوظة
لمنشورات عويدات بموجب عقد مع دار غاليمار

Editions Gallimard

rue Sébastien Bottin
,341 Paris Cedex 07
·léphone 544 39 19
lex GALLIM 204121 F
lresse télégraphique :
IPREFENE Paris 044
ciété anonyme au capital
8 737 300 F
'2206753 B R.C. Paris

LES EDITIONS GALLIMARD
ont cédé par contrat en date du
25 Mai 1982 aux EDITIONS OUEIDAT
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"
les droits exclusifs de traduction,
publication et diffusion en langue arabe
dans le monde entier de l'ouvrage

André GIDE : LES FAUX-MONNAYEURS

EDITIONS GALLIMARD
par délégation du
Président Directeur Général

© منشورات عويدات - بيروت
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب اتفاق خاص مع دار عاليمار Gallimard - باريس

الطبعة الثاية ١٩٨٤

إلى روجه مارتان دوغار
أهدي روايتي الأولى دلالة على صداقتي العميقة.
أ ـ ج

القسم الأول

باريس

١

قال برنار لنفسه :

ـ انها اللحظة التي ظننت فيها اني أسمع وقع خطى في لرواق .

ورفع رأسه وارهف السمع . ولكن كلا ، فأبوه واخوه البكر باقيان في قصر العدل ، وامه في زيارة ، واخته في حفلة موسيقية ؛ اما الاخ الثاني ، كالوب الصغير ، فهناك بنسيون يتلقفه كل يوم عند خروجه من المدرسة . كان برنار بروفيتانديو قد بقي في البيت للاستعداد للبكالوريا ، ولم يكن امامه سوى ثلاثة اسابيع . ان العائلة تحترم عزلته ، اما الشيطان فلا . ومع ان برنار كان قد خلع سترته فانه يكاد يختنق ، فالنافذة المفتوحة على الشارع لا يدخل منها سوى الحر . كانت جبهته تقطر عرقاً . وسالت قطرة عرق على طول انفه وسقطت على رسالة في يده وفكّر : « العرق يلعب لعبة الدمع . ولكن من الافضل ان اعرق بدلاً من ان ابكي . »

نعم ، ان تاريخ « الرسالة » حاسم ، وما من وسيلة

ـ ان السيد قاضي التحقيق والسيد المحامي ابنه لن يعودا قبل الساعة السادسة . لديّ الوقت الكافي . يجب ان يجد السيد القاضي على مكتبه ، عند عودته ، الرسالة الجميلة التي سأبرر فيها سبب رحيلي . لكنني اشعر قبل كتابتها بحاجة كبيرة لتهوية افكاري قليلاً ـ وان اذهب لرؤية عزيزي اوليفييه لأؤمن لنفسي مبيتاً ـ من قبيل الاحتياط على الأقل . اوليفييه ، يا صديقي ، لقد سنحت لي الفرصة لاضع مجاملتك موضع الاختبار وسنحت لك لتريني ما تساوي . ان الامر الجميل في صداقتنا هو ان احداً منا لم يخدم الآخر حتى الآن . والخدمة التي يكون في اسدائها تسلية لا يكون المرء مزعجاً اذا طلبها . اما ما يزعج فهو ان اوليفييه لن يكون وحده . ليس هذا بالامر المهم ، سأعرف كيف انتحي به جانباً . سأخيفه بهدوئي . فانا لا اشعر باني على طبيعتي اكثر ما يمكن ، الا في ما هو خارق للعادة .

كان شارع ت . . . الذي عاش فيه برنار بروفيتانديو حتى هذا اليوم قريباً جداً من حديقة لوكسمبور . وهناك ، بقرب فوّار مديسي ، في ذلك الممشى المشرف عليه ، كان من عادتهما ان يلتقيا ببعض رفاقهما كل اربعاء بين الساعة الرابعة والسادسة . كانوا يتحدثون عن الفن ، والفلسفة ، والرياضة ، والسياسة ، والادب . كان برنار يسير بسرعة كبيرة لكنه عندما اجتاز الحاجز الحديدي للحديقة لمح اوليفييه مولينييه فخفف من سرعة سيره .

كان الاجتماع هذا النهار حاشداً اكثر من المعتاد ، وما من

شك في ان ذلك يعود للطقس الجميل . وقد انضم الى الحشد اشخاص لم يكن برنار يعرفهم . وفي اللحظة التي يكن فيها احد هؤلاء الشبان امام الآخرين يصبح كأنه يمثل دوراً ويفقد تقريباً كل ما هو طبيعي .

واحمر وجه اوليفييه عندما رأى برنار يقترب ، وترك فجأة صبية كان يحادثها وابتعد . ومع ان برنار كان صديقه الحميم فقد كان يحاول بعناية زائدة ألا يظهر انه يبحث عنه ، حتى انه كان يتظاهر احياناً بأنه لم يره .

وكان على برنار ان يجبه جماعات عدة قبل ان يصل اليه ، وبما انه يتظاهر هو ايضاً بعدم البحث عن اوليفييه ، فقد تأخر .

وكان اربعة من رفاقه يحيطون بملتحٍ صغير ذي انف اعقف يبدو اكبر منهم سناً ويحمل كتاباً . انه دورمر . وكان يقول ، موجهاً كلامه على الخصوص الى واحد منهم ولكنه ظاهر السرور لان الجميع يسمعونه :

ـ ماذا تريد ؟ لقد قرأت حتى الصفحة الثلاثين دون ان اجد اي لون ، اية كلمة تفيد . هو يتحدث عن امرأة ، لم اعلم حتى اذا كان ثوبها احمر او ازرق . وانا ، بكل بساطة ، لا أرى شيئاً حينما لا يكون هنالك الوان .

وبدافع حاجته الى المبالغة ، ولانه شعر ان كلامه لم يحمل كثيراً على محمل الجد ، أضاف ملحاً :

ـ لا ارى شيئاً أبداً .

ـ لم يعد برنار يستمع الى الخطيب . ورأى من غير اللائق ان يبتعد بسرعة ، ولكنه ارهف سمعه لآخرين يتشاجرون وراءه . كان اوليفييه قد انضم اليهم بعد تركه المرأة الشابة ؛ وكان احد هؤلاء جالساً على مقعد ويقرأ صحيفة « العمل الفرنسي » . كم يبدو اوليفييه مولينييه رزيناً بين الجميع رغم انه اصغرهم سناً . ان وجهه شبه الطفولي ونظرته ينمان عن نضج تفكيره . ووجهه يحمر بسهولة لانه سريع التأثر . ومهما اظهر من لطف حيال الجميع ، لا ادري اي تحفظ خفي ، واي خفر يبقيان رفاقه بعيدين عنه . إنه يتألم من ذلك . ولولا برنار لتألم اكثر .

كان مولينييه قد أعار انتباهه لفترة وجيزه الى كل واحدة من هذه الجماعات كما يفعل برنار الان ، وذلك من قبيل المجاملة ، الا ان ما يسمعه لم يكن يشوقه .

وانحنى مولينييه فوق كتف القارىء . وسمعه برنار ، من غير ان يلتفت ، يقول :

ـ انك مخطىء بقراءة الصحف فهذا يبعث دمك على الاحتقان .

وأجاب الأخر بصوت فظ :

ـ وأنت ، ما تكاد تسمع كلاماً عن مورّاس حتى تخضرّ .

ثم سأل ثالث بلهجة ساخرة :

ـ هل تسليك مقالات مورّاس ؟

واجاب الاول :

ـ انها تزعجني مثل الـ . . . لكنني اجد انه على حق .

ثم قال رابع لم يتعرف برنار الى صوته :

ـ انت ، كل ما لا يزعجك تعتقد انه ينقصه العمق .

وأجاب الاول بسرعة :

ـ اذا كنت تعتقد انه يكفي المرء ان يكون غبياً ليكون مضحكاً ! . .

ـ تعال .

قالها برنار بصوت منخفض وهو يمسك اوليفييه فجأة من ذراعه ، وسار به بعيداً بضع خطوات .

ـ اجب بسرعة فأنا متعجل . قلت لي مراراً إنك لا تنام في الطبقة التي ينام فيها اهلك .

ـ لقد أريتك باب غرفتي ؛ انه يفتح رأساً على السلم . نصف طبقة قبل ان تصل الينا .

ـ وقلت لي ان اخاك ينام هناك ايضاً ! .

ـ جورج ، نعم .

ـ أأنتما وحيدان ؟

ـ نعم .

ـ هل يعرف الصغير ان يصمت ؟

ـ اذا اقتضى الأمر ، لماذا ؟ . . .

ـ اسمع . تركت البيت . او الصحيح سأتركه هذا المساء ، ولا اعرف اين أذهب حتى الآن . هل تستطيع استقبالي لليلةٍ واحدة ؟

فشحب اوليفييه ، وكان تأثره قوياً الى درجة انه لم يستطع النظر الى برنار ، وقال :

ـ نعم . ولكن لا تأت قبل الساعة الحادية عشرة ، ان امي تهبط كل مساء لوداعنا وتقفل بابنا بالمفتاح .

ـ لكن ! . .

فابتسم اوليفييه وقال :

ـ معي مفتاح آخر . ستطرق الباب بهدوء لئلا توقظ جورج اذا كان نائماً .

ـ وهل يدعني البواب امر ؟

ـ سأنبهه . أوه ! . انا على وفاق معه . هو الذي اعطاني المفتاح الآخر . الى اللقاء .

وتركا بعضهما البعض دون مصافحة . وعندما ابتعد برنار وهو يفكر في الرسالة التي يريد ان يكتبها والتي يجب ان يجدها القاضي لدى عودته ، فان اوليفييه ، الذي لا يريد ان يُرى منفرداً مع برنار وحده ، ذهب للقاء لوسيان بركاي الذي تركه الآخرون جانباً . ان اوليفييه كان ليحبه كثيراً لولا انه كان يفضل عليه برنار . وبقدر ما كان برنار جسوراً كان لوسيان خجولاً ، فهو يوحي انه ضعيف ، ويبدو انه غير موجود الا

بالقلب والروح . ومن النادر ان يجرؤ على التقدم ولكنه يصبح مجنوناً من الفرح حين يرى اوليفييه يقترب . اما انه ينظم اشعاراً فما من احد الا يشك في ذلك ؛ لكنني اعتقد تمام الاعتقاد ان اوليفييه هو الوحيد الذي يكشف له لوسيان عن مشاريعه . وصل الاثنان الى حافة الشرفة وكان لوسيان يقول :

- ان ما اريده هو ان اروي تاريخ مكان لا تاريخ شخص - اليك مثلاً تاريخ ممشى حديقة كهذا ، اريد ان اقص ما يجري فيه - منذ الصباح حتى المساء . يأتي اليه اولاً خادمات اطفال ، مرضعات يتشحن باوشحة . . . كلا ، كلا . . . اولاً اشخاص رماديون من دون جنس او سن ، لتنظيف الممشى وسقي العشب وتغيير الازهار ، واخيراً لتحضير المسرح والزخارف قبل فتح الحواجز الحديدية . أتفهم ؟ . . وعند ذاك تدخل المرضعات . اطفال يصنعون عجائن من الرمل ويختصمون ، والخادمات يصفعنهم . ويلي ذلك خروج الطبقات الصغيرة ، ثم العاملات . وهناك فقراء يأتون لتناول طعامهم على مقعد . وبعد ذلك شبان يبحثون عن بعضهم البعض ، وغيرهم يهربون بعضهم من بعض ، وآخرون يعتزلون الناس ، انهم الحالمون . ثم الجمهور في ساعة الموسيقى والخروج من المتاجر . طلاب كما هي الحال الآن . وفي المساء عشاق يتعانقون ، وآخرون يفترقون باكين ؛ واخيراً ، في نهاية النهار ، زوجان عجوزان . . . وفجأة قرع طبول : والاغلاق . الناس كلهم يخرجون ، وتنتهي

المسرحية . أتفهم ؟ . . شيء ما يوحي نهاية كل شيء ، الموت . ولكن بالطبع من دون ان نتكلم عن الموت .

فقال اوليفييه الذي كان يفكر في برنار ولم يسمع كلمة :

ـ نعم ، ارى ذلك تماماً .

فقال لوسيان بحرارة :

ـ وهذا ليس كل شيء ، ليس هذا كل شيء . اريد في نوع من الخاتمة ان اظهر هذا الممشى نفسه ليلاً ، بعد ان يذهب الجميع ، مقفراً وهو اجمل منه في النهار ؛ في الصمت العميم ، حماسة جميع الضجات الطبيعية : ضجة الفوار ، الريح في الاوراق ، زقزقة عصفور ليلي . وكنت فكرت اولاً ان ادع الظلال تطوف فيها . ويمكن ان تكون ظلال التماثيل . . . لكنني اعتقد ان هذا سيكون كثير الابتذال . فما رأيك ؟

اعترض اوليفييه متشاغلاً :

ـ كلا ، دون تماثيل ، دون تماثيل .

ثم صرخ بحرارة امام نظرات رفيقه الحزينة :

ـ نعم ، يا صديقي . اذا نجحت فسيكون ذلك مذهلاً .

٢

لا يوجد اي اثر ، في رسائل بوسان ،
لأي إلزام يلزم به اهله . وفي ما تبع ذلك لم
يسجل اي أسف لابتعاده عنهم . وقد انتقل
بارادته الى روما ففقد كل رغبة بالعودة ،
حتى ليقال انه فقد كل ذكرى .

بول ديجاردان (بوسان)

كان السيد بروفيتانديو متعجلاً العودة الى البيت وقد رأى ان زميله مولينييه ، الذي رافقه طوال بولفار سان جرمان ، يسير متباطئاً . وكان هذا النهار مليئاً بالاعمال في قصر العدل على ألبريك بروفيتانديو . وقد انتابه القلق لشعوره بشيء من الثقل في الجنب الايمن ؛ ان التعب عنده يضغط على الكبد الذي كان ضعيفاً الى حد ما . وفكر في الحمام الذي سيأخذه ؛ ما من شيء يريحه من هموم النهار افضل من حمام جيد ؛ وتحسباً لذلك لم يتناول فطوره هذا النهار ؛ معتبراً انه ليس من الحكمة ان يدخل الماء ، ولو فاتراً ، الا بمعدة فارغة . وبعد ، من الممكن الا يكون هذا سوى رأي مسبق ؛ ولكن الآراء المسبقة هي اوتاد المدنية .

كان اوسكار مولينييه يسرع الخطى قدر استطاعته ويقوم بمجهود ليلحق ببروفيتانديو . لكنه كان اقصر منه بكثير واقل نمواً في الساقين ؛ وزيادة على ذلك فان القلب قليل الحشو بالشحم ، وكان يتنفس بسهولة . وبروفيتانديو الذي لا يزال ناضراً وهو في الخامسة والخمسين ، ضامر القد رشيق المشية ، كان يمكنه ، بكل لذة ،ان يسبقه ويمضي الا انه كان كثير الاهتمام باللياقات ، فزميله اكبر منه سناً ، وأكثر تقدماً في المهنة : انه مدين له بالاحترام ، وفضلاً عن ذلك عليه ان يعتاد ان يغتفر له ثروته التي أصبحت عظيمة منذ موت اهل زوجته ، بينما ليس للسيد مولينييه ما يملكه سوى راتبه كرئيس غرفة ، راتب يستحق السخرية ولا يتناسب مع المركز السامي الذي يشغله بجدارة . كان بروفيتانديو يخفي ملله ؛ وهو يلتفت الى مولينييه ويراه وهو يمسح عرقه ؛ ومع ذلك فان ما قاله له مولينييه قد شاقه جداً ، ولكن نظرتهما الى الأمور لم تكن واحدة ، وحميت المناقشة . وقال مولينييه :

ـ ضع مراقبة على البيت ، وتلق التقارير من البواب والخادمة الزائفة ، كل هذا حسن . ولكن انتبه ، فبقدر ما تتقدم في هذا التحقيق فان القضية ستفلت منك . . . اريد ان اقول انه يخشى ان تجرك الى أبعد مما تصورت في البدء .

ـ ليس لهذه الشواغل علاقة بالعدالة .

ـ هيا ! هيا يا صديقي ، اننا نعرف ، أنت وانا ، كيف

يجب ان تكون العدالة وما هي . نحن نفعل الافضل ، وهذا مفهوم ، ولكن مهما كان الذي نفعله حسناً فاننا لن نصل الا الى شيء تقريبي . والقضية التي تشغلك اليوم هي دقيقة بشكل خاص : فمن خمسة عشر متهمًا ، او من الممكن ان يصبحوا كذلك غداً بكلمة منك ، تسعة قاصرين وبعض هؤلاء الأولاد كما تعلم ، هم ابناء عائلات شريفة جداً ، ولهذا اعتبر ان كل مذكرة توقيف هي دليل على سوء التصرف . ان صحف الحزب ستمسك بك في القضية وستفتح الباب لكل تهديد بالتشهير ولكل الفضائح . ويمكن ان تقوم بالعمل بشكل جيد ، لكنك رغم حيطتك لن تمنع لفظ اسماء اعلام . . لا املك صفة اسدائك النصيحة ، وانت تعلم كم مرة تلقيتها منك بطيبة خاطر حيث كنت اعترف دائمًا واقدر سمو النظر ، والوضوح والاستقامة . . . ولكن اليك كيف كنت اتصرف لو كنت في مكانك : كنت ابحث عن الوسيلة التي اضع بها حداً لهذه الفضيحة الكريهة بالقبض على اربعة او خمسة من المحرضين . . . نعم ، انا اعلم ان القبض عليهم صعب ، ولكن يا للشيطان ! انها مهنتنا . كنت اعمل على اقفال المسكن ، مسرح هذه المخازي ، وارتب الامور بحيث انبىء أهل هؤلاء المجان الصغار ، بلطف ، وبالسر ، وبكل بساطة لامنع العودة الى ارتكاب الجرائم . آه ! مثلاً ، اسجن النساء . انني اوافقك على هذا بطيبة خاطر ، ويبدو لي ان مهمتنا هنا هي

مع بعض المخلوقات من ذوات الاخلاق الفاسدة البعيدة الغور التي لا يسبر غورها . والمهم ان ننظف المجتمع . ولكن ، مرة اخرى ايضاً ، لا تقبض على اولاد ؛ حاول ارهابهم ثم غطِّ كل ذلك ببطاقة « تصرف دون بصيرة » وليبقوا طويلاً مندهشين من خروجهم من الخوف لا عليهم ولا لهم . فكر في ان ثلاثة منهم لم يبلغوا الرابعة عشرة ، ومن المؤكد ان اهلهم يعتبرونهم كالملائكة نقاء وبراءة . ولكن ، للمناسبة ، يا صديقي العزيز ، لبر ، والأمر بيننا ، هل فكرنا نحن في النساء عندما كنا في هذه السن ؟

وكان قد وقف وهو يلهث من فصاحته اكثر من المشي ، واجبر بروفيتانديو الذي ظل سائراً ان يقف هو ايضاً ، وتابع قائلاً

ـ نعم ، اذا كنا قد فكرنا فيهن ، فبصورة مثالية ، صوفية ، دينية ، اذا استطعت القول . ان ابناء اليوم هؤلاء ، كما ترى ، ليس لهم مثل أعلى ... وبالمناسبة كيف اولادك ؟ على ان يفهم انني لم اقل كل ذلك لاجلهم فانا اعلم ان ضلالاً كهذا لا نخافه عليهم وهم تحت رقابتك ، بفضل التربية التي انشأتهم عليها .

وبالفعل لم يكن لبروفيتانديو حتى الآن سوى ان يمتدح اولاده ، ولكنه لم يكن معتاداً الوهم . ان افضل تربية في العالم لا تتغلب على الغرائز القبيحة ؛ واولاده ولله الحمد ليس عندهم

غرائز قبيحة ، كذلـك اولاد مولينييـه دون شك ؛ حتى انهم يبتعدون من تلقائهم عن العشرة السيئة . وبعد فما فائدة منع ما لا نستطيع منعه ؟ ان الكتب التي يمنع الولد من قراءتها يقرؤها سراً . اما هو فطريقته بسيطة جداً ، انه لا يمنعهم من قراءة الكتب السيئة ، لكنه يتصرف بشكل يجعل اولاده لا يرغبون في قراءتها . اما القضية المشار اليها فلا يزال يفكر وعلى كل حال وعد بالا يجري شيئاً دون ان يخبـر مولينييـه . وبكل بسـاطة ستستمر الرقابة الصارمة . وبما ان الشر قد استمر منذ ثلاثة اشهر فيمكن ان يستمر بضعة ايام بعد او بضعة أسابيع . ومع ذلك فان العطلة المدرسية الكبرى ستتكفل بتفريق الجانحين . . الى الملتقى .

واستطاع بروفيتانديو اخيراً ان يسرع الخطى .

وما ان دخل البيت حتى اسرع الى غرفة التواليت وفتح صنابير المغطس . وكان انطوان يراقب عودة سيده وقد عمل على ان يلتقيه في الرواق .

كان هذا الخادم الامين في البيت منذ خمسة عشر عاماً ؛ وقد شاهد الاولاد يكبرون ، واستطاع ان يرى اشياء كثيرة ، وارتاب في كثير من الاشياء الاخرى ، لكنه كان يتظاهر بعدم رؤية شيء مما يتوهمون انهم يخفونه عنه . وبرنار لم ينقطع عن محبة انطوان ولم يشأ الذهاب قبل ان يودعه . ولعله اراد ، بدافع الغضب من عائلته ، ان يطلع خادماً بسيطاً على سر رحيله الذي يجهله

اهله الاقربون ! ولكن يجب القول ، دفاعا عن برنار ، ان احداً من أهله لم يكن آنذاك في البيت . وفضلاً عن ذلك فان برنار لم يكن يستطيع وداعهم من غير ان يحاولوا ابقاءه . كان يخشي الاستيضاحات . اما لانطوان فيستطيع القول ببساطة : « انا ذاهب » . لكنه حين فعل ذلك مد اليه يده بشكل احتفالي بعث الدهشة في نفس الخادم العجوز .

ـ الا يعود السيد برنار لتناول الغداء ؟

ـ ولا للنوم يا انطوان .

وبما ان هذا بقي متردداً لا يعرف ماذا يجب ان يفهم ولا اذا كان عليه ان يسأل بعد ، فان برنار اعاد عن قصد : « انا ذاهب » ، ثم أضاف : « لقد تركت رسالة على مكتب . . . » ولم يستطع ان يحزم امره ويقول : « والدي » ، فقال : « . . . على منضدة المكتب . وداعاً » .

كان شديد التأثر حين ضغط على يد انطوان كأنه يأخذ اجازة من ماضيه دفعة واحدة ؛ ردد كلمة الوداع بسرعة ثم ذهب قبل ان يدع الشهقة الكبيرة التي صعدت الى حلقومه تنفجر .

وشك انطوان في ما اذا لم تكن هناك مسؤولية خطيرة بأن يدعه يذهب بهذا الشكل ـ ولكن كيف يستطيع امساكه ؟

اما ان يكون رحيل برنار هذا حادثاً غير متوقع وسيئاً بالنسبة الى العائلة كلها فأمر كان يشعر به انطوان ، ولكن دوره كخادم

كامل كان في الا يظهر انه استغربه . ولم يكن عليه ان يعرف ما لم يعرفه السيد بروفيتانديو . وما من شك في انه كان في وسعه ان يقول له : « أيعلم سيدي ان السيد برنار قد ذهب ؟ » لكنه يضيع بذلك كل فائدة ولن يكون هذا ساراً . واذا كان قد انتظر سيده بكثير من فراغ الصبر فلكي يقول له بلهجة جامدة ، محترمة ، وكخبر بسيط عهد اليه برنار بايصاله ، هذه العبارة التي ظل يعدها طويلاً :

ـ لقد ترك السيد برنار ، قبل ان يذهب ، رسالة للسيد في المكتب .

انها عبارة بسيطة الى حد يخشى معه ان لا ينتبه اليها الشخص الأخر . وقد حاول عبثاً البحث عن شيء أضخم دون ان يجد شيئاً يكون في الوقت نفسه طبيعياً . وبما ان برنار مم يسبق له ان تغيب فان السيد بروفيتانديو ، الذي كان انطوان يراقب بزاوية عينه ، لم يستطع ان يكتم قشعريرة :

ـ كيف ؟ قبل ان . . .

ثم امتلك نفسه حالاً ، ليس عليه ان يظهر دهشته امام مرؤوس ؛ ان الشعور بعلو منزلته لا يفارقه ابداً . فاكمل بلهجة هادئة جداً ، محكمة حقيقة :

ـ حسناً .

وقال وهو يدخل الى غرفته :

ـ اين قلت ان هذه الرسالة موجودة ؟

ـ على مكتب السيد .

وما ان دخل بروفيتانديو الى الغرفة حتى رأى فعلاً مظروفاً موضوعاً بشكل ظاهر امام الكنبة التي ان من عادته الجلوس عليها ليكتب ؛ ولكن انطوان لم يترك نفسه يؤخذ بهذه السرعة ، فلم يكد السيد بروفيتانديو يقرأ سطرين من الرسالة حتى سمعه يطرق الباب :

ـ نسيت ان اقول للسيد ان هناك شخصين ينتظران في الصالون الصغير .

ـ من هما ؟

ـ لا أعلم .

ـ هل هما معاً ؟

ـ لا يبدو ذلك .

ـ ماذا يريدان مني ؟

ـ لا أدري . يريدان رؤية السيد .

وشعر بروفيتانديو ان صبره فرغ .

ـ قلت قبلاً وكررت انني لا اريد ان يزعجني احد هنا ـ خصوصاً في هذه الساعة ؛ ولي ايامي وساعاتي المخصصة للاستقبال في قصر العدل . . . فلماذا ادخلتهما ؟

ـ قالا ان دافعهما امراً عاجلاً يريدان قوله للسيد .

ـ هما هنا منذ وقت طويل ؟

ـ منذ ساعة .

مشى بروفيتانديو خطوات في الغرفة ومر باحدى يديه على جبهته ، وبالاخرى كان يحمل رسالة برنار . وظل انطوان امام الباب وقوراً ثبت الجنان . واخيراً شعر بفرح حين رأى القاضي يفقد هدوءه وللمرة الاولى في حياته يضرب الارض بقدمه ويزمجر قائلاً :

ـ ليتركاني بسلام ! ليتركاني بسلام ! قل لهما اني مشغول . ليعودا في يوم آخر .

وما كاد انطوان يخرج حتى اسرع بروفيتانديو الى الباب :

ـ انطوان ! . . انطوان ! اذهب بعد ذلك واقفل صنابير المغطس .

فمن يستطيع الآن ان يفكر في اخذ حمام ! ؟ واقترب من النافذة وأخذ يقرأ :

« سيدي .

« فهمت على أثر اكتشاف قمت به صدفة في هذا الأصيل ان عليّ ان اكف عن اعتبارك والداً لي . ولي في هذا تعزية عظيمة . فقد ظللت وقتاً طويلاً اظن انني ابنٌ خالٍ من العواطف الطبيعية لشعوري بقليل من الحب لك ؛ وكنت افضل ان أعرف انني لست ابنك . ومن الممكن ان تعتبر انني مدين لك بالفضل لأنك عاملتني كأحد اولادك ، الا انني كنت اشعر دائمًا بالفرق في مراعاتك لي وهم ، ثم ان كل ما فعلته ، تجعلني

معرفتي التامة بك ادرك انه كان خوفاً من الفصيحـة ، لستر وضعية لا تشرفك كثيراً ـ واخيراً لأنك لا تستطيع ان تفعل غير ذلك . وقد فضلت الرحيل دون ان ارى امي لأنني اخاف ، وانا اودعها الوداع الأخير ، ان تثير شفقتي ، ولأن من الممكن ايضاً ان تشعر امامي انها في وضعية مخجلة ـ وهذا كريه بالنسبة الي . اشك في قوة محبتها لي ؛ فبما انني كنت اغلب الاحيان في مدرسة داخلية فلم يكن لديها الوقت الكافي لتعرفني ؛ وبما ان رؤيتها لي تذكرها دائماً بشيء من حياتها تريد ان تمحوه ، أعتقد انها ستراني أرحل بكل سرور وراحة . قل لها ، اذا كان لديك الشجاعة لذلك ، انني لا احقد عليها لأنها ولدتني بندوقاً ؛ بل على العكس ، فأنا افضل هذا على ان اعلم انني ولدت منك . وعفواً لهذا الكلام ، فليس من مقصدي ان اكتب اليك إهانات ولكن ما أقوله سيتيح لك ان تحتقرني ، وفي هذا تعزية لك) .

« اذا كنت ترغب في أن ألزم الصمت حول الأسباب الخفية التي جعلتني أترك بيتك فإنني ارجوك ألا تحاول اعادتي اليه . ان عزمي على ترككم لا رجوع عنه . ولست ادري ما كلفتـك معيشتي حتى هـذا اليوم ؛ لقـد استطعت قبـول العيش عـلى حسابك طيلة وجودي في حالة الجهل وغني عن القول اني افضل ألا اتناول منك شيئاً في المستقبل ، فالتفكير في اني مدين لك بشيء مهما يكن لا يمكن احتماله بالنسبة الي ، واعتقد ذلك لو

استمر لفضلت الموت جوعاً على الجلوس الى مائدتك . ومن حسن الحظ اذكر انني سمعت ان امي كانت أكثر غنى منك حين تـزوجتك ، إذن فـأنا حـر في التفكير انني لم أعش إلا عـلى حسابها ، وانني اشكرها وأعفيها من كل ما بقي ، وأطلب اليها ان تنساني . انك ستجد وسيلة لتفسير رحيلي لأولئك الذين يمكن ان يدهشوا له ، واسمح لك ان تضع كل شيء على عاتقي (لكنني اعلم انك لن تنتظر الأذن مني لتفعل ذلك) .

انني اوقع بالاسم المضحك الذي هو اسمك ، والذي أود لو استطيع اعادته اليك ، والذي ما زال يشينني .

« برنار بروفيتانديو »

« ملاحظة : اترك عندكم جميع اغراضي التي يمكن ان يستعملها كالوب بشكل اكثر شرعية ، على ما آمل لك » .

بلغ السيد روفيتانديو كنبة وهو يترنح . وأراد ان يفكر ، الا ان الافكار كانت تزوبع بشكل مشوش في رأسه . وفضلاً عن ذلك فقد شعر بقرصة خفيفة في الجنب الايمن ، هنـاك تحت الاضلاع . يعرف انه لن ينجو منها : انها نوبة كبد . هل يوجد مـاء فيشي في البيت ؟ لو رجعت امـرأته عـلى الاقل ! كيف سيخبرها بهرب برنار ؟ أيجب ان يريها الرسالة ؟ انها جائرة هذه الرسالة ، جائرة بشكل فظيع . يجب ان يستشيط غيظاً منها . يريد ان يحسب حزنه غيظاً . تنفس بقوة وتصاعدت من كل

زفرة عبارة : « آه ! يا الهي » سريعة وضعيفة كأنها آهة . لقد امتزج ألم جنبه بحزنه ، وقد اثبته وحصره في موضعه . وخيل اليه انه مصاب بالحزن في كبده ، فألقى نفسه على أريكة وأعاد قراءة رسالة برنار . وهز كتفيه بحزن . هذه الرسالة قاسية عليه بالتأكيد ، ولكنه شعر فيها بالكمد ، بالتحدي والتبجح الوقح . ان أي واحد من اولاده الآخرين ، اولاده الحقيقيين ، غير قادر على الكتابة هكذا ، حتى هو نفسه لا يقدر على ذلك ؛ هو يعرف ذلك جيداً لان ليس فيهم من شيء لا يعرفه في نفسه كان دائمًا يظن ان عليه ان يوجه اللوم الى كل جديد ، وخشن وجامح يشعر به عند برنار ؛ ولكنه مع ذلك يعتقد ايضاً انه يشعر بوضوح انه احبه كما لم يحب الآخرين بسبب ذلك .

كان يسمع منذ لحظات في الغرفة المجاورة صوت سيسيل التي عادت من الحفلة الموسيقيةوجلستالى البيانو واخذت تكرر باصرار العبارة نفسها من اغنية بحارة . واخيراً لم يعد البريك بروفيتانديو يستطيع ان يمسك نفسه ، ففتح باب الصالون ، وقال بصوت نائح شبيه بالتوسل لان المغص الكبدي بدأ يؤلمه كثيراً (ومع ذلك فقد كان يشعر بشيء من الخجل معها) :

ـ يا صغيرتي سيسيل ؛ أتريدين التأكد من وجود ماء فيشي في البيت ؟ واذا لم يكن موجوداً فارسلي من يأتي به . ثم انك تكونين لطيفة اذا اوقفت العزف على البيانو .

ـ أتشعر بألم ؟

ـ لا ، لا . . . بل انني بحاجة الى التفكير قليلاً حتى موعد الغداء وموسيقاك تزعجني .

وأضاف بدافع اللطف لأن الألم يجعله رقيقاً :

ـ ان ما تعزفينه جميل جداً . ما هو ؟

لكنه خرج قبل ان يسمع الجواب . كذلك فان ابنته التي تعرف انه لا يسمع شيئاً من الموسيقى ويخلط بين قطعة « تعال يا بوبول » ونشيد تانهاوزر (انها هي التي تقول ذلك على الاقل) لم يكن في نيتها ان تجيبه . ولكن ها هو يعود ويفتح الباب :

ـ ألم ترجع والدتك ؟

ـ لا ، بعد .

مستحيل ، ستعود متأخرة فلا يستطيع التحدث اليها على الغداء . ماذا يستطيع ان يستنبط ليفسر ، من قبيل الاحتياط ، غياب برنار ؟ ومع ذلك فلا يستطيع قول الحقيقة ويكشف للاولاد سر ضلال امهم العابر . آه ! كل شيء كان قد عُفي عنه ، ونُسي ، وأصلح . فولادة ابنهما الاخير عقدت مصالحتهما . وفجأة ، شبح الثأر هذا الذي خرج من الماضي ، هذه الجثة التي قذفتها الامواج . . .

هيا ! ما هذا ايضاً ؟ انفتح باب مكتبه دون ضجة ، فوضع الرسالة بسرعة في جيب سترته الداخلية . وارتفع الباب بهدوء ،

انه كالوب جاء يقول :

ـ بابا ، ماذا تعني هذه العبارة اللاتينية ؟ انني لا افهمها .

ـ قلت لـك ان من الواجب ألا تـدخل دون ان تـدق الباب . ثم اني لا اريد ان تأتي وتزعجني هكذا في كل مناسبة . لقد اعتدت معونة الغير والراحة على حساب الاخرين بدلاً من قيامك بمجهود شخصي . فالبارحة كـانت المسألـة الهندسيـة ، واليوم انها . . . لمن عبارتك اللاتينية هذه ؟

فمد كالوب دفتره :

ـ لم يقل لنا ، ولكن خذ ، انظر . ستعرف ذلك انت . لقد املاها علينا ومن الممكن ان أكون كتبتها خطأً . اريد على الاقل ان اعرف اذا كانت صحيحة .

واخذ السيد بروفيتانديو الدفتر . لكنـه يشعر بـألم كبير . فدفع الولد بلطف :

ـ في ما بعد . سنتناول الغداء . هل عاد شارل ؟

ـ لقد هبط الى غرفته (الغرفة هي في الطبقة الارضية حيث يستقبل المحامي زبائنه) .

ـ اذهب وقل له ان يأتي اليّ . اذهب بسرعة .

رنة من الجرس . اخيراً جاءت السيدة بروفيتانديو ؛ انها تعتذر لتأخرها فقد اضطرت الى القيام بزيارات كثيرة ، وحزنت لأنها وجدت زوجها يتوجع . ماذا يمكن ان تعمل له ؟ صحيح

ان وجهه مكفهر . ـ لن يستطيع الأكل . ليجلسوا الى المائدة من دونه . ولكن لتأت لرؤيته مع الاولاد بعد الطعام . ـ برنار ؟ ـ صحيح ؛ صديقه . . . تعرفين ، ذلك الذي يراجع الرياضيات معه ، جاء واصطحبه لتناول الطعام .

*

شعر بروفيتانديو بتحسن . كان يخاف اولاً الا يستطيع الكلام وهو متألم . ومع ذلك فيهمه ان يقدم ايضاحاً لاختفاء برنار . انه يعرف الآن ما يجب ان يقول مهما كان ذلك مؤلماً . وشعر بنفسه صلباً عزوماً . كان خوفه الوحيد من ان تقاطعه امرأته بالبكاء ، بصرخة ، وان تتوعك . . .

دخلت مع الاولاد بعد ساعة ، واقتربت ، فأجلسها قربه على أريكة . وقال لها بصوت خفيض ولكن بلهجة آمرة :

ـ حاولي ان تتمالكي نفسك ، ولا تقولي كلمة ، سامعة ؟ وسنتحدث بعد ذلك نحن الاثنين .

واحتفظ باحدى يديها في يديه أثناء كلامه .

ـ هيا ، اجلسوا يا أبنائي . يزعجني ان أراكم واقفين امامي كأنكم تؤدون امتحاناً . عندي خبر محزن أود ان اقوله لكم . . . لقد تركنا برنار ولن نراه بعد . . . حتى بعض الوقت . ويجب ان اخبركم اليوم بما اخفيته عنكم في السابق ، راغباً ان أراكم تحبون برنار كأخ لان والدتكم وأنا أحببناه كأنه

ولدنا . ولكنه لم يكن ولدنا . . . هناك خال له ، أخ لوالدته الحقيقية ، عهد به الينا وهو يحتضر . . وقد جاء هذا المساء وأخذه .

وعقب كلامه صمت مؤلم ، وسمع شخير كالوب . وانتظر كل منهم آملاً ان يستأنف الاب لكلامه ، ولكنه حرك يده .

ـ اذهبوا الآن يا اولادي . انا بحاجة للتحدث الى والدتكم .

وظل السيد بروفيتانديو طويلاً دون ان يتكلم بعد ذهاب الاولاد . واليد التي تركتها السيدة بروفيتانديو في يديه كانت كأنها ميتة بينما رفعت باليد الأخرى منديلها الى عينيها ، واعتمدت على المنضدة الكبيرة وانحرفت لتبكي . وسمعها بروفيتانديو تتمتم من خلال النحيب الذي يهزها :

ـ اوه ! انت قاس . . . اوه ! لقد طردته . . .

وكان عازماً حتى الآن على الا يريها رسالة برنار ، لكنه امام هذا الاتهام الجائر مد بها اليها :

ـ خذي ، اقرئي .

ـ لا استطيع .

ـ يجب ان تقرئي .

لم يفكر في الم . تبعها بعينيه سطراً سطراً على طول الرسالة ـ كان لا يكاد يمسك دموعه حين تكلم قبلاً ، اما الآن

فان التأثر نفسه قد تخلى عنه ؛ تطلع الى امرأته . بماذا تفكر ؟ كانت لا تزال تتمتم من خلال بكائها بالصوت الناحب نفسه :

ـ اوه ! لماذا قلت له ؟ . . ما كان لك ان تقول له . . .

ـ ولكنك ترين انني لمْ اقل شيئاً . . . اقرئي رسالته جيداً .

ـ قرأت جيداً . . . ولكن كيف اكتشف ذلك ؟ . . من هو الذي قال له ؟ . .

ماذا ! . . هذا هو ما تفكر فيه ! هذا هو حزنها ! لقد ظن ان هذه المصيبة ستجمعهما ، وها هو يكتشف ، يا للاسف ، ان افكارهما تتخذ اتجاهاً متبايناً . وبينما كانت تشتكي ، وتتهم ، وتطالب ، حاول ان يميل بهذه النفس الحرون نحو عواطف اكثر تقوى ، فقال :

ـ هذه هي الكفارة .

ونهض ، بحاجته الغريزية للسيطرة ؛ انه يقف الآن منتصباً ، ناسياً ، غير مهتم بألمه الجسدي ، ووضع بوقار ، وحنو ، وسلطة ، يده على كتف مرغريت . هو يعرف تماماً انها لم تتب قط الا توبة ناقصة من ذلك الذي يعتبره دائمًا ضعفاً عابراً ، هو يريد ان يقول لها الآن ان هذه الكآبة ، هذه التجربة ، يمكن ان تكون بمثابة تكفير . ولكنه بحث عبثاً عن صيغة ترضيه ويستطيع ان يأمل ان يجعلها مسموعة . لقد قاومت كتف مرغريت ضغط يده الناعم . ومرغريت تعرف جيداً ان بعض التعاليم الاخلاقية ، غير المحتملة ، لابد ان تصدر

عنه ، وانه يستولدها من اقل حوادث الحياة ؛ انه يترجم ويفسر كل شيء حسب معتقده . لقد انحنى نحوها . وهذا ما يريد ان يقوله لها :

ـ ها ترين يا صديقتي المسكينة انه لا يمكن ان يولد من الخطيئة اي خير؟ ومحاولة تغطية غلطتك لا تفيد . يا للأسف! لقد فعلت ما استطعت في سبيل هذا الولد ؛ عاملته كولدي . والله يرينا الآن ان من الخطأ الزعم . . .

ولكنه توقف منذ العبارة الأولى .

ما من شك في انها فهمت تلك الكلمات القليلة الملأى بالمعنى ، وما من شك في ان هذه الكلمات نفذت الى قلبها لأنها عاودت النحيب بشكل أعنف من السابق . لم تكن تبكي منذ لحظات ، ثم طوت نفسها كأنها تستعد للركوع امامه ، فمال نحوها وأمسك بها . ماذا تقول من خلال دموعها ؟ لقد انحنى حتى شفتيها وسمعها تقول :

ـ ها انت ترى جيداً . . . انت ترى جيداً . . . آه ! لماذا عفوت عني ؟ آه ! ما كان يجب ان اعود ! . .

يكاد يضطر الى ان يحزر ما تعني بكلامها . ثم سكتت . هي ايضاً لا تستطيع الايضاح اكثر . كيف تقول له انها تشعر بانها سجينة تلك الفضيلة التي يتطلبها منها ، وانها تختنق ، وانها لا تأسف الآن على غلطتها التي تابت عنها . . . انتصب بروفيتانديو وقال بلهجة وقور صارمة :

ـ يا صديقتي المسكينة ، اخاف ان تكوني قد صدمت قليلاً هذا المساء ـ لقد تأخرنا ، ومن الافضل ان نذهب وننام .

وساعدها على النهوض ، ثم رافقها حتى غرفتها ووضع شفتيه على جبهتها ، ثم عاد الى مكتبه وارتمى على اريكة . غريب ! نوبة كبده هدأت ؛ لكنه شعر انه محطم . ظل ممسكاً جبهته بيديه ، كثير الكآبة لا يستطيع ان يبكي ، فلم يسمع الطرق على الباب ، ولكنه رفع رأسه بسبب صرير الباب الذي انفتح : انه ولده شارل .

ـ جئت لألقي عليك تحية المساء .

واقترب شارل . لقد فهم كل شيء . ويريد ان يجعل والده يدرك ذلك ، ويريد ان يظهر له شفقته ، وحنوه ، وتفانيه . وقد يصعب ان يصدق المرء ذلك عن محام ، الا ان شارل شديد الارتباك في التعبير عن افكاره . او لعله يصبح كذلك حين تكون عواطفه صادقة . عانق اباه . والطريقة الملحة في وضع رأسه على كتف والده واستناده اليه وابقائه وقتاً طويلاً تقنع هذا انه فهم كل شيء . لقد فهم تماماً ، وها هو بعد ان رفع رأسه قليلاً يسأل والده بشكل اخرق ككل ما يفعله ـ ولكن قلبه معذب جداً حتى انه لم يتمالك عن السؤال :

وكالوب ؟

السؤال عبثي . فبقدر ما يختلف برنار عن سائر الاولاد فان ملامح العائلة ظاهرة عند كالوب . وربت بروفيتانديو على كتف شارل :

ـ كلا ، كلا ؛ اطمئن . برنار وحده .
حينئذ قال شارل بشيء من الحكمة :
ـ الله يطرد الدخيل لكي . . .
ولكن بروفيتانديو اوقفه ؛ ما حاجته الى ان يكلمه هكذا ؟
ـ اسكت .
ولم يبق للاب والابن ما يتحدثان به . فلنتركهما . الساعة الآن الحادية عشرة . لنترك السيدة بروفيتانديو في غرفتها جالسة على كرسي صغير مستقيم يريح قليلاً . انها لا تبكي ، لا تفكر في شيء . هي ايضاً تريد ان تهرب ، لكنها لن تفعل ذلك . حين كانت مع عشيقها ، والد برنار الذي ليس لنا ان نعرفه ، كانت تقول لنفسها : اذهبي ، لقد فعلت حسناً ؛ لن تكوني الا امرأة فاضلة . كانت تخاف من الحرية ، من الجريمة ، من الرخاء . اما ما جرى فهي انها عادت الى بيتها تائبة في مدى عشرة ايام . وكان اهلها على حق حين كانوا يقولون لها : انك لا تعرفين ما تريدين ابداً . لنتركها . سيسيل تنام الآن . . . وكالوب يتأمل شمعته بيأس ، فهي لن تدوم كفاية لتتيح له اتمام كتاب المغامرات الذي يلهيه عن رحيل برنار . وكنت راغباً في ان اعلم ما الذي رواه انطوان لصديقته الطاهية ، ولكن ليس في الامكان استماع كل شيء . وهذه هي الساعة التي على برنار فيها ان يلاقي اوليفييه . ولا ادري اين تناول عشاءه هذا المساء . ولا حتى اذا كان تناول عشاءه ام لا . لقد مر دون عائق امام مسكن البواب ؛ وصعد الدرج خلسة . . .

٣

الخير والسلام يولدان الجبناء؛ أما
الصلابة والشدة في الحياة فهي الأم.

شكسبير

أوى أوليفييه إلى سريره ليتلقى قبلة أمه التي كانت تأتي كل مساء لتعانق ولديها الأخيرين في سريرهما. كان في إمكانه أن يعيد ارتداء ملابسه ليستقبل برنار، لكنه لا يزال يشك في مجيئه ويخشى أن يوقظ أخاه الصغير. وكان من عادة جورج أن ينام بسرعة ويستيقظ متأخراً. ومن الممكن ألا يفطن إلى شيء غير عادي.

وقفز أوليفييه من سريره عند سماعه نوعاً من الطرق الخفيف على الباب، وادخل قدميه بسرعة في «بابوج» وركض يفتح. لم يكن هناك من حاجة لإشعال النور، فضوء القمر يضيء الغرفة بما فيه الكفاية. وضم أوليفييه برنار بين ذراعيه.

ـ كم انتظرتك! لم أصدّق أنك ستأتي. هل درى أهلك أنك لن تنام في البيت الليلة؟.

كان برنار يطلع أمامه في الظلام. هز كتفيه:

ـ تعتقد أنه كان علي أن استأذنهم؟

كانت رنة صوته ساخرة بشكل بارد حتى أن أولفييه شعر بعدم جدوى سؤاله. هو لا يعرف بعد أن برنار رحل «بشكل جدي»، بل كان يعتقد أنه لا ينوي المبيت خارج منزله إلا هذا المساء ولم يوضح تماماً سبب إقدامه على هذا الأمر الشاق. سأله: ـ متى يريد برنار العودة إلى البيت؟ ـ أبداً! ـ واتضحت الحقيقة لأوليفييه. وكان همه الكبير أن يبدو على مستوى الظروف وإلا يترك نفسه يفاجأ بشيء. ومع ذلك فإن عبارة «أن ما فعلته خطير» قد أفلتت منه.

لم يكن يسيء برنار أن يبعث قليلاً من الدهشة في نفس صديقه، فهو حساس على الخصوص بما يثير الإعجاب في هذا التعجب؛ لكنه هز كتفيه من جديد. أخذ أوليفييه يده، أنه رزين؛ وسأله بقلق:

ـ ولكن... لماذا رحلت؟.

ـ آه! إنها قضايا عائلية يا صديقي، لا أستطيع قولها لك.

ولكي يقلل من جدية مظهره أخذ يتلهى بأن يسقط بطرف حذائه «البابوج» الذي كان أوليفييه يؤرجحه بطرف قدمه لأنهما جلسا على حافة السرير.

ـ أين ستذهب لتعيش؟

ـ لا أعرف.

ـ ومع من؟

ـ سنرى ذلك.

ـ هل معك دراهم؟

ـ ما يكفي لفطوري غداً.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك يجب أن أبحث. بالتأكيد سأجد شيئاً. سترى. وسأقص ذلك عليك.

أعجب أوليفييه كثيراً بصديقه. هو يعرف صفة العزم فيه، ومع ذلك فإنه لا يزال متشككاً ألن يحاول العودة إلى البيت عندما تنضب موارده وتدفعه الحاجة؟ لقد طمأنه برنار: سيحاول عمل «أي شيء» إلا أن يعود إلى أهله. وبما أنه كرر عبارة «أي شيء» في مناسبات عدة، وكل مرة بنبرة أعنف من المرة السابقة، فإن القلق شد على قلب أوليفييه. كان يريد أن يتكلم لكنه لم يجرؤ. وأخيراً بدأ بصوت قلق وهو منحني الرأس:

ـ برنار.... مهما كان الأمر فليس في نيتك أن....

ولكنه توقف. ورفع صديقه عينيه، ولاحظ اضطراب أوليفييه دون أن يراه جيداً، فسأله:

ـ أن... ماذا؟ ماذا تريد أن تقول؟ تكلم. أن أسرق؟

وحرك أوليفييه رأسه. كلا، ليس هذا. وانفجر فجأة بالبكاء، واحتضن برنار بتشنج.

- عدني إنك لن. . .

معانقه برنار ثم أبعده عنه وهو يضحك. لقد فهم:

- أعدك بهذا. كلا لن أعمل قوّاداً.

ثم أضاف:

- ومع ذلك فإنني اعترف بأن هذا سيكون أبسط الحلول.

ولكن أوليفييه شعر باطمئنان؛ هو يعرف جيداً أن الأخيرة لم تلفظ إلا بدافع السخرية. . .

- وامتحانك؟

- نعم، هذا ما يزعجني. مهما كان الأمر فلا أريد أن أخفق. اعتقد أنني مستعد. والمشكلة هي ألا أكون تعباً في ذلك النهار. يجب أن انتهي من ذلك بسرعة. هناك شيء من الخطر ولكنني سأنجو منه؛ سترى.

وظل صامتاً لفترة. وسقطت الفردة الثانية من «البابوج». برنار:

- يكاد يلفحك البرد. عد إلى نومك.

- كلا ستنام أنت.

- أنت تمزح! هيا بسرعة.

وأجبر أوليفييه على العودة إلى السرير الشاحب.

- ولكن أنت؟ أين ستنام؟.

- لا يهمني أين. . . على الأرض. في زاوية. يجب أن اعتاد.

ـ كلا، اسمع. أريد التحدث إليك بأشياء لكنني لا أستطيع إذا لم أشعر أنك بقربي تعال إلى سريري.

وبعدما لحق به برنار الذي تأخر لحظة في خلع ملابسه، قال:

تعرف ما قلته لك في السابق... نم الأمر. لقد كنت هناك. وفهم برنار بالتلميح. فضم إليه صديقه الذي أتم قائلاً:

ـ نعم، يا صديقي. شيء مقرف. مخيف. شعرت بعد الحكاية بحاجة إلى البصق، إلى التقيؤ، إلى أن أمزق جلدي، أن أقتل نفسي.

ـ أنت تبالغ.

ـ أو أقتلها، هي...

ـ من كانت؟ أرجو أن لا تكون قد تورطت في شيء على الأقل؟

ـ كلا، إنها بغي يعرفها دورمر جيداً. وحديثها على الخصوص هو الذي جعلني أتقزز. لم تتوقف عن الكلام، لأنها حمقاء! ولا أعرف لماذا لا يحل الصمت في لحظات كهذه. كنت أريد أن أكم فاها، أن أخنقها.

ـ يا صديقي المسكين! ثق أن دورمر لا يستطيع أن يقدم إليك سوى حمقاء. هل هي جميلة على الأقل؟

ـ إذا كنت تعتقد أنني تطلعت إليها!

ـ أنت أبلة . . ولذيذ لننم . . هل بالأقل فمت بـ . . .

ـ إن ما يقززني هو أنني استطعت مع ذلك . . . كأنني اشتهيها .

ـ حسناً! يا صديقي . هذا مدهش .

ـ اسكت . إذا كان الحب هكذا فقد نزودت منه لوقت طويل .

ـ يا لك من غلام صغير!

ـ كنت أريد أن أراك مكاني .

ـ أوه! أنا، تعرف انـي لا أركض وراء هذه الأمور . وقد قلت ذلك لك : أنا انتظر المغامرة أما هكذا بكل برود فلا يوحى إلي بشيء . لا يمنع إنني إذا . . .

ـ إنك إذا . . .

ـ إنها إذا . . . لا شيء . لننم .

وأدار ظهره فجأة، وابتعد قليلاً عن هذا الجسد الذي تضايقه حرارته . ولكن أوليفييه قال بعد لحظة :

ـ قل . . . أتعتقد أن باريس Barrès سيُنتخب؟

ـ يا لطيف! إن هذا يبعث دمك على الاحتقان!

ـ لا يهمني . . . قل . . . اصغ قليلاً . . . ـ وضغط على كتف برنار الذي دار نحوه . ـ أن لأخي عشيقة .

ـ جورج؟

والصغير الذي كان يتظاهر بالنوم، ولكنه سمع كل شيء وأذنه مرهفة في الظلام، قطع تنفسه عندما سمع اسمه.

ـ مجنون! أنا أكلمك عن فنسان (أكبر سناً من أوليفييه، وفنسان انهى سنواته الأولى في الطب).

ـ هل حدثك هو بذلك؟

ـ لا. فقد علمت دون أن يشعر. وأهلي لا يعرفون من ذلك شيئاً.

ـ ماذا يقولون لو عرفوا؟

ـ لا أدري. أمي ستصاب باليأس، أما أبي فسيطلب منه أن يقطع علاقته، أو يتزوجها.

ـ يا لطيف! البورجوازيون الفضلاء لا يدركون أن المرء قد يكون فاضلاً بشكل يختلف عنهم. وأنت، كيف عرفت ذلك؟.

ـ إليك ما جرى: منذ مدة وفنسان يخرج ليلاً بعد أن ينام أهلي، ويقوم بأقل ما يمكن من الجلبة وهو هابط، ولكني عرفت خطوته في الشارع. وفي الأسبوع الأخير، كان الليل حاراً حتى إنني لم أستطع البقاء في السرير، فوقفت أمام النافذة لأتنفس بشكل أفضل. سمعت الباب في الأسفل ينفتح وينغلق، فانحنيت ،وحين مر بقرب المصباح عرفت فنسان. كان قد مضى نصف الليل. وكانت المرة الأولى. أريد أن أقول: المرة الأولى التي لاحظته فيها. ولكني صرت أراقبه منذ ما عرفت ـ أوه! دون قصد... وفي كل ليلة تقريباً كنت اسمعه يخرج. أن

مفتاحه معه وأهلي اعدوا له غرفتنا القديمة، غرفتي أنا وجورج، لتكون غرفة عيادة حين يصبح لديه زبائن. وتقع غرفته إلى جانبها في شمال مدخل البيت، بينما بقية المسكن إلى اليمين. لقد أصبح يستطيع الخروج والدخول حين يشاء دون أن يعلم أحد بذلك. وعادة لا اسمعه وهو يعود. ولكن قبل البارحة، في مساء الاثنين، لا أدري ماذا أصابني؛ كنت أفكر في مشروع مجلة دورمر... ولم استطع النوم. فسمعت أصواتاً على السلم، واعتقدت أنه فنسان.

وسأل برنار بدافع إظهار انتباهه أكثر منه بدافع الرغبة في المعرفة:

ـ كم كانت الساعة؟

ـ الثالثة صباحاً كما اعتقد. فنهضت ووضعت أذني على الباب. كان فنسان يتحدث مع امرأة، أو بالأحرى كانت هي وحدها تتكلم.

ـ كيف عرفت أنه هو؟ جميع المستأجرين يمرون أمام بابك.

ـ هذا أحياناً مزعج جداً. فكلما كان الوقت متأخراً تزداد جلبتهم وهم صاعدون؛ أنهم يهزأون بالنائمين!... ولكن لا يمكن أن يكون إلا هو، فقد سمعت المرأة تكرر لفظ اسمه. كانت تقول له... أوه! يقززني أن أعيد قولها.

ـ أكمل...

ـ كانت تقول له: «فنسان يا حبيبي، يا غرامي. آه! لا تتركني!».

ـ هل كانت تخاطبه بكلفة أو برفع الكلفة؟
ـ بكلفة. أليس هذا غريباً؟
ـ اكمل.
ـ «لا يحق لك التخلي عني الآن. ماذا تريد أن أصير؟ إلى أين تريدني أن أذهب؟ قل لي شيئاً. أوه! حدثني». ـ ونادته باسمه من جديدورددت: «يا حبيبي، يا حبيبي» بصوت يزداد كآبة وانخفاضاً. ثم سمعت ضجة (لعلهما كانا واقفين على الدرج) ضجة كأن شيئاً يسقط. وأعتقد أنها ارتمت راكعة.
ـ وهو، ألم يجب بشيء؟
ـ اضطر إلى صعود الدرجات الأخيرة؛ وسمعت إغلاق باب الشقة. وبعد ذلك ظلت قريبة جداً، مدة طويلة، أمام بابي تقريباً. وسمعتها تبكي.
ـ كان من واجبك أن تفتح لها.
ـ لم أجرؤ. سيغضب فنسان إذا علم أنني عرفت قضاياه. ثم إنني خفت أن تتضايق لمفاجأتها وهي تبكي. لا أعرف ماذا كنت أستطيع أن أقول لها.
كان برنار قد استدار نحو أوليفييه.
ـ لو كنت مكانك لفتحت.
ـ أوه! يا لطيف! تجرؤ على كل شيء... وتفعل كل ما يحلو لك.
ـ اتلومني على ذلك؟

ـ كلا بل اغبطك.

ـ أعرفت من تكون هذه المرأة؟

ـ كيف تريدني أن أعرف؟. . طابت ليلتك.

ـ قل. . . أواثق أنت من أن جورج لم يسمعنا؟

همس برنار في أذن أوليفييه وظلا لحظة يترصدان.

وأجاب أوليفييه بصوته الطبيعي:

ـ لا، أنه نائم. ثم أنه لا يفهم. تعرف ماذا سأل أبي ذات يوم؟ لماذا الـ. . . .

ولم يستطع جورج هذه المرة أن يتمالك، فنهض نصف نهضة على سريره وقطع كلام أخيه صارخاً:

ـ أيها الأحمق، لم تر أنني فعلت ذلك عمداً؟ نعم. لقد سمعت ما قلتماه الآن! أوه! لا داعي للدهشة، أما عن فنسان فإنني أعرف ذلك منذ وقت طويل. فقط يا صغيريّ، احرصا الآن على التكلم بصوت منخفض لأنني سأنام، أو اسكتا.

واستدار أوليفييه صوب الحائط، أما برنار الذي لم ينم فقد أخذ يتأمل الغرفة. لقد جعلها ضوء القمر تبدو أكبر مما هي. وبالفعل فما كاد يعرفها. أن أوليفييه لا يبقى فيها أثناء النهار؛ والمرات القليلة التي استقبل فيها برنار كان يستقبله في الشقة العليا. ضوء القمر يلامس الآن قائمة السرير الذي ينام عليه جورج أخيراً بعدما سمع تقريباً كل ما قاله أخوه! أن عنده ما

يحلم به. وفوق سرير جورج تظهر مكتبة صغيرة ذات رفين حيث الكتب المدرسية. ورأى برنار كتاباً كبير الحجم على منضدة بالقرب من سرير أوليفييه، فمد يده وتناوله ليرى عنوانه: ـ توكيفيل Tocqueville، ولكن الكتاب سقط عندما أراد وضعه على الطاولة وأيقظت ضجته أوليفييه.

ـ أتقرأ لتوكيفيل؟

ـ دوباك هو الذي أعارني إياه.

ـ هل يعجبك؟

ـ هو مضجر نوعاً. ولكن هناك أشياء جيدة.

ـ اسمع، ماذا ستفعل غداً؟

نهار غد هو الخميس، والتلامذة أحرار. ربما برنار يفكر في لقاء صديقه. أن في نيته ألا يعود إلى المدرسة؛ هو ينوي الاستغناء عن الدروس الأخيرة ويعد امتحانه بمفرده. وقال أوليفييه:

ـ غداً، سأذهب في الحادية عشرة والنصف إلى محطة سان لازار، موعد مجيء قطار دييب Dieppe، لملاقاة خالي أدوار العائد من انكلترا. وفي الثالثة بعد الظهر سألاقي دورمر في اللوفر. وبقية الوقت يجب أن اشتغل.

ـ خالك أدوار؟

ـ نعم، أنه نصف أخ لأمي. وهو غائب منذ ستة أشهر، ولا أكاد أعرفه؛ لكنني أحبه كثيراً. أنه لا يعرف بذهابي لملاقاته

وأخشى ألا أتعرف إليه. لا يشبه سائر العائلة أبداً؛ أنه شخص ممتاز.

ـ ماذا يعمل؟

ـ يكتب. قرأت كل كتبه تقريباً؛ ولكن مضى وقت طويل دون أن ينشر شيئاً.

ـ روايات؟

ـ نعم، نوع من الروايات.

ـ لماذا لم تحدثني عنها؟

ـ لأنك ستريد أن تقرأها؛ وإذا لم تحبها. . .

ـ وبعد! اكمل.

ـ وبعد! سأزعل. هذا كل ما في الأمر!

ـ ما الذي جعلك تقول أنه ممتاز؟

ـ لا أعرف كثيراً. . . قلت لك لا أعرفه تقريباً. وهذا شيء من الشعور الداخلي. . . . أشعر أنه يهتم بأمور لا تهم أهلي، وأن في الإمكان أن أحدثه عن كل شيء. فذات يوم، كان ذلك قبل رحيله بقليل، تناول فطوره عندنا؛ وفي أثناء حديثه مع أبي شعرت أنه ينظر إلي دائماً. وهذا بدأ يضايقني؛ وتهيأت للخروج من الغرفة ـ إنها غرفة الطعام التي نتأخر فيها بعد تناول القهوة؛ لكنه بدأ يسأل أبي عني، الأمر الذي زاد في مضايقتي؛ ونهض أبي فجأة ليبحث عن أشعار كنت نظمتها، وكنت أبله لأنني أريته إياها.

ـ أشعار منك؟

ـ نعم؛ أنت تعرف؛ أنها تلك القطعة الشعرية التي رأيت أنها تشبه «الشرفة». كنت أعلم أنها لا تساوي شيئاً، أو لا تساوي شيئاً كبيراً، وكنت ساخطاً لأن والدي أخرجها. وبينما كان والدي يبحث عن هذه القصيدة ظللنا لحظة نحن الاثنين وحيدين في الغرفة، الخال أدوار وأنا، وشعرت بالخجل يجتاحني وبوجهي يحمّر لم أجد شيئاً أقوله له، فتطلعت إلى موضع آخر ـ وهو أيضاً فعل ذلك، وبدأ يلف سيكارة. ثم وقف وأخذ يتطلع من النافذة ويصفر صفيراً خفيفاً ليزيل خجلي دون شك ولأنه من المؤكد أنه لاحظ هذا الخجل. وقال لي فجأة: «أنا مرتبك أكثر منك». لكنني اعتقد أنه قال ذلك بدافع اللطف. وعاد أبي أخيراً، وناول أشعاري للخال أدوار الذي أخذ يقرؤها. كنت مهتاج الأعصاب حتى ظننت أنه لو امتدحني لشتمته. وما من شك في أن والدي كان ينتظر المديح؛ وبما أن خالي لم يقل شيئاً فقد سأله: «ما رأيك؟» لكن خالي قال ضاحكاً: «يزعجني أن أتكلم عنه أمامك». حينئذ خرج والدي وهو يضحك أيضاً. وحين أصبحنا وحيدين مرة أخرى قال لي أنه رأى أشعاري سيئة جداً؛ ولكن سماعي هذا منه سرني؛ وزاد من سروري أيضاً أنه نخس بأصبعه بيتين، البيتين الوحيدين اللذين أعجباني في القصيدة، وتطلع إلي مبتسماً وقال: «هذان جيدان». أليس كذلك؟ وليتك تعرف بأية لهجة قال لي ذلك!.. لقد عانقته.

ثم قال لي أن خطأي الوحيد هو أنني انطلق من فكرة، وأنني لا أترك الكلمات تقودني. لم أفهمه تماماً في بادىء الأمر؛ ولكن يخيل إلي أني أرى الآن ما عناه ـ وأنه على حق. وسأشرح لك ذلك مرة أخرى.

ـ أدرك الآن لماذا تحرص على ملاقاته.

ـ أوه! ما رويته لك ليس مهمًا. ولا أدري لماذا رويته لك. لقد تحاورنا في الكثير من الأشياء الأخرى.

ـ قلت في الحادية عشرة والنصف؟ كيف عرفت أنه سيأتي في هذا القطار؟

ـ لأنه كتب إلى أمي على بطاقة بريدية؛ ثم أنني تحققت ذلك من الدليل.

ـ هل ستتناول فطورك معه؟

ـ أوه! كلا، يجب أن أعود إلى هنا عند الظهر. سيكون لي فقط الوقت الكافي لمصافحته؛ ولكن هذا يكفيني... آه! قل أيضاً قبل أن أنام: متى أراك؟..

ـ ليس قبل بضعة أيام... وليس قبل أن أنتهي من القضية.

ـ ولكن ألا أستطيع مساعدتك؟

ـ مساعدتي؟ لا. لن يكون ذلك حسب الأصول... سيبدو لي أنني أغش. نم بسلام.

٤

كان أبي بليداً ولكن أمي ذكية، كانت من اتباع مذهب التصوف. أنها امرأة صغيرة دمثة غالباً ما تقول لي: يا ولدي، ستكون من الهالكين ولكن هذا لم يكن يسبب لها أي غم.

فونتنيل

لا، لم يكن فنسان مولينييه يذهب إلى عشيقته كل مساء. ولنتبعه، رغم أنه يمشي بسرعة. هبط فنسان من رأس شارع نوتردام ديشان حيث يسكن، حتى شارع سان بلاسيد الذي هو امتداد له؛ ثم شارع باك حيث يقطن بعض البورجوازيين المتأخرين في السهر لا يزالون يتجولون. وقف في شارع بابيلون أمام باب كبير انفتح له. وها هو عند الكونت دو باسّافان. ولو لم يكن معتاداً المجيء إلى هنا في أغلب الأحيان لما كان دخل هكذا بجرأة إلى هذا القصر الفخم. والخادم الذي فتح له الباب يعرف جيداً ما يختفي من الخجل تحت رباطة الجأش المختلقة هذه. ولا يتكلف فنسان أن يناوله قبعته بل يلقيها من بعيد على مقعد، مع أنه لم يمض عليه وقت طويل وهو

يأتي إلى هنا. وروبير دو باسّافان الذي يدعي صداقته هو صديق لكثير من الناس. ولا أعرف كيف تعارفا. كان ذلك في المدرسة دون شك مع أن روبير دو باسافان أكبر سناً من فنسان بشكل ظاهر؛ وقد غابا عن بعضهما البعض بضع سنوات، ثم التقيا من جديد في إحدى الأمسيات ومنذ وقت قريب حين كان أوليفييه يرافق أخاه إلى المسرح على غير عادة؛ وفي فترة الإستراحة قدم لهما باسافان بعض المرطبات؛ وقد عرف في ذلك المساء أن فنسان أنهى دراسته في مدرسته الخارجية وكان حائراً لا يعرف إذا كان سيعود إليها كتلميذ داخلي. الحقيقة أن العلوم الطبيعية تجتذبه أكثر من الطب، ولكن ضرورة كسب معيشته. . . باختصار رضي فنسان مختاراً العرض المأجور الذي عرضه عليه روبير دو باسافان بعد قليل من الوقت ليأتي كل مساء ويعتني بوالده العجوز الذي كان مزعزعاً بشكل جدي على أثر عملية خطيرة: كان الأمر يعلق بتجديد ضمادات، واستبارات دقيقة، وغرز ابر، وأخيراً ما لا أدري من أشياء تتطلب أيدي خبيرة. ولكن فضلاً عن ذلك، فقد كان للكونت دو باسافان أسباب خفية للتقرب من فنسان؛ وكان لهذا أسباب أخرى تجعله يقبل العرض. أما السبب الخفي لروبير فسنحاول كشفه في ما بعد، بينما سبب فنسان هو: الحاجة الملحة إلى المال. فحين يكون القلب في مكانه، وتكون هناك تربية سليمة ترسخ فيك الشعور بالمسؤولية مبكراً، فإنك لن تجعل امرأة

تنجب منك طفلا دون أن تشعـر أنك ملتـزم حيالهـا، وعلى الخصوص إذا كانت هذه المرأة قد تركت زوجها لتلحق بك.

كان فنسان فد عاش حياة فاضلة حتى ذلك الوقت، وكانت مغامراته مع لورا تبدو له، وفقاً لساعات النهار، فظيعة أو طبيعية جداً. ويكفي في أغلب الأحيان أن نجمع كمية من الأعمال البسيطة والطبيعية جداً، بعد أن نأخذ كلاً منهـا على حـدة، لنحصل على مجموع فظيع. كان يحدث نفسه بذلك وهو يمشي، وهذا لم ينتشله من الورطة. من المؤكد أنه لم يفكر قط في أخذ هذه المرأة على عاتقه نهائياً، أن يتزوجها بعـد الطلاق أو أن يعيش معها دون أن يتزوجها. لقد كان مضطراً للاعتراف بأنه لا يشعر نحوها بكثير من الحب؛ لكنه يعرف أنها في باريس دون مورد، وأنه سبّب لها الشقاء: هو مدين لها، على الأقل، بذلك الغوث الوقتي الذي لا يكاد يشعر به ليتيقن منه ـ اليوم أقل من الأمس، وأقل من أيامه الأخيرة هذه، لأنه كـان في الأسبوع الأخير لا يزال يملك الخمسة آلاف فرنك التى اقتصدتهـا أمه بصبر وجهد لتسهـل له البـدء بمزاولـة أعمالـه. هذه الآلاف الخمسة من الفرنكات كانت تكفي لنفقات توليد عشيقته واجرة مكثها في المستشفى وللعنايات الأولى التي يحتاجها الطفل. فمن أي شيطان إذاً سمع النصيحة! ـ المبلغ الذي كـان يفكر في إعطائه هذه المرأة، هذا المبلغ الذي كان موقوفاً عليها، مكرساً لها، والذي كان يجد نفسه مذنباً باقتطاع أي شيء منه، أي

شيطان سول له دات مساء أنه لا يكفي؟.. كلا، لبس روبير دو باسافان. فروبير لم يقل له شيئاً من ذلك: ولكن مس المؤكد أنه افترح عليه ذلك المساء أن بصطحبه إلى قاعة للمقامرة. وقد فبل فنسان الاقتراح.

والخدعة في تلك المقمرة هي أن ما يجري فيها يجري بين أشخاص راقين، بين أصدقاء. وروبير فدم صديقه فنسان إلى هؤلاء وأولئك. وأخذ فنسان فجأة فلم يستطع أن يلعب لعباً كبيراً ذلك المساء. لم يكن معه شيء تقريباً وقد رفض مالاً عرض الفيكونت أن يقرضه إياه. ولكن بما أنه ربح، فقد أسف لأنه لم يجازف أكثر من ذلك ووعد بالعودة في اليوم التالي. فقال له روبير:

ـ الجميع هنا يعرفونك الآن؛ وليس من الضروري أن أرافقك.

جرى هذا عند بيير دو بروفيل الذي يدعى في الغالب باسم بدرو. ومنذ هذا المساء الأول وضع روبير دو باسافان سيارته تحت تصرف صديقه الجديد. وكان فنسان يحضر نحو الساعة الحادية عشرة ويتحدث ربع ساعة مع روبير مدخناً سيكارة، ثم يصعد إلى الطبقة الأولى ويبقى بقرب الكونت كثيراً أو قليلاً من الوقت حسب مزاج الأخير، وحسب صبره وتطلباته؛ ثم تحمله السيارة إلى شارع سان. فلورانتان عند بدرو، وبعد ساعة تقله من هناك وتسير به لا الى بيته تماماً، فقد كان يخاف لفت النظر، إنما الى اقرب مفرق طرق.

وفي الليلة ما قبل الأخيرة كانت لورا دوفييه تجلس على درجات السلّم الموصل إلى شقة آل مولينييه، وقد انتظرت فنسان حتى الساعة الثالثة لأنه لم يعد إلا حينذاك. ولم يكن فنسان قد ذهب عند بدرو تلك الليلة، لأنه لا يملك ما يخسره هناك. فمنذ يومين لم يبق معه مليم واحد من الخمسة آلاف فرنك. وكان قد انبأ لورا بذلك؛ كتب إليها أنه لا يستطيع عمل شيء من أجلها؛ وأنه ينصحها بالعودة إلى زوجها أو إلى أبيها، وأن تعترف بكل شيء. لكن الاعتراف بدا مستحيلاً على لورا حتى أنها لا تستطيع أن تفكر فيه بدم بارد. وتوبيخات عشيقها لم تثر فيها غير السخط، وهذا السخط لم يكن يتركها إلا ليسلمها إلى اليأس. كانت هذه حالتها النفسية عندما لقيها فنسان. أنها تريد الاحتفاظ به، وقد نزع نفسه من بين ذراعيها. بالتأكيد كان عليه أن يتصلب لأنه ذو قلب حساس؛ لكنه شهواني أكثر منه محباً، وقد جعل من القساوة واجباً بكل سهولة. لم يجب بشيء على توسلاتها، على شكواها، وبما أن أوليفييه الذي كان يسمعها قد روى ذلك لبرنار، فإنها، بعدما أغلق فنسان بابه دونها، ظلت منهارة على الدرجات تبكي في الظلام.

مر أكثر من أربعين ساعة على تلك الليلة. وفي السهرة لم يذهب فنسان إلى روبير دو باسافان الذي بدا أن والده استعاد صحته؛ لكن برقية دعته هذا المساء. روبير يريد أن يراه. وحين دخل فنسان إلى تلك الغرفة التي يستعملها روبير غرفة عمل

ومكاناً للتدخين، ويبقى فيها أغلب الأحيان، والتي اعتنى بتأثيثها على هواه، مد روبير يده إليه بإهمال، ومن فوق كتفه، دون أن ينهض. كان روبير يكتب. وهو جالس أمام مكتب مغطى بالكتب. وأمامه النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة على مصراعيها لضوء القمر. وتكلم دون أن يلتفت:

ـ أتعرف ما أكتب؟... ولكنك لن تقول لأحد... أليس كذلك؟ أنت تعدني... منشور لافتتاح مجلة دورمر. ومن الطبيعي ألا أوقعه... خصوصاً إني أثني على نفسي فيه... ثم، بما أنهم سيعرفون في النهاية أني أموّل هذه المجلة فإنني أفضل ألا يعرف بسرعة أنني أعاون في تحريرها. هكذا: أكتم الأمر! ألم تقل لي أن أخاك الصغير يكتب؟ ما اسمه؟

ـ أوليفييه.

ـ أوليفييه، نعم، لقد نسيت... لا تبق واقفاً هكذا. إليك هذا المقعد. ألا تشعر بالبرد؟ أتريد أن أقفل النافذة؟.. أنه ينظم أشعاراً أليس كذلك؟ يجب أن تحملها إلي.. ومن الطبيعي ألا أعد بأخذها. ولكن مهما يكن فإنه ليدهشني أن تكون سيئة. أنه يبدو ذكياً، أخوك. ثم هو يوحي أنه على بينة. أريد التحدث إليه. قل له أن يأتي لمقابلتي. أليس كذلك؟ اعتمد عليك. أتريد سيكارة؟

ومد يده بعلبة السكاير.

ـ بطيبة خاطر.

ـ والآن إسمع يا فنسان؛ يجب أن أكلمك جدياً. لقد تصرفت كطفل ذلك المساء... وأنا أيضاً. لا أقول أنني أخطأت باصطحابك إلى بدرو؛ لكنني أشعر بأني مسؤول نوعاً عن المال الذي خسرته ولا أدري إذا كان هذا هو ما يسمونه توبيخ الضمير. ولكنه بدأ يعكر النوم والهضم عندي، بشرفي! ثم إني أفكر في تلك المرأة المسكينة التي حدثتني عنها... ولكن هذا أمر آخر، فلنبتعد عنه؛ أنه مقدس. وما أريد أن أقوله لك هو أنني أرغب، إنني أريد، نعم، بالتأكيد، أن أضع تحت تصرفك مبلغاً يساوي المبلغ الذي خسرته. أنه خمسة آلاف فرنك أليس كذلك؟ ستقامر من جديد. ومرة أخرى أيضاً اعتبر إني أنا الذي جعلك تخسر هذا المبلغ، وإني مدين لك، فلا تشكرني. ستعيده إلي إذا ربحت، وإلا، فلا يهم!... سنصبح خالصين. عد إلى مقمرة بدرو هذا المساء كأن لم يكن شيء. وستوصلك السيارة ثم تعود إلى هنا لتنقلني إلى منزل الليدي غريفث حيث أرجو أن تأتي لتجدني. سأعتمد عليك، أليس كذلك؟ ستعود السيارة لتنقلك من عند بدرو.

وفتح درجاً اخرج منه خمس ورقات مالية أعطاها لفنسان:

ـ اذهب بسرعة...

ـ ولكن والدك...

ـ آه! نسيت أن أقول لك: لقد مات منذ...

ثم اخرج ساعته وهنف:

ـ فات الوقت. . . مضى نصف الليل. . اذهب بسرعة. لقد مات منذ أربع ساعات

قال ذلك دون أيه عجله، بل على العكس، بنوع من التراخي.

ـ ألا تبقى لـ. . .

فقاطعه روبر:

ـ للسهر عليه؟ كلا. أن أخي الصغر يتكفل بذلك. هو فوق مع خادمته العجوز التي كانت تتفاهم مع المرحوم أفضل مني. . . .

وبما أن فنسان لم يحرك فقد تابع:

ـ اسمع يا صديقي العزيز. لا أريد أن أبدو لك وقحاً لكنني ارتعب من العواطف الجاهزة. لقد حملت لوالدي في قلبي حباً بنوياً لا قياس له، إلا أن هذا الحب كان حائراً قليلاً في الأيام الأولى وقد توصلت إلى أن أضيق به. والعجوز لم يعد علي في الحياة بسوى الضجر، والمعاكسات، والمضايقة. وإذا كان قد بقي في قلبه شيء من الحنو فمن المؤكد أنه لم يكن يشعر به نحوي. واندفاعاتي نحوه، في الوقت الذي كنت لا أعرف فيه الاعتدال، لم تعد علي بسوى الردود الجافه، وإن ذلك قد لقنني درساً. وقد رأيت بنفسك وأنت تعتني به. . . هل شكرك مرة

واحدة؟ هل حصلت منه على أقل نظرة امتنان؟ على ابتسامة هاربة؟ كان يعتقد أن كل شيء مدين له. أوه! لقد كان من طراز الرجال الذين يقال عن واحدهم أنه «ذو طبع» اعتقد أنه عذب أمي كثيراً، ومع ذلك كان يحبها، إذا كان قد أحب حقيقة. واعتقد أنه سبب الألم لكل من حوله، لأهل بيته، لكلابه، لخيوله، لعشيقته؛ أما أصدقاؤه فلا، لأنه لم بكن له صديق. موته جعل كل فرد يتنفس الصعداء. وأرى أنه كان رجلاً ذا قيمة كبيرة «في اختصاصه» كما يقال، إلا أنني لم أستطع اكتشاف هذا الاختصاص. كان ذكياً جداً وهذا أكيد. وكنت أحتفظ له في أعماقي بشيء من الإعجاب، ولا أزال. ولكن، أما التلويح بالمنديل... أما أن أبكي.. فلا، لست طفلاً لأفعل ذلك. هيا! اذهب بسرعة وعد بعد ساعة لأخذي من عند ليليان
ـ ماذا؟ أيزعجك ألا تكون مرتدياً السموكن؟ ما أغباك لماذا؟ سنكون وحدنا. وأعدك بأن أبقى مرتدياً السترة القصيرة. مفهوم. أشعل سيكارة قبل خروجك. وأرسل إلي السيارة بسرعة؛ ستعود لتنقلك.

ورأى فنسان يخرج، فهز كتفيه ثم ذهب إلى غرفته ليرتدي ملابسه التي كانت تنتظره مبعثرة على أريكة.

في غرفة في الطبقة الأولى ينام الكونت العجوز على سرير الموت. وضعوا صليباً على صدره إلا أنهم نسوا ضم يديه. أن لحية طويلة لبضعة أيام تلطف زاوية ذقنه. والغضون العرضية

التي تجتاز الجبهة، تحت شعره الأشهب المرتفع كالفرشاة، تبدو أقل عمقاً، وكأنها مسترخية. والعين داخلة تحت أقواس الحواجب حيث ينتفخ دغل من الوبر. لقد تأملته طويلاً لأننا لن نراه بعد الآن. وهناك مقعد على رأس السرير كانت تجلس عليه الخادمة العجوز سيرافين لكنها نهضت، واقتربت من منضدة عليها مصباح زيتي من الطراز القديم يضيء الغرفة بشكل غير كاف: القنديل بحاجة إلى رفع فتيله. وهناك سديل (أباجور) يسلط النور على كتاب يقرأ فيه غونتران الصغير.

ـ أنت تعب يا سيد غونتران ومن الأفضل أن تذهب وتنام.

فرفع غونتران نظراً كثير الرقة إلى سيرافين. شعره الأشقر الذي أبعده عن جبهته يسترسل على صدغيه. هو في الخامسة عشرة، ووجهه شبه النسائي لا يعبر إلا عن الحنو والحب. وقال:

ـ طيب! وأنت؟ أنت التي يجب أن تنامي يا مسكينتي فين. فقد ظللت الليل واقفة كل الوقت تقريباً.

ـ أوه! أنا! أنا معتادة السهر. ثم إني نمت في النهار، بينما انت...

ـ لا. دعيني. لا أشعر بتعب. ويفيدني أن أظل هنا أتأمل وأقرأ. لقد عرفت والدي قليلاً؛ وأعتقد أنني سأنساه بسرعة إذا لم انظر إليه جيداً الآن. سأسهر قربه حتى الفجر... كم مضى عليك في بيتنا يا فين؟

ـ أنا هنا منذ السنة التي سبقت ولادتك، وأنت الآن في السادسة عشرة.

ـ أتذكرين والدتي جيداً؟

ـ إذا كنت أذكر أمك؟.. كما لو سألتني إذا كنت أذكر اسمي. بالتأكيد أذكر أمك.

ـ وأنا أيضاً أذكرها قليلاً، ولكن ليس تماماً... لم يكن عمري إلا خمس سنوات لما ماتت... قولي... هل كان والدي يكلمها كثيراً؟

ـ هذا يتوقف على الأيام... والدك لم يكن كثير الكلام؛ ولم يكن يحب أن يوجه إليه الكلام أولاً. ولكن مهما كان الأمر فقد كان يتكلم أكثر قليلاً من الأيام الأخيرة. ـ ثم، من الأفضل إلا نحرك الذكريات ولنترك للرب مهمة الحكم على كل ذلك.

ـ أتعتقدين حقيقة أن الله سيهتم بكل هذا يا عزيزتي فين؟

ـ إذاً لم يكن الله فمن تريده أن يكون؟

ـ ووضع غونتران شفتيه على يد سيرافين المحمّرة.

ـ أتعرفين ما يجب أن تفعلي؟ اذهبي ونامي. أعدك بأنني سأوقظك عند طلوع النهار. حينئذ اذهب أنا للنوم بدوري. أرجوك.

وحالما تركته سيرافين وحيداً ركع السرير وغمس جبهته في

الشراشف، لكنه لم يستطع أن يبكي؛ وما من انفعال أهاج قلبه، وظلت عيناه جافتين لا تقبلان الدمع. حينئذ نهض، وتطلع إلى ذلك الوجه الفاقد الحس. كان يريد في هذه اللحظة الاحتفالية أن يشعر بما لا أدري من السمو ومن الخارق، وأن يصغي إلى اتصالات من العالم الآخر، وأن يقذف بتفكيره إلى مناطق أثيرية فوق الحس. ولكن تفكيره ظل معلقاً بسطح الأرض. تطلع إلى يدي الميت الخاليتين من الدم، وتساءل كم من الوقت تستمر الأظافر في النمو. وقد صدم لرؤية اليدين منفصلتين، وأراد أن يقربهما من بعضهما البعض ويوحدهما، ويجعلهما يمسكان بالصليب. إنها فكرة جيدة. فكر أن سيرافين ستدهش حين تعود يدي الميت متحدتين. وتلهى مقدماً بدهشتها، ثم عاد حالاً واحتقر نفسه لهذا التلهي. ومهما يكن، فقد انحنى على السرير، وأمسك بذراع الميت الأكثر بعداً عنه. الذراع متصلبة ترفض الانصياع. وأراد غونتران أن يطويها قسراً لكنه حرك بذلك الجسد كله. أمسك باليد الأخرى؛ لقد بدت هذه أكثر ليونة، واستطاع غونتران أن يوصل اليد إلى المكان المناسب، وأخذ الصليب وحاول أن يضعه ويثبته بين الإبهام والأصابع والأخرى؛ ولكن ملامسة هذا اللحم البارد جعلته يخور. وظن أنه سيصاب بأذى. وشعر بدافع لمناداة سيرافين. ترك كل شيء. ـ الصليب معوج على الشرشف المدعوك، واليد التي سقطت دون حركة في مكانها الأول. وفي هذا

الصمت المأتمي الكبير سمع فجأة زمجرة فظيعة ملأته رعباً كما لو أن أحداً غيره... والتفت. ولكن لا. أنه وحيد. لقد خرجت هذه الصرخة الرنانة منه، من أعماقه هو الذي لم يعرف من قبل الشتيمة ثم عاد إلى الجلوس وانغمس في القراءة.

٥

كانا رُوحاً وجسداً لا تدخل بينهما حمة العقرب ابداً .
سانت بوف

بعدما استوت ليليان لمست بأطراف اصابعها شعـر روبير الكستنائي .

ـ لقد بدأت تجلّح يا صديقي . انتبه . انك لم تبلغ الثلاثين بعد . والصلع لا يلائمك . انت تأخذ الحياة بكثير من الجد .

فرفع روبير وجهه نحوها وتطلع اليها وهو يبتسم :

ـ ليس بقربك . اؤكد لك .

ـ هل قلت لمولينييه أن يأتي الينا ؟

ـ نعم ، لأنك طلبت مني ذلك .

ـ و . . . هل اقرضته مالاً ؟

ـ خمسة آلاف فرنك . قلت لك ذلك ـ ليذهب ويخسرها من جديد عند بدرو .

ـ لماذا تريد ان يخسرها ؟

ـ هذا واضح . فقد رأيته في المساء الأول . انه يلعب كل شيء بالمقلوب .

ـ لا يزال امامه وقت ليتعلم . . . اتراهن على انه سيربح هذا المساء ؟

ـ اذا شئت .

ـ اوه ! ارجوك لا تقبل ذلك كعقاب . فأنا أحب ان يفعل المرء ما يفعله عن طيبة خاطر .

ـ لاتغضبي . موافق . على ان يعيد المبلغ اليك اذا ربح ، اما اذا خسر فستدفعينه لي . ايلائمك هذا ؟

ـ وضغطت على زر الجرس .

ـ هات لنا توكي Tokay[1] مع ثلاث كؤوس . ـ اذا عاد بالخمسة آلاف فرنك فقط فستُترك له ، اليس كذلك ؟ اذا لم يربح أو يخسر . . .

ـ هذا لا يحصل ابداً . واهتمامك به عجيب .

---

(١) توكى : خمر أصفر ذهبي يستخرج في المحر . (المترجم)

ـ وعجيب ألا تجده شائقاً .
ـ تجدينه شائقاً لأنك مغرمة به .
ـ صحيح يا عزيزي ! يمكن قول ذلك لك . ولكن ليس بسبب هذا اجده شائقاً . بالعكس : عندما يمسك احدهم برأسي فإن ذلك ، في العادة ، يتركني باردة .

وظهر خادم يحمل الخمر والكؤوس على طبق . وسكب الخادم الخمر ، وقرعا الكأسين .
ـ سنشرب أولاً لأجل الرهان ، ثم نشرب مع الرابح .
وقال روبير :
ـ انني اجده مضجراً ، فنسانـ « ـك » هذا ؟
ـ اوه ! فنسانـ « ـي » ! كأن غيرك الذي أتى به ! ثم اني انصحك بألا تكرر في كل مكان انه يضجرك . سيفهم الجميع بسرعة لماذا عاشرته .

وتحول روبير قليلاً ووضع شفتيه على قدم ليليان العارية ، فأسرعت هذه وسحبت قدمها وخبأتها تحت مروحتها . فقال :
ـ أيجب ان أخجل ؟
ـ لا ضرورة لذلك معي . انك لا تستطيع .
وأفرغت كأسها ، وقالت :
ـ أتريد ان اقول لك يا عزيزي ؟ انك تملك جميع صفات الأديب : فأنت مغرور ، خبيث ، طماع ، متلون ، اناني . . .
ـ لقد غمرتني .

ـ نعم ، كل هذا جذاب . لكنك لن تكون ابداً روائياً صالحاً .

ـ لأني . . .

ـ لأنك لا تعرف الإصغاء .

ـ يخيَّل إليَّ انني اصغي اليك جيداً .

ـ هو الذي ليس اديباً يصغي اليَّ افضل منك . ولكن حين نكون معاً فأنا التي تصغي .

ـ انه لا يكاد يعرف ان يتكلم .

ـ هذا لأنك تخطب كل الوقت ، انا اعرفك . . . فأنت لا تتركه يقول كلمتين .

ـ اعرف سلفاً كل ما يمكن ان يقوله .

ـ اتظن ذلك ؟ . . . هل تعرف جيداً قصته مع تلك المرأة ؟

ـ اوه ! قضايا القلب . انها اكثر الامور بعثاً على الضجر !

ـ واحبه كثيراً عندما يتكلم عن التاريخ الطبيعي .

ـ التاريخ الطبيعي ، انه ايضاً اكثر ازعاجاً من قضايا القلب . . . إذاً فقد ألقى عليك درساً ؟

ـ لو استطيع ان اعيد عليك ما قاله لي . . . انه مؤثر يا عزيزي قص عليّ كثيراً من الأشياء عن حيوانات البحر . اتعلم انهم يبنون اليوم في اميركا مراكب زجاجية على الجانبين ليروا كل ما يحيط بهم وما في اعماق الأوقيانوس ؟ . . يبدو ان هذا

مدهش . . . وفي الامكان رؤية المرجان الحي . و . . . و . . . ماذا تسمي هذا ؟ . . . ـ لؤلؤ ، أسفنج ، أشنةalgues ، أرصفة سمك . ويقول فنسان ان هناك نوعاً من السمك يموت اذا صار الماء اكثر أو أقل ملوحة ، وان هناك اسماكاً اخرى على العكس تتحمل درجات الملوحة المختلفة ، وتبقى على حافة المجاري ، هناك حيث يصبح الماء اقل ملوحة ، لكي تأكل الاسماك الأولى حين تضعف . . . اؤكد لك ان هذا مدهش جداً . وحين يتكلم عن ذلك يصبح غير عادي ، ولا تكاد تعرفه . . لكنك لا تعرف كيف تدعه يتكلم . . . والمثل على ذلك عندما يروي حكايته مع لورا دوفييه . . . نعم ، هذا هو اسم تلك المرأة . . . اتعرف كيف عرفها ؟ .

ـ أقال لك ذلك؟

ـ لي يُقال كل شيء. وأنت تعرف ذلك أيها الرجل المخيف! . . . وداعبت وجهه بريش مروحتها المطبقة. هل يمر في بالك أنه جاء لرؤيتي كل يوم منذ ذلك المساء الذي أتيت به إلي؟ . .

ـ كل يوم! لا ، حقيقة، لم يمر في باليه

ـ في اليوم الرابع لم يستطع أن يمسك شيئاً؛ حكى كل شيء ولكنه في كل يوم من الأيام التي تلت كان يضيف بعض الإيضاحات.

ـ ولم تضجري! أنت تستحقين الإعجاب

ـ قلت لك أنني أحبه.

وأمسكت ذراعه بعنجهية.

ـ وهو . أيحب تلك المرأة؟.

فضحكت ليليان:

ـ كان يحبها. أوه!... لقد اضطرني الأمر أولاً أن أظهر اهتمامي بها بكثير من الحرارة، حتى أنني اضطررت إلى البكاء معه، مع اني كنت غيوراً بشكل مخيف. اما الآن فلا شيء. اليك كيف بدأ الأمر: كان الاثنان في بو، في مستشفى، في مصح، حيث أرسلا على افتراض أنهما مصابان بالسل، أما الحقيقه فهي أن أياً منهما لم يكن مصاباً. لكنهما كان يعتقدان أن مرضهما خطر. ولم يكونا يعرفان بعضهما البعض بعد. وقد رأيا بعضهما بعضاً للمرة الأولى حين كانا متمددين، أحدهما إلى جانب الأخر، على شرفة حديقة، وكل منهما على مقعد طويل قرب آخرين من المرضى الذين ظلوا متمددين طوال النهار في الهواء الطلق للمعالجة. وبما أنهما كانا يحسبان الموت قريباً، فقد تصورا أن كل ما يفعلانه لا يترتب عليه أي نتيجة. كان يردد لها كل لحظة أنهما لن يعيشا أكثر من شهر؛ وكان ذلك في الربيع. وهي وحيدة هناك. وزوجها أستاذ صغير للغة الفرنسية في إنكلترا تركته لتأتي إلى بو. وهي متزوجة منذ ثلاثة أشهر. وقد اضطر إلى انفاق كل ما يملكه لإرسالها إلى هناك. وكان يكتب إليها كل يوم. أنها صبية من عائلة شريفة، نشأت نشأة عالية، وهي كثيرة

التحفظ، كثيرة الخجل... ولكن هناك... لا أعرف الكثير عما استطاع فنسان أن يقوله لها. فقد اعترفت له في اليوم الثالث بأنها لم تعرف ما هي اللذة مع أنها كانت تنام مع زوجها وتستسلم له.

ـ وهو، ماذا قال لها حينئذ؟..

ـ أخذ يدها المتدلية إلى جانب المقعد الطويل وضغطها طويلاً على شفتيه.

ـ وأنت، ماذا قلت حين روى ذلك؟

لأـ أنا!.. مخيف... تصور أن ضحكة مجنونة انتابتني ولم استطع امتلاك نفسي، لم أستطع أن أتوقف... ليس ما قاله لي هو الذي دفعني إلى الضحك. بل هي هيئة الاهتمام الوالهه التي اعتقدت أن من واجبي أن اتخذها لأجعله يستمر. كنت أخاف أن أبدو أنني أتلهى. ثم، في الحقيقة: كان جميلاً جداً وحزيناً جداً. كان شديد التأثر وهو يحدثني! لم يخبر أحداً بشيء من هذا، ومن الطبيعي أن أهله لا يعرفون عن ذلك شيئاً.

ـ إن الذي يجب أن يكتب الروايات هو أنت.

ـ بالتأكيد، يا عزيزي لو عرفت فقط بأية لغة!.. ولكن بين الروسية والإنكليزية والفرنسية لن أستطيع أن أحزم أمري. وأخيراً، جاء في الليلة التالية ليجد صديقته الجديدة في غرفته وهناك كشف لها كل ما لم يستطع زوجها أن يعلمها إياه، وأعتقد أنه علمها جيداً. ولكن لما كانا مقتنعين أنهما لن يعيشا إلا قليلاً

فمن الطبيعي ألا بتخدا أي حيطة، ومن الطبعي، وفد ساعدهما الحب، أن تبدأ حالتهما الصحبه بالتحسن بعد فليل من الوقت. وحبن أدركت أنها حامل كان كلاهما مولهاً بالآحر. وكان ذلك في الشهر الأخبر وبدأ الحر يشند. وبو في الصيف لا يمكن الإقامة فيها، فعادا معاً إلى باريس. وكان زوجها يعتقد أنها عند أهلها الدين يديرون مدرسة داخلية بالقرب من لوكسمسور؛ لكنها لم تجرؤ على رؤ بنهم. أما أهلها فبظنون أنها لا نزال في بو؛ ولكن لن يطول الأمر حنى يظهر كل شيء. كان فنسان قد أقسم في بادىء الأمر على أنه لن يتركها. وعرض علبها أن يذهبا معاً إلى أي مكان، إلى أميركا، إلى أوقيانيا. لكنهما بحاجه إلى المال. وعند ذاك تماماً النقى بك وبدأ بقامر.

ـ لم يحدثني بشيء من كل هذا.

ـ لا تقل له أنني حدثتك!

وتوقفت وأرهفت سمعها:

ـ أظن أنه هو... قال لي انه حسب أنها ستجنّ أثناء الرحله بين بو وباريس. فقد أدركت أنها حامل، وكانت جالسة أمامه في عربة القطار، وكانا وحيدين. لم تحدثه بشيء منذ الصباح؛ وكان مضطراً إلى الاهتمام بكل شيء يتعلق بالرحيل؛ وقد تركته يفعل وبدت أنها لا تعي شيئاً. أخذ يدبها إلا أنها كانت تنظر أمامها، شاردة اللب، كأنها لا تراه، وشفتاها تختلجان. فانحنى عليها وكانت تقول: «عشيق! عشيق! لي

عشيق!» كانت تردد ذلك بلهجة واحدة، وكانت الكلمة نفسها تتكرر كأنها لا تعرف غيرها... أؤكد لك يا عزيزي أنني لم أعد أشعر بأية رغبة في الضحك حين قص علي هذه القصة. لم أسمع في حياتي شيئاً مؤثراً أكثر من ذلك. لكنني أدركت أيضاً أنه كان يتفلت من كل ذلك بقدر ما كان يتكلم حتى ليمكن القول أن عاطفته تذهب مع كلامه، وأن تأثري بدأ ينوب عن تأثره.

ـ لا أدري كيف ستقولين ذلك بالروسية أو الإنكليزيه، أما بالفرنسية فأشهد أنه ممتاز.

ـ شكراً. أعرف هذا. وعلى أثر ذلك حدثني عن التاريخ الطبيعي، وقد حاولت أن أدخل في روعه أن من الشناعة أن يضحي بمهنته في سبيل حبه.

ـ وبشكل آخر، أشرتِ عليه أن يضحي حبه وعرضت عليه أن تحلي محل هذا الحب.

فلم تجب ليليان بشيء. وقال روبير وهو ينهض:

ـ هذه المرة، أظن. أنه هو... أسرعي، كلمة أخرى أيضاً قبل أن يدخل لقد مات والدي منذ قليل.

فصاحت ببساطة:

ـ آه!

ـ ألا يوحي إليك شيئاً أن تصبحي الكونتيس دو باسّافان؟

فانقلبت ليليان إلى الوراء وهي تقهقه.

ـ ولكن يا عزيزي . . . ما أتذكره جيداً على ما أظن، هو أنني نسيت زوجاً في إنكلترا. ماذا؟ ألم أقل لك ذلك قبلاً؟

ـ يمكن أن لا.

ـ هناك لورد غريفث موجود في مكان ما. وابتسم الكونت دو باسافان الذي لم يؤمن قط بصحه لقب صديقته. وأضافت هذه:

ـ قل، أتخيلت عرض ذلك عليّ لتغطي حماتك؟ كلا يا عزيزي، كلاه لنبق كما نحن، صديقين، أليس كذلك؟

ومدت يدها اليه فقبلها.

هتف فنسان وهو يدخل.

ـ بالطبع! كنت واثقاً من ذلك. لقد ارتدى ملابسه، الخائن.

فقال روبير:

ـ نعم، وعدته أن أبقى بالسنره القصيرة لئلا أخجله. عفواً يا عزيزي، لكنني تذكرت فجأة أنني في حالة حداد.

بقي فنسان شامخ الرأس، وكل ما فيه يوحي النصر والسرور. وقفزت ليليان عند وصوله، وتأملت وجهه لحظة ثم اندفعت بسرور نحو روبير وأوسعت ظهره لكمًا وهي تقفز وترقص وتصرخ (ان ليليان تزعجني قليلاً عندما تتشيطن كالأولاد).

ـ خسر رهانه! خسر رهانه!

فسأل فنسان:

ـ أي رهان؟

ـ لقد راهن أنك ستخسر من جديد. هيا! قل: كم ربحت؟

ـ حلّت علي شجاعة خارقة للعادة، فضيلة التوقف عند خمسين ألفاً، فتركت اللعب عند هذا الحد.

وأفلتت من ليليان زمجرة سرور وصرخت:

ـ برافو! برافو!

ثم قفزت إلى عنق فنسان الذي أحس على طول جسده بليونة هذا الجسد المشتعل المعطر بعطر الصندل الغريب. وقبلته ليليان في جبهته، وخديه، وشفتيه. وتخلص منها وهو يترنح. وأخرج من جيبه رزمة من المال قدم منها خمس أوراق لروبير وقال:

ـ أمسك، خذ دينك.

ـ أنت الآن مدين بها لليدي ليليان.

وأعطاها روبير الأوراق فألقتها على أريكة. كانت نلهث، وسارت إلى الشرفة لتتنفس. أنه الوقت القليل النور حيث ينتهي الليل ويقوم الشيطان بإجراء حساباته. لم يكن يسمع في الخارج أي ضجة. وكان فنسان قد جلس على الأريكة، فالنفتت ليليان نحوه، للمرة الأولى، وخاطبته بضمير المخاطب المفرد:

ـ والآن، ماذا ستفعل؟

فأخذ رأسه بين يديه وقال بنوع من النحيب:

ـ لا أدري

فاقتربت منه ليليان ووضعت يدها على جبهته التي رفعها؛ كانت عيناه جافتين متأججتين. وقالت:

ـ بانتظار ذلك سنقرع الكؤوس نحن الثلاثة.

وملأت الأقداح الثلاثة بالنوكي.

وبعدما شربوا قالت:

ـ والآن إذهبا. لقد تأخر الوقت ولم أعد أستطيع الاحتمال. ورافقتهما إلى غرفة في جانب المدخل. كان روبير يمشي في المقدمة فوضعت في يد فنسان شيئاً معدنياً صغيراً وهمست:

ـ اخرج معه، وعد بعد ربع ساعة.

وكان في تلك الغرفة خادم ينام فهزته من ذراعه·

ـ أنر لهذين السيدين حتى أسفل.

كانت السلم مظلمة. وإنارته بالكهرباء من أبسط الأمور دون شك، إلا أن ليليان تحرص دائمًا على أن يرى خادمها خروج ضيوفها.

أشعل الخادم شموع مصباح كبير وأمسك به عالياً أمامه وهو يتقدم روبير وفنسان على الدرج وكانت سيارة روبير تنتظر أمام الباب الذي أطبقه الخادم وراءهما.

وقال فنسان حين فتح الآخر باب السيارة وأشار عليه أن يصعد:

ـ أظن أني سأعود إلى البيت على قدمي أنا بحاجة للسير قليلاً لايجاد توازني.

ـ حقيقة ألا تريد أن أصحبك؟

وأمسك روبير فجأة بيد فنسان اليسرى المطبقة.

ـ افتح يدك! هيا! أرني ما فيها.

كانت في فنسان تلك السذاجة التي تجعله يشعر بالخوف من غيرة روبير، فاحمر وجهه وهو يفتح أصابعه. وسقط مفتاح صغير على الرصيف فتناوله روبير، ونظر إليه ضاحكاً وأعاده إلى فنسان وقال:

ـ طبعاً!

وهز كتفيه. ثم دخل السيارة وانحنى إلى الوراء نحو فنسان الذي ظل مرتبكاً:

ـ اليوم هو الخميس! قل لأخيك أنني انتظره في الرابعة من هذا المساء.

وأطبق باب السيارة بسرعة دون أن يترك لفنسان الوقت للاجابة.

وذهبت السيارة. ومشى فنسان بضع خطوات على الرصيف، واجتاز السين ووصل إلى ذلك الجزء من التويلري الواقع خارج الحواجز الحديدية. واقترب من حوض صغير وبلل

منديله بالماء وأمرَّه على جبهه وصدغبه. ثم عاد منمهلاً نحو مسكن ليليان. فلنتركه حين رآه الشيطان المتلهي يُدخل المفاح الصغير في القفل دون ضجة.

هده هي الساعة النى سننام فبها لورا، عشيقته بالأمس، في غرفة كئيبة من فندق، بعدما بكت وأعولت طويلاً. وعلى حافه الباخرة التي أعادت أدوار إلى فرنسا كان هدا، عند أول ضوء للفجر، بعيد قراءة الرساله التي تلفاها من لورا. إنها رسالة شاكية تدعوه فيها لنجدتها. وكان شاطىء مسقط رأسه الجميل قد بدا أمام عينيه، لكنه كان في حاجة إلى عين ممرسه لتراه من خلال الضباب. وفي السماء لم تكن أية سحابة حيث بـدأت تبتسم نظره الله. وكانت جفون الأفق المحمر قد ارتفعت. كم سيكون الطقس حاراً في باريس! لا يزال لديه متسع من الوقت للقاء برنار. وهذا هو يستيقظ في سرير أوليفييه

٦

كلنا بناديق؛
وذلك الرجل الجزيل الاحترام الذي
دعوته أبي لم أدر أين كانلما طبعت[١]؛
شكسبير

رأى برنار حلمًا أخرق. لا يذكر بماذا حلم، ولا يحاول أن يتذكر الحلم إنما يريد أن ينساه. عاد إلى عالم الواقع ليشعر بجسد أوليفييه يثقل عليه. كان صديقه قد اقترب منه أثناء نومهما، أو أثناء نوم برنار على الأقل، وفضلاً عن ذلك فإن ضيق السرير لا يسمح بكثير من المسافة بينهما؛ وهو الآن ينام على جنبه -حيث يشعر برنار بنفسه الحار بدغدغ عنقه. لم يكن برنار يرتدي سوى قميص نهاري قصير؛ وكانت ذراع أوليفبيه على عرض جسده تضيق على لحمه دون وعي . وارتاب برنار لحظة في ما إذا كان صديقه ينام حقيقة. تخلص بهدوء دون أن يوقظ أوليفييه، ونهض، وارتدى ملابسه، وعاد ليتمدد على

(١) بالانكليزية في الأصل .

السرير. لا يزال الوقت مبكراً للذهاب. الساعة هي الرابعة. والليل ما كاد يشحب ساعة أخرى للراحة، والاندفاع لبدء النهار ببسالة. ولكن لا مجال للنوم بعد وتأمل برنار الزجاج المرقّ والجدران الشهباء في الغرفه الصغيرة، والسربر الحديدي الذي يتململ جورج عليه وهو يحلم. وقال لنفسه:

ـ بعد لحظة سأمضي نحو مصيري. ما أجمل كلمة «المغامرة» ما يجب أن يحدث. كل المدهش الذي ينتظرني. لا أدري إذا كان هناك آخرون مثلي، ولكن منذ ما استيقظت أحببت أن أحتقر أولئك الذين ينامون. أولفييه، يا صديقي، سأذهب دون أن أودعك. هيا! قف، يا برنار الشجاع: حان الوقت.

فرك وجهه بزاوية منشفه مبللة؛ وارتدى قبعته، وانتعل حذاءه، وفتح الباب دون ضجة. إلى الخارج!

آه! كم يبدو مفيداً لكل كائن ذلك الهواء الذي لم يتنشقه أحد بعد!.. سار برنار على محاذاة حاجز اللوكسمبور الحديدي؛ وهبط إلى شارع بونابرت، وبلغ الأرصفة، واجتاز السين. فكر في قاعدة حياته الجديدة التي وجد صيغتها منذ قليل: «إذا لم تفعل أنت ذلك فمن يفعله؟ وإذا لم تفعله حالا فمتى يكون ذلك؟» وفكر: «أشياء عظيمة يجب عملها». خيل إليه أنه يسير نحوها. «أشياء عظيمة» هكذا ردد وهو يسير. لو كان على الأقل يعرف ما هي! في انتظار ذلك عرف أنه جائع: هذا هو

بقرب سوق الخضر. معه في جيبه أربعة عشر سنتيمًا، ولا فلس زيادة. دخل إلى بار؛ أخذ كعكة وقهوة بالحليب على الزنك. الثمن: عشرة سنتيمات. يبقى معه اربعة؛ وبشيء من الغطرسة ترك اثنين منها على الطاولة، وناول الإثنين الباقين لأحد الحفاة الذي كان ينبش علبة النفايات. إحسان؟ تحدٍّ؟ لا يهم هو يشعر الآن إنه سعيد كملك. ليس معه شيء: كل شيء له! وقال في نفسه: «أنني انتظر كل شيء من العنانة الإلهية لكن ليتها ترضى أن تضع أمامي عند الظهر شيئاً من اللحم المشوي، لكنت تفاهمت جيداً معها». (لأنه لم يتناول طعامه مساء البارحة). كانت الشمس قد أشرقت منذ وقت طويل. عاد برنار إلى الرصيف. شعر أنه خفيف؛ إذا ركض خيل إليه أنه يطير. كانت أفكاره تقفز بلذة في دماغه. وفكر:

«إن الصعب في الحياة هو أن تأخذ الشيء نفسه مأخذاً جدياً مدة طويلة. وهكذا، فحب والدي لهذا الذي أدعوه والدي ـ هذا الحب، آمنت به خمسة عشر عاماً؛ وآمنت به البارحة أيضاً. أما هي فلا يمكن أن تكون أخذت حبه على محمل الجد كل ذلك الوقت. أود لو أعرف أن كنت احتقرها أو لا أزال احترمها لأنها جعلت من ولدها نندوفا. ثم إني، في أعماقي، لا أحرص على معرفة ذلك كما أدّعي. أن العواطف نحو الذُرية تكوّن جزءاً من الأمور التي نفضّل عدم محاولة إظهارها للنور. أما في ما يتعلق بالزوج المخدوع فالأمر بسيط

جداً: لفد أبعضته منذ أبعد زمن أذكره يجب أن أعرف اليوم بأنني لم أشعر نحوه بتقدير كبير ـ وهذا كل ما آسف له هنا. أما القول أنني لو لم أغتصب الدرج، لكنت اسطعت الاعتقاد طوال حياتي أنى كنت أغذي عواطف غير طبيعية حيال أبي!.. ما لها تعزية في المعرفة! ومع ذلك لم أغتصب الدرج تماماً، لم أفكر حتى في فتحه... ثم، هنالك ظروف تخفيفية: أولاً كنت ضجراً بشكل مخيف ذلك النهار. ثم ذلك الفضول، ذلك «الفضول المشؤوم» كما قال فنيلون، هو ما أؤكد إنني ورثته حصة عن والدي الحقيقي، إذ لا أثر له في عائلة بروفيناندو لم ألتق رجلاً أقل فضولاً من السيد زوج أمي؛ هذا اذا لم يكن الفضول هو الأولاد الذين جعلها تلدهم. يجب ان اعيد التفكير فيهم بعد العشاء. ليس الأمر واحداً بين رفع الصفيحة الرخامية عن منضدة ومشاهدة الدرج يتثاءب، وبين اغتصاب الدرج. انا لست سارقاً بواسطة الكسر والخلع. وقد يحدث لأي انسان ان يرفع رخامة عن منضدة. لابد أن يكون تبزيه Thésée[1] في مثل سني حين رفع الصخرة. أما ما يمنع فعل ذلك بالمنضدة عادة فهى الساعة. لم أكن لأفكر في رفع صفيحة رخام المنضدة لو لم أكن أريد

---

(١) تيزيه: بطل يوناني وشخصية نصفها تاريخي والنصف الآخر اسطوري يعزى اليه قتل المينوتور آكل اللحوم البشرية. وقد حكم عليه في الجحيم أن يظل جالساً الى الأبد لأنه أهان بلوتون المترجم.

إصلاح الساعة. . . أما ما لا يحدث لأي كان فهو أن يجد تحتها سلاحاً؛ أو رسائل غرام مجرمة! آه! المهم هو إنني علمت منها كل شيء. ليس في إمكان الجميع أن يتكلوا على وساطة الأشباح، مثلما فعل هاملت! هاملت! . عجيب كم تختلف وجهات النظر، بين أن يكون المرء ثمرة جريمة أو ثمرة شرعية. سأعود إلى ذلك بعد العشاء. . . هل كان سيئاً بالنسبة إلي أن أقرأ هذه الرسائل؟ لو كان هذا سيئاً. . . كلا، لشعرت بتوبيخ الضمير. لو لم أقرأ هذه الرسائل لاضطررت أن استمر عائشاً في الجهل، والكذب، والخضوع. لنروح عن أنفسنا قليلاً. لنبتعد! . . «برنار! برنار! هذا الشباب الأخضر. . » كما يقول بوّسويه: اجلس هناك على ذلك المقعد يا برنار. ما أجمل هذا الصباح! هنالك أيام تبدو الشمس أنها تداعب الأرض حقيقة. لو استطعت أن افترق عن نفسي لنظمت أشعاراً، بالتأكيد».

وتمدد على المقعد، وافترق عن نفسه إلى حد أنه نام .

٧

الشمس المرتفعه الآتية من النافذة المفتوحة جاءت تداعب قدم فنسان العارية، على السرير العريض حيث كان ينام قرب ليليان. ونهضت هذه، وهي غير عالمة أنه استيقظ، وتطلعت إليه ودهشت لوجوده مغتمًا.

ربما كانت الليدي غريفث تحب فنسان، لكنها تحب فيه النجاح. كان فنسان كبيراً، جميلاً، رشيقاً، لكنه لم يكن يعرف أن يقف، ولا أن يجلس، ولا أن ينهض. كان وجهه معبراً، لكنه لا يحسن ترتيب شعره. وكانت تعجب على الخصوص بجرأة تفكيره؛ من المؤكد أنه كان متعلمًا، لكنه يبدو لها غير مثقف. وانحنت بغريزة العشيقة والأم فوق هذا الولد الكبير الذي أصبحت تهتم بتكوينه. أنها ستجعل منه صنعها، تمثالها علمته كيف يعتني بأظافره، وأن يفرق شعره على جانب ويحذفه إلى الوراء. وبدت جبهته نصف المغطاة بالشعر أكثر شحوباً وأكثر ارتفاعاً. وأخيراً أبدلت تلك العقد الصغيرة الجاهزة المتواضعة التي يلف عنقه بها بأربطة عنق ملائمة. من المؤكد أن الليدي غريفث تحب فنسان؛ لكنها لا تحبه صموتاً، أو «عابساً»

٦ ـ مزيفو النقود

كما كانت تقول.

أجالت أصبعها بلطف على جبهة فنسان، كأنها تمحو غضناً ذا طيتين يحفر خطين عموديين ابتداء من الحاجبن ويبدو كأنه نذير ألم. وتمتمت وهي تنحني نحوه:

- إذا كنت ستحمل لي هنا الحسرات والآلام وتوبيخ الضمير فمن الأفضل ألا تعود.

أغمض فنسان عينيه كأنه أمام ضوء ساطع، لأن تهلل نظرات ليليان بهره.

- هنا كما في المسجد، تخلع النعال عند الدخول لئلا تحمل الوحل من الخارج. أتظن أنني لا أعرف في من تفكر؟

وبما أن فنسان أراد أن يضع يده أمام فمها فإنها انتفضت بتمرد:

- كلا، دعني أكلمك جدياً. فكرت كثيراً في ما قلته لي ذلك اليوم. والظن السائد أن النساء لا تحسن النفكير، ولكن سترى أن هذا يتوقف عليهن... وما قلته لي عن نتاج التهجين... وأنه لا يمكن الحصول على شيء ممتاز بواسطة المزج، بل بواسطة الانتقاء... أتراني حفظت درسك جيداً؟ هذا الصباح أظن أنك تغذي مسخاً، شيئاً مضحكاً، ولن تستطيع فطامه أبداً: شيء ناتج عن لقاح إحدى كاهنات باخوس بالروح القدس! أليس صحيحاً؟ أنت متقزز لأنك تركت لورا: أنا أقرأ ذلك في غضن جبهتك. إذا أردت أن تعود

إليها فقل حالاً واتركني؛ سأكون قد أخطأت في شأنك، وسأتركك تذهب دون أسف. أما إذا عزمت على البقاء معي فتخلَّ عن هيأتك المأتمية هذه. أنت تذكرني ببعض الإنكلز: فكلما أفرط تفكيرهم اسنعمال الحربة بزدادون نعلماً بالأخلاق، إلى درجة إن أشد المتزمتين بينهم هم بعض مفكريهم الأحرار. وأنت تحسبني دون قلب. لكنك مخطىء. فأنا أدرك جبداً أنك تشعر بشفقة على لورا. ولكن ماذا تفعل هنا إذاً؟

وبما أن فنسان أدار لها ظهره قالت:

ـ اسمع؛ ستذهب إلى الحمام وحاول أن تتراءٰ حسراتك تحت الرشاش. سأقرع الجرس في طلب القهوة. سامع؟ وحبن تعود سأشرح لك شيئاً يبدو أنك لا تفهمه جيداً.

ونهض، وقفزت على أثره:

ـ لا ترتد ملابسك حالاً ففي الخزانة إلى يمين مدفأة الحمام تجد برانس مما يرتديه الشرقيون، وبيجامات... وسنختار.

وعاد فنسان بعد عشربن دقيقة، متزملاً بجلابيه حريرية ذات لون أخضر فستقي. وهتفت ليليان منتشية:

ـ أوه! انتظر! انتظر لأصلح من شأنك.

وأخرجت من صندوق شرقي شالين عريضين بلون الباذنجان وزنرت فنسان بالشال الأكتر دكنة وعممته بالآخر.

ـ إن أفكاري هي دائماً بلون ملابسي (كانت مرتدية بيجاما أرجوانية مزينة بالفضة). وأذكر ذات بوم، حين كنت صغيرة في

سان فرنسيسكو، أنهم أرادوا إلباسي السواد بحجة أن أختاً لوالدتي قد ماتت، خالة عجوز لم أرها قطه فبكيت طول النهار، كنت حزينة، وتخيلت نفسي أشعر بكثير من الغم وآسفة جداً على خالتي... ولبس ذلك إلا بسبب السواد. إذا كان الرجال اليوم أرزن من النساء فلأنهم يرتـدون ملابس أكـثر سواداً. وأراهن أن أفكارك في الماضي لم تكن هي أفكارك نفسها اليوم. أجلس على جانب السرير؛ وبعد أن تشرب قدحاً من الفودكا وفنجانين من الشاي وتأكـل شطيـرة أو اثنتين سـأقص عليك حكاية. وستخبرني متى أستطيع أن أبدأ...

جلست على بساط السرير بين ساقي فنسان متجمعة كأنها نصب مصري، وذقنها على ركبته. وبعـدما شـربت وأكلت، بدأت:

ـ كنت على ظهر الباخرة «لابورغونيا» كما تعلم، في اليوم الذي غرقتْ فيه. وكنت في السابعة عشرة. وهذا يدلك على سني اليوم. كنت سباحة ماهرة؛ ولأبرهن لك على أن قلبي ليس جافاً فسأقول لك أنه إذا كانت يومها فكرتي الأولى هي أن أنقذ نفسي فإن فكرتي الثانية هي أن أنقذ أحداً ما، حتى إنني لست متأكدة إذا لم تكن هذه هي فكرتي الأولى. والحقيقة أعتقد أني ما فكرت في شيء قط. ولكن ما من شيء يثير التقزز في نفسي أكثر من أولئك الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم في مثل هذه اللحظات، نعم: النساء اللواتي يصرخن. كان هناك أول زورق

إنقاذ مليء ، بصورة رئيسيه، بالنساء والأطفال. كان بعض هذه النسوة يطلقن عويلاً يضيع الرأس. أما الزورق فكانت قيادته ضعيفة تائهة إلى حد أنه، بدلاً من أن يستوي على سطح البحر، شك أنفه في الماء وأفرغ من فيه من الناس قبل أن يمتلىء بالماء. جرى كل ذلك على ضوء المشاعل والفوانيس والنوارات Projecteurs. لن تستطيع التصور كم كان هذا محزناً! كانت الأمواج قوية جداً. وكل ما لم يكن في محيط النور كان يختفي في الناحية الأخرى من تلة الماء، في الظلام. لم أعرف مطلقاً شيئاً أشد توتراً، وأنشل تفكيري، حتى أنني لم أدرك تماماً ما يمكن أن يحدث، بل أدرك فقط أنني لاحظت، في الزورق، طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها، وهي التي عزمت على إنقاذها حالما رأيت انقلاب المركب. كانت أولاً مع امها؛ ولكن هذه لا تجيد السباحة؛ ثم أنها كانت منضابقة من تنورتها كما يحدث في مثل هذه الحالات. أما أنا فاضطررت أن أخلع ملابسي بشكل آلي، وقد نوديت لأخذمكاني في الزورق التالي، وكان علي أن أصعد إليه؛ ثم إني قفزت إلى البحر من هذا الزورق نفسه دون شك؛ وأذكر أنني سبحت طويلاً مع الطفلة المتعلقة بعنقي. كانت وجلة تشد على عنقي بقوة جعلتني لا أكاد أستطيع التنفس. ومن حسن الحظ أنهم استطاعوا رؤيتنا من الزورق لينتظرونا أو ليجذفوا نحونا. لكنني لم أرو لك هذه الحكاية لأجل ذلك. فالذكرى التي بقيت حية أكثر من غيرها، تلك التي لا

يمكن أي شيء أن يمحوها من دماغي ولا من قلبي: هي أننا كنا في ذلك الزورق نحو أربعين شخصاً متكدسين بعدما التقط بعض السابحين اليائسين كما التقطت أنا. كان الماء يصل إلى سطح الحافة تقريباً. وكنت في المؤخرة أحمل الطفلة التي أنقذتها وقد ضممتها إلي لأبعث فيها الدفء ولأمنعها من رؤية ما لا أستطيع أنا إلا أن أراه: كان هناك اثنان من البحارة، الأول مسلح بفأس والآخر بسكين مطبخ، أتعرف ما كانا يفعلان؟ كانا يقطعان أصابع وأكف بعض السابحين الذين تمسكوا بالحبال وحاولوا الصعود إلى زورقنا. وقد التفت إلي أحد هذين البحارين (كان الآخر زنجياً) وأسنانه تصطك من البرد والرعب والهلع، وقال: «لو صعد إلى الزورق شخص آخر لهلكنا جميعاً. فالزورق ملآن». وأضاف أن كل حالات الغرق تشهد مثل هذا الذي يعمله، ولكن من الطبيعي ألا يتكلم أحد في ما بعد عن ذلك.

اعتقد أنه أغمي علي حينئذ؛ وعلى كل حال لم أعد أذكر شيئاً، كما يصاب المرء بالصمم بعد ضجة قوية. وحين عدت إلى نفسي على ظهر الباخرة X التي التقطتنا أدركت أنني لم أكن أنا نفسي قط ولن أستطيع أن أكون تلك الفتاة العاطفية التي كنتها في السابق؛ أدركت أنني تركت جزئاً مني يعوص مع البورغونيا، وأنني من الآن فصاعداً سأقطع الأصابع والأكف لأمنع كومة من العواطف الرقيقة من الصعود ومن إغراق قلبي».

ونطرت إلى فنسان بزاويه عينها وعطفت جسدها إلى الوراء.
- إنها عادة يجب التمرس بها

وبما أن شعرها غير المثبت فد نشوش ترتيبه واسنرسل على كتفيها، فقد نهضت واقتربت من المرآة واهتمت بنرتيبه وهي تقول:

- حين تركت أميركا بعد ذلك بقلبل خيل إلي أنني كنت الجزة الذهبية وأنني ذهبت في سبيل البحث عن فاتـح. استطعت أحياناً أن أخدع؛ واستطعت ارتكاب هفوات . . . ويمكن أنني ارتكبت اليوم واحدة بالتحدث إليك كما أفعل. ولكن أنت، لا تتخيل أنك امتلكتني لمجرد استسلامي إليك. وليدخل في روعك هذا: إنني أكره الـرجال العـاديين ولا أستـطيع أن أحب إلا المنتصر. فإذا أردتني فليكن ذلك لكي أساعدك على النغلب أما إذا أردتني لأشفق عليك، وأعزبك، وأدللك. فمن الأفضل أن أقول لك حالاً. كلا، كلا يا صدبقي فنسان، لست أنا التي تلزمك، أنها لورا.

قـالت ذلك دون أن تلنفت، وهي مـسمـرة في تصمبف شعرها المنمرد، ولكن فنسان النفى نظراتها في المرآه وقال وهو ينهض تاركاً ملابسه الشرقيه ليرتدي ملابسه المدنيه:

- اسمحي لي ألا أجيبك إلا فى هذا المساء. يجب الآن أن أعود بسرعة قبل أن يخرج أخي أولفيبه. عندي شيء مهم أريد أن أقوله له.

قال ذلك بطريقة اعتذار لكي يبرر رحيله ولكن حين اقترب من ليليان، التفتت هذه مبتسمة، جميلة، فجعلته يتردد، وقال:

ـ إلا إذا تركت له كلمة يجدها عند عودته لتناول الطعام.

ـ هل ستكلمه كثيراً؟

ـ لا كلا. أنها دعوة لهذا المساء كلفت نقلها إليه.

ـ من روبير. أوه! عرفت... ـ قالت ذلك بالإنكليزية وهي تبتسم بشكل غريب ـ يجب أن نتحدث عن هذا أيضاً.. أذهب بسرعة ولكن عد في الساعة السادسة لأن سيارته ستأتي في السابعة لتقلنا إلى مطعم الغابة حيث نتناول العشاء.

كان فنسان سارحاً في تأملاته وهو يمشي؛ شعر أن نوعاً من اليأس يمكن أن يولد من شبع الرغبات، مصحوباً بالسرور وكأنه يختبىء خلفه.

٨

يجب الاختيار بين عشق النساء او
معرفتهن ، ولا يوجد امر وسط .

شانفور

في قطار باريس السريع جلس ادوار يقرأ كتاب باسافان « الحاجز الثابت » - الذي ظهر حديثاً واشتراه من محطة « دييب » . ما من شك في ان هذا الكتاب ينتظره في باريس ، ولكن ادوار لم يستطع الصبر على معرفته . كانوا يتحدثون عنه في كل مكان . اما هو فما من كتاب من كتبه كان له شرف الظهور في مكتبات المحطات .لقد قالوا له اي الخطوات يجب القيام بها لكي تعرض كتبه . لكنه لم يهتم بذلك . وكرر لنفسه انه قليلا ما يهتم بان تكون كتبه معروضة في مكتبات المحطات ، وهو بحاجة لنكرار ذلك نفسه لدى رؤيته كتاب باسافان معروضاً. كل ما يفعله باسافان يقلقه ، كذلك كل ما جرى حول باسافان : المقالات مثلاً ، حيث رفع الى الأوج نعم ، كأنه عمل متعمد : كل واحدة من الصحف الثلاث التي اشتراها ،

حال هبوطه من السفينة ، تحتوي على مديح «الحاجز الثابت» . وهناك صحيفة رابعة تحتوي على رسالة لباسافان ، فيها احتجاج على مقال يتضمن مدحاً اقل من الأخريات كان قد ظهر في هذه الصحيفة نفسها ، ويدافع باسافان في رسالته هذه عن كتابه ويشرحه . هذه الرسالة أثارت ادوار اكثر من المقالات . فباسافان يزعم انه ينير الرأي العام . أي انه يحنيه بمهارة . ما من كتاب لادوار اثار مقالات كهذه ، كذلك فان ادوار لم يفعل شيئاً في سبيل اجتذاب عطف النقاد . ولا يهمه ان يهاجمه هؤلاء . ولكنه عندما قرأ المقالات حول كتاب منافسه اصبح في حاجة لتكرار القول ان هذا لا يهمه كثيراً .

ليس ذلك لأنه يكره باسافان . فقد التقاه احياناً ووجده جذاباً . بدا له باسافان جديراً بالمحبة . ولكن كتب باسافان لا تعجبه ، بدا له باسافان صانعاً اكثر منه فناناً . كفى تفكيراً فيه . . . .

اخرج ادوار من جيب سترته رسالة لورا ، تلك الرسالة التي اعاد قراءتها على ظهر الباخرة ، واعاد قراءتها ايضاً :

« يا صديقي

كانت المرة الأخيرة التي رأيتك فيها ، كما تذكر ، في سانت جيمس بارك ، في الثاني من نيسان ، عشية رحيلي الى الجنوب ـ لقد جعلتني اعدك بالكتابة اليك اذا وجدت نفسي في مأزق . وقد وفيت بوعدي الى من ، غيرك ، اتوجه بندائي ؟ ان

اولئك الذين كان بودي الاستناد اليهم هم الذين يجب ان اخفي شقائي عنهم . يا صديقي ، انني في شفاء عظيم ، ومن الممكن ان اقص عليك ذات يوم ما كانت عليه حياتي منذ تركت فليكس . لقد رافقني حتى بو ، ثم عاد وحده الى كامبريدج حيث استدعته دروسه . اما هناك ، فقد اصبحت وحيدة ، متروكة لنفسي ، للنقاهة ، للربيع . . . هل اجرؤ على الاعتراف لك بما لا استطيع ان اقوله لفليكس ؟ . . . لقد حان الوقت الذي كان علي ان اذهب اليه فيه ، ولكن يا للأسف ، لست جديرة برؤيته . والرسائل التي كتبتها اليه منذ مدة كانت كاذبة ، اما الرسائل التي تلقيتها منه فلا تتحدث الا عن سروره لمعرفته ان صحتي تحسنت . لماذا لم ابق مريضة ! . . . لماذا لم امت هناك ! . . . يا صديقي ، اني مضطرة للتعرض للانظار ، فأنا حبلى ، والطفل الذي انتظره ليس منه . لقد تركت فليكس منذ اكثر من ثلاثة اشهر . ومهما كان الأمر فلن استطيع ان اخدعه هو على الأقل . لا أجرؤ على الرجوع اليه . لا استطيع لا اريد . انه كثير الطيبة ، وسيغفر لي دون شك ، وانا لا استحق . لا اريد ان يغفر لي . لا أجرؤ على العودة الى اهلي الذين لا يزالون يعتقدون انني في سو وابي ، اذا علم ، اذا فهم ، سيلعنني . سيطردني كيف اجابه فضيلته ، وخوفه من الشر ، والكذب ، وكل ما هو دنس ؟ . . . واخاف ايضاً ان اسبب الغم لأمي واختي . اما ذاك الذي . . . لكنني لا اريد اتهامه ، فحين وعدني بالمساعدة كان في حالة تمكنه من ذلك .

لكنه اخذ يقامر ويا للأسف ، لكي يصبح اقدر على مساعدتي . خسر المبلغ الذي يجب ان يخصص لنفقاتي ، لولادتي . خسر كل شيء . فكرت اولاً ان اذهب معه الى اي مكان ، واعيش معه بعض الوقت على الأقل ، لأنني لا اريد ان اضايقه ، ولا ان اكون عبئاً عليه ، كنت سأجد في النهايه ما اكسب به عيشي . لكنني لا استطيع في الوقت الحاضر . ارى جيداً انه يتعذب لتركي وانه لا يستطيع ان يفعل غير ذلك ، ومرة ثانية فإنني لا اتهمه . لكنه على كل حال قد تركني . انا هنا دون مال . اعيش بالدين في فندق صغير . ولكن هذا لا يمكن ان يدوم . لا اعرف ما سيحل بي . اواه ان طرقاً لذيذة كتلك لا يمكن ان تقود الا الى الهاوية . اكتب اليك الى ذلك العنوان في لندن الذي اعطيتني اياه ولكن هل تصل هذه الرسالة ؟ انا التي طالما تمنت ان تكون اما ! . . . ليس لي من عمل سوى البكاء طول لنهار . زودني بنصيحتك ، اذا امكنك ذلك ، ، وإلا . . . . سفاه ! كنت كثيرة الشجاعة في اوقات اخرى ، اما الآن فلست نا وحدي التي تموت . إذا لم تأت ، إذا كتبت الي عبارة : « لا استطيع شيئاً » فلن اوجه اليك اي لوم . وبوداعي لك سأحاول الا آسف كثيراً على الحياة . لكنني اعتقد انك لم تدرك تماماً ايضاً ان صداقتك لي ستبقى افضل ما عرفت ـ ولم تدرك تماماً ان ما ادعوه صداقتي لك تحمل في قلبي اسماً آخر .

لورا فليكس دوفييه

« ملاحظة : قبل ان القى هذه الرسالة في البريد سألقى عليها نظرة اخيرة . سوف انتظره في منزله هذا المساء . اذا تلقيت هذه الرسالة يكون حقيقة ان . . . وداعاً ، وداعاً ، فأنا لا اعرف ما اكتب »

تلقى ادوار هذه الرسالة صبيحة يوم رحيله . اي انه صمم على الذهاب حالما تلقاها . على كل حال لم يكن في نيته ان يمدد اقامته كثيراً في انكلترا . لا افصد التلميح الى انه لم يكن جديراً بالعودة الى باريس لينجد لورا ، بل اقول انه كان سعيداً بالعودة . كان مفطوماً عن الملذات بشكل مخيف فى تلك الايام الاخيرة في انكلترا ، اما في باريس ، فان اول عمل سيقوم به هو الذهاب الى مكان موبوء ، وبما انه لا يريد ان يحمل الى ذلك المكان اوراقاً شخصية فقد تناول حقيبته من شبكة عربة القطار وفتحها ليضع فيها رسالة لورا .

مكان هذه الرسالة ليس بين سترة وقميص ، ففد تناول من تحت الملابس دفتراً ومجلداً بورق مقوى مملوءاً الى نصفه بالكتابة ، وبحث فيه ، منذ اول الدفنر . عن اوراق كتبت في السنة الماضية حيث اعاد قراءتها ، وستتخذ رسالة لورا مكانها بين هذه الأوراق .

يوميات ادوار

« ١٨ تشرين الأول - لا يبدو ان لورا تعرف قوتها . اما انا الذي انفذ الى سر قلبي فاعرف تماماً انني لم اكتب حتى هذا اليوم سطراً واحداً لم توحه هي الي بصورة غير مباشرة . حين تكون بجانبي اشعر انها لا تزال طفلة ، اما كل مهارتي في الخطابة فلست مديناً بها الا لرغبتي الدائمة في تعليمها ، وإقناعها ، واجتذابها . ولا أرى شيئاً او اسمع شيئاً الا افكر حالاً : « ماذا ستقول عن ذلك ؟ » لقد تركت تأثري ولم اعد اعرف سوى تأثرها حتى ليبدو لي ان شخصيتي تضيع في نطاقات مبهمة لو لم تكن هنا لتحددني بدقة ، فانا لا استجمع قواي ولا احدد نفسي الا حولها . فبأي وهم استطعت الاعتقاد حتى اليوم انني كيفتها على مثالي ؟ ان الامر على العكس ، فأنا الذي ينطوي على مثالها ، ولم الاحظ ذلك . او بالاحرى فان كياننا ، على العكس ، قد تشوه بواسطة تهجين غريب للتأثيرات الغرامية . ان كلاً من الكائنين المتحابين تكيف وفقاً لتطلبات الآخر بصورة لا ارادية ، لا شعورية ، وعمل على ان يشبه ذلك المعبود الذي تأمله في قلب الآخر . . . من يحب حقيقة يقلع عن الصدق .

« وهكذا كان تمكيرها يرافق تفكيري في كل مكان . اعجبت بذوقها ، برغبتها الحارة في المعرفة ، بثقافتها . ولم اكن اعلم ان اهتمامها الشديد بكل ما تراني مولعاً به لم يكن الا بدافع حبها لي ، لأنها لم تكن تعرف ان تكتشف شيئاً . وقد ادركت اليوم ان كلاً من اعجاباتها لم يكن بالنسبة اليها سوى سرير راحة يتمدد عليه تفكيرها بجانب تفكيري ، وما من شيء في ذلك يلبي التطلب العميق لطبيعتها . انها ستقول : « انا لا اتزين ولا اتجمل إلا لأجلك » وما من شك في انني كنت اريد ان يكون ذلك لأجلها وان تلبي بعمل ذلك حاجة شخصية خاصة . ولكن من كل هذا الذي كانت تضيفه الى نفسها في سبيلي لن يبقى شيء ، حتى ولا حسرة ، حتى ولا شعور بالنقص . يأتي يوم يعود فيه الكائن الحقيقي الى الظهور ، ويتعرى الزمن ببطء من جميع ملابسه المستعارة ، واذا كان الآخر قد شغف بهذه الزينة فانه لن يضم الى قلبه سوى حلية مهجورة ، سوى ذكرى . . . . سوى حداد ويأس .

آه ! بكم من الفضائل ، بكم من الكمالات زينتها !

« كم هي مغيظة قضية الصدق هذه ! حين اتكلم عنه لا افكر الا في صدقها هي . واذا عدت الى نفسي فلا اعود ادرك ما تعني هذه الكلمة . انا لست إلا ما اعتقد انني هو ـ وهذا يتغير دون انقطاع بحيث ان كياني في الصباح ما كان سيتعرف علي كياني في المساء لو لم اكن انا هنا لاضبط الامور . ما من

شيء يمكن ان يصبح اكثر اختلافا عني سوى نفسي . اما ذلك الذي يشكل الجزء الاساسي لكياني فلا يبدو الا في العزلة حيث ابلغ نوعاً من الاستمرار الباطني ، ولكن يبدو لي حينئذ ان حياتي تشيخ رويداً رويداً وتضعف ، وانني لن ابقى . ان قلبي لا يخفق الا بدافع التعاطف ، ولا اعيش الا بالغير ، بالوكالة ، بالزواج ، ولا اشعر انني أحيا بشكل اكثر حدة الا حين انعتق من نفسي لأصبح اي انسان آخر .

« ان قوة اللامركزية اللاأنانية هـذه انها بخرت في حس الملكية ـ ثم حس المسؤولية . ان كائناً كهـذا ليس ممن يمكن الزواج منه . كيف افهم لورا ذلك ؟

« ٢٦ تشرين الأول ـ ما من شيء موجود بالنسبة إلي الا شعرياً (واعيد الى هذه الكلمة معناها الكامل) ـ ابتداء مني . يخيل الي احياناً انني غير موجود حقيقة ، ولكنني اتخيل انني كائن ، بكل بساطة . واصعب شيء اتوصل الى الاعتقاد به هو حقيقتي الخاصة . انني اهرب من نفسي دون انقطاع ولا ادرك تماماً ، حين أرى نفسي اعمل ، ان هذا الذي رأيته يعمل هو نفسه الذي يرى ، ويدهش ، ويشك في انه يستطيع ان يكون ممثلاً ومشاهداً في وقت واحد .

« لقد اضاع التحليل النفسي بالنسبة الي كل فائدة يوم علمت ان الانسان يعاني ما يتخيل انه يعانيه . ومن هنا جاء التفكير في انه يتخيل انه يعاني ما يعانيه . . . وأرى ذلك

تماما في حبي : فبين محبتي للورا وتخيلي انني احبها ـ بين تخيلي انني احبها اقل ومحبتها اقل ، اي إله يرى الفرق ؟ . . . ان الواقعي لا يتميز عن الخيالي على صعيد العواطف . واذا كان يكفي ان يتخيل المرء انه يحب ليحب فيكفي على هذا الاساس ان يفكر المرء انه يتخيل انه يحب عندما يحب لكي يحب بشكل اقل ، وايضاً لكي ينفصل قليلاً عمن يحبه ـ او لكي يفصل عنه بعض البلورات . ولكن الا يلزمه قبلاً ان يحب بشكل اقل ليدعي ذلك ؟

بتحليل كهذا سيحاول x في كتابي ان ينفصل عن z ـ وسيحاول على الاخص ان يفصلها عنه .

« ٢٨ تشرين الأول ـ يجري الكلام دون انقطاع عن التبلور الفجائي للحب . اما عدم التبلور البطيء ، الذي لم اسمع اطلاقاً من يتكلم عنه ، فهو ظاهرة نفسية يزداد اهتمامي بها . واعتقد ان من الممكن ملاحظتها ، بعد وقت يطول او يقصر ، في جميع زيجات الحب . ولن يكون في ذلك ما يخشى منه على لورا ، وعلى الخصوص (هنيئاً لها) اذا تزوجت فليكس دوففيه كما يشير عليها العقل ، وعائلتها ، وأنا. فدوفييه استاذ فاضل جداً ، مليء بالمزايا الحسنة وكثير الجدارة في مهنته (بلغني ان تلامذته يقدرونه جداً) ـ وستكتشف لورا فيه ، حسب العادة ، فضائل اكثر مما تتوهمه مقدماً ، وحين تتحدث عنه اجد ايضاً انها ، في المديح ، تبقى اجدر في هذه الناحية . ان قيمة

دوفييه افضل مما تظن .

« يا له من موضوع جميل لرواية في مدى خمسة عشر عاماً ، عشرين عاماً من الحياة الزوجية ، عدم النبلور النقدمي المتبادل للزوجين ! والعاشق مهما احب واراد ان يكون محبوباً لا يستطيع الاستسلام لما هو كائن حقيفة ، وفضلاً عن ذلك فانه لا يرى الآخر - ولكنه يرى عوضاً عنه معبوداً يزينه ، ويؤلهه ويخلفه .

« اذاً فقد حذرت لورا ، من نفسها ومن نفسي . حاولت ان ادخل في روعها ان حبنا لن يؤمن السعادة الدائمة لأي واحد منا. آمل ان اراها مقتنعة نوعاً ما » .

هز ادوار كتفيه ، واطبق المذكرات على الرسالة ووضع الكل في حقيبته . ووضع فيها ايضاً حافظة نقوده بعدما اخذ منها ورقة بمئة فرنك ستكفيه حتماً الى ان يعود لاستعادة حقيبنه التي عزم ان يبقيها في المستودع لدى وصوله . والمزعج هو ان حفيبنه هذه لا تقفل بالمفتاح ، او على الأقل فهو لا يملك المفتاح ليقفلها . انه يضيع دائماً مفاتيح حقائبه . ومستخدمو المستودع مشغولون كثيراً طوال النهار ولن يكونوا وحدهم . سيسترجع هذه الحقيبة زهاء الساعة الرابعة ، وينقلها الى منزله ، ثم يذهب للتخفيف عن لورا واغاثتها ، سيحاول ان يأخذها لتناول الطعام .

ادوار يغفو ، وافكاره تتخذ مجرى آخر بشكل لا شعوري . تساءل هل كان سيحزر ، من مجرد قراءة رسالة لورا ، ان شعرها اسود ؟ وقال لنفسه ان الروائيين ، بوصفهم الدقيق جداً

لاشخاصهم ، يزعجون المخيلة اكثر مما يخدمونها ، وان عليهم ان يتركوا كل قارىء يتخيل كلاً من هذه الأشخاص كما يحلو له . فكر في الروايه التي بعدها ، والتي يجب الا تشبه فى شيء ما كتبه حتى الآن . ليس وانماً ان « مزيفو النقود » هو عنوان جديد وقد اخطأ فى الاعلان عنه . والاشارة الى « قيد الاعداد » لاجتذاب القراء هي عادة حمقاء . ان هذا لا يجتذب احدا ومع ذلك فهو يربطك . ليس واثقاً ابصاً من ان الموضوع سيكون جميلاً . كان يفكر فيه دون انقطاع ومنذ زمن طويل ، ولكنه لم يكتب منه سطرا واحداً بعد . وبعكس ذلك ، كتب ملاحظاته وانعكاساته على دفتر صغير .

اخرج هذا الدفتر من حقيبته ، واخرج قلماً من جيبه . وكتب : « تعريه الرواية من جميع العناصر التي لا تنتمي الى الرواية بنوع خاص . وكما ان التصوير الشمسى قد اعتق فن الرسم من هم بعض التدقيقات فان الفونوغراف سينظف الرواية غداً ، دون شك ، من حواراتها المنقولة . تلك الحوارات التي جعل منها الكاتب الواقعي مجدا في اغلب الاحيان . ان الحوادث الخارجيه ، والنكبات ، والمفاجآت العنيفه تنتمي الى السينما ، ويستحسن ان نتركها الرواية لها . حتى وصف الاشخاص لا يبدو لي انه ينتمى الى هذا النوع،نعم ، حقيقة ، لا يبدو لي ان الرواية النقية (في الفن كما في كل شيء ، النقاء هـو الذي يهمني) يجب ان تهتم بذلك ، كذلك الدراما . ويجب الا يقال

ابداً ان كاتب الدراما لا يصف اشخاصه لأن المتفرج مدعو لرؤيتهما احياء على المسرح ، فكم من مرة تضايقنا من الممثل على المسرح ، وتألمنا لتمثيله بشكل قبيح دور ذلك الذي كنا نتخيله حسناً بدونه . . ان الروائي . عادة ، لا يثق كفاية بمخيلة القارىء .

اية محطة مرت بسرعة ؟ آنيير asnières . اعاد الدفتر الى الحقيبة . ولكن من المؤكد ان ذكرى باسافان تعذبه . اخرج الدفتر . وكتب فيه ايضاً : « بالنسبة الى باسافان ، الأثر الفني ليس غاية بقدر ما هو وسيلة . القناعات الفنية التي يتظاهر بها لا تبدو قوية الا لأنها غير عميقة. لا يمليها مزاج سري متطلب . انما هي تستجيب لطلب العصر ، وكلمة سرها هي : الانتهازية » .

« الحاجز الثابت » . ان ما سيبدو بعد قليل انه الاقدم هو الذي بدا في بادىء الأمر انه الاحداث . كل مجاملة ، كل تصنع هو وعد بشيخوخة . ولكن باسافان بهذا يرضي الفتيان . وقليلا ما يهمه المستقبل . وهو يتوجه الى جيل اليوم (وهذا افضل من التوجه الى جيل الامس) ـ وبما انه لا يتوجه الا الى هذا الجيل ، فان ما يكتبه يخشى ان يذهب مع هذا الجيل . هو يعرف ذلك ولا يعلل نفسه بأمل البقاء . ومن هنا جاء دفاعه العنيف عن نفسه ليس فقط عندما يهاجم ، بل يحتج حتى على كل حصر للانتقادات . ولو كان يشعر ان عمله باق لتركه يدافع عن نفسه ولما حاول ان يبرره دون انقطاع . ماذا اقول ؟ كان

ليهنىء نفسه بانهم لا يتهمونه ولا ينصفونه وسيكون في ذلك اكثر من لغز لنقاد الغد » .

وتطلع الى ساعته . الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين . يجب ان يكون قد وصل . يود ان يعرف اذا كان اوليفيه ينتظره لدى خروجه من القطار . انه لا يتوقع ذلك . هل أوليفييه عرف بالبطاقة التي اعلن فيها لأهل اوليفييه عن عودته حيث كتب متظاهراً بأنه يفعل ذلك عرضاً ، تاريخ وصوله ومكانه كما ينصب المرء فخاً للحظ ؟

وقف القطار . بسرعة ، حمال ! كلا ، فحقيبته ليست كثيرة الثقل ، والمستودع غير بعيد . . . على افتراض انه هنا فهل سيتعرفان الى بعضهما البعض بين الجمهور ؟ قليلا ما شاهدا بعضهما بعضاً . شرط الا يكون تغير كثيراً ! آه ! ايتها السماء العادلة أيكون هو ؟

٩

ما كنا نأسف لشيء مما اسفنا له في ما بعد ، لو ان ادوار واوليفييه عبرا عن فرحنهما بـالتلاقي تعبيـراً أوضح . . . ولكن عجزاً غريباً عن كل منهما عن تقدير حظوة الواحد في قلب الغير ونفسه كان مشتركا بينهما وقد شل حركتهما معاً ، بنوع ان كلاً منهما ظن انه هو المتأثر وحده ، وانصرف الى سروره الخاص وكأنه مضطرب لشعوره بحدة هذا السرور فلم يكن له من هم سوى ألا يدع ، فرحه يظهر كثيراً .

وهذا ما جعل أوليفييه عوض ان يساهم في سرور ادوار بأن يحدثه عن سرعته في المجيء لملاقاته ، يتحدث عن جولة كان يقوم بها بالقرب من هنا ، كأنه يعتذر عن مجيئه . ونفسه المفرطة في التشكك كانت حاذقة في التصوير ان ادوار يمكن ان يجد حضوره مزعجاً . وما كاد يكذب حتى احمر وجهه . ولاحظ ادوار هذا الاحمرار ، وبما انه كان قد امسك ذراع اوليفييه مسكة حبية ، فقد ظن بدافع التشكك ايضاً ان هذا ما جعله يحمر .

قال :

ـ حـاولت الظن انـك لن تكـون هنـا ، ولكن كنت في

اعماقي واثقاً انك سنأتي . .

واسنطاع ان يظن ان اوليفييه رأى شيئاً من الزهو في هذه العبارة . وحين سمعه يجيب بوجه طلق : ـ « كان على ان اقوم بجولة في هذا الحي » ترك ذراع اوليفييه وخمدت حماسته . كان يريد ان يسال اوليفييه اذا كان فد ادرك ان تلك البطاقة المرسلة الى اهله قد كنبت حصيصاً له ، وما إن هم بسؤاله حتى خانته الشجاعة . وكان اوليفييه يخشى ان يسبب الضجر لإدوار وان يجعله يسيء الظن به اذا تكلم عن نفسه ، فآثر الصمت . وتطلع الى ادوار ودهش لشيء من الارتجاف في شفته ، ثم خفض نظره على الأثر اما ادوار فكان يتمنى هذه النظرة ويخاف ان يراه اوليفييه هرماً . كان يلف بعصبية قطعة ورق بين اصابعه . انها البيان الذي اعطي له في المستودع ، ولكنه لم يلق بالا اليه .

« لو كان هذا بيان المستودع لما القاه هكذا »

قال اولبفييه ذلك لنفسه حين رآه يدعك البيان ثم يلقيه متلهياً . ولم يلتفت الا لحظة سريعة رأى فيها الريح تحمل قطعة الورق بعيداً وراءهما على الرصيف . ولو تطلع مدة اطول لاستطاع ان يرى شاباً يلتفطها ، هو برنار الذي تبعهما منذ خروجهما من المحطة . . . ومع ذلك ففد اغتم اوليفييه لأنه لم يجد شيئاً بقوله لإدوار . واصبح الصمت بينهما غير محتمل .

وكان يكرر لنفسه :

« عند وصولنا الى امام كوندورسيه سأقول له : « والآن ، يجب ان اعود الى البيت ، الى اللقاء » .

وحين وصوله امام المدرسة تابع سيره حتى زاوية شارع البروفانس . ولكن ادوار الذي كان هذا الصمت يثقل عليه ايضاً لم يستطع القبول بأن يفترقا هكذا ، فقاد رفيقه الى مقهى . قد يساعدهما شراب البورتو في الانتصار على ضيقهما .

وقرعا الكأسين . وقال ادوار رافعاً رأسه :

ـ كأس نجاحك . متى يكون الامتحان ؟

ـ بعد عشرة ايام .

ـ هل بالامكان معرفة ذلك ؟ يكفي ان اكون متعكراً في ذلك النهار .

لم يجروء على الاجابة ب « نعم » خوفاً من إظهار كثير من الثقة . واما ما كان يضايقه ايضاً فهما الرغبة والخوف معاً من ان يكلم ادوار بصيغة رفع الكلفة (tu) ، كان يقتصر على اعطاء كل من عباراته دوراً مباشر تحذف منه على الأقل صيغة جمع المخاطب (vous) ، بنوع انه ينتزع بذلك من ادوار فرصة تلمس صيغة رفع الكلفة التي يتمناها ، والتي حصل عليها ، ويذكر ذلك جيداً ، قبل رحيله ببضعة ايام .

ـ هل اشتغلت جيداً ؟

ـ لا بأس . ولكن ليس بقدر ما استطع .

فقال ادوار بحكمة :

ـ الشغيلة الصالحون يشعرون دائمًا ان في وسعهم ان يعملوا اكثر مما عملوا .

ـ قال ذلك رغمًا عنه ، وما لبث ان وجد عباراته سخيفة . وقال :

ـ اتنظم الاشعار دائمًا ؟

ـ من وقت إلى آخر . . . انا بحاجة ماسة الى النصائح .

ورفع عينيه الى ادوار ، كان يريد ان يقول : « نصائحكم » ، « نصائحك » . كانت نظرته تقول ذلك ، لعدم وجود الصوت ، حتى ظن ادوار انه قال بدافع الاهتمام او بدافع اللطف . ولكن لماذا اجاب ، وبكثير من الحدة :

ـ اوه ! النصائح ، يجب ان يعرف المرء كيف يسديها لنفسه ، او يتلمسها عند الرفاق ! . . . اما نصائح الاكبر سناً فلا تساوي شيئاً .

وفكر اوليفييه : لم اطلبها منه فلماذا يحتج ؟ »

كان كل منهما مرغمًا على الا يخرج منه سوى ما هو جاف ، ما هو قسري ، وكل منهما وقد شعر بضيق الآخر ظن انه هو المصدر والسبب . لا يمكن ان يخرج من محادثات كهذه شيء صالح اذا لم يأت ما ينجدها . ولم يأت شيء .

كان اوليفييه قد نهض متعكراً هذا الصباح . وسبب الغم الذي اعتراه عند استيقاظه هو انه لم يجد برنار بجانبه ، ولأن هذا غادره دون وداع . وهذا الغم الذي تغلب عليه السرور

بلفاء برنار لمدة وجيزة عاد وارتفع في نفسه كموجة دكناء غرقت فيها كل افكاره . كان يريد التحدث عن برنار ، وان يقص على ادوار كل شيء وه لا ادري ، ويجعله يهتم بصديقه .

ولكن اقل ابتسامه من ادوار كانت تحرجه ، وكاد التعبير يخون العواطف المحمومة الصاخبة التي تهيجه ، لو لم يخش ان يبدو مفرطاً . وصمت ، وشعر بقسماته تقسو ، وكان يريد ان يلقي بنفسه بين ذراعي ادوار ويبكي . ولم يفهم ادوار هذا الصمت ، تعبير هذا الوجه المقطب ، كان يحب حبا يجعله يضيع كل لياقة . ولو جرؤ على النظر الى أوليفييه لتمنى ان يضمه بين ذراعيه ويدلله كطفل ، وحين التقى بنظراته العبوس فكر :

ـ هكذا اذن ! انا اضجره . . . اتعبه ، اكدره . يا للصغير المسكين ! لا ينتظر الا كلمة مني ليذهب .

وهذه الكلمة قالها ادوار ، بغير مقاومة ، شفقة على الآخر :

ـ الآن ، يجب ان تتركني . اهلك ينتظرونك لتناول الطعام ، انا متأكد من ذلك .

واوليفييه، الذي كان يفكر تفكير ادوار ، لم يفهم بدوره موقفه فنهض بعجلة ، ومد يده. كان يريد على الأقل ان يقول لادوار : ـ متى اراك ؟ متى اراكم ؟ متى نرى بعضنا بعضاً ؟ وكان ادوار ينتظر هذه العبارة . فلم يحضره شيء سوى : ـ وداعاً ـ مبتذلة .

١٠

كانت الشمس فد ابمظت برنار . فنهض عن ممعده ساعراً بصداع شديد . اما بسالته التى كـانت معه في الصبـاح فمد فارقته . شعر انه وحيد بشكل فاحش ، وفلبه مفعم بما لا ادري من ملوحة رفض ان يدعوها كآبة ، ولكنها ملأت عينبه دموعاً . ما العمل ؟ . . . اين يذهب ؟ . . سار نحو محطة سان لازار في الساعة التي يعرف اوليفييه يدهب فيها هناك وقد حرى ذلك دون مقصد واضح ، ودون ايه رغبة سوى لفاء صديقه . لقد وبخ نفسه على رحيله الفجائي في الصباح ، فربما حزن اولبفبيه لذلك . اليس هو الكائن الذي يفضله برنار على الأرض ، . . حين رآه متأبطا ذراع ادوار فان عاطفة غـريبة جعلتـه بنبعهما متخفياً لقد ازداد شعوره بشكل مؤلم ، ومـع ذلك ففـد اراد ادخال نفسه ببنهما . ان ادوار ببدو له جذابا ، وهو اكبر من اوليفييه بقلبل ، ومشيّته تبدو اقل فتوة . لفد عزم على الافتراب من ادوار ، وانتظر لإتمام ان بنركه اوليفييه . ولكن بأى عدر يقترب منه ؟

تلك اللحظة رأى قطعة الورق الصغيرة المدعوكة تفلت من

يد ادوار اللاهية . وحين التقطها ورأى انها بيان مستودع . . . . يا الله هذا هو العذر الذي يبحث عنه ! رأى الصديقين يدخلان المقهى فظل حائراً لحظة ، ثم عاد الى محاورة نفسه فقال :

ـ لن يجد اي شحيم طبيعي امرأ اكثر الحاحاً من اعادة هذه الورقة اليه .

« كم تظهر لي فوائد هذاالعالم

متعبة ، عقيمة ، غير مفيدة » (١)

هذا ما سمعت هملت يقوله . برنار ، برنار . اية فكرة تداعبك ؟ لقد نبشت درجاً بالامس ، ففي اي طريق تتورط ؟ انتبه يا بني . . . انتبه الى ان مستخدم المستودع الذي تعاطى معه ادوار ذهب للغداء عند الظهر واستبدل بآخر ثم ألم تقطع وعداً لصديقك بأن تقدم على كل شيء ؟

ومع ذلك فقد فكر ان ثم الكثير من العجلة قد يفسد كل شيء ، كأن يفاجأ ساعة وصوله ، اذ من الممكن ان يجد المستخدم هذه العجلة موضع شبهة . وبرجوعه الى سجل المستودع يمكن ان يرى انه ليس من الطبيعي ان يوضع متاع في المستودع قبل الظهر ببضع دقائق ثم يسحب منه بعد ذلك بقليل . واخيراً ، لو ان احد المارة ، احد الثقلاء ، رآه وهو يلتقط الورقة . . . اخذ برنار على نفسه ان يعاود النزول حتى الكونكورد دون ان يسرع ، اي مدة الوقت الذي يحتاجه رجل

آخر لتناول الطعام . كثيراً ما يحدث هذا ، أليس كذلك ؟ ان يضع المرء حقيبته في المستودع مدة تناوله الطعام ثم يعود لاخذها على الاثر . لم يعد يشعر بالصداع . وعندما مر امام شرفة المطعم تناول دون تكلف عوداً ينقب به اسنانه (كانت هذه العيدان بشكل حزم على الموائد) سيقضمه امام مكتب المستودع ليتظاهر بالشبع . وسر لأن له مظهره البشوش ، واناقة الثياب ، وميزة هيئته ، وصراحة ابتسامته ونظرته ، وما لا اعلمه في المشية اخيراً ، حيث يوحي انه ، وقد تغذى في النعمة ، من اولئك الذين لا يحتاجون شيئاً وعندهم كل شيء . ولكن هذا يبلى عند النوم على المقاعد

أحس بخوف مفاجىء حين طلب منه المستخدم عشرة سنتيمات حراسة . لم يكن معه فلس . ما العمل .؟ كانت الحقيبة هناك على المتكأ ، ان اقل تعبير عن الخوف او القلق يوقظ الانتباه . كذلك فقدان الدراهم . ولكن الشيطان لن يسمح بهلاكه ، فدس تحت اصابع برنار القلقة ، التي اخذت تنقب من جيب الى جيب في صورة من البحث اليائس ، قطعة صغيرة من فئة العشرة فلوس منسبة ، منذ وقت غير معروف ، هناك في جيب صدرته . ناولها برنار للمستخدم دون ان يظهر شيئاً من اضطرابه ، واستولى على الحقيبة ثم وضع في جيبه الفلوس التي ردت اليه بحركة بسيطة ، فاضلة . اوف ! الطقس حار . اين يذهب ؟ لقد خارت ساقاه تحته وبدت له الحقيبة

ثقيلة . ماذا يفعل بها ؟ فكر فجأة انه لا يملك مفتاحها . كلا ، كلا ، كلا ، لن يغتصب القفل هو لبس سارقاً . يا للشيطان ! لو كان يعرف ما في داخلها على الأقل . انها ثقيله في ذراعه . لقد سبح عرقاً . توقف لحظة . وضع حمله على الرصيف . وما من شك في انه ينوي اعادة هذه الحقيبة ، لكنه بريد ان يرى ما فيها اولاً . ضغط القفل كيفما اتفق . اوه ! اعجوبة ! فتح المصراعان وجعلاه يستشف من خلالها تلك اللؤلؤة : محفظة يستشف منها اوراقاً مالية . استولى برنار على اللؤلؤة واعاد اغلاق المحارة على الاثر .

اصبح معه الآن شيء . بسرعة ! . . فندق ! يعرف فندقاً قريباً جداً في شارع امستردام . يكاد يموت جوعاً . ولكن قبل الجلوس الى المائدة يريد ان بضع الحقيبة فى مأمن . هناك غلام يحملها ويتبعه على السلم ثلاث طبقات رواق . . . باب اقفله على كنزه بالمفتاح وهبط .

جلس برنار الى المائدة امام شريحة لحم « بيفتاك » ولم يجروء على سحب المحفظة من جيبه (هل يعرف المرء من يراقبه ؟) ولكن يده كانت تجسها بمحبة في اعماق هذه الجيب الداخلية . وقال لنفسه :

- إفهام ادوار انني لست سارقاً ، هذه هي العقدة . اي نوع من الناس هو ادوار ؟ . . . ربما زودتنا الحقيبة ببعض المعلومات . هو جذاب ، وهذا شيء معلوم . ولكن كثيرون من الجذابين لا

يستسيغون الدعابه . سيكون مسروراً برؤ ية حقيبه تابية اذا ظن انها مسروقه . سيكون شاكراً لي إعادتها اليه ، والا فهو فظ . سأعرف كيف اجعله يهتم بي . لنتناول الحلوى بسرعة ولنصعد لنتفحص الموقف الحساب ، ولنترك اكرامبة مهمة للندل .

بعد هنيهات كان في الغرفه من جديد

ـ والآن، ايتها الحقيبة ها نحن وجدنا ! بدل كامل من الثياب . انها اكبر من قياسى بقلبل . القماش ملائم ويدل على ذوق رفيع . ملابس داخلية ، ادوات زينه . لست متأكداً من انني سأعيد اليه كل هذا . ولكن مما يتبب انني لست سارقاً هو ان هذه الأوراق الموجودة هنا سنسنولى على اهمامي اكثر من اي شيء آخر . لنقرأ اولاً هذا .

انه الدفتر الذي ضم البه ادوار رسالة لورا المؤثره ، وقد عرفنا قبلاً صفحاته الأولى . وهذا ما يلا تلك الصفحات :

١١

يوميات ادوار

« اول تشرين الثاني - مضى خمسة عشر يوماً . اخطأت في عدم تسجيل هذا حالاً . وليس ذلك بسبب عدم توفر الوقت بل لأن قلبي كان لا يزال مليئاً بلورا - او بعبارة اصح ، لم أشأ ان يلهو تفكيري عنها ، ثم اني لا ارضى ان اسجل هنا شيئاً عرضياً ، طارئاً ، ولم يبد لي ايضاً ان ما سوف ارويه يمكن ان يكون له تابع ، ومضاعفات كما يقال ، انني على الأقل ارفض القبول به ، وهذا لأبرهن لنفسي ، بشكل ما ، انني تحاشيت الحديث عنه في مذكراتي ، ولكنني اشعر تماماً ، وانا استطيع الدفاع عن نفسي ، ان صورة اوليفييه تجذب اليوم افكاري كالمغناطيس وتحول مجراها ، وانني لا استطيع ان اوضح افكاري جيداً ولا ان افهم نفسي تماماً دون ان احسب له حساباً .

« عدت في المساء من عند بيرّان حيث ذهبت اراقب عملية الطباعة لإعادة نشر كتابي القديم . وبما ان الطقس كان جميلاً فقد تلكأت على طول الارصفة منتظراً ساعة الفطور .

« وقبل ان اصل الى امام فانييه vanıer بقليل وقفت امام « بسطة » كتب تباع « اوكازيون » . لم تثر الكتب اهتمامي بقدر ما اثاره تلميذ صغير في الثالثة عشرة تقريباً كان ينبش الرفوف امام عين وديعة لمراقب يجلس على مقعد من القش في بـاب الدكان. تظاهرت بتأمل « البسطة » ولكنني كنت اراقب الصغير ايضاً من زاوية عيني . كان يرتدي معطفاً باليـاً حتى الخيوط وأكمامه قصيرة جداً تظهر اكمام السترة من تحتها . وقد ظلت الجيب الجانبية الكبرى مفتوحة مع انها تشعر بأنها فارغة ، في الزاوية ارتخى القماش . فكرت ان هذا المعطف قد استعمله قبلاً بضعة اشقاء وان من عادته واشقائه ان يضعوا كثيراً من الاشياء في جيوبهم . وفكرت ايضاً ان والدته مهملة جداً او انها مشغولة لأنها لم تصلح ذلك . ولكن الصغير كان قد دار قليلاً في هذه اللحظة فرأيت الجيب الاخرى مرقعة دون اتقان ، بخيط ثخين متين اسود . وحينئذ تناهت الى سمعي تـوبيخـات الامومة : « لا تضع في جيبك كتابين معاً ، ستبلي معطفك . لا تزال جيبك ممزقة . انذرتك انني لن اقـوم بالترقيع في المرة القادمة . انظر ماذا تشبه هيئتك . » وكلها امور قالتها لي ايضاً امي المسكينة ولم احسب لها حساباً . المعطف المفتوح يتيح رؤية السترة . وقد لفت نظري نوع من الوسام الصغير في طرف شريط ، او على الاصح وردة صغيرة صفراء كان يضعها في العروة . انني اسجل كل ذلك بدافع الانضباط وعلى وجه الدقة لأن تسجيله يضجرني .

« مرت لحظة دعي فيها المراقب الى داخل الدكـان ، ولم يمكث هناك سوى فترة قصيرة ثم عاد ليجلس على مقعده ، ولكن هذه الفترة كانت كافية لتتيح للولد ان يضع في جيب معطفه الكتاب الذي كان في يده ، ثم اخذ بنبش الرفوف بعد ذلك كأن لم يحدث شيء . ومع هذا كان قلقاً ، رفع رأسه ، ولاحظ نظراتي فأدرك انني رأيته او على الأقل قال لنفسه ان في امكاني ان اراه ، لم يكن متأكداً من ذلك ، ولكنه اضاع في الشك كل اطمئنان ، فاحمر وجهه وبدأ ينهمك في اعمال صغيرة محاولاً ان يبدو غير مرتبك ، لكنه كان يسجل قلقاً عظيماً . لم افارقه بنظري ، فأخرج من جيبه الكتاب المسروق ثم اعـاده اليها ، وابتعد بضع خطوات ، وسحب من داخل سترته محفظة حقيرة صغيرة مهترئة حيث تظاهر بالبحث عن مال يعرف تماماً انه غير موجود فيها ، كشر كشرة ذات معنى ، كشرة مسرحية موجهة الي دون شك كأنها تريد ان تقول : « ليس معي شيء » باضافة ذلك الفرق الضئيل : « عجيب ، كنت اعتقد ان معي شيئاً » ، كل هذا بشيء من الافراط ، بشيء من التضخيم ، كممثل يخشى الا يصغى اليه . واخيراً ، اكاد اقول تحت ضغط نظرتي ، اقترب ثانية من « البسطة » ـ واخرج الكتاب ، من جيبه ووضعه فجأة في المكان الذي كان يشغله . جرى هذا بشكل طبيعي حتى ان المراقب لم يلحظ شيئاً . ورفع الولد رأسه من جديد آملا هذه المرة ان يكون خالصاً لا عليه ولا له . ولكن لا ، فنظري كان هناك دائماً ، كعين قايين ، الا ان عيني كانت

تبتسم . كنت اريد ان اكلمه ، انتظرت الى ان يترك واجهة الدكان فاقترب منه ، لكنه لم يتحرك وبقي واقفاً امام الكتب ، وادركت انه لن يتحرك ما دمت انظر اليه هكذا . حينئذ ابتعدت بضع خطوات ، كما يفعلون في « الزوايا الاربع » لدعوة الطريدة الوهمية الى تغيير مجثمها ، كأنني اكتفيت من النظر . فذهب من ناحيته ، لكنه ما كاد يبتعد حتى لحقت له ، وسألته فجأة ، واضعاً في نبرة صوتي وعلى وجهي كل ما استطعت من أنس .

ـ ما هو هذا الكتاب ؟

فتطلع جيداً في وجهي ، وشعرت بزوال حذره . قد لا يكون جميلاً ، ولكن انه نظرة جميلة له ! . . . رأيت فيها كل العواطف تتحرك كالاعشاب في اعماق الساقية .

ـ انه دليل انكليزي . ولكنه غال وانا لست غنياً

ـ كم ؟

ـ فرنكان وخمسون سنتيماً .

ـ هذا لا يمنع انك لو لم ترني انظر اليك لذهبت والكتاب في جيبك .

اتى الصغير بحركة انتفاض ، وقال مقاوماً بلهجة فظة جداً .

ـ هل . . . تراك تحسبني . . . لصاً ؟

قال ذلك بإقناع محاولاً ان تجعلني اشك بما رأيته . وشعرت

اني سأفقد الغنيمة اذا الححت فأخرجت ثلاث قطع من جيبي :

ـ هيا ، اذهب واشتر الكتاب ! . . انا بانتظارك .

وخرج بعد دقيقتين من الدكان وهو يتصفح الكتاب مطمح انظاره . اخذته من يده . انه دليل « جوان » القديم لعام ٧١ . وقلت وانا اعيده اليه .

ـ ماذا تريد ان تفعل بهذا ؟ انه قديم جداً ولا يمكن استعماله . فاعترض ان نعم ، ولكن الأدلة الاقرب عهداً ثمنها اغلى ـ اما ما « سيفعله » فان خرائط هذا الدليل يمكنه الاستفادة منها . ولكي لا تخسر اقواله تكهنها لا احاول ان انقلها هنا فهي لن تكون ذات وقع بعد تعريتها من لهجة الضواحي الساحرة التي وضعها فيها والتي كنت اجد فيها سلوى بمقدار ما اجدها متأنقة .

« ويجب اختصار هذه الحادثة كثيراً . يجب الا يأتي الوضوح من تفصيل الحكاية بل من خطين او ثلاثة تكون في الموضع الملائم تماماً في مخيلة القارىء . ثم اني اعتقد ان هناك فائدة في ان اجعل الولد يروي كل ذلك ، ان وجهة نظره اكثر تعبيراً عن الحال من وجهة نظري والصغير متضايق ومفتتن معاً من انتباهي له . ولكن ثقل نظرتي يحرف اتجاهه . ان الشخصية الغضة غير الواعية بعد تدافع عن نفسها وتختفي وراء موقف . وما من شيء أصعب من مراقبة كائنات في حالة التكوين ، ويجب الا ينظر اليها الا مواربة ، جانبياً .

« وصـرح الصغير فجـأة » « إن افضـل مـا يحبـه » هـو « الجغرافيا » . وارتبت في ان تكون غريزة التشرد مختفية وراء هذا الحب . فسألته :

ـ اتريد الذهاب بعيداً ؟

ـ بالتأكيد ! . . . .

قال ذلك هازاً كتفيه قليلاً .

وقيل الي انه ليس سعيداً مع اهله . سألته اذا كان يعيش معهم ـ نعم ـ اذا لم يكن مسروراً معهم ؟ ـ فاعترض بفتور وبدا قلقاً نوعاً لانه تكشف كثيراً ، فاضاف :

ـ لماذا تسألني ؟

فقلت على الأثر :

ـ لا لشيء .

ثم لمست بطرف اصبعي شريط عروته الاصفر وسألته :

ـ ما هذا ؟

ـ انه شريط ، وتراه جيداً .

كانت أسئلتي تزعجه ، دار نحوي فجأة بشكل عدائي ، وقال بلهجة ساخرة وقحة لم اعتقد قط انه قادر عليها وقد اثارتني تماماً :

ـ قل . . ايحدث لك غالباً ان تنظر بفضول الى التلامذة ؟

وبينما كنت اتمتم باضطراب نوعاً من الجواب فتح محفظته المدرسية التي يحملها تحت ابطه ليضع فيها ما اشتراه . كانت

فيها كتب مدرسية ودفاتر مغلفة بورق ازرق على نسق واحد اخذت واحداً منها . انه دفتر درس التاريخ كان الصغر قد كتب في اعلاه اسمه بحروف كبيرة . وففز قلبي عندما عرفت فيه اسم ابن اختى .

« جورج مولينييه »

(وففز قلب برنار ابصا عندما قرأ هذه السطور ، وقد بدأت هذه القصة كلها تثير اهتمامه بشكل عظيم)

« سيكون من الصعب الاقناع في « مزيفو النقود » ان الذي يلعب شخصي هنا لم يستطع ان يعرف ابناء اخته مع بقائه على علاقات طيبة معها . انني اشعر دائمًا بأكبر الم لتمويه الحقيقة . حتى تغيير صبغة الشعر يبدو لي غشاً يجعل الحقيقي في نظري اقل مشابهة للحقيقة . كل شيء يتماسك واشعر بعلاقاتك دقيقه جداً بين جميع الاحداث التي تقدمها الحياة لي ، ويبدو لي دائما انه لا يمكن تغيير شيء فيها دون تغيير المجموع كله . ومع ذلك فلا استطيع ان اروي ان ام هذا الولد ليست سوى نصف اخت لي ، ولدت من زواج ابي الأول ، وانني لم ارها طوال حياة اهلي ، وان قضايا ارث قطعت علاقاتنا . . كل ذلك محتوم ولا أرى شيئاً آخر استطيع ابتداعه لأمحو عدم التبصر . كنت اعرف ان لأختي هذه ثلاثة ابناء لا اعرف منهم سوى الاكبر ، الطالب في الطب ، وهذا ايضاً رأيته لماماً لأنه ، وقد اصيب بالسل ،

اضطر الى قطع دراسته والاستشفاء فى الجنوب . ولم يكن الاثنان الآخران هناك حتى دهشت لرؤيته بولين اما هذا الموجود امامي فمن المؤكد انه الاخير لم اظهر شيئا من دهشتي ، ولكن حين تركت جورج الصغير فجأة ، بعدما علمت انه عائد الى اول الطعام في البيت ، ففرت الى شارع اخره لاسلكه الى شارع نوتردام ديشان . فكرت انني اذا وصلت في هذه الساعه فان بولين سنبقيني لتناول الطعام ، وهذا امر لا نستبعد حصوله ويمكن ان استعمل كتابي ، الذي حملت نسخة منه من عند بيرّان واستطيع تقديمها اليها ، كعذر لهذه الزيـاره التي هي في غير وقتها .

« هذه اول مرة اتناول طعاماً عند بولين . وكنت مخـطئاً لحذري من صهري . انا اشك في كونه قانونياً مرموقاً ولكنه يعرف الا يتكلم عن مهنته اكثر مما اتكلم عن مهنتي عندما تكون معاً ، بنوع اننا نتفاهم جيداً .

« ومن الطبيعي الا انبس بكلمة عند وصولي هذا الصباح عن اللقاء الذي حدث لي

ـ آمل ان يتاح لي بذلك معرفة ابناء اختي .

ـ وقلت لبولين حين رجتني ان ابقى لتناول الطعام : فانت تعرفين ان هنالك اثنين لا اعرفهما بعد .

قالت لي :

ـ لن يـأتي اوليفييه الا بعـد قليل لأن عنـده مـراجعـة ،

سنجلس الى المائدة من دونه . ولكني سمعت جورج يعود وسأدعوه .

« واسرعت الى باب الغرفة المجاورة :

ـ جورج تعال سلم على خالك .

« اقترب الصغير ومد الي يده ، فقبلته . . . انا معجب بقوة المداجاة عند الاولاد ، لم يظهر عليه انه فوجىء ، حتى بدا وكأنه لم يتعرف إلي قط وببساطة ، احمر وجهه كثيراً ، ولكن امه قد تفكر ان هذا عائد الى الخجل .فكرت ان من الممكن ان يكون متضايقاً للقاء « التحري » الذي لقيه منذ هنيهة ، لأنه تركنا فجأة وعاد الى الغرفة المجاورة ، هي غرفة الطعام التي فهمت انها تستعمل غرفة درس للأولاد بين وجبات الطعام . وعاد بعد قليل حين دخل والده الى الصالون ، واغتنم فرصة قيامهم الى غرفة الطعام ليقترب مني ويمسك بيدي دون ان يراه اهله . ظننتها اولاً علامة صداقة ، فأعجبتني ولكن لا : فتح يدي التي اطبقتها على يده ووضع فيها قطعة صغيرة من الورق اؤكد انه كتبها ، ثم طوى اصابعي فوقها ضاغطاً على الكل بقوة . وغني عن القول انني هيأت نفسي للعب ، فخبأت الورقة الصغيرة في جيبي حيث لم استطع اخراجها الا بعد الطعام . وهذا ما قرأته فيها :

« اذا حكيت لاهلي قصة الكتاب فسأقول (شطب : سأكرهك) انك قدمت علي عروضاً .

وتحت هذا :

« انني احرج من المدرسة كل يوم في الساعة العاشرة »

« قوطعت البارحة بزيارة x تركني حديثه في حالة قلق .

« فكرت كثيراً بما قال لي x انه لا يعرف شيئاً عن حياتي ولكن عرضت عليه مخطط « مزيفو النقود » طويلاً .نصيحته نافعة دائمًا لي ، لأن وجهة نظره تختلف عن وجهة نظري . هو يخشى الا اجنح الى الافتعال والا اترك الموضوع الحقيقي الى ظل هذا الموضوع في دماغي . وما يقلقني هو ان الحياة (حياتي) تنفصل هنا عن مؤلفي ، ومؤلفي يبتعد عن حياتي . ولكن لم استطع ان اقول هذا له . حتى الآن كانت اذواقي وعواطفي ، واختباراتي الشخصية تغذي كل كتاباتي كما يجب وكنت اشعر بقلبي يخفق في عباراتي المبنية افضل بناء . منذ الآن انقطع الرباط بين ما افكر فيه وما اشعر به واتساءل ان لم يكن الضجر الذي احس عن ترك قلبي اليوم يتكلم هو الذي يلقي كتابتي في التجريد والاصطناعي .وحين افكر في هذا يظهر لي فجأة مغزى اسطورة ابولون ودافنه *Daphné* وافكر : سعيد من يستطيع ان يمسك بقبضة واحدة الغار ومحط غرامه .

« رويت لقائي مع جورج مطولاً حتى اضطررت الى التوقف في اللحظة التي دخل فيها أوليفييه المشهد . لم ابدأ هذه الحكاية الا لأتكلم عنه ولم اعرف ان اتكلم الا عن جورج . ولكني ، في فترة الحديث عن أوليفييه ، ادرك ان الرغبة في إرجاء هذه

الفترة هي سبب بطئي . ومنذ ان رأيته في ذلك النهار الأول ، ومنذ ان جلس الى مائدة العائلة ، ومنذ نظرتي الأولى ، او على الاصح منذ نظرته الأولى ، شعرت ان هذه النظرة استولت علي وان حياتي لم تعد في تصرفي .

« ألحت بولين ان اكثر من المجيء لرؤيتها . ورجتني ان اهتم بأولادها وجعلتني افهم ان والدهم لا يعرفهم معرفة حسنة . كلما حدثتها اشعر انها جذابة ، ولم افهم كيف استطعت ان ابقى طويلاً من غير ان اتردد عليها . لقد نشأ الاولاد على الدين الكاثوليكي ، ولكنها تتذكر تربيتها الاولى البروتستانتيه . ومع انها تركت بيت والدنا المشترك يوم دخلت والدتي اليه فقد اكتشفت كثيراً من الخطوط المتشابهه بيني وبينها . وقد وضعت اولادها في مدرسه داخلية عند والد لورا حيث سكنت انا نفسي مدة طويلة . ومدرسة ازاييس تعتز بان ليس لها صبغة مذهبية خاصة (كان فيها حتى اتراك في ايامي) . وأيضاً فان أزاييس العجوز ، الصديق القديم لأبي ، الذي اسسها ولا يزال يديرها ، كان قبلاً قسيساً .

تلقت بولين اخباراً سارة من المصح حيث انتهى فنسان الى الشفاء .

قالت لي انها حدثته عني في رسائلها وتريد ان اعرفه بشكل افضل ، لأنني لم اره الا لماماً .هي تبني على ولدها البكر آمالاً

كبيـرة ، والعائلة نبـذل وسعها لتيـح له الاسنفـرار ـ اريد ان اقول : ان يكون له مسكن مستقل لاسقبال الزبـائن . وفي انتظار ذلك وجدت وسلة لنحفظ له قسمًا من الشقه الصغيرة التي يشغلونها ، بأن يقطن اوليفييه وجورج تحت سقفهم في غرفه منفرده فارغة . والسؤال الكبير هو اذا كان فسان سيضطر الى عدم دخول مدرسة داخلية لسبب صحي .

« الحقيقة ان فنسان لم يثر اهتمامي . واذا كنت تحدثت عنه كثيراً مع امه فقد كان ذلك بداعى مجاملتها ، ولكي نستطيع بعد ذلك ان نهتم بأوليفييه مدة اطول. اما جورج ، فقد ظهر عدم رضاه عني ، وهو لا يكاد يجيبني حين اكلمه ، وحين القاه يلقي على نظرة متشككة لا يمكن تفسيرها . يبدو انه يريد الا اذهب لانتظاره عند باب مدرسته .

لا أرى اوليفييه كثيراً . وعندما اذهب الى والدته لا أجرؤ على لقائه في الغرفة التي اعرف انه يشتغل فيها ، واذا لقيته صدفة اصاب بكثير من الارتباك والاضطراب بحيث لا أجد ما اقوله له . وقد جعلني هذا تاعساً بحيث صرت افضل الذهاب لرؤ ية والدته في الساعة التي اعلم انه غير موجود في البيت » .

١٢

يوميات ادوار

(تابع)

« ٢ تشرين الثاني - حديث طويل مع دوفييه الذي خرج معي من بيت اهل لورا ورافقني حتى الاوديون خلال اللوكسمبور . انه يعد اطروحة دكتوراه عن وردزورث ، ولكني شعرت ، من الكلمات القليلة التي قالها لي عنه ، ان اكثر ما يمتاز به شعر وردزورث من خصائص قد فاته التنبه اليها . كان من الافضل لو اختار تنيسون . اشعر بما لا ادري من النقص عند دوفييه . من الغموض ، من السذاجة . هو يأخذ جميع الاشياء والكائنات كأنها ما تتظاهر به ، ويمكن ان يكون هذا متأتياً من انه يتظاهر دائماً بما هو . وقد قال لي :

« - اعرف انك افضل صديق للورا . وما من شك في انه كان علي ان اغار منك قليلا . لا استطيع . بل على العكس ، فكل ما قالته لي عنك جعلني في آن واحد افهمها بشكل افضل ، واتمنى ان اكون صديقاً لك . لقد سألتها ذات يوم اذا

كنت لا تحقد علي بسبب زواجي منها ، فاجابتني ان الامر على العكس لأنك اشرت عليها بهذا الزواج (اعتقد انه قال لي ذلك بلهجة سطحية) اريد ان اشكرك ـ والا تجد ذلك سخيفاً فانا اقوم به بكل صدق ـ هكذا اضاف ، محاولا ان يبتسم ، ولكن بصوت مرتجف وبدموع في عينيه .

« لم اعرف ما اقول له لأنني شعر انني اقل تأثراً مما يجب ان اكون وغير قادر على استدرار الدمع بشكل متبادل . واضطررت ان ابدو له جافاً بعض الشيء ، لكنه اقلقني . الا انني ضغطت بكل ما استطعت من حرارة على اليد التي مدها الي . هـذه المشاهد التي يقدم المرء فيها من قلبه اكثر مما يطلب منه هي دائمًا مؤلمة . وما من شك في انه فكر باغتصاب عطفي . ولو كان اكثر فطنة لشعر انه قد سرق . ولكني رأيته آنذاك معترفاً بفضل بادرته اذ ظن انه لمس انعكاس ذلك في قلبي . وبما انني لم اقل شيئاً ، ويمكن انه احس بالقلق من سكوتي ، فقد اضاف بعد قليل :

ـ انني اعتمد على الغـربة النى ستضعهـا فيها حيـاتها في كمبـريدج لمنـع المقارنـات من ناحيتهـا ، والتي ستكون لغـير صالحي .

« ماذا يريد ان يقول بذلك ؟ حاولت الا افهم . ربما يتوقع اعتراضاً ، ولكن هذا يزيد من التصاق بعضنا ببعض . انه من اولئك الناس الذين لا يستطيع الخجل عندهم احتمال الصمت

ويطنون ان من الواجب ملأه بالمبالغات انه من اولئك الدين يقولون لك بعد ذلك : « كنت دائما صريحاً معك » . ايه ! . . ليس المهم ان يكون الواحد صريحاً بقدر ما المهم ان يسمح لسواه بأن يكون معه صريحاً . وكان عليه ان يحسب حساباً لكون صراحته منعت صراحتي .

« ولكني اذا لم استطع ان اصبح صديقه فاعتقد على الأقل انه سيكون زوجاً ممتازاً للورا . وما اعيبه عليه هنا هي ، في الحقيقة ، صفاته الحسنه وتكلمنا عن كمبربدج بعد ذلك حيث وعدت بالذهاب لرؤ ينهما .

« اية حاجة حمقاء دفعت لورا الى ان تحدثه عني ؟

« ميل طبيعي للتفاني عند المرأة يستحق الاعجاب . والرجل الذي تحبه ليس هو في اغلب الاحيان في نظرها سوى نوع من المشجب تعلق حبها عليه . بأية سهولة صادقة تجري لورا عملية الاستبدال ! انا افهم ان تتزوج دوفيه ، وكنت احد الاولين الذين اشاروا عليها به . ولكن كان من حقي ان آمل منها شيئاً من الحزن . موعد الزفاف بعد ثلاثة ايام .

« بعض المقالات عن كتابي . ان الصفات التي اعترف لي بها هي من تلك التي اكره . . . . هل كنت على حق في تركهم يعيدون طبع هذه الأشياء القديمة ؟ انها لا تتعلق بشيء مما احبه اليوم . ولكني لم ار ذلك فيها الا الآن.ولم يبد لي انني تغيرت ، ومع انني وعيت ذاتي الآن فقط ، فحتى هذا الوقت لم اكن

اعرف من كنت . اتراني في حاجة الى ان يقوم آحر مكاني بدور الكاشف ؟ ان هذا الكتاب قد تبلور وفقاً للورا ، ولهذا لا اريد ان اتعرف فيه الى نفسي

« هذه الفطنه المصوعه من النعاطف ، والتى نتيح لنا ان نسنبق الفصول ، هل كانت ممنوعة عليا ؟ اى مشاكل سنملو غداً اولئك الذين سيأتون ؟ لهم اريد ان اكتب . تجهيز غذاء للرغبات الحارة في المعرفه والتى لا نزال غبر واصحة ارضاء تطلبات لم تتضح معالمها بعد بنوع ان ذلك الذى ليس هو اليوم الا طفلاً يدهش غداً لالتقائه بى على طريقه

« لكم احب ان اشعر بكتير من الفضول عند اوليفييه ، وبنفور ملول من الماضي . . .

« يبدو لى احيانا ان النعر هو الشيء الوحيد الذي بنبر اهتمامه ـ واحس ، وانا اعبد قراءة الشعراء من حلاله ، كم هم قلائل بين شعرائنا اولئك الذبن ينركون انفسهم يسافون بعاطفة الفن اكثر من القلب والروح . والغريب هو انـه حين اراني اوسكار مولبنيبه اشعارا لاوليفييه اسرت عـلى هذا ان يحـاول الاستسلام لفادة الكلمات لا ان يخضعها .والآن ، يبدو لى انه هو الذي ، بنوع من الفعل المضاء ، يعلمنى دلك .

« كم نبدو لي اليوم ان كل ما كننه سانفا كان سخيفـاً ومضجراً ، ومضحكاً بشكل محزن !

« ٥ تشرين الثاني - جرى الاحتفال في الكنيسة الصغيرة في شارع«مدام »حيث لم اعد الى هناك منذ وقت طويل . عائلة فيدال - أزاييس كاملة : جد لورا ، وامها وابوها ، اختاها واخوها الصغير ، عدد كبير من الاعمام والاخوال والعمات والخالات وابناء الاعمام والاخوال . عائلة دوفيبه ممثلة بثلاث عمات في ملابس الحداد حيث جعلهن المذهب الكاثوليكي راهبات ، يعشن معاً كما قيل لي ، ويعيش معهن دوفيبه ايضاً منذ موت اهله . وعلى المنصة تلامذة البنسيون . هناك اصدقاء آخرون للعائلة اتموا ملء القاعة التي بقيت في صدرها ، رأيت اختي مع اوليفييه في مكان غير بعيد عني ، اما جورج فلا بد ان يكون على المنصة مع رفاق من سنه . ولا بيروز العجوز على الأرغن ، ووجهه الشائخ اجمل وانبل من قبل ، الا ان عينه فقدت ذلك البريق الرائع الذي كانت حرارته تصل إلي ايام دروسه في البيانو . تلاقت نظراتنا وشعرت ان في الابتسامة التي ارسلها الي كثيراً من الكآبة التي جعلتني اعد نفسي بلقائه عند الخروج . هناك اناس انتقلوا وصار المكان بجانب بولين فارغاً . وكان اوليفييه يشير الي وقد ابعد والدته لأتمكن من الجلوس بجانبه ، ثم اخذ يدي وابقاها طويلا في يده . هذه هي المرة الأولى التي يتصرف فيها معي بدالة . وقد ترك عينيه مطبقتين اثناء خطبة القسيس اللامتناهيه ، مما اتاح لي ان اتأمله طويلاً . انه يشبه ذلك الراعي النائم المحفور بالنقش البارز في متحف نابولي ، والذي اضع صورته على مكتبي . كنت اظنه نائماً لو لا

ارتعاش اصابعه ، وكانت يده ترتجف كعصفور في يدي .

« ظن القسيس ان من واجبه اعادة رسم تاريخ العائلة كلها ، ابتداء من تاريخ الجد ازاييس الذي كان رفيق دراسة له في ستراسبور قبل الحرب . ثم رفيق تلمذة في كلية اللاهوت . ظننت انه لن يستطيع ان يختم عبارة معقدة حيث حاول ان يشرح ان صديقه عندما قام بإدارة مدرسة داخلية وانصرف الى تربية الاطفال لم يترك الابرشية . ثم كان للجيل الآخر دوره . وتكلم ايضاً عن عائلة دوفبيه التي بدا انه لا يعرف عنها كبير امر . لقد اخفى سمو العواطف الضعف الخطابي وسمع امتخاط عدد من الحاضرين . كنت اريد معرفة ما يفكر فيه اوليفييه ، وقد فكرت انه ، وقد نشأ كاثوليكياً ، فلا بد ان يكون المذهب البروتستانتي جديداً عليه وانها المرة الأولى يجيء فيها الى هذا المعبد . ان الخاصة الفريدة لتفكيك الشخصية التي تتيح لي ان احس بتأثر الغير كأنه تأثري اجبرتني على اعتناق احساسات اوليفييه ، تلك الاحساسات التي اتخيل انه يجب ان يحس بها ، ومع انه ابقى عينيه مطبقتين ، او بالاحرى بسبب هذا نفسه ، خيل الي انني ارى عنه ، وللمرة الاولى ، تلك الجدران العارية ، والضوء الكامد الشاحب الذي يغمر المستمعين ، والانفصال القاسي للمنبر على الجدار الابيض في صدر القاعة ، واستقامة الخطوط ، وصلابة الاعمدة التي تمسك المنصة ، وروح تلك الهندسة المعمارية ذات الزوايا واللون الزائل

حيث بدت لي للمرة الأولى بشاعتها الجاهمة ، والتشدد والافراط في الشح . لا شك اني كنت معتاداً ذلك منذ الطفولة ، وهذا ما يفسر عدم شعوري من قبل كل ما اراه الآن . . . وعاد بي التفكير فجأة الى يقظتي الدينية وغلوائي الأولى في العبادة ، إلى لورا والى مدرسة الأحد حيث كنا نلتقي كعريفين نحن الاثنين ، مليئين بالحمية ولا نعرف ان نميز ، وسط تلك الحماسة التي كانت تحرق فينا كل ما هودنس ،بين ما يخص الآخر وما يخص الله . ثم بدأت اغتم لأن اوليفييه لم يعرف ذلك الفقر الشهواني الأول الذي يلقي بالنفس ، بشكل خطر ، بعيداً فوق المظاهر ، وكذلك لأن ليس له ذكريات شبيهة بذكرياتي ، ولكن شعوري بانه غريب عن كل هذا ساعدني على الهرب من هذه الافكار . لقد اختطفت بمحبة بتلك اليد التي تركها دائماً في يدي ، والتي سحبها تلك اللحظة . فتح عينيه لينظر الي وبابتسامة كيسه صبيانية لطفت من تجهم جبهته همس وهو منحن نحوي ـ بينما كان القسيس يذكر بواجبات جميع المسيحيين ، ويغدق على الزوجين الجديدين النصائح والتعاليم الدينية :

« ـ لا يهمني : انا كاثوليكي .

كل ما فيه يجذبني ويظل غامضاً .

« على باب السكرستيا وجدت لابيروز العجوز . قال لي بشيء من الكآبة ، ولكن بلهجة لا يدخل فيها اي لوم :

« اظن انك نسيتني قليلا .

« لا اعرف ، لأبدي عذري ، اي شواغل اعتذر بها لبقائي طويلاً دون ان اراه . وعدته بزيارة بعد الظهر ، وحاولت ان اصحبه الى بيت آل ازاييس حيث كنت مدعواً لتناول الشاي الذي سيقدمونه بعد الاحتفال ، ولكنه قال لي ان مزاجه متعكر ، ويخشى ان يلتقي بكثير من الناس ويضطر الى التحدث معهم ، الأمر الذي لا يقدر عليه .

« بولين اصطحبت جورج وتركتني مع اوليفييه . وقالت لي وهي تضحك :

« ـ اعهد به اليك .

« وهذا ما بدا انه ازعج اولبفييه الذي مال بوجهه ، وقادني الى الشارع .

« ـ لم اكن اعلم انك تعرف آل ازاييس جيداً .

« فادهشته كثيراً عندما قلت له اني كنت عندهم في البنسيون طوال سنتين .

« ـ كيف استطعت تفضيل هذا على اي ترتيب آخر لحياة مستقلة ؟

« ـ وجدت فيه شيئاً من رغد العيش .

« هكذا احببته بشيء من الغموض ولم استطع ان اقول له ان لورا في ذلك الوقت كانت تشغل تفكيري ، وانني اذا كنت رضيت بارداً الانظمة فلسروري باحتمال هذه الانظمة بقربها .

« ـ الم تختنق في جو هذه « الحلبة » ؟

« ولما لم اجب بشيء ، قال :

« الخلاصة ، لا اعرف كيف احتملتها انا نفسي ولا كيف حدث حتى صرت فيها . . . ولكني نصف داخلي فقط . وهذا كثير .

« كنت مضطراً الى ان اشرح له الصداقة التي تربط جده بمدير هذه العلبة حيث املت ذكراها اختيار امه في ما بعد .

وأضاف :

ـ على كل حال لا املك ان اقارن ما من شك في ان جميع هذه المدفئات تتساوى ، واظن ايضاً ، وفقاً لما قيل لي ، ان معظم المدفئات الاخرى فاسدة ولا يمنع اني سأكون مسروراً بخروجي من هنا.وما كنت لادخل لو لم اكن بحاجة لاستعادة الوقت الذي كنت فيه مريضاً .وانا من زمان لا اعود الى هنا الا بدافع صداقتي لأرمان .

« علمت حينئذ ان اخ لورا الصغير هذا كان رفيقاً له في المدرسة . وقلت لاوليفييه انني لا اكاد اعرفه .

« ـ ومع ذلك فهو الأذكى والاكثر جاذبية في العائله .

« ـ اي انه هو الذي يعجبك اكثر من الجميع .

« ـ كلا ، كلا ، اؤكد لك انه مثير للاهتمام وسنذهب اذا شئت لنتحدث معه قليلا في غرفته . آمل ان يجرؤ على الكلام امامك .

« كنا قد وصلنا امام البنسيون .

« كان آل فيدال ـ أزاييس قد استعاضوا عن وليمة العرس التقليدية بشاي بسط اقل كلفة وكانت غرفه الحديث ومكتب القسيس فيـدال مفتـوحتـين لجمهـور المـدعـوين ، الا بعض الاصدقاء الخلص وحدهم دخلوا الى الصالون الصغير الخاص بالقسيسة ، ولكي يمنعوا اجتياحه على المدعوين فقد اقفلوا الباب بين غرفة الحديث وهذا الصالون ، الأمر الدي جعل ارمـان يجيب أولئك الذين بسألونه من ابن يستطيعون المرور الى مكان امه : .

« ـ من المدخنة .

« كـان هناك جمهـور . والحر خـانق . وفي ناحيـة بعض « اعضاء الهيئة التعليمية » ، زملاء دوفييه ، مجمع بروتستانتي فقط . رائحة تزمت خاصة جداً. بخار الانفاس قوي كثيراً ، ويمكن ان يكون اكثر إحداثاً للاختناق ايضاً في الاجتماعـات الكاثوليكية او اليهودية عندما يرفعون الكلفة بينهم . ولكن يوجد على الاغلب تقدير للذات بين الكاثوليـك وعدم تقـدير بـين اليهود ، بينها البروتستانت لا يبـدون لي جديـرين بذلـك الا نـادراً . اذا كان لليهـود انف طويـل فان انف البـروتستانت مسدود ، وهذا لا ريب فيه . وانا نفسي لم افطن قط لصفة هذا الجو الخاصة على مدى انغماسي فيه .

« ولا اعرف ما فيه من جبلي لا يفسر ومن مثير للشهوة الجنسية ، ومن عباء

« في صدر القاعة منضدة مقامة كمقصف وراشيل اخت لورا الكبرى ، وساره اختها الثانية يعاونهما بعض صديقاتهما من الفتيات المرشحات للزواج ، يقدمن الشاي .

« منذ ما رأتني اخذتني الى مكتب والدها حيث ينعقد اجتماع ، والتجأنا الى فرجة نافذة ، واستطعنا التحدث دون ان يسمعنا احد على حافة إطار النافذة كتبنا ، في ما مضى اسمينا . وقالت لي :

« ـ تعال وانظر ان اسمينا لا يزالان هنا . اعتقد ان احداً لم يلاحظهما . كم كانت سنك يومذاك ؟

« وكنا قد كتبنا تاريخا فوق الاسمين ، فأجريت الحساب :

« ـ ثمانية وعشرون عاماً .

« ـ وانا ستة عشر لقد مر على ذلك عشر سنين .

« لم تكن اللحظة مناسبة لتحريك هذه الذكريات . فسعيت لأحول حديثنا ، بينما هي اعادتني اليه بالحاح قلق . وفجأة ، كأنها خافت ان يعاودها الحنين ، سألتني اذا كنت لا ازال اذكر ستروفيلو

« كان ستروفيلو تلميذا حراً بزعج اهل لورا كثيراً في ذلك الوقت كان يدعي انه يتابع درساً ، ولكن حين يسأل : اي درس ؟ او اي امتحان يعد ، فانه يجيب باهمال ·

« ـ انا انوع »

« كانوا يتظاهرون ، في الاوفات الأولى ، بحمل وفاحته على محمل المزاح لبفلوا من حدبها وكان هو يشاركهم بضحكة كبيرة ، ولكن هذه الصحكة اصبحت بعد ذلك اكثر سخربه ، وتعليقانه اكثر عدوانية . ولم افهم كبف ولماذا بنساهل القسيس مع تلميذ كهذا اللهم إلا اذا كان ذلك لأسباب مالية . كان يحفظ لستروفيلو نوعاً من المودة ممزوجة بالشفقة . وربما كان هناك امل غامض يداعبه بالتوصل الى افناعه ، اريد ان اقول : الى هدايته . ولم افهم ابضا لماذا يستمر ستروفيلو بالسكن في البنسيون ما دام يستطيع الذهاب خارجاً ، اذا يبدو انه لس باقياً مثلي لسبب عاطفي . ولكن من الممكن ان يكون بقاؤه اللذة التي يشعر بها في تلك المباريات مع القسيس المسكين الذي لا يحسن الدفاع عن نفسه ويترك له دائما الدور الجميل».

« ـ اتذكر ذلك اليوم الدي سأل فيه ابي اذا كان يبقي سترته تحت ثوبه عندما يقوم بالوعظ ؟». . . .

« ـ بالتأكيد ! فقد سأل ذلك بكثير من الرقه حتى ان اباك لم يلحظ الخبث في هدا السؤال . كان ذلك على المائدة ، اذكر كل ذلك جيداً .

« ـ وابي الذي اجابه بسلامه نية ان الثوب ليس سميكاً ، وانه يخشى ان يصاب بالبرد دون سترته».

« ـ والمظهر الحزين الذي اتخذه ستروفيلو حينذاك ! وكيف ضغطنا عليه حتى قال اخيراً ان « لس لهذا اهمية كبيرة » ، ولكن

حين يقوم والدك بحركات كبيرة تظهر اكمام السنرة من تحت الثوب ، ولهذا تأثير سيء على بعض المؤمنين .

« ـ وعلى اثر ذلك القى ابي المسكين عطة وذراعاه ملتصقتان بجسده ، وقد اخفق كل مفعول لفصاحته».

« ـ وفي الأحد التالي دخل مزكوماً لأنه خلع السترة . اوه !.. والمناقشة حول شجرة النين العقيمة في الانجيل والاشجار التي لا تحمل اثماراً ... « انا لست شجرة مثمرة الظل ، هذا ما احمله يا سيدي القسيس : انا اغطيك بالظل » .

« ـ وهذا ايضاً قيل على المائدة».

« ـ طبعاً فكنا لا نراه الا في اوقات الأكل».

« ـ وقيل هذا بنبرة شرسة . عندئذ طرده جدي . انذكر كيف انتصب فجأة ، هو الذي من عادته ان يبقى انفه في صحنه ، ومد ذراعه : « اخرج ! » .

« ـ لقد بدا ضخماً ، مخيفاً ، كان غاضباً ، واعتقد حقيقة ان ستروفيلو شعر بالخوف . القى منشفته على الطاولة واختفى . ذهب دون ان يدفع لنا ، ومنذ ذلك الوقت لم نعد نراه».

« ـ انا بشوق لمعرفة ما حل به».

« ـ وتابعت لورا بشيء من الكآبة :

ـ يا لجدي المسكين !.. كم بدا لي جميلا ذلك اليوم . كان يحبك كثيراً وانت تعلم . عليك ان تصعد لرؤيته في مكتبه ولو قليلا . متأكدة انه سيفرح بك كثيراً».

« نسخت كل هذا على الاتر ، شاعراً كم من الصعب ايجاد اتقان لنبرة حوار . ولكن منذ هذه اللحظة بدأت اصغي الى لورا وانا اكثر تساءلاً ، فقد شاهدت، بعيداً عني أوليفييه الذي غاب عن عيني منذ ما قادني لورا الى مكتب والدها . كانت عيناه تلمعان وقسماته ذات حيوية بشكل غير عادي . عرفت في ما بعد ان ساره سقته بدافع التسلية ستة اكواب من الشامبانيا كأساً وراء كأس . كان أرمان معه ، والاثنان يلحقان من خلال الجمهور بساره وفتاة انكليزية في سنها . وهي تلميذة داخلية عند آل ازاييس منذ اكثر من سنة . واخيراً تركت ساره ورفيقتها القاعة . ورأيت الغلامين من الباب المفتوح يندفعان للحاق بهما في السلم . خرجت بدوري ملبياً اوامر لورا ، ولكنها اتت بحركة نحوي :

« ـ اسمع يا ادوار ، اريد ان اقول لك ايضاً ـ وفجأة اصبح صوتها كثير الرصانة ـ من الممكن ان يمر وقت طويل قبل ان نرى بعضنا بعضاً . اريد ان تعيد علي . . . اريد ان اعرف اذا كان في امكاني الاعتماد عليك اعتمادي على صديق».

« لم اشعر قط بالرغبة في تقبيلها كهذه اللحظة . لكنى اكتفيت بتقبيل يدها بحنو واندفاع وانا اتمتم :

« مهما حدث » .

« ولكي اخفي عنها الدموع التي تصاعدت الى عيني هربت بسرعة لأبحث عن اوليفييه».

« كان يرصد خروجي وهو جالس على احدى درجات السلم بجانب ارمان . كان مخموراً بعض الشيء نهض وشدني من ذراعي وقال لي :

« ـ تعال . سندخن سيكارة في غرفه سارة . انها تنتظرنا .

« ـ بعد لحظه يجب اولاّ ان اذهب لرؤ يه أرابيس . ولكنني لن استطيع معرفة الغرفة .

« فهنف ارمان :

« ـ انت تعرفها جيداً . هي غرفه لورا القديمة . انها اجمل غرف البيت وفيها تنام التلمبذة الداخلية ، وبما ان هذه لا تدفع المبلغ الكافى فقد اقتسمت الغرفة مع ساره . وضعوا لهما فيها سريرين مراعاة للمظاهر ولكن هذا كان بلا جدوى . . . .

« ـ ففال اوليفيه ضاحكاً وهو يدفعه :

« ـ لا تصغ اليه فهو مخمور .

فقال ارمان :

« ـ أنصحك بالذهاب . ستأتي اليس كذلك ؟ انهما ينتظرانك .

« ـ فوعدت بأن اوافيهما .

« منذ ان اصبح شعر ازاييس العجوز الطبقنين الأولى والثانية كالفرشاة لم يعد يشبه « وينمان » في شيء . لقد تخلى لعائلة صهره عن الطبقتين الأولى والثانيه من البناية . ومن نافذة

مكتبه (أكاجو ، نسيج حريري ، مخمل) يشرف على الساحة من عل ويراقب رواح التلامذة ومجيئهم

« ـ انظر كيف يغنجونني .

« قال لي ذلك وهو يربني على الطاولة باقة صخمة من زهر الكريزنتيم تركتها احدى امهات التلامذة ، وهي صديقة قديمة للعائلة . كان جو الغرفة منجهما حتى ليبدو ان الزهور قد ساعدت على ذبولها .

« ـ تركت الناس لفنره ، فأنا هرم وجلبة الحديث تتعبني . ولكن هذه الزهور ترافقني في وحدتي انها تتحدث على طريقتها وتعرف ان تحدث عن مجد الرب اكثر من الناس (او اي شيء من هذا الطحين) .

« لا يعرف هذا الرجل الفاضل كم يمكن ان يزعج التلامذة باحاديث من هذا النوع ، فكلامه هذا ، في نظره صادق لا يمكن ان يستثير السخرية . والنفوس الساذجة ، كنفس أزاييس ، هي فعلاً اصعب ما استطيع فهمه . واذا كان المرء اقل سذاجة فانه يلجأ امامها الى نوع من الكوميديا وهذا عبر لائق ، ولكن ما العمل ؟ لا يمكن المناقشة ، والتصحيح ، فانت مجبر على القبول . ان أزاييس يفرض حوله المداجاه على من لا يشاركه ما يؤمن به . وفي الاوقات الأولى التي عاشرت فيها العائلة كنت اسخط لرؤية احفاده يكذبون عليه واضطررت ان اعيد نفسي الى الصواب .

« القسيس بروسبير فيدال مشغول جداً ، والسيدة فيدال ـ بلهاء قليلاً وغارقة في احلام سعرية دينية تفقد فيها كل حس بالواقع . والجد هو الذي اخذ على عاتقه تربية الصغار وتعليمهم . ويوم كنت اسكن عندهم كنت احضر مرة في الشهر شرحاً عاصفاً ينتهي بدموع مؤثرة :

ـ من الآن فصاعداً سنتصارح بكل شيء . لقد دخلنا في عصر جديد من الصراحة والصدق (يستعمل كلمات كثيرة ليقول الشيء نفسه ـ وهي عادة قديمة بقيت معه من يوم كان قسيساً) . لن نحتفظ بسرائر ، بتلك الافكار الكريهة التي في كواليس الظن . سنتناول النظر وجهاً لوجه والعيون في العيون ، اليس كذلك ؟ . . . متفقون .

« وبعد هذا غاص في البلاهة وغاص اولاده في الكذب .

« كانت هذه الاحاديث توجه على الخصوص الى اخ للورا اصغر منها بسنه وقد اقضّ مضجعه ماء الحياة و ـ يب الحب . (كان يمارس التجارة في المستعمرات ولم اعد اراه) وذات مساء اعاد العجوز هذه العبارة من جديد فذهبت لرؤيته في مكتبه ، وحاولت افهامه ان هذا الصدق الذي يتطلبه من حفيده يصبح مستحيلاً بسبب تشدده . وقد خنق ازاييس حينذاك وصرخ بلهجة لا تقبل جواباً :

« ـ ليس عليه الا ان يمتنع عن فعل ما يخجل بالاعتراف به .

« ومع هذا فهو رجل ممتاز ، بل افضل من ذلك : نموذج للفضيلة وما بسمونه قلب من ذهب ، ولكن هذه الاحكام صبيانية . واعتباره الكبير لي جاء من كونه لا يعرف لي عشبقة . ولم يخف عنى امله في ان اتزوج لورا ، ويشك في ان دوفييه سيكون الزوج الموافق لها وكرر على مراراً : « ان اخيارها اثار دهشتي » ، ثم اضاف : « اظن انه علام فاضل . . . يشبهك بذلك . . . . »

« وعلى هذا اجبت :

« ـ بالتأكيد :

« تفقد النفس الحس ، والذوق ، والحاجة ، وحب الواقع بمقدار انغماسها في التقوى . وقد لاحظت ذلك ايضاً عند فيدال على قلة ما استطعت ان اتحدث اليه . ان تألق ايمانهم يعميهم عن العالم المحيط بهم ، وعن انفسهم. اما انا الذي اكثر ما يهمه هو ان يرى بوضوح فقد بقيت ذاهلاً امام كثافة الكذب ، حبث يمكن المتدين ان يلبث بارتياح .

« اردت ان احمل ازاييس على التحدث عن اوليفييه ولكنه شديد الاهتمام بجورج الصغير . وقد بدأ بقوله :

« ـ لا تدعه يرى انك عارف بما سأقوله لك . فالقضية تتعلق بشرفه.تصور ان ابن اختك الصغير وبعضاً من رفاقه الفوا نوعاً من الجمعية الصغيرة ، تحالفاً من التنافس المتبادل ، لا يقبلون فيها الا اولئك الذين يرونهم جديرين بها والذين قدموا

البراهين على الفضيلة ، انها نوع من جوقة الشرف الصبيانية . الا تجد هذا بديعاً ؟ كل منهم يحمل في عروته شريطاً صغيراً ـ صحيح انه لا يكاد يظهر ، لكنني مع ذلك لاحظته اتيت بالولد الى مكتبي وحين استوضحته عن هذا الشعار اضطرب اولا . كان العزيز الصغير بنظر توبيخاً تم روى لي تأليف هذا النادي الصغير بكثير من الاحمرار وكثير من الاضطراب. وهذه اشياء ، كما ترى ، على المرء الاحتفاظ بالابتسامة حيالها : اذ يخشى ان تدخل الغم على العواطف الكثيرة الرقة . . . سألته لماذا لا يقوم ورفاقه بهذا العمل على المكشوف ، في ضوء النهار ؟ وافهمته اية قوة رائعة من الدعاوة ، والتبشير يستطيعون الحصول عليها ، واي دور جميل يمكنهم القيام به ولكن الغموض يحب في هذه السن . . . وقلت له بدوري ، لأعيد الثقة الى نفسه ، انني انخرطت في ايامي ، اي عندما كنت في مثل سنه ، في جمعية من هذا النوع كان اعضاؤها يحملون الاسم الجميل « فرسان الواجب » ، وكان كل منا يتلقى من رئيس العصبة دفتراً صغيرا يسجل فيه ضعفه وذنوبه بصدق تام .فابتسم ، ورأيت جيداً ان قصة الدفاتر هذه اوحت اليه فكرة . لم الح ولكنني لن ادهش اذا ما ادخل نسق هذه الدفاتر بين اقرانه . انت ترى ان من الواجب ان نعرف كيف نتصرف مع هؤلاء الاولاد ، ويكون ذلك في ان نريهم اولاً اننا نفهمهم .وعدته الا أنبس بكلمة من هذا لاهله ، واخذت

عليه عهداً ان يقول ذلك لأمه لأن هذا يجعلها سعيدة . ولكن يبدو انه ورفاقه ارتبطوا بكلمة شرف الا يقولوا شيئاً . كنت احرق في الحاجي . لكننا صلينا معاً للرب ، قبل ان يتركنا ، ليبارك هذه العصبة .

« في البداية لم انعرف الى غرفة لورا . فقد جدد فرشها . وكان الجو متغيراً تماماً . وساره ايضاً بدت لي غير معروفة . ومع ذلك كنت اعتقد انني اعرفها . كانت تبدو شديدة الثقة معى . وكنت في كل وقت بالنسبة اليها ذلك الذي يقال له كل شيء . ولكني ظللت اشهراً طويلة لم اعد فيها الى بيت آل فيدال . ثوبها يغطي ذراعيها وعنقها ، وقد بدت كبيرة جريئة . كانت جالسة على احد السريرين بجانب اوليفييه ، مقابلة له ، وكان منمدداً دون كلفة ويبدو نائماً . كان مخموراً بالتأكيد . وبالتأكيد تألمت لرؤيته على هذه الحال ، لكنه بدا لي اجمل من السابق . وكان الاربعة مخمورين قليلاً او كثيراً . والانكليزية الصغيرة كانت تنفجر ضاحكة ، بضحكة حادة آلمت اذني ، لأي حديث تافه يقوله ارمان . وكان هذا يقول اي شيء ، وهو مهتاج ، مفتون بهذه الضحكة ويتنافس معها في البلاهه والقحة ، متظاهراً بانه يريد اشعال سيكارته بحمرة خدي اخته وخدي اوليفييه المشتعلين ، او انه احرق اصابعه عندما اقترب بحركة متهنكة ، وحاول ان يجمع جبهتيهما . كان اوليفييه وساره يمارسان هذا اللعب الذي كان مؤلماً لي الى النهاية . ولكنني تقدمت . . . .

« كان اوليفييه لا يزال منظاهر بالنوم حين سألني أرمان فجأة عن رأيي في دوفبيه . جلست على كنبة منخفضة ، لاهياً ، مهتاجاً ومتضايقاً في آن واحد من سكرهم وتبسطهم ، ومع ذلك كنت مفتتناً لطلبهم مني المجيء مع انه يبدو بوضوح ان مكاني ليس معهم .

« هؤلاء الأوانس الحاضرات هنا . . .

واستمر في كلامه لأنني لم اجد ما اجيب به ، واكتفيت بان ابتسم ملاطفة . وفي تلك اللحظة ارادت الانكلبزية منعه من الكلام ولاحقته لتضع يدها على فمه ، فانتفض صارخاً :

« - . . . هؤلاء الأوانس يغتظن لفكرة ان لورا ستنام معه .

« فتركته الانكليزية وقالت بثورة مصطنعة :

« - اوه ! يجب الا تصدق ما يقول . انه كذوب

« وقال ارمان وهو اكثر هدوءاً .

« - حاولت افهامها ان من غير الممكن العثور على افضل ببائنة تبلغ عشربن الف فرنك ، وهي كمسيحية حقيقية يجب ان تحسب حساباً لصفات الروح كما يقول والدنا القسيس . نعم يا اولادي . ماذا يحل بالسكان اذا لزم ان نقضي بالعزوبة على كل اولئك الذين ليسوا بأدونيس . . . . او اوليفييه ، ولنقل هذا لنعود الى عصر اقرب عهداً .

« فتمتمت ساره :

« ـ يا للأبله ! . . لا تصغ اليه . لا نعرف ما يقول .

« ـ اقول الحقيقة .

« لم اسمع ارمان قبلاً يتكلم بهذا الشكل ، كنت اظن ، ولا ازال اظن ايضاً ، انه ذو طبيعة رقيقة حساسة ، وقد بدت فظاظته لي متكلفة ، تعود في قسم منها الى السكر ، وايضاً الى الحاجة لتسلية الانكليزيه . وهذه ، وهي جميلة بشكل لا ينكر ، يجب ان تكون حمقاء لتسر بمجون كهذا . أي نوع من الفائدة يمكن اوليفييه ان يجده هنا ؟ وقد نويت الا اخفي عنه اشمئزازي حالما اخلو به .

« قال ارمان وهو يلتفت فجأة نحوي :

« ـ ولكن انت ، انت الذي لا يحسب حساباً للمال ، ولديك منه ما يكفي ليدفع لك عواطف نبيله ، اترضى ان تقول لنا لماذا لم تتزوج لورا ؟ مع انك تحبها كما يبدو وهي ، بمعرفة الجميع ، تذبل شوقاً اليك ؟

« اوليفييه الذي ظل متأخراً بالنوم حتى الآن فتح عينيه ، وتلاقت نظراتنا وبالتأكيد اذا كنت لم احمر خجلاً فلأن ليس هناك واحد من الآخرين كان في حالة تمكنه من مراقبتي .

« ـ أرمان ، انت لا تحتمل .

« هذا ما قالته ساره كأنها تريد ارضائي لأنني لم استطع الاجابة بشيء . ثم تمددت بكل طولها على السرير الذي كانت

جالسنة عليه باديء الامر ، قبالة اوليفييه بنوع ان رأسيهما تلامسا . قفز ارمان حالاً واستولى على ستار كبير مطوي بجانب السرير على الحائط ونشره كبحار بشكل يستر الاثنين ، ثم انحنى نحوي مداعباً وقال بصوت مرتفع :

« ـ ليتك لا تعرف ان شقيقتي كانت بغياً .

« وكان هذا كثيراً . فنهضت ، وقلبت الستار الذي انتصب وراءه اوليفييه وساره واقفين . كان شعرها مشعثاً ، ونهض اوليفييه وذهب الى مكان الزينة ووضع ماء على وجهه .

« وقالت ساره وهي تأخذني من ذراعي .

« ـ تعال من هنا ، اريد ان اريك شيئاً .

« وفتحت باب الغرفة وقادتني الى الشرفة :

« ـ فكرت ان هذا يثير اهتمام روائي . انه دفتر صغير وجدته صدفة ، مذكرات خاصة لأبي . لا افهم كيف تركه في غير محله ليقرأه من يشاء . اخذته لئلا يراه ارمان . لا تحدثه عنه . انه ليس طويلاً . تستطيع قراءته في عشر دقائق ثم تعيده الي قبل ذهابك .

« فقلت وانا احدق بها :

« ـ ولكن هذا عمل طائش فظيع يا ساره !

« فهزت كتفيها .

« ـ اوه ! اذا كنت تعتقد ذلك فسيخيب ظنك حالا . ولن

تمضي لحظة حتى تراه شائقاً . . . وايضاً اليك . سأريك .

« واخرجت من صدرها مفكرة صغيرة جداً ، قديمة من اربع سنوات ، وقلبت اوراقها لحظة ثم قدمتها الي مفتوحة ، وهي تشير الى مقطع :

« ـ اقرأ بسرعة .

« رأيت اولا ، تحت تاريخ وبين هلالين ، هذه العبارة من الانجيل : « من يخلص في الامور الصغيرة يخلص ابضاً في الكبيرة » ثم « لماذا ارجىء دائماً الى الغد هذا العزم الذي عقدت النية عليه من انني لن ادخن ابداً ؟ . . . ما دام هذا لن يكون الا لكي لا اسبب الحزن لميلاني (اسم القسيسة) يا الهي ، اعطني لأهز نير هذه العبودية المخزية » . (اعتقد انني انقل الجمل بامانة .) ـ وتبع ذلك علامات الصراع والتضرعات ، والصلوات ، والجهود ، وكانت كلها على غير طائل دون شك ، لأنها ترددت يوماً بعد يوم . وقلبت صفحة اخرى ، وفجأة كان الأمر يتعلق بشيء آخر .

« وقالت ساره وقد مطت شفتيها بشكل تهكمي بعدما انهيت القراءة :

« ـ مؤثر جداً ، اليس كذلك ؟

« فلم اتمالك من القول وانا الوم نفسي لتحدثي اليها .

« ـ هذا عجيب اكثر مما تظنين . تصوري انني سألت

والدك من مدة لا تبلغ العشرة ايام اذا كان جرب الا يدخن . وقد وجدت انني انا نفسي ، استرسلت في التـدخين و . . . باختصار ، اتعرفين ماذا اجابني ؟ . . . قال لي اولاً انه يعتقد انهم يبالغون كثيراً بالتأثير الضار للتبغ ، وانه من ناحيته لم يشعر بأي اثر له على نفسه ولما الححت قال اخيراً : « نعم ، لقد عزمت مرتين او ثلاث ان انقـطع عن التدخـين لفترة ـ وهـل نجحت ؟ ـ ما دمت قد عزمت . » هذا عظيم ! ربما لم يتذكر ذلك .

« هكذا اضفت لأنني لم اشأ ان اظهر امام ساره كل ما ارتبت به هنا من مراءاة .

« وقالت ساره :

« ـ ربما ايضاً . . . « التدخين » وضع هنا لغرض آخر .

« هـل سـاره حقيقـة هي التي تتكلم هكـذا ؟ ذهلت ، وتطلعت اليها وما اكاد اجرؤ على فهمها . وفي تلك اللحظة خرج اوليفييه من الغرفه ، وكان قد سرح شعره ، واعاد النظام الى ثيابه وبدا اهدأ . وقال دون كلفة امام ساره :

« ـ نذهب لقد فات الوقت .

« وهبطنا . وحين اصبحنا في الشارع قال لي :

« ـ اخشى ان تكون اخطأت قد تظن انني اهوى ساره . ولكن لا . . . اوه ! وانـا لا اكـرههـا ايضـاً . . . . لكنني لا احبها .

« امسكت بذراعه وضغطت دون ان اقول شيئاً وتابع :

« ـ ويجب ايضاً الا تحكم على ارمان بسبب ما قاله ذلك اليوم . هذا نوع من الدور يقوم بتمثيله . . . رغمًا عنه . والحقيقة انه يختلف جداً عن هذا . . . لا استطيع الايضاح. عنده نوع من الحاجة لاتلاف افضل ما يتمسك به لم يصبح هكذا من زمان . اعتقد انه بائس جداً وهو يسخر ليخفي بؤسه . هو شديد الكبرياء واهله لا يفهمونه يربدون ان يصبر قسيساً .

*

« تسجيل فكرة لفصل من كتاب « مزيفو النقود » :

« العائلة . . . تلك الخلية الاجتماعية »

بول بورجيه (باسيم)

عنوان الفصل : نظام الخلية

« ما من سجن (فكري) الا تستطيع الروح القوية النجاة منه ، وما من شيء يدفع الى التمرد يكون خطراً بشكل نهائي ـ علمًا بأن التمرد يمكن ان يضلل الطبع (انه يجعل الطبع ينطوي على نفسه ، وينقلب ، او يشحنه بالوتر وينصح له بالحيلة المنافقة) والولد الذي لا يخضع للتأثير العائلي يلجأ ،

للخلاص منه ، الى استنفاد باكورة نشاطه. ولكن التربية التي تعاكس الولد نقويه في الوقت الذي تضايقه واتعس الضحايا هي ضحايا التمليق. اية قوة في الطبع نلزمك لتكره من يمدحك ؟ وكم رأيت من اهل (والأم على الخصوص) يسرون حين يرون في اولادهم الاشمئزازات الأكثر بلاهة ، والميول الأكثر جوراً ، وعدم الفهم ، والخوف الجنوني ويشجعونهم على ذلك . . . على المائدة : « اترك هذا ، ترى جيداً انه دهني . إنزع الجلد . هذا غير مشوي جداً . . . » وفي الخارج عند المساء : « اوه ! خفاش ! تغط بسرعة ، سيأتي الى شعرك . » الخ . والخنافس عندهم تعض ، والجراد يقرص ، ودود الأرض يسبب البثور . . . . « في قطار الزنار [١] الذي عاد بي من اوتوي au-teuil قبل البارحة سمعت اماً شابة تهمس في اذن طفلة في العاشرة ، كانت تغنجها :

« ـ انت وانا ، انا وانت ، اما الآخرون فلا يهموننا .

« اوه ! اعرف تماماً ان هؤلاء من ابناء الشعب ولكن الشعب ايضاً يستحق استنكارنا (كان الزوج في زاوية من عربة القطار يقرأ الصحيفة ، مطمئناً ، مستسلمًا ، ويمكن الا بكون مخدوعاً .) .

« ايمكن تخيل سم اكثر فتكاً ؟

---

(١) خط حديدي يحيط بباريس (يزنرها) . المترجم

« المستقبل للبناديق » . ـ اى معنى في هذه الكلمه : « اس طبيعي ! »

« للبندوق وحده الحق بالطبيعي !

« الأنانية العائلية . . . ما تكاد اقل شناعه من الأنانية الفردية .

« ٦ تشرين الثاني ـ لم اسطع ابتداع شيء . لكنني امام الواقع كالمصور امام نموذجه ، حيث يقول له : اعطني تلك الحركة ، اتخذ ذاك التعبير الذي يملائني . لو عرفت نوابض النماذج التي يجهزني المجتمع بها لجعلتها تتحرك ساعة اريد ، او على الأقل ، استطيع ان اطرح على ترددها مسائل تحلها على طريقتها بنوع ان رد الفعل عندها يعلمني . وانا كروائي تعذبني الحاجة الى التدخل والتأثير على مصيرها . ولو كنت اكثر تخيلاً لاخترعت الدسائس ، ولأثرتها ، وراقبت الممثلين وعملت بما يملونه علي .

« ٧ تشرين الثاني ـ ليس هناك شيء صحيح في كل ما كتبته البارحة . ويبقى هذا : الحقيقة تثير اهتمامي كمادة بلاستيكية . وعندي من الطموح الى ما يمكن ان يكون . اكثر من طموحي الى ما كان . واعكف بشكل مدوخ على امكانات كل كائن وابكي كل ما اهزله غطاء العادات » .

اضطر برنار الى ان يقطع قراءته لحظة . وغام نظره . كان كأنه نسي ان يتنفس طوال الوقت الذي قرأ فيه ، من فرط ما

كان انتباهه ناشطاً .فتح النافذة وملأ رئتيه قبل غطسه جديدة في الأوراق .

صداقته لأوليفييه كانت من اكثر الامور قوة انه افضل صديق له ولا يحب احداً مثله على وجه الأرض ، اذ هو لا يستطيع ان يحب اهله . كان قلبه متعلقاً به بشكل زائد ، لكنهما لا يفهمان الصداقة بشكل واحد . وبمقدار تقدم برنار في قراءته تزداد دهشته ويزداد اعجابه ولكن بشكل مؤلم قليلاً ، بالتنوع الذي بدا هذا الصديق انه قادر عليه ، وهذا الصديق الذي كان يعتقد انه يعرفه جيداً . لم يقل له اوليفييه شيئاً عن كل ما ترويه هذه المذكرات . اما ارمان وساره فلا يكاد يشعر بوجودهما . وكم يختلف اوليفييه وهو معهم عنه وهو معه ! هل تعرف برنار الى صديقه في غرفة ساره تلك ، وعلى ذلك السرير ؟ وامتزج اضطراب مقلق مع الفضول العظيم الذي جعله يسرع في قراءته : انه اشمئزاز او حزن مصحوب بغضب . قليل من هذا الحزن الغاضب الذي شعر به قبل لحظة عندما رأى اوليفييه متأبطاً ذراع ادوار : حزن غاضب لأنه لم يكن مكانه . وهذا الحزن يمكن ان يقود بعيداً ويجعله يقوم بكثير من الحماقات ، ككل الأحزان الغاضبة .

لنتجاوز ذلك . ليس كل ما قلته اعلاه الا لوضع شيء من الهواء بين صفحات هذه « اليوميات » والآن ، وقد تنفس برنار جيداً ، فلنعد اليه . ها هو يعود الى الاستغراق في قراءته .

١٣

فوائد العجائز قليلة .

فوفنارغ

يوميات ادوار

(تابع)

« ٨ تشرين الثاني - الروجان العجوزان لابيروز انتقلا ، مرة اخرى من مسكنهما . وشقتهما الجديدة التي لا اعرفها بعد تقع بين الطبقتين السفلى والأولى ما بين فوبور سان هونوريه بولفار هوسمان . قرعت الجرس جاء لابيروز وفتح لي . كان يرتدي قميصاً ويعتمر نوعاً من الطاقيه البيضاء المائلة الى الصفرة فهمت اخيراً انها جورب قديم (للسيدة لابيرور دون شك) ، كان طرفه يهتز كشرابة قلنسوة على خده . وكان يمسك محراكا للنار معوجاً . وما من شك في انني فاجأته وهو يقوم باصلاح

المدخنة ، وبما انه بدا لي متضايقاً نوعاً ، قلت له :
« ـ اتريد ان اعود في ما بعد ؟

« ـ كلا ، كلا . . . ادخل الى هنا . ـ ودفعني الى غرفة ضيقة مستطيلة تنفتح نافذتاها على الشارع على علو المصباح تماماً .

« ـ كنت انتظر تلميذة في هذه الساعة (كانت الساعة السادسة) ، لكنها ابرقت الي انها لن تأتي انا سعيد برؤيتك .

« ووضع محراكه على طاولة وقال كأنه يعتذر عن هيئته :

« ـ تركت السيدة الطيبة لابيروز المدفأة تنطفىء ، وهي لا تأتي الا في الصباح ، وقد اضطررت لافراغها . .

« اتريد ان اعاونك على إشعالها ؟

« ـ كلا ، كلا . . هذا موسخ . . ولكن اسمح لي ان اذهب وارتدي سترة .

« وخرج وهو يخب بخطى قصيرة ثم عاد حالاً وهو مغطى بسترة رقيقة من الألباغة alpaga ، ذات ازرار مقطعة ، وأكمام مشققة كثيرة الاهتراء حتى لا تجرؤ على اعطائها شحاذاً وجلسنا .

« ـ رأيتني متغيراً ، أليس كذلك ؟

« اردت ان اعترض ولكنني لم اجد ما اقوله وشعرت بكثير من الغم للأمائر التعبة على هذا الوجه الذي عرفنه جميلاً . وتابع :

« ـ نعم ، شخت كثيراً في الأيام الأخيرة ، بدأت افقد ذاكرتي قليلاً . وحين اعزف قطعة اضطر ان اعود الى الدفتر . . .

« ـ كم من الشبان نكتفون بما لا يزال نافياً معك

« فاضاف وهو يهز رأسه :

« ـ اوه ! ليست الذاكره وحدها التى ضعفت.اليك مثلاً : يخيل الي حبن امشي انني اسير بسرعة ، ولكن الناس كلهم يسبقونني الآن في الشارع

« فقلت له :

« ـ لأنهم يمشون اليوم بشكل اسرع .

« ـ آه ! أليس كذلك ؟ مثل الدروس التي اعطيها : فالتلميذات يجدن ان تدريسي يؤخرهن ،وبردن ان سرن اسرع مني ، فيتركنني ان الناس كلهم مستعجلون البوم

« وأضاف بصوت منخفض ما اكاد اسمعه :

« ـ لم ببق لي منهن ولا واحدة تقريباً .

« وشعرت عنده بشماء جعلني لا أجرؤ على سؤاله . وتابع :

« ـ مدام لابيروز لا ترند ان تفهم هذا . تقول لي انني لا اتصرف معهن كما يجب ، وانني لا افعل شيئاً للاحتفاظ بهن ولا للحصول على تلمىدات جديدات .

« وسألت بتلبك :

« ـ تلك التلميذة التي تنتظرها . . .

« ـ اوه ! هذه . انها واحدة منهن اعدها للمعهد الموسيقي (الكونسرفاتوار) ، وهي تأتي كل يوم لنشتغل هنا .

« ـ هذا يعني انها لا تدفع لك .

« لقد وبخنني مدام لابيروز على ذلك بما فيه الكفاية ! هي تفهم ان هذه الدروس هي كل ما لا يزال يشوقني نعم ، الدروس التي اشعر بلذة حقيقية في اعطائها . فكرت كثيراً منذ زمن . اليك . . . هناك ما اريد ان اسألك عنه : لماذا لا تتكلم الكتب عن العجائز الا نادراً ؟ اظن ان السبب هو ان العجائز ما عادوا قادرين على الكتابة بأنفسهم ، وعندما يكون المرء شاباً فهو لا يحفل بهم . هرم ، هذا لا يهم احداً . . . ومع ذلك فهناك أشياء عجيبة جداً يمكن قولها عنهم . خذ مثلاً : هناك بعض من الأعمال في حياتي الماضية بدأت اليوم افهمها . نعم ، بدأت افهم فقط ان ليس لهذه الأعمال تلك التفسيرات التي كنت اعتقدها قبلا عندما قمت بهذه الأعمال . . . والآن فقط ادركت انني كنت مخدوعاً طوال حياتي . مدام لابروز خدعتني ، ابني خدعني ، الجميع خدعوني ، والرب خدعني . . . . »

« كان المساء قد خيم . لم اكن لأميز قسمات استاذي القديم ، ولكن ضوء المصباح المجاور انبجس فجأة فأراني خده الساطع بالدموع . وقلقت بادىء الامر لبقعة غريبة على

صدغه ، كالتجويف ، كالنفف ، لكن البمعه اىقلب اتر فامه بحركة خفيفة وادركت اىها لم نكن سوى طل لزهيرة من زحرف الدرابزين . وضعت ىدى على دراعه المعروفه فأرتعش وقلت له :

« ـ سنصاب بالبرد . الا تريد ان نعبد اشعال النار ؟هيا ؟

« ـ كلا . . . يجب ان اعتاد

« ـ ماذا ! اتمارس الروافبة ؟

« ـ نوعاً . . . لفد اعطاني الله حنجره سريعـه العطب ، ومع ذلك رفضت ان الف رقبتي بالشال. دائـماً كافحت ضـد نفسي .

« ـ يظل هذا حسنا ما دمت نحرز النصر ، ولكن اذا خار الجسم . . .

« فاخذ يدي ، وقال بلهجه رزينه كأنه يفضي الي بسر .

« ـ عندئذ سيكون هذا هو الانتصار الحفيفي

« وافلتت يده ىدي وتابع :

« ـ كنت اخشى ان ترحل قبل ان تأتي لرؤ يتي .

« فسألته :

« ـ اذهب الى اين ؟

« ـ لا اعرف معظم الأحيان نكون مسافرا . هناك شيء اريد قوله لك . . . أحسب انني سأرحل انا ايضاً عما قريب .

« ـ ماذا ! اتعنزم السياحة ؟

« قلت ذلك بعدم حذق متظاهرا بعدم فهمه رغم رزانة صوته الغامضة الاحتفالية . فهز رأسه .

« ـ تعرف تماماً ما اعنى . . . نعم ، نعم ، اعلم ان الوقت آت عما قريب . لقد بدأت اربح مما اكلف وهذا مما لا استطيع احتماله . هناك نقطة آليت على نفسي الا اتخطاها .

« كان يتكلم بلهجة مفخمة قليلاً اقلقتني :

« ـ اتجد هذا سيئاً انت ايضا؟ لم استطع ان افهم لماذا يحرم الدين علينا ذلك . فكرت كثيراً في هذه الأيام الأخيرة . حين كنت شاباً عشت حياة متقشفة جداً ، وكنت اهنىء نفسي على قوة ارادتي في كل مرة ادفع عني إغراء.لم افهم لماذا اصبحت عبد لكبريائي اكثر فأكثر حين اعتقدت انني تحررت . ان كلاً من هذه الانتصارات على النفس كان دورة مفتاح ادرته في باب سجني . وهذا ما اردت ان اقوله لك منذ لحظة حين قلت لك ان الله خدعني. لقد جعلني احسب كبريائي فضيلة . ان الله سخر مني . انه يلهو.اعتقد انه يلعب معنا كهر مع فأرة . فهو يرسل الينا إغواءات يعرف اننا لن نستطيع مقاومتها . وحين نقاوم يثأر منا اكثر من السابق . لماذا يحقد علينا ؟ . . . ولماذا . . . ولكنني اضجرك باسئلة شيخوختي هذه .

« اخذ رأسه بين يديه ، على طريقة ولد يحرد ، وظل صامتاً لمدة طويلة حتى حسبته نسي وجودي . وبقيت جامداً امامه

خائفاً من ان اعكر عليه تأملاته . ورغم الضجة المبعثة من الشارع المجاور فان هدوء هذه الغرفة الصغيرة بدا لي غير عادي ، ورغم ضوء المصباح الذي ينيرنا بشكل عريب من اسفل الى اعلى ، على طريقة اضواء المسرح ، فان ذيول الظل على حائط النافذه بدت انها انصرت ، والظلمات حولنا تجمدت كما يتجمد الماء الهادىء في البرد القارس ، لقد تجمدت حتى في قلبي . اردت اخيراً ان انفض قلقي ، فتنفست بملء فمي ، مفكراً في الرحيل ، مستعداً للإستئذان بالذهاب حيث اطلب ذلك بأدب ، ففلت لأقطع هذا السحر :

« ـ هل السيدة لابيروز في صحة جيدة ؟

« فبدا العجوز كأنه استيقظ وردد اولاً : ـ السيدة لابيروز . . . . بشكل اسنفهامي ، حتى ليقال ان هذه المقاطع قد فقدت عنده كل معنى . ثم مال نحوي فجأة :

« ـ السبدة لابيروز تجتاز ازمة مرعبة . . . لقد جعلتني اتألم كثيراً .

« فسألته :

« ـ أزمة ماذا ؟

« فقال هازاً كتفيه كأنه ينطلق من نفسه :

« ـ اوه ! لا شيء . اصبحت مجنونه تماماً . لا تعرف اطلاقاً ما تفعل .

« كنت ارتاب منذ وقت طويل بالخلاف العميق الحاصل بين هذين الزوجين العجوزين ، ولكني يئست من الحصول على مزيد من الايضاحات وقلت مشفقاً .

« ـ يا صديقي المسكين . و . . . منذ متى ؟ . .

« ففكر هنيهة كأنه لم يفهم سؤالي تماماً :

« ـ اوه ! منذ امد بعيد . . منذ أن عرفتها .

« ولكنه استدرك على الأثر :

« ـ كلا ؛ حقيقة الأمر ان الحال بدأت تسوء مع تربية ولدي فقط .

« فأتيت بحركة استغراب لأنني كنت أظن ان الزوجين لابيروز ليس لهما أولاد . ورفع جبهته التي كان قد وضعها في يديه ، وقال بلهجة أكثر هدوءاً :

« ـ ألم احدثك عن ولدي ؟ . . . اسمع ، أريد الافضاء لك بكل شيء . يجب ان تعرف اليوم كل شيء . وما سأرويه لك لا استطيع قوله لأحد . . . نعم ، كان ذلك مع تربية ولدي ! وكما ترى ، كان ذلك منذ وقت طويل . كانت ايام زواجنا الأولى شائقة . كنت كثير الطهارة حين تزوجت مدام لابيروز . أحببتها ببراءة . . . نعم ، هذه هي الكلمة . لم اكن ارضى ان اعرف لها اي عيب . ولكن افكارنا لم تكن متماثلة حول تربية الأولاد . كلما اردت توبيخ ولدي كانت مدام لابيروز تنضم اليه ضدي ، كانت تريد ان نغضي عن كل ما يقوم به . تواطآ علي . وعلمته الكذب . . . وقد اتخذ عشيقة ولما يتجاوز

العشرين من سنه وكانت هذه تلميذة لي ، روسية شـابة . موسيقية بارعة كنت كتير التعلق بها . كانت مدام لابيرور على علم بهده العلاقة ولكن كان كل سىء يخفى عنى كما هي الحال دائماً . ومں الطبيعى الا الاحظ ان هده التلميذة كانت حاملاً . لا شيء ، اقول لك ، لم ارنب بشيء . وذات يوم فيل لي ان تلميذتي مريضة ، وانها ستظل تتخلف لبعض الوفت عن المجيء . وحين قلت انني سأذهب لرؤ ينها قيل لي انها بدلت عنوانها ، وانها سافرت . . . لم اعلم الا بعد مضي وقت طويل انها ذهبت الى بولونيا لتضع طفلها وكان ولدي قد لحق بها . . . وعاشا معاً سنوات ، ولكنه ماب قبل ان ىىزوجها .

« ـ و. . هي ، هل رأيتها ثانبه ؟

« كان كمن يصدم حاجزاً بجبهته :

« ـ لم استطع الصفح عنهـا لأنها خدعتني . ظلت مـدام لابيروز تراسلها . وحين علمتُ انها في حالة بؤس ارسلت اليها مالاً . . . . بسبب الصغير . ولكن مدام لابيروز لا تعرف عن هذا شيئاً . وتلك الأخرى نفسها ، لم تعرف اني انا مرسل ذلك المال .

« ـ وحفيدك ؟

« مرت ابتسامة عربىة على وجهه ونهض :

« ـ انتظر لحظة . سأريك صورته .

« ومن جديد ، خرج راكضاً بخطى قصيرة ، ورأسه الى الامام وحين عاد كانت اصابعه ترتعش وهو يبحث عن الصورة في حافظة ورق كبيرة . ومال نحوي وهو يمد بها الي وقال بصوت منخفض :

« ـ اخذتها من مدام لابيروز دون ان ترتاب بذلك . هي تظن انها اضاعتها .

« وسألته :

« ـ كم عمره ؟

« ـ ثلاث عشر سنة . يبدو اكبر ، اليس كذلك ؟ انه نحيل جداً .

« وعادت عيناه الى الامتلاء بالدمع ، ومد يده نحو الصورة كأنه يرغب في استعادتها بسرعة . انحنيت نحو نور المصباح الضئيل ، فبدا لي ان الولد يشبهه ، تعرفت الى الجبهة العريضة المقببة ، والعينين الحالمتين للابيروز العجوز . واعتقدت انني ادخل السرور الى قلبه اذا قلت له ذلك . فقال معترضاً :

« ـ كلا ، كلا . انه يشبه اخي ، اخي الذي فقدته .

« كان الولد يرتدي « بلوزة »روسية ذات تخاريم .

« ـ اين يعيش ؟

« فهتف لابيروز بنوع من اليأس :

« ـ كيف تريدني ان اعرف ؟ قلت لك انهم اخفوا عني كل شيء .

« واستعاد الصورة ، وبعدما نـطر اليها قليـلاً وضعها في حافظة اوراقه ودس هذه في جيبه .

« ـ لم تكن والدته ترى سوى مدام لابيروز حين تأتي الى باريس ، وكانت هذه تجيبني اذا سألتها : « ليس عليك إلا ان تسألها » تقول هذا ، ولكنهـا تتكدر في اعمـاقها ادا رأيت ام الولد . كانت مدام لابيروز دائمة الغيرة . وكل ما بتعلق بي تريد ان تخطفه . . . . لقد اجرى بوريس الصغبر دراستـه في بولونيا في مدرسة في فرصوفيا كما اظن ، ولكنه في الغالب يسافر مـع والدتـه.

ـ ثم في فورة هيجـان : قل ! هـل تـظن من الممكن ان نحب ولداً لم نره ؟ حسنا ! ان هذا الصغير هو اليوم اعز شيء علي في الدنيا . . . هو لا يعرف عن ذلك شيئاً !

« وقطع عبارته نحيب شديد ، فانتـزع نفسه من مقعـده وارتمى ، سقط تقريباً ، بين ذراعي . كان علي ان اعمل ما لا ادري لأحمل العزاء الى شقائه ، ولكن ماذا استطيع ؟ نهضت لأني شعرت بجسده الهزيل ينـزلق علي وحسبنـه سيسقط على ركبتيه . فسندته ، وضممنه ، وهدهدنه كطفل . كان قد ملك نفسه . وكانت مدام لابيروز في الغرفه المجاورة .

« ـ انها آتية . . . لن تبقى لنراها ، البس كذلك ؟ ومع هذا فقد اصبحت صماء تماما ـ ولما كان قد رافقني الى الفسحة

بين الغرف قال : ـ لا تطل غيابك (كان هناك نوع من التوسل في صوته) . وداعاً . وداعاً .

« ٩ تشرين الثاني . ـ يبدو لي ان الادب كاد ، حتى الآن يسهو عن نوع من الفاجع . فالرواية تهتم بمعاكسات القدر ، بالحظ الحسن والسيء ، بالعلاقات الاجتماعية ، بتصارع الشهوات ، بالطباع ، ولكنها لا تهتم ابدا بجوهر الكائن نفسه .

« مع ان نقل المأساة الى الصعيد الاخلاقي كان من مسعى المسيحية . ولكن ليس هناك روايات مسيحية بالمعنى الدقيق للكلمة . هناك اولئك الذين يهدفون الى الغايات التربوية . . ولكن هذا لا علاقة له بما اريد قوله . والفاجع الاخلاقي ـ الذي يجعل ، مثلاً ، من كلام الإنجيل شيئاً رهيباً : « اذا فسد الملح فبماذا يملح ؟ ان هذا الفاجع هو الذي يهمني .

« ١٠ تشرين الثاني . ـ اوليفييه يجتاز امتحاناته . وبولين تريد ان يتقدم بعدها الى دار المعلمين . ان مستقبله المهني مرسوم منذ الآن لو كان دون اهل ، دون سند ، لجعلت منه امين سري . ولكنه لا يهتم بي ، ولا يهتم حتى بالفائدة التي احملها اليه ، وسوف ازعجه اذا حملته على ملاحظتها . ولكي لا ازعجه اتظاهر امامه بنوع من اللامبالاة ، بتجرد تهكمي . لا أجرؤ على تأمله على مهل الا حين لا يراني . اتبعه احياناً في الشارع دون ان يعلم . البارحة مشيت وراءه ، فعاد فجأة على عقبيه ولم يتسع لي الوقت كي اختبىء فسألته :

« ـ اين ذاهب بسرعة ؟

« ـ اوه ! لا مكان . لا ابدو منعجلاً الا حين لا يكون لي ما اعمله .

« خطونا بضع خطوات معاً ولكن دون ان نجد شيئاً نقوله . ومن المؤكد انه ضجر من هذا اللقاء .

« ١٢ تشرين الثاني . ـ له اهله ، واخ بكر ، ورفاق . . . رددت ذلك طول النهار . ليس لي ما اعمله هنا . سأعرف كيف اعوض عليه كل ما ينقصه ، ولكن لا ينقصه شيء . ليس في حاجة الى شيء : واذا كان لطفه يسحرني فما من شيء في هذا اللطف يعطيني مجالاً لسوء الفهم . . . آه ! . . . عبارة خرقاء كتبتها رغماً عني وفيها ينفضح تلون قلبي . . . سأبحر غداً الى لندن ، عزمت فجأة على الرحيل . حان الوقت .

« الرحيل لأنك تميل اكثر من اللزوم الى البقاء ! . . . نوع من الحب للمستصعب ، والنفور من التساهل (أقصد حيال النفس) ويمكن ان يكون هذا ناشئاً عن تربيتي المتزمتة الأولى التي اقاسي كثيراً من الألم للخلاص منها .

« اشتريت البارحة ، من محل سميث ، دفتراً انكليزياً كله ، سيكون تابعاً لهذا ، ولا اريد ان اكتب شيئاً فيه . دفتر جديد . . . .

« آه ! لو استطعت الا ارحل ! . . . . »

١٤

تحدث احياناً حوادث في الحياة ، يجب ان
تكون على شيء من الجنون لتتخلص منها .

لاروشفوكو

انهى برنار قراءته برسالة لورا المدرجة في بوميات ادوار ، وشعر بغشاوة . لم يكن في وسعه ان يعرف ان هذه التي تنفث شقاءها هنا ليست سوى تلك العشيقة الحزينة التي حدثه اوليفييه عنها مساء البارحة ، عشيقة فنسان مولينيه المهجورة . وبدا فجأة لبرنار انه الوحيد الذي يعرف وجهي العقدة بفضل الاعتراف المزدوج الصادر عن صديقه وعن مذكرات ادوار . وهي فائدة لن يحتفظ بها طويلاً ، عليه ان يعمل بسرعة وبفطنة وحذر . واختار وجهته حالا : حصر اهتمامه بلورا ، دون ان ينسى شيئاً مما قرأه قبلاً . وقال لنفسه وهو يندفع خارج الغرفة :

« هذا الصباح ، بدا لي ان ما يجب عمله غير اكيد ، اما

الآن فقد زال كل شك . والحتمي مؤكد كما قال احدهم : انقاذ لور بما لم بكن من واجبي الاستبلاء على الحفية ، ولكنني وقد اخدتها ، فمن المؤكد انني اغترفت منها شعوراً سديداً بالواجب . والمهم هو مفاجأه لورا قبل ان براها ادوار ، وان اذهب اليها ، واقدم نفسي بطربقة لا تدعها تظن انني يمكن ان اكون لصاً . اما البقية فتسير من بلقائها . معي الآن في حافظة نقودي . ما اخفف به النعاسة بعظمة كأكرم وارأف اي إدوار كان . والشيء الوحيد الذي يبعث في الارتباك هو لأن لورا المولودة باسم فيدال vedel لا بد من ان نكون حساسه رغم انها حبلى رغمًا عن القوانين . انني اتخيلها من اولئك النسوة اللواتي يعصين ، ويبصقن احتقارهن في الوجه ، ويمزقن قطعاً صغيرة تلك الأوراق المالية التي تقدم اليهن بلطف ، ولكن في غلاف غير لائق . كيف اقدم اليها هذه النقود ؟ كيف اقدم نفسي ؟ هذه هي العقدة . اي دغل براه المرء حين يخرج من الشرعي ومن الطرق المعبدة ! لا ازال صغيراً على الدخول في قصه خطيرة كهذه . ولكن هذا ما سوف يساعدني . لنختلق اعترافاً بدل على سلامة نية ، حكاية تجعلني اشكو وتجعلها تهتم بي . والمزعج ان هذه الحكاية يجب استعمالها ايضاً مع ادوار ، الشيء نفسه ، ولن اناقض نفسي . سنجد ، بالتأكيد ولنعتمد على الهام اللحظة . . . . »

كان قد بلغ في شارع بون ، العنوان الذي اعطته لورا .

الفندق هو من الفنادق الأكثر تواضعاً ، ولكنه نظيف وذو مظهر لائق . صعد ثلاث طبقات مستعيناً بارشادات البواب وقف امام الباب رقم ١٦ مهيئاً نفسه للدحول ، وطرق الباب خيل اليه ان صوتاً ناعماً كصوت راهبة ، بنم عن خوف ، يمول :

ـ ادخل

كانت لورا ترتدي ثياباً بسيطة ، كلها سوداء ، حنى ليقال انها في حالة حداد كانت تنتظر شيء من الاضطراب شيئاً ما او احداً يأتي لانتشالها من الـورطة طـوال الايام القليلة عـلى وجودها في باربس .ما من شك في انها سلكت طريقاً خاطئاً ، كانت تشعر انها ضاله لفد اعنادت ، لسوء الحظ ، ان تعتمد على الأحداث اكثر من اعتمادها على نفسهـا . لم تكن دون فضيلة ، ولكنها كانت تشعر انها دون قوة ، مهملة . عند دخول برنار . رفعت يداً نحو وجهها كما بفعل من يمسك صرخة ، او من بقي عينيه مں ضوء باهر كانت وافقه ، ورجعت خطوة الى الوراء ، ووجدت نفسها قريبة من النافذة ، فأمسكت الستار بيدها الأخرى .

انتظر برنار ان تسنجوبه ولكنها صمتت منظرة ان ينكلم . نظر اليها ، حاول عبثاً ان يبتسم . كـان قلبه يخفق . وقـال اخيراً :

« ـ عفواً يا سبدني لإزعاحك هكذا بمجيئي . ان إدوار x الذي اعرف انك نعرفينه ، فد وصل هذا الصباح الى باريس .

وعندي شيء مهم اريد ايصاله اليه ، فكرت ان في امكانك اعطائي عنوانه ، . . . و . . عفواً لمجيئى للسؤال عن دلك هكذا دون كلفة .

لو كان برنار اكبر مما هو لارتاعت لورا دون شك ، ولكنه لا يزال ولداً : بعينيه الصريحتين ، وجبهته الواضحة ، وحركته الخائفة ، وصوته المرتبك ، مما جعلها امامه تتخلى عن الخوف الى الفضول ، الى الاهتمام . الى ذلك العاطف الذى لا يقاوم والذي يوقظه كائن سادج جميل جدا . استعاد صوت برنار شيئاً من اطمئنانه وهو يتكلم . وقالت لورا :

ـ لكني لا اعرف عنوانه . اذا كان في باريس فسيأتي لرؤيتي دون تأخير كما آمل . قل لي من انت ، وسأخبره .

رأى برنار انها لحظه المجازفة بكل شيء . ومر امام عينيه طيف جنون . وحدق في وجه لورا :

ـ من انا ؟ صديق اولبفييه مولينييه . . . ـ وتردد ، وهو لا يزال مرتاباً ، ولكن حين رأى وجهها يشحب لذكر هذا الاسم ، تجرأ وقال : ـ اولبفييه ، شقيق فنسان ، عشيقك ، الذى تخلى عنك بجبن . . . .

واضطر الى التوقف . وترنحت لورا . كانت يداها الملفانان الى الوراء تبحثان باضطراب عن متكأ . ولكن اكثر ما زاد من اضطراب برنار هي تلك الزفرة التى صعدتها ، نوع من الانين لا يكاد يكون انسانياً ، يشبه ما تصعده طريدة جريحة (وفجأة

احس الصياد بالعار حين شعر انه جلاد) ، صرخة غريبة ، مختلفة جداً عن كل ما سمعه برنار ، فجعلته يرتعش . ادرك فجأة ان الامر بتعلق هنا بحماة حقيقية ، بألم حقيقي ، لم يبد له كل ما شعر به حتى الآن سوى تصنع وسوى هو . اهتاج التأثر في نفسه ، تأثر جديد لم يستطع السيطرة عليه ، صعد الى حلقومه . . . إيه ! ماذا ! . . . ها هو ينتحب ! هل هذا ممكن ؟ . . هو ، برنار ! . . واندفع ليسندها ، وركع امامها وتمتم من خلال نحيبه :

ـ آه ! عفواً؟ عفواً . لقد جرحتك . . . كنت اعلم انك دون مورد ، و . . . اردت مساعدتك .

لكن لورا ، لاهثة ، شعرت بخور قواها . بحثت بعينيها عن مكان تجلس فيه وبرنار الذي ظلت عيناه عالقتين بها . ادرك نظرتها فقفز نحو كنبة صغيرة بجانب السرير ! وبحركة سريعة جاء بها الى قربها حيث تركت نفسها ترتمي عليها .

هنا تدخل حادث غريب ، اتردد في روايته ، ولكنه هو الذي وطد العلاقات بين برنار ولورا ، وانتشلهما من الورطة بغتة . لن احاول ان ارفع من شأن هذا المشهد اصطناعياً .

نظراً لأجرة البنسيون التي تدفعها لورا (الأجرة التي يطلبها صاحب الفندق منها) ، لا يمكن ان نتوقع ان يكون اثاث الغرفة أنيقاً ، ولكن من حقنا ان نتوقع متانته . ومع ذلك فان الكنبة

الصغيرة التي دفعها برنار نحو لورا كانت تعرج قلبلاً . اي انها تميل كثيراً الى ان تطوى احدى رحليها ، كما يفعل العصفور تحت جناحيه . وما هو طبيعي للعصفور هو ، للكنبه،غير مناسب ومؤذٍ لذلك كانت الكنبة تخفي هذه العاهة جهد استطاعتها تحت مخمل كثيف . كانت لورا تعرف كنبنها وتعرف انه لا يجب تحريكها الا بحيطة بالغه ، ولكنها لم نفكر فبها ، وهى في اضطرابها ، ولم تذكر الا انها شعرت بها ننقلب تحتها . فأطلقت صرخة خافتة تختلف تماماً عن الزفرة الطويلة الي اطلقتها منذ قريب ، وانزلقت على حانبها ، حيث وجدت نفسها بعد لحظه جالسة على الطنفسة بين ذراعي برنار الذي بادر اليها بسرعة . لقد اضطر وهو مضطرب ، مع شيء من السرور الى ان يضع ركبته على الأرض . كان وجه لورا فريباً من وجهه فرآها تحمر خجلاً ، وبذلت جهداً لتنهض وساعدها :

- الم تصابي بسوء ؟

- لا . شكراَ . والفضل لك . هذه الكنبه مضحكه . لقد اصلحت مره من فبل . . . اظن انها سنقف لو وضعت الرجل مسنقيمة .

ففال برنار :

- سأصلحها . والآن . . اتريدين تجربتها ؟ - تم تابع : - او اسمحي . . . يجب ان اجربها اولاً على سبيل الحيطة . ترين انها تستقيم جيداً الآن . استطيع تحريك الساقين

(وهـذا مـا فعله وهـو يضحـك) . ثم نهض : ـ عـودي الى الجلوس . اذا سمحت لي بالبقاء لحظة فسآخذ كرسياً واجلس بقربك وامنعك من السقوط . لا تخافي . بودي ان افعل شيئاً آخر من أجلك .

كان في حديثه كثير من اللهيب ، وفي تصرفاته كثير من التحفظ ، وفي حركاته كثير من الكياسة حتى ان لورا لم تستطع منع نفسها من الابتسام .

ـ لم تقل لي اسمك .

ـ برنار .

ـ نعم ، ولكن اسم عائلتك .

ـ ليس لي عائلة .

ـ اسم اهلك .

ـ ليس لي اهل . يعني انا كما سيصبح هذا المولود الذي تنتظرينه : بندوق .

تركت الابتسامة قسمات لورا فجأة ، ساخطة لهذا الالحاح في التدخل في خصوصيات حياتها واغتصاب سرها .

ـ ولكن كيف عرفت ؟ من قال لك ؟ لا حق لك في ان تعلم . . .

كان برنار قد سار بعيدا ، وكـان يتكلم بصوت مرتفع جريء :

ـ اعرف ما يعرفه صدبقي اوليفييه وما يعرفه صديقك ادوار لكن كلا منهما لا يعرف حتى الآن سوى نصف سرك وعلى الأرجح فانا الوحيد ، معك ، الذى يعرفه بكامله . .

ثم اضاف بمزبد من الرقه ·

ـ وهكذا ترين ان الواجب بفضي بان اصبح صديفك

فتمتمت لورا بكآبه :

ـ ما اقل كتمان الرجال للسر ! ولكن . . اذا كنت لم تر ادوار فهذا بعني انه لم بستطع ان بحدثك . . . هل كتب اليك اذاً ؟ هل هو الذي ارسلك ؟

كان برنار يناقض نفسه . وكان يتكلم بسرعة ، خاضعاً للذة التحذلق قليلاً . فحرك رأسه سلبياً وكان وجه لورا يزداد تجهمًا . وفي هذه اللحظة سمع طرق على الباب وسواء أرادا ام لا فان التأثر المشترك يخلق رباطاً بين كائنين . شعر برنار انه سقط في الفخ ، وغضبت لورا لأن تفاجأ برفقة احد . فتطلعا بعضهما الى البعض كما ينطلع شريكان بالذنب . وطرق الباب من جدبد ، فقال الاثنان معاً :

ـ ادخل .

منذ لحظات وادوار بسترق السمع وراء الباب ، مندهشاً لسماعه اصواتاً في غرفة لورا . وقد جعلته عبارات برنار الأخيرة يفهم كل شيء . انها واضحة تمام الوضوح ، كما هو واضح كذلك ان هذا الذي بتكلم هو سارق حقيبته . وضع خطته

حالا فادوار هو احد الكائنات التي نتخدر خصائصها في مجرى الامور العادية ، وتستيقظ فجأة وتنحفز في الامور الطارئة . فنح الباب ولكنه ظل على العتبة ، آتياً بحركة كمن يريد ارجاء التدفق الى ما بعد :

ـ عفواً يا صديقتي العزيزة . لدي اولاً بضع كلمات اود قولها للسيد ، اذا شاء ان يأتي لحظة الى الرواق .

واصبحت الابتسامة اكثر تهكماً عندما انضم برنار اليه .

ـ كنت اعرف انني سأجدك هنا .

وادرك برنار انه احترق . لم يبق عليه الا ان يكون جسورا ، وهذا ما كان ، شاعراً انه يلعب بكل ما معه .

ـ قبل كل شيء ، واذا لم تكن قد قمت بذلك (لأنني اريد الاعتقاد انك اتيت لأجل هذا) ستهبط الى المكتب وتدفع حساب مدام دوفييه من المال الذي وجدته في حقيبتي والذي لا بد ان يكون معك . لا تعد الى هنا قبل عشر دقائق . فيل كل هذا بكثير من الرصانة ، ولكن بنبرة لم يكن فيها شيء من التهديد بالعقاب . وعند ذلك استعاد برنار رباطة جأشه .

ـ اتيت فعلا لهذا السبب . لم تكن مخطئا . بدأت اشعر انني لم اكن مخطئاً ايضاً .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعني انك ذالـ ··· ى كنت آمله .

كان ادوار يحاول عبثا ان يتخذ هيئه صارمة . انه بنسلى كثيراً . وارسل نوعاً من النحنه الساخرة :

ـ شكراً لك . يبقى ان نتفحص العكس اعتقـد ، بما انك هنا ، انك قرأت اوراقى .

وابتسم برنار الذي احتمل نظرة ادوار دون ان يرف لـه جفن ، ابتسم بجساره ، ونسلية ، ووقاحة ، وانحنى مجيباً :

ـ لا ترتب بدلك . انا هنا في خدمتك .

ثم اندفع على الدرج كالإلف (١) elfe

حين عاد ادوار الى العرفه كانت لورا تنتحب . افترب وضعت جبهتها على كتفه . كان اظهار التأثر يعذبه . لم يكن يستطيع احتماله . لقد فاجأ نفسه وهو يربت برفق على ظهرها كما يفعلون مع طفل مصاب بالسعال . وقال :

ـ يا لورتي المسكينة ، هيا . . . كوني عاقلة .

ـ اوه ! . . . دعني ابكي قليلا . هدا بفيدني .

ـ ولكن الأمر يتعلق بمعرفة ما ستفعلين في الوقت الحاصر .

ـ وماذا تريد ان افعل ؟ اين نريدني ان اذهب ؟ مع من تريد ان اتكلم ؟

ـ أهلك .

---

(١) إلف : هو في الاساطير السكندينافية عمريت هوائي يرمز الى الهواء والنار والأرض . الخ . المترحم .

- ولكنك تعرفهم . . . سيدفعهم هذا الى اليـأس . لقد فعلوا كل شيء في سبيل سعادتي .

- دوفييه؟

- لا أجرؤ ابداً على مواجهته . هو كثير الطيبة . لا تظن انني لا احبه . . لو كنت تعلم . . . اوه ! قل انك لا تحتقرني كثيراً .

- بالعكس يا صغيرتي لورا ، بالعكس . كيف تستطيعين الظن ؟ ثم عاد يربت على ظهرها .

- صحيح . لا اشعر بعاري قربك .

- كم مضى عليك هنا ؟

- لا اعلم عشت فقط بانتظارك . قبلاً لم استطع شيئاً . والآن يبدو لي انني لا استطيع البقاء هنا ولو يوماً .

وضاعفت نحيبها ، وهي تصرخ تقريباً ولكن بصوت مختنق :

- خذني من هنا ، خذني من هنا .

وازداد قلق ادوار شيئاً فشيئاً .

- اسمعي يا لورا . . . هدئي من روعك . . . ال . . . . الآخر . . . انني لا اعرف حتى اسمه .

فتمتمت لورا :

- برنار .

- سيصعد برنار بعد لحظة . هيا . انهضي يجب الا يراك

هكذا تشجعي . سنبندع شيئاً . اعدك بذلك . هيا جمعي دمعك. البكاء لا يجدي . تطلعي في المرآة . لقد احتقن دمك . ضعي قليلا من الماء على وجهك . لا استطيع التفكير في شيء حين اراك تبكين . . . . هذا هو ! انني اسمعه .

وذهب الى الباب وفتحه ليدخل برنار ، بينما لورا تدير ظهرها للمشهد مهتمه امام منضدة زينتها باعادة الهدوء الى قسماتها .

ـ والآن ايها السيد ، هل استطيع سؤالك متى يتاح لي ان استعيد اشيائي ؟

قال هذا وهو ينظر الى وجه برنار ، وعلى شفتيه دائمًا تلك الطيبة التهكمية المبتسمة .

ـ عندما يحلو لك يا سيدي ، ولكن يجب ان اعترف لك انك اقل حاجة مني الى تلك الأشياء التي تنقصك . . . هذا ما سوف تفهمه ـ وانا واثق ـ لو انك فقط تعرف حكايتي . اعلم ، انني منذ هذا الصباح دون مأوى ، دون بيت ، دون عائلة ، وكنت مستعداً لالقاء نفسي في الماء لو لم التق بك . لقد تبعتك طويلاً هذا الصباح حين كنت تتحدث مع اوليفييه ، صديقي . حدثني عنك كثيراً ! وكنت اريد الدنو منك . بحثت عن وسيلة ، عن واسطة ! وقد باركت الحظ حين التقطت بيان المستودع اوه لا تحسبني سارقاً . واذا كنت قد اخذت حقيبتك فقد كان ذلك لأدخل في علاقات معك .

القى برنار كل هذا بنفس واحد تقريباً . كان لهيب غير عادي يلهب خطابه وقسماته ، حتى لتخاله لهيباً من الطيبة . وبدأ من ابتسامة ادوار انه وجده شائماً وقال :

ـ والآن ؟

فادرك برنار انه ربح جولة .

ـ والآن ، الست بحاجة الى سكرتير؟ لا استطيع الظن انني سافشل في هكذا وظيفة وانا اتقدم لها بكل هذا الفرح . وانفجر ادوار ضاحكاً هذه المرة . كانت لورا تنظر الى الاثنين لاهية .

ـ سنرى ذلك وسنفكر فيه . تعال غداً في الساعة نفسها لرؤيتي ، هنا ، اذا سمحت مدام دوفيبه بذلك لأنني اريد تسوية كثير من الامور معها ايضاً . انت تنزل في فندق كما افترض اوه ! لن اهتم بمعرفة المكان. قليلاً ما يهمني الى الغد .

ومد له يده . فقال برنار :

ـ قبل ان اتركك يا سيدي اسمح لي بتذكيرك ان استاذ بيانو عجوزاً مسكيناً يسكن في ضاحية سان هونوريه ، واسمه ، كما اعتقد ، لابيروز ، سيسر سروراً عظيماً اذا ذهبت لرؤيته .

ـ بداية لا بأس بها . انك تفهم وظائفك العتيدة كما يجب .

ـ إذاً . . . هل سنرضى حصبفة ؟

ـ سنتكلم عن هذا غداً . وداعاً .

بعدما تـأخر ادوار لحـظات بجانب لـورا ذهب الى بيت مولينييه . كان يأمل ان يرى اوليفييه ثانية ، اذ يريد التحدث معه عن برنار . لم يجد سوى بولين رغم انه اطال زيارته ما امكنه التطويل .

واوليفييه ، في نهاية اليوم نفسه ، استجاب للدعوة الملحة التي حملها اليها اخوه . فذهب الى مؤلف « الحاجز الثابت » ، الى الكونت دو باسافان .

١٥

قال روبير دو باسافان حين رأى اوليفييه داخلاً :

ـ كنت اخشى الا يكون اخوك قد ابلغك الرساله .

ـ هل تأخرت ؟

قال اوليفييه ذلك وهو يتقدم بخجل وعلى اطراف اصابعه تقريباً . وقد ابقى قبعته بيده ، فأخذها روبير :

ـ ضع هذا . اقعد على هواك . اليك هذه الكنبة ، انها مريحة . ليس هناك من تأخير اذا حكمت على ذلك من خلال

المنبه ، ولكن رغبتي في رؤيتك كانت متقدمة عليه . . . اتدخن ؟

ـ شكراً .

قال اوليفييه وهو يبعد علبة السكائر التي قدمها اليه الكونت دو باسافان . لقد رفض بدافع الخجل ، مع انه كان شديد الرغبة في تذوق هذه السكاير الدقيقة ، العنبرية الرائحة ، الروسية دون شك . والتي رآها مصففة في العلبة .

ـ نعم ، انا سعيد لاستطاعتك المجيء . كنت اخشى ان تكون منهمكا بالاستعداد لامتحانك . متى تقدم هذا الامتحان ؟

ـ الامتحان الخطي بعد عشرة ايام . ولكني لم اعد اشتغل كثيراً . اعتقد انني مستعد واخاف ان اتقدم اليه تعبا .

ـ وترفض ان تشتغل بشيء آخر منذ الآن ؟

ـ كلا . . اذا لم يكن يتطلب كثيراً .

ـ اريد ان اخبرك لماذا طلبت المجيء . اولاً ، للسرور برؤيتك. ثانيه ، فقد عقدنا محادثة خفيفة في ذلك المساء في دار المسرح اثناء الاستراحة وما قلته لي شاقني جداً . لا تذكر ذلك دون شك ؟

ـ بلى ، بلى .

قال اوليفييه الذي كان يحسب انه لم يقل في تلك السهرة سوى بلاهات .

ـ ولكن اليوم ، عندي شيء معين اريد قوله لك . . . اظن

انك تعرف يهودياً باسم دورمر . اليس هو احد رفافك ؟
ـ فارقته منذ لحظه .
ـ آه ! أتعاشره ؟
ـ نعم ، كان علينا ان نلتقي في اللوفر للتحدث عن مجله سيكون مديراً لها
فانطلق روبير بضحكة عالية مصطنعة .
ـ هه ! هه ! هه ! المدير . . انه يسير بفوة ! يسير بسرعة ! أصحيح انه قال ذلك ؟
ـ منذ زمن طويل وهو يحدثني عنها .

ـ نعم ، فكرت فيها منذ وقت طوبل . وذات يوم ، طلبت اليه بصورة عرضية اذا كان يرضى ان يقرأ المخطوطات معي ، هذا ما سماه على الأثر : رئيس تحرير ، تركته يفول ، وعلى الأثر . . . . هذا حسن منه ، الا تجده كذلك ؟ اي نموذج هو ! انه بحاجة الى شيء من التوبيخ . . . أصحيح انك لا تدخن ؟ ففال اوليفييه، وقد قبل هذه المرة :

ـ بلى . شكراً .

ـ اسمح لي ان اقول لك يا اوليفيبه . . . اتريد حقاً ان ادعوك اوليفيبه ؟ مع ذلك لا استطيع معاملتك « كسيد » فأنت لا تزال اصغر سناً من ذلك ، ولا ان ادعوك مولينييه لأنني وثيق الارتباط بأخيك فنسان . حسناً يا اوليفييه ، دعني اقل لك انني اثق الى ما لا نهاية بذوقك اكثر من ثقتي بدوق « السيد »دورمر.

اترضى ان تأخذ على عاتقك هذه الادارة الأدبية ؟ تحت قليل من رقابتي ، وهذا طبيعي ، في الأيام الأولى على الأقل . ولكني افضل الا يكتب اسمي على الغلاف . سأشرح لك في ما بعد سبب ذلك . . . ممكن ان نتناول كأس البورتو اليس كذلك ؟ عندي منه صنف ممتاز .

وتناول من على مقصف صغير في متناول يده زجاجة وكأسين وملأهما .

ـ إيه . ما رأبك ؟

ـ ممتاز ، فعلا .

فاعترض روبير ضاحكاً .

ـ انا لا اكلمك عن البورتو ، بل عما قلته لك الآن .

تظاهر اوليفييه بانه لم يفهم . كان يخشى ان يقبل بسرعة ، وان يظهر الكثير من سروره فاحمر قليلاً وتمتم باضطراب :

ـ ان امتحاني لا . . .

فقاطعه روبير :

ـ قلت لي الآن انه لا يشغلك كثيراً . ومع ذلك فالمجلة لن تصدر حالاً . واني لأتساءل اذا لم يكن من الأفضل ارجاء ظهورها الى ما بعد العودة . ولكن مهما كانت الطريقة ، فيهمني ان اعرف افكارك . يجب تهيئة بضعة اعداد قبل تشرين الأول . وسيكون ضرورياً ان نرى بعضنا البعض كثيراً في هذا

الصيف لنتحدث عنها ماذا سوى ان تفعل اثناء هذه العطلة الكبرى ؟

- اوه ! لا اعلم كثيراً . اكيد ان اهلي سيذهبون الى النورماندي شأنهم في كل صيف

- وهل يجب ان نرافقهم ؟ اترضى ان تنفصل قليلا عنهم ؟

- امي لن ترضى .

- سأتناول الطعام هذا المساء مع اخيك ، اتسمح لي بالتحدث اليه عن ذلك ؟

- اوه ! فنسان ، نفسه ، لن يذهب معنا . - ثم حسب ان هذه العبارة لا تتلاءم مع السؤال ، فأضاف : - ثم ، ان هذا لن يفيد شيئاً .

- واذا وجدت اسباباً وجيهة تعطى للماما ؟

لم يجب اوليفييه بشيء . كان يحب امه بحنو ، واللهجة الساخرة التي استعملها روبير في كلامه عنها لم ترضه . وادرك روبير انه سار بشيء من السرعة . فقال بنوع من الالهاء :

- اذن ، فقد قدرت شرابي البورتو . اتريد كأساً اخرى منه ؟

- كلا ، كلا ، شكراً . . . . ولكنه ممتاز .

- نعم . دهشت من نضج احكامك وسلامتها في ذلك المساء . اليس في نيتك ممارسة النقد ؟

ـ لا .

ـ اشعار ؟ اعرف انك تنظم اشعاراً

فاحمر اوليفييه من جديد .

ـ نعم ، لقد خانك اخوك . وما من شك في انك تعرف شبانا آخرين على استعداد للمساعدة .. يجب ان تكون هذه المجلة ندوة اجتماع للشبيبة هذا هو سبب وجودها . اريد ان تساعدني في تحري نوع من المنشورات تشير دون كثير من الايضاح الى الميول الجديدة . سنتحدث عنها. يجب اختيار اثنين او ثلاثة من النعوت ، لا لزوم للافراط في استعمال كلمات جديدة ، بل كلمات قديمة استعملت كثيراً وتحمل معنى جديداً وسنفرض . فعندنا بعد فلوبير : « عديدة وموقعة » وبعد ليكونت دوليل : « كهنوتي ونهائي » . ما رأيك في « حيوي » . . . « لا واعٍ وحيوي » . . كلا ؟ « ابتدائي متين وحيوي ؟ » .

فجرؤ اوليفييه على ان يقول وهو يبتسم دون ان يبدي كثيراً من الاستحسان :

ـ اعتقد من الممكن ايجاد افضل .

ـ هيا . كأساً اخرى من البورتو .

ـ غير ملآنة . . . ارجوك .

ـ ان الضعف الكبير للمدرسة الرمزية هو انها لم تأت الا بما يتعلق بعلم الجمال ، وقد اتتنا جميع المدارس الكبرى ، في

إنشاء جديد ، بعلم اخلاق حديد ، ودفتر شروط جديد ، ولوائح جدبدة ، وطريقه جديدة في النظر ، وفي فهم الحب ، وفي السلوك في الحياة اما الرمزي فهو لم يكن يتصرف في الحياة · لم يحاول فهمها . هو ننكرها ، وبدير لها ظهره . وهده حماقة ألا نجدها كذلك ؟ انهم اناس دون شهبة ، ودون نهم ايضاً ، لبس مثلنا نحن الآخرين . . . ألبس كذلك ؟

كان اوليفييه فد انهى كأسه التانية من البورتو وسبكارته الثانيه . فأطبق عينيه نصف إطباقة ونام نصف نومه في كنبته المريحة . ودون ان يقول شيئاً كان يظهر استحسانه بحركات خفيفة من رأسه وفي تلك اللحظة سمع الحرس يدق وعلى الأثر دخل حادم وقدم لروبير بطاقة . اخذها روبير والقى نظرة علبها ووضعها قربه على مكتبه .

ـ حسناً ! قل له ان ينتظر لحظة ـ خرج الخادم . ـ اسمع ، يا صغيري اوليفييه لقد احببتك كثيراً واظن اننا نستطيع التفاهم جيداً . ولكن ها هو احدهم بتحتم على ان استقبله وبحرص على ان اكون بمفردي .

ونهض اوليفييه .

ـ سأخرجك من الحديقة ، اذا سمحت . . . آه ! سيسرك ان تحصل على كتابي الجديد ؟ عندي منه نسخة مطبوعة على ورق فخم . . . .

ـ لم انتظر ان اتلقاه منك لأقرأه .

قال اوليفييه ذلك.وهو لا يحب كتاب باسافان كتيراً ، وحاول ان ينخلص منه دون تمليق مع حرصه على ان يظل محبوباً . وفوجىء باسافان بلهجـة العبارة ، فـرق خفيف بينها وبـين الاحتقار . وتابع بسرعة :

ـ اوه! لا تحاول ان تحدثني عنه . لو قلت لي انك تحبه لاضطررت ان اضع موضع الشك ذوقك او صدقك . كلا ، اعرف اكثر من اي انسان ما ينقص هذا الكتاب. كتبته بكثير من السرعة . وحقيقة القول انني كنت افكر في كتابي التالي في الوقت الذي كتبته فيه . آه! ذاك مثلاً . . . انـا متعلق به كثيـراً . سترى ، سترى . . . انا حزين ، ولكن يجب ان تتركني حتماً في الوقت الحاضر . . . الا اذا . . ولكن لا ، لا ، اننا لا نعرف بعضنا كثيراً بعـد ، ومن المؤكد ان اهلك ينتظرونك عـلى الطعام . هيا ، الى اللقاء . الى الملتقى القريب . . . . سأكتب اسمك على الكتاب . . . اسمح . . . .

ونهض ، واقترب من مكتبه ، وبينما كان منحنيـاً ليكتب تقدم اوليفييه خطوة الى الامام ، وتـطلع من زاوية عينـه الى البطاقة التي حملها الخادم :

فكتور ستروفيلو

هذا الاسم لم يأته بجديد .

وناول باسافان اوليفييه نسخة من « الحاجز الثابت » . وبينما

كان اوليفييه بتهيأ لفراءة عبارة الاهداء ، فال له باسافان وهو يصع له الكناب نحت ابطه :

ـ سترى هدا في ما بعد .

ولم يـع اوليفييه الا في الشـارع هذه الكتـابه المحـطوطـة المستخرجة من الكناب الذي تزينه ، والني كنبها الكونت دو باسافان على نسق اهداء

« ارجوك يا اورلندو ، بعض الخطوات ابضاً .

لست متأكداً بعد مں جرأتى على فهمك فهمًا كاملاً » .

وأضاف نحنها :

« الى اوليفييه مولبنييه

صدبقة العنيد

الكونت روبير دو باسافان » .

كنابة مبهمة جعلت اولبفييه مفكراً . ولكنه على كل حال حر في تفسيرها كما يشاء .

عاد اوليفييه الى منزله بيىما كان ادوار فد تركه ، وقد مل الانتظار .

١٦

كانت تقافة فنسان الايجابية تمنعه من الاعتقاد بما فوق الطبيعة ، مما رجح كثيراً كفة الشيطان في الميزان ولم يكن الشيطان ينصدى لفنسان مواجهة ، انما يراوده . موارنة وخفية . وتتألف احدى مهاراته من خداعنا بان نحسب انكساراتنا متصرة . والذي اعد فنسان ليعتبر تصرفه حيال لورا نصراً لارادته على غرائزه العاطفية ، هو انه اضطر ، وهو طيب بطبيعته ، ان يضبط نفسه ، وبتصلب ، ليبدو قاسياً حيالها .

ولدى تفحص طبع فنسان في هده المكيده.ميزت فيه درجات مختلفه اريد الاشارة البها في سبيل افادة القارىء :

١ ـ حقبة الباعث الطيب . النزاهة . حاجة ضميره لإصلاح غلطة ارتكبت . وفي هده الفضية بالذات : الالزام الاخلاقي في ان يكرس للورا المبلغ الذي اقتصده اهله ببذل الجهد لمساعدته في اولى نفعات مهنه . اليس في ذلك تضحية ؟ اليس هدا الباعث لائقاً ، أريحياً ، إحسانياً ؟

٢ ـ حقبة القلق . تردد الضمير . الشك في ان هذه القيمة

المكرسة ستكون كافية . السر هذا استعداداً للخضوع عندما موه الشيطان امام عتبه إمكان إحبالها ؟ .

٣ ـ ثبات النفس وقوتها . الحاجة لأن يشعر ، بعد خسارة تلك القيمة ، انه « فوق الشدة » و « قوة النفس » هذه هى التي اتاحت له ان يعترف للورا بخسارته فى القمار ، واتاحت لها ، بالمناسبة نفسها ، ان تقطع علاقته بها .

٤ ـ العدول عن الباعث الطيب ، المعتبر خدعه ، فى ضوء علم الأخلاق الجديد حيث وجد فنسان نفسه مضطراً الى الاختلاق ليضفي على سلوكه صفه الشرعيه ، وذلك لأنه بقي كائناً اخلاقياً ، ولن يكون للشيطان حجة عليه الا بتوفير اسباب له تجعله يستصوب عمله . نظرية الملازمة والكلية في اللحظة ، الفرح المجاني ، الآني وغير المعلل .

٥ ـ نشوة الرابح . احتقار الادخار . . التفوق .

انطلاقاً من هنا يربح الشيطان الجولة .

وانطلاقاً من هنا فان الكائن الذي يعتبر نفسه اكثر حريه ليس الا اداة فى خدمته ولن يكون للشيطان انقطاع ما دام فنسان اسلم اخاه الى ذلك الشرير الذى هو باسافان

ومع ذلك فليس فنسان رديئاً . وكل هذا ، مهما كان ، جعله غير راض ، ومتعكر المزاج . ولنضف ايضاً بضع كلمات :

تسمى « العربة » كما اعتقد ، كل ثنية مختلفة الالوان للمايا maya [1] ، حيث تشعر نفسنا امامها انها غريبة ، والتي تحرمها نقاط الارتكاز . وفضيلة كهذه تفاوم احياناً ، والشيطان يخرجها من محيطها قبل ان يهاجمها . ما من شك في انهما لو لم يكونا تحت سماوات جديدة ، بعيدين عن اهلهما ، وعن تذكارات ماضيهما ، وعما يغضبهما منطفيين مع نفسهما ، لما استسلمت لورا لفسان ولما حاول إغواءها وما من شك في ان هذا العمل الغرامي هناك بدا لهما انه لن يدخل في خط الحساب . . بقي الكثير مما يجب قوله ، ولكن ما جاء اعلاه يكفي تماماً لأن يوضح لنا فنسان .

بجانب ليليان ايضاً كان يشعر انه غيرّ محيطه . وقد قال لها ذلك المساء نفسه :

ـ لا تضحكي مني يا ليليان . اعلم انك لن تفهميني . ومع ذلك فأنا بحاجة للتحدث اليك كأنك تفهميني . لأنه يستحيل علي من الآن فصاعداً ان اخرجك من تفكيري .

كان نصف نائم على قدمي ليليان المتمددة على اريكة منخفضة ، وقد وضع رأسه بهيام على ركبتي عشيقته التي كانت تداعبه بهيام ايضاً .

(١) المايا : هنود اميركا الوسطى . المترجم .

ـ ان ما حعلي مهموماً هذا الصباح نعم ربما هو الخوف اتستطيعين ان تظلي رصينة لحظة ؟ اتستطعين ، لتفهميني ، ان تنسي لحظه ، ليس ما تعتقدينه ، لأنك لا تعتقدين بشيء ، بل ، بشكل واضح ، ان تنسي انك لا تعتقدين بشيء ؟ وانا ايضاً لم اكن اعتقد بشيء ، وانت تعرفين ذلك ، كنت اعتقد انني لم اعتقد بشيء اطلاقاً . بشيء ، الا بأنفسنا ، الا بك ، إلا بي ، الا بما استطيع ان اكون معك ، الا بما يمكن ان اصير بفضلك . . . .

فقاطعته ليليان :

ـ سيأتي روبير في الساعة السابعة . وليس ذلك لأدفعك الى الاسراع . ولكن اذا لم تتقدم بسرعة اكثر فسيقاطعنا تماماً في اللحظة التي تبدأ فيها ان تكون شائقاً . لأني افترض انك تفضل الا تستمر امامه . انه لعجيب اعتقادك ان من واجبك ان تتخذ اليوم الكثير من الاحتياطات . هيئتك كهيئة اعمى يتلمس اولاً بعصاه كل مكان يريد ان يضع قدمه فيه. ومع ذلك فانت ترى انني احتفظ بجديتي لماذا لا تثق بي ؟

فقال فنسان :

ـ منذ ان عرفتك وانا واثق بك ثقة غير عاديه . انني استطيع عمل الكثير ، واشعر بذلك ، وترين انني أنجح . ولكن ، بالتأكيد ، هذا ما يخيفني . . . كلا ، اصمتي . . . فكرت طوال النهار بما رويته لي صباح غرق « البورغونيا » والايدي التي

قطعت ، ايدي اولئك الذين ارادوا الصعود الى الزورق يبدو لي ان شيئاً ما يريد الصعود الى زورقي ـ لقد استعملت صورتك لتفهميني ـ شيئاً ما اريد منعه من الصعود اليه . .

ـ وتريد ان اساعدك على اغراقه ايها الجبان العجوز ! . . .

فأكمل دون ان ينظر اليها :

ـ شيئاً قال هذا الصوت ؟ . . . انت لا تجرؤ على إعادته . هذا لا يدهشني . يبدو لي ان هناك في الداخل شيئاً من التعليم المسيحي اليس كذلك ؟ .

ـ ولكن يا ليليان ، إفهميني : الوسيلة الوحيدة لأنفذ نفسي من هـذه الافكار هي ان اقـولهـا لـك . واذا ضحكت منهـا فسأحتفظ بها لنفسي ، وستسممني .

ـ تكلم .

قالت ذلك بلهجة استسلام . ثم ، بما انه ظل صامتاً ، وقد خبأ وجهه في تنورة ليليان بشكل صبياني ، قالت هذه :

ـ هيا ! . . ماذا تنتظر ؟

وأمسكته من شعره وأجبرته على رفع رأسه .

ـ ولكن ، يبدو انه يأخذ الأمر مأخذاً جدياً ، وهو كثـير الشحوب . اسمع يا صغيري ، اذا اردت ان تقلد الطفل فان هذا لا يوافقني مطلقاً . يجب ان تجروء على ارادة ما تريد ثم ، انت تعلم انني لا احب المخاتلين . حين تريد ان تصعد الى الزورق ذلك الذي لا هم له الا الصعود اليه ، وذلك على سبيل

المداراة ، فأنت تغش . أنا اريد ان العب معك ، ولكن لعباً صريحاً ، وقد انذرتك ، وما ذلك الا لأجعلك تنجح اعتقد ان في وسعك ان تكون رجلاً ذا اهمية ، ملحوظاً ، احس فيك بذكاء كبير وقوة كبيرة . اريد ان اساعدك . هناك كثير من النساء يفسدن من يتعلقن بهم ، وانا اريد ان اكون بعكس ذلك . حدثني قبلاً عن رغبتك في ترك الطب لأعمال في العلوم الطبيعية ، وأسفت لعدم وجود المال الكافي لدلك . . . اولاً ربحت في القمار خمسين الف فرنك ، وهدا ليس بالقليل . ولكن عدني بأنك لن تعود الى اللعب . وسأضع تحت تصرفك كل ما يلزم من المال ، بشرط ان تكون لك القوة على هز كتفيك استخفافاً اذا سمعتهم يقولون ان امرأة تصرف عليك .

كان فنسان قد نهض ، واقترب من النافذة . وتابعت ليليان :

ـ اولاً ، ولإنهاء الأمر مع لورا ، ارى ان بالامكان ان ترسل لها الخمسة آلاف فرنك التي وعدتها بها . وما دام المال معك الآن فلماذا لا تفي بكلامك ؟ هل ذلك بدافع حاجتك للشعور انك اكثر ذنباً حيالها ؟هذا لا يرضيني في شيء . انني ارتعد من قلة التهذيب . انت لا تعرف ان تقطع الايدي بدقة . حين يتم ذلك سنذهب لتمضية الصيف في اي مكان يكون انسي لك في اعمالك.لقد حدثتني عن روسكوف . اما انا فأفضل موناكو لأنني على معرفة بالأمير الذي يستطيع اخذنا في

رحلة بحرية وتشغيلك في معهده .

وصمت فنسان . كان يسوؤه ان يقول لليليان ، ولم يرو لها ذلك الا في ما بعد ، انه قبل مجيئه لزيارتها مر على الفندق الذي انتظرته فيه لورا بيأس ، ولما كان كل همه ان يشعر انه خالص لا عليه ولا له ، فقد وضع في غلاف تلك الأوراق المالية التي كانت لورا قد يئست من الحصول عليها . واعطى الغلاف احد الغلمان ، ثم انتظر في الدهليز مطمئناً الى ان الغلام سيسلم لورا الغلاف يداً بيد . وبعد لحظات قليلة عاد الغلام حاملا الغلاف وقد كتبت لورا عليه بالعرض : « فات الأوان » .

قرعت ليليان الجرس وطلبت معطفها . وحين خرجت الخادمة :

آه ! اردت ان اقول لك قبل وصوله : اذا عرض عليك روبير ان يوظف لك مبلغ الخمسين الف فرنك ، فاحذر انه غني جداً ولكنه دائم الحاجة الى المال . اظن اني سمعت بوق سيارته . لقد جاء قبل الوقت بنصف ساعة ، ولكن هذا افضل . . . فمجيئه لن يحرمنا شيئاً ، وما كنا نقوله لم يكن بالأمر المهم

وقال روبير وهو داخل :

ـ جئت قبل الوقت لأني فكرت انه سيكون من بواعث التسلية ان نذهب لتناول الطعام في فرساي . أيلائمك هذا ؟

فقالت الليدي غريفث :

ـ كلا . الاحواض تقتلني . من الافضل ان نذهب الى

رامبوييه ، لدينا الوقت الكافي . سنأكل هناك افل مما يجب ولكننا سنتحدث بصورة افضل . اريد ان يروي فنسان لك حكاياته عن الاسماك . هو بعرف منها ما يدهش . لا ادري ادا كان ما يقوله صحيحاً ولكنه يبعث على التسلبة اكثر من اجمل روايات العالم .

فقال فنسان :

ـ من الممكن الا يكون هذا رأي روائي .

كان روبير دو باسافان يمسك صحيفة مسائية :

ـ اتعلمان ان برينيار قد عين رئيس غرفة في العدلية ؟ هذه هي اللحظة المناسبة لدفعهم الى منح ابيك وساماً .

قال ذلك ملتفتاً نحو فنسان . وهز هذا كتفيه . وتابع باسافان :

ـ يا عزيزي فنسان ، اسمح لي بالقول انك نكدره كثيراً بعدم طلبك منه هذه الخدمه الصغيرة ـ ليصبح سعيدا برفض طلبك .

فأجاب فنسان بسرعة :

ـ لو بدأت بطلبها منه لنفسك .

فأرخى روبير شفنيه بتكلف :

ـ كلا ، فأنا ابعد من ان افرط بمفامي حتى لو كان الامر يتعلق بوسام !

ثم دار نحو لليان وقال :

ـ اتعلمين ان الذين يبلغون سن الاربعين دون ان يصابوا بالجدري او يمنحو اوسمة هم نادرون في ايامنا ؟فابتسمت ليليان هازة كتفيها . وقالت :

ـ من أجل تركيب كلمة جميلة ، يرضى بان يكبر سنه ! قل : هل هذه عبارة من كتابك القادم ؟ ستكون طازجة . . . . اهبطا على كل حال ، سآخذ معطفي وألحق بكما .

وعلى الدرج سأل فنسان روبير :

ـ كنت اعتقد انك لا تريد رؤ يته ابداً .

ـ من ؟ برينيار ؟

ـ كنت تجده كثير الحمق .

فأجاب باسافان متهملا ، وقد وقف على درجة تاركاً فنسان مرفوع الرجل ، لأنه رأى الليدي غريفث آتية ، وتمنى ان تسمعه :

ـ يا صديقي العزيز . إعلم انه ما من احد من اصدقائي إلا اعطاني تأكيدات على بلاهته ،بعد معاشرة طويلة قليلاً . وأشهد ان برينيار قد قاوم التجربة وقتاً اطول اكثر بكثير من الآخرين .

فقال فنسان :

ـ مني انا مثلا ؟

ـ وهذا لم يمنعني من ان اظل افضل صديق لك ، وترى ذلك جيداً .

فقالت ليليان التي انضمت اليهما :

ـ هذا ما يسمونه في باريس ذكاء . انتبه يا روبير : ليس هناك شيء بذبل اسرع من الذكاء .

ـ اطمئني يا عزيزتي : الكلمات لا تذبل الا حين تطبع

واخذوا مكانهم في السيارة التي سارت بهم . ولما كان حديثهم قد ظل على هذا المسنوى فنقله هنا لا فائدة منه . جلسوا حول طاولة على شرفة فندق ، أمام حديقة ملأها الليل الهابط ظلالا . وثقلت الاحادبث بفضل المساء شيئاً فشيئاً . واخيراً لم يبق من يتكلم سوى فنسان الذي دفعه ليليان وروبير الى ذلك .

١٧

لو قل اهتمامي بالناس لازداد بالحيوانات .

هذا ما قاله روببر . وأجابه فنسان :

ـ لعلك تظن الناس يختلفون كثيراً عن الحيوانات . ما من اكتشاف كبير في علم الدواجن الا كان له دويه في معرفه الانسان . كل هذا منصل بعضه ببعض ومتعلق بعضه ببعض . واظن ان روائباً يعتز بكونه عالماً نفسانياً وبدير عينيه عن منظر الطبيعة وبظل جاهلاً قوانينها ، هو مخطىء وسيكتشف عاجلاً ام

آجلاً انه كان مخطئاً . في مذكرات غونكور التي اعطيتني اياها لأقرأها ، وقعت على قصة زيارة لأروقة التاريخ الطبيعي في « حديقة النبات » حيث يرثي الكاتبان لقلة المخيلة في الطبيعة ، أو عند الرب . ان الحمق وعدم الفهم يظهران في روحهما الصغيرة من خلال هذا التجديف المسكين . ان الأمر على العكس . يا له من تنوع هناك ! يبدو ان الطبيعة جربت ، دورياً ، جميع الاساليب لتكون حية ، ولتتحرك ، منتفعة بجميع ما تبيحه المادة ، وبقوانينها . يا له من درس في التخلي التدريجي عن بعض المجازفات غير الصائبة ولا اللبقة ، والمتعلقة بعلم المطمورات ! . . . يا له من توفير اتاح المؤونة لبعض الاشكال ! . . . ان التأمل في هذه يفسر لي اهمال تلك. حتى علم النبات يمكن ان يعلمنا. حين افحص غصناً صغيراً الاحظ انه يؤوي في كل منبت لأوراقه ، برعماً جديراً ان ينبت بدوره في السنة التالية . وحين الاحظ ان اثنين من البراعم على الاكثر نموان ، وبنموهما يقضيان على الآخرين بالهزال ، لا اتمالك من ن افكر ان ما يحدث هنا يحدث للانسان . ان البراعم التي تنمو نواً طبيعياً هي دائماً البراعم النهائية ـ يعني : هي التي تكون اكثر بعداً عن الجذع العائلي . والتقليم وحده ، او التقوس [1]

(١) التقوس arcure : هو ان تحني فرعاً من شجرة مثمرة لتقلل من كمية النسغ فيه ، فيتحول الى الفروع الأخرى . المترجم .

بارحاع النسغ الى الوراء ، يضطره الى بعث الحياة في البذور المحاورة للحذع ، والتي ظلت نائمة وبهدا تثمر الأنواع الأكثر تمرداً والتي لو تركت على هواها لما انتجت سوى اوراق . آه ! اي مدرسة صالحه هي هذه الروضة ! . . . هذه الحديقة ! وأي مرب صالح يمكن في الغالب ان نستنبطه من البستاني ! يمكن في الغالب ان نتعلم اموراً كثيرة من المعرفة القليلة لملاحظة حوش دواجن ، دودة ارض ، حوض يحفظ فيه سمك او نبات ، مأوى ارانب ، زريبة ، اكثر من التعلم من الكتب ـ وصدقني اذا قلت : او مى مجتمع بشري ايضاً حيث سقط الجميع قليلاً او كثيراً ، في بؤرة السفسطة .

تم تحدث فنسان عن انتقاء الافضل ، فعرض الطريقة العادية لاصحاب هذه الاصناف في سبيل الحصول على النصف الأجمل ، واختبارهم للنمادج الاصلية ، وعن تلك السزعة الاختياربة لبستاني حريء يمر بباله ، بدافع الروتين وقد تقول بدافع التحدي ـ ان يختار ، على العكس ، الافراد الاضعف وعرض ايضاً طرق الإزهار التي لا منيل لها والتي حصل عليها .

وروبير الدى لم يكں يسمع في بادىء الأمر الا بأذن واحد ، كمن لا بنتظر سوى الضجر ، لم يحاول مقاطعته. وانىباهه بعث النشوة في ليليان ، كأنه تحيه لعشيقها وقالت له :

ـ ليتك تحدثنا بما حدثتني عنه قبلا عں الاسماك وتكيماتها وفقاً لدرجات ملوحة البحر . . . . اليس هكدا تقول ؟

وتابع فنسان :

باستثناء بعض المناطق ، تظل درجة الملوحة ثابتة تقريباً ، ومجموع الحيوانات البحرية لا تحتمل عادة سوى تنوعات خفيفة جداً من الكثافة ولكن المناطق التي تحدثت عنها هي مع ذلك ليست خالية من السكان ، ان المناطق الخاضعة لتبخرات مهمة تخفف كمية المياه بالنسبة الى الملح ، او هي ، على العكس ، تلك التي تأتيها حصة ثابتة من الماء العذب تخفف الملح وتنقص ملوحة البحر ان صح القول ـ انها المجاورة لمصب الأنهار الكبيرة او لتيارات ضخمة . كذلك الذي يدعى « خليج ستريم » فالحيوانات المسماة sténohalins تسقم فيها وتوشك على الهلاك ، وبما انها غير قادرة ايضاً ان تدافع عن نفسها ضد الحيوانات المسماة euryhalıns ، حيث تصبح فريسة لها بشكل لا يمكن منعه ، فان الـeuryhalıns تفضل العيش على حدود التيارات الكبرى حيث تتغير كثافة الماء ، وحيث تحتضر الـstenohalins . لقد ادركتم طبعاً ان الـsteno هي التي لا تحتمل سوى الدرجة نفسها من الملوحة ، بينما الـeury . . .

ـ هي التي تعيش في المياه الأقل ملوحة .

هكذا قاطعة روبير الذي يرد الى نفسه كل فكرة ، ولا يهتم لأي نظرية سوى بما يستطيع استعماله منها .

وأضاف فنسان برصانة :

ـ معظم هذه الحبوانات مفترسة .

وهتفت الليدي ليليان متحمسة :

ـ الم اقل لك ان هذا يساوي كل الروايات !

اما فنسان ، وكأنه تبدل ، فقد ظل غير شاعر بالنجاح. كان رصيناً بشكل غير عادي ، وتابع بلهجة اكثر انخفاضا كأنه يتحدث الى نفسه :

ـ وأدهش اكنشاف في هذه الأزمنة الأخيرة ـ او الذي عرفت عنه اكثر من غيره على الأقل ـ هو اكتشاف الاجهزة المولدة للضوء عند حيوانات الاعماق .

فقاطعته ليليان التى تركت سيكارتها تنطفىء وقدح البوظة التي قدمت اليها تذوب .

ـ اوه ! حدثنا عن هذا .

ـ تعلمون دون شك ان ضوء النهار لا يتغلغل بعيداً في البحر فاعماقه مظلمة . . مهاو سحيقة ظل الاعتقاد لوقت طويل انها غير مأهولة ، ثم ان عمليات جرف الرمال التي حاولوه جلبت من هذا الجحيم كمية من الحيوانات العجيبة . وقد اعتقد ان هذه الحيوانات عمياء . وما حاجتها لحاسة النظر فى الظلام ؟ . . بالتأكيد لم يكن لها عيون ، ولم تكن تستطيع ، لم تكن بحاجة للحصول عليها . ومع ذلك فقد فحصت وتأكد العلماء بدهشة ان لبعض منها عيوناً ، وانها كلها تقريباً لها عيون فضلاً عن اللاقطات الهوائية antennes ذات الحساسيه الهائله ومضى العلماء في الشك واصابتهم الدهشة : لماذا العيون ما

دامت لا ترى شيئاً ؟ . عيون حساسة ، ولكن ماذا تحس ؟ حسبوها وها هم قد اكتشفوا اخيراً ان كلًّا من هذه الحيوانات التي حسبوها مظلمة في بادىء الامر ، تخرج ، وتلقي امامها ، وحولها ، ضوءها . كل منها يضيء ، ويسطع ، ويشع . وحين يؤتى بها ليلاً من اعماق الهاوية تلقى على سطح الباخرة ، ويصبح اللبل باهراً . نار متحركة ، مهتزة ، ذات الوان عدة . منائر دائرة ، ذبذبه كواكب ، واحجار كريمة . وقد قال لنا اولئك الذين رأوها انه لا يوجد شيء بعادلها في رونقها .

وسكت فنسان . وظلوا وقتاً طويلاً دون كلام . وقالت ليليان : فجأة :

ـ لنعد الى الـ ت شعرت بالبرد .

جلست اللدي ليليان بجانب السائق ، مختفية قليلاً خلف الستار البلوري وفي صدر السيارة المكشوفة استمر الرجلان يتحدثان في ما بيهما . كان روبير قد لزم الصمت طوال وقت الطعام ، مصغياً الى فنسان وهو يتكلم ؛ وقد جاء دوره الآن :

ـ أسماك مثلنا يا صديقي فنسان تحتضر في المياه الهادئه .

قال مرفقاً كلامه بضربةٍ فجائية على كتف صديقه . كان يسمح لنفسه بشيء من الـدالّة مـع فنسان ولكنـه لا يحتمل مثلها ؛ ومع ذلك فإن فنسان لم يكن تواقاً الى هذا .

ـ اتدري انني اجدك مدُوخاً ! أي محاضر يمكن ان تكون ! لعمري يجب ان تترك الطب . وحقيقة فإنني لا اراك واصفاً

المسهلات وجاعلاً من رفاقك مرضى . . . . منبر لعلم البيولوجيا المقارن ، أو لا أدري ماذا من هذا النوع ، هذا ما يلزمك .

فقال فنسان :

ـ فكرت في ذلك قبلاً .

ـ على ليليان ان تحصل لك على هذا ، وذلك بأن تجعل صديقها أمير موناكو يهتم بابحاثك ، وهو من هذا الرأي كما أعتقد . . . . يجب ان احدثها عن ذلك .

ـ لقد حدثتني قبلاً عن ذلك .

ـ ما العمل إذاً لاسداء خدمة اليك ؟ خصوصاً إني كنت ناوياً ان اطلب منك خدمة .

قال ذلك متظاهراً بالكدر . .

ـ سيكون دورك لتصبح مديناً لي . انت تظنني ضعيف الذاكرة .

ـ ماذا ؟ ألا تزال تفكر بالخمسة آلاف فرنك ؟ ولكن اعدتها الّي يا عزيزي . . . . لست مديناً لي بشيء . . . . بقليل من الصداقة ، تقريباً ـ أضاف ذلك بلهجة شبة رقيقة ويده موضوعة على ذراع فنسان ـ ان صداقتك هي التي اتوجه اليها .

فقال فنسان :

ـ أنا مصغٍ .

ولكن باسّافان صاح على الأثر ، ناسباً الى فنسان فراغ

صبره هو :

ـ كم انت متعجل ! لدينا وقت من هنا الى باريس كما افترض .

كان باسافان حاذقاً على الخصوص في ان يجعل الغير يلبس اهواءه الخاصة ، وكل ما يفصل ان يكره ؛ ثم تظاهر بترك موضوعه ، كصائدي سمك « الترويت » الذين يلقون الطعم بعيداً جداً لئلا ينفروا فريستهم ، ثم يأتون به من عبر ان تشعر الأسماك .

ـ للمناسبة ، اشكرك لارسال اخيك اليَّ كنت اخشى ان تنسى .

وقام فنسان بحركة ، وتابع روبير :

ـ هل رأيته بعدها ؟ لم يتسع لك الوقت ، اليس كذلك ؟ غريب انك لم تسألني بعد عن اخبار هذه المقابلة انك في اعماقك غير مبالٍ بذلك . لا تهتم ابداً باخيك . وكل ما يفكر فيه أوليفييه ، وما يشعر به ، وماهو وما يريد ان يكون ، كل هذا لا تلقي له بالاً . . . .

ـ هل هذه توبيخات ؟

ـ نعم بالتأكيد . انا لا أفهم ، ولا أقبل هذا الجمود . حين كنت مريضاً في بو ، كان هذا مقبولاً منك ؛ كان عليك ألا تفكر إلا بنفسك ، وكانت الأنانية جزءاً من علاجك . اما الآن . . . ماذا ؟ . . ان بجانبك تلك الطبيعة الصغيرة

المرتعشة ، هذا الذكاء المستيقظ ، المليء بالوعـود ، والذي لا ينتظر سوى نصيحة ، سوى سند . . . .

ونسي في هده اللحظة انه هو ايضاً له اخ .

ومع ذلك ففنسان لم يكن احمق . وقد انذره الافراط في التوبيخ ان هذا الافراط لم يكن صادقاً جداً ، وان الحنق هنا لم يأت إلا ليجلب شيئاً آخر . فصمت ، منتظراً مجيئه . ولكن روبير توقف حالاً ، ففد فاجأ على ضوء السيكـارة التي كان فنسان يدخنها طيةً غريبة على شفة هذا الاخير حسبها تهكمًا . وهو يخشى التهكم أكثر من أي شيء في العالم . فهل هذا هو الذي جعله يبدل لهجته ؟ أو بالأحـرى إني أتساءل اذا كـان الحدس قد عنّفه لنوع من الذنب المشترك بين فنسان وبينه . فتابع ، متظاهراً بشكل طبيعي كامل ، وبهيئة تقول : « ما من حاجة للمداجاة معك » :

ـ حسناً ! . . . لقد اجريت حديثاً مع اوليفييه من ألطف ما يكون . لقد اعجبني هذا الغلام تماماً .

وحاول باسافان ان يلتقط نظرة فنسان (لم يكن الليل شديد الظلام) ؛ ولكن هذا كان يتطلع أمامه .

ـ وهذه ، يا عزيزي مولينييه، هي الخدمة الصغيرة التي أردت طلبها منك .

ولكنه شعر هنا أيضاً بالحاجة ليترك فسحة ، أو بالأحرى : ليتـرك دوره لفترة ، عـلى طـريقـة ممثـل واثق من الاحتفـاظ

بجمهوره ، راغب في ان يثبت لنفسه ويتبت للجمهور انه محتفظ به . انحنى إذاً الى الأمام نحو ليليان ، وبصوت مرتفع جداً كأنه بريد اخراج صفة المسارّة مما قاله ومما سيقوله :

ـ يا صديقتي العزيزة ، أواثقة انت تماماً من انك لا تأخذين بَرداً ؟ .

ثم قال ، دون ان ينتظر الجواب ، وهو منزوٍ ، في صدر السيارة بجانب فنسان ، وبصوت منخفض من جديد :

ـ هوذا : أريد اصطحاب أخيك هذا الصيف . نعم ، أقولها لك بكل بساطة . وما فائدة التلميح بيننا ؟ لم أتشرف بأن أكون معروفاً من أهلك الذين لا يتركون أوليفييه يذهب معي ، وهذا طبيعي ، ان لم تتدخل فعلاً . ما من شك في انك ستجد وسيلة لتهبئتهم لصالحي . انت تعرفهم جيداً ، كما افترض ، وتعرف كيف تخاطبهم . أتريد أن تقوم بذلك من اجلي ؟ .

وانتظر لحظة ، ثم تابع حين لاحظ صمت فنسان :

ـ أسمع يا فنسان . . . سأترك باريس حالاً الى مكان لا أعرفه بعد . وأنا بحاجة ماسة لاصطحاب سكرتير . . . . تعرف انني أؤسس مجلة . وقد تحدثت عنها مع أوليفييه وبدا لي انه يتحلى بجميع الصفات المطلوبة . . . لكنني لا أريد ان استخدم احداً لوجهة نظري الأنانية فقط . قلت ان صفاته كلها بدت لي انها وجدت عملها هنا . عرضت عليه وظيفة رئيس تحرير . . . رئيس تحرير مجلة ، في سنّه ! إعترف بأن هذا ليس عادياً .

فقال فنسان مديراً عينيه نحوه ومتطلعاً اليه بنظرة ثابتة :

ـ غير عادي الى حد اني احشى ان يخيف أهلي قليلاً .

ـ نعم ، يجب ان تكون على حق . من الأفضل ألا نحدثهم عن هذا ، نستطيع ببساطة ان تبرز لهم الفائدة التي سيجنيها شقيقك من رحلة سأجعله يقوم بها ، أليس كذلك ؟ ويجب ان يدرك أهلك ان من كان في سنه بحاجة لرؤية البلدان . ستسوي الأمر معهم ، أليس كذلك ؟

واستعاد انفاسه ، وأشعل سيكارة جديدة ثم تابع دون تغيير في اللهجة :

ـ وما دمت تريد ان تكون لطيفاً فإنني سأحاول عمل شيء في سبيلك . اعتقد إن في وسعي ان اجعلك تغنم من بعض الفوائد التي تقدم إليَّ في عمل غير مألوف . . . . ان لي صديقاً في الأعمال المصرفية يحتفظ بفرص كهذه لبعض المميزين . ولكني ارجو ان يبقى الأمر بيننا ؛ لا تقل كلمة لليليان . . ومهما يكن فأنا لا أتصرف إلا بعدد من الحصص محصور جدا ؛ ولا استطيع الاكتتاب لها ولك معاً . . . مبلغ الخمسين ألف فرنك الذي كان معك مساء البارحة . . .

ـ تصرفت به .

قذف فنسان هذه العبارة بنشاف لأنه تذكر تحذير ليليان . وتابع روبير على الأثر بنشاف :

ـ لا بأس ، لا بأس . . . لن ألح ـ ثم بهيئة « لن أعرف

كيف أحقد عليك » ، قال : لو امكنك الرجوع عن رأيك . . . اسرع بكلمة . . . لأنه إذا مرت الساعة الخامسة غداً فسيفوت الوقت .

اصبح فنسان اكثر اعجاباً بالكونت دو باسافان منذ ان اصبح لا يحمله على محمل الجد .

١٨

يوميات ادوار

« الساعة الثانية ـ فقدت حقيبتي . لا بأس . لا يهمني شيء من محتوياتها سوى مذكراتي . لكنها تهمني اكثر من اللازم . في الحقيقة هذه القصة تسليني . ولكني أود لو استرجع أوراقي ، من سيقرؤها ؟ يمكن انني ابالغ في اهميتها منذ ما فقدتها . لقد توقفت هذه المذكرات عند رحيلي الى انكلترا . في انكلترا سجلت كل شيء على دفتر آخر ؛ اتركه في الوقت الحاضر لأني عائد الى فرنسا. والدفتر الجديد الذي اكتب عليه هذا لن يترك جيبي . انه المرآة التي اتنزه وهي معي ـ ما من شيء جرى معي يتخذ في نظري وجوداً واقعياً ما دمت لم أره

معكوساً في هذه الأوراق . كم كانت المحادثة مع اوليفييه شاقة ! وكم وعدت نفسي بالاستمتاع بها . . . يمكن انها تركته قليل الرضا مثلي . قليل الرضا عن نفسه وعني . أنا نفسي لم أعرف ان اتكلم ، مع الأسف ! ولا ان أحمله على الكلام . آه ما أصعب ، أقل كلمة ، حين تأتي بالرضا الكامل لكل كائن ! ومنذ ان يتدخل القلب في ذلك يخدِّر الدماغ ويشل حركته

« الساعة السابعة . ـ وجدت حقيبتي ، أو على الأقل ، وُجد من أخذها . انه افضل صديق لأوليفييه ، الأمر الذي ينسج بيننا شبكة يتوقف عليّ انا ان اشد خيوطها . والخطر ، هو اني اتسلىّ بكل حادث ، مما يجعلني لا أعود أرى الهدف الواجب بلوغه .

« رأيت لورا من جديد . رغبتي في الخدمة تغتاظ ما أن تختلط فيها بعض الصعوبة ، وما أن يتوجب عليَّ التمرد ضد الاصطلاحي ، والمبتذل ، والاعتيادي .

« زيارة لابيروز العجوز . مدام لابيروز هي التي جاءت وفتحت لي الباب . لم أرها منذ أكثر من سنتين ؛ ومع ذلك عرفتني (لا اعتقد انها تستقبل زواراً كثيرين) . بالنتيجة ، لم تتغير إلا قليلاً . ولكن (هل ذلك لأنني مهيأ ضدها ؟) قسماتها بدت لي اقسى ونظرها أشرس ، وابتسامتها اكثر زيفاً من السابق .

« ـ أخشى ألا يكون السير لابيروز في حالة تمكنه من استقبالك .

« هكذا قالت حالاً ، راغبة بشكل ظاهر في ان تحتكرني ، ؛ ثم انها استخدمت صممها لتجيب دون ان اكون قد سألتها :

ـ « كلا ، كلا . لم تزعجني . أدخل .

« وأدخلتني الى الغرفة التي اعتاد لابيروز ان يعطي دروسه فيها ، والتي تطل نافذتاها على الساحة ، وحين اصبحت في الغرفة ، قالت :

« ـ انا سعيدة بشكل خاص لاستطاعتي التحدث اليك ، ونحن وحدنا ، لحظة . حالة السيد لابيروز ، الذي اعرف صداقتك القديمة المخلصة له ، تقلقني كثيراً . وأنت الذي يصغي اليك ، ألا تستطيع اقناعه بالاعتناء بنفسه ؟ أما أنا ، فكل ما أقوله له هو عنده سيان .

« ودخلت هنا في معاتبات لا نهاية لها : العجوز يرفض الاعتناء بنفسه لسبب وحيد هو حاجته الى تعذيبها . انه يعمل كل ما لا يجب ان يعمله . ولا يعمل شيئاً مما يجب . يخرج في كل وقت دون ان يرضى مطلقاً بوضع شال . يرفض ان يأكل في أوقات الطعام : « السيد ليس جائعاً » ، ولا تعرف ماذا تستنبط لتحريك شهيته . ولكنه في الليل ، ينهض ، ويجعل أسفل المطبخ اعلاه ليطبخ لنفسه ما لاأدري .

« أكيد السيدة العجوز لم تختلق شيئاً ، وادركت من خلال حكايتها أن تأويل الحركات البريئة هو وحده يمنحها معنى مهيناً . أي ظلّ مسيخ القاه الواقع على جدار هذا الدماغ الضيق !

ولكن العجوز من ناحيته ، ألا يسيء تأويل جميع اعتناءات العجوزة التي حسبت نفسها شهيدة ، أما هو فجعل من نفسه جلاداً !؟ إنني أقلع عن مقاصاتها ، عن فهمها ؛ أو بالأحرى ، كما يحصل دائماً : كلما ازداد فهمي لها يزداد حكمي عليها اعتدالاً . ان ههنا كائنين مرتبطين بعضهما ببعض مدى الحياة . وهما يتعذبان بشكل مقيت . وغالباً ما لاحظت عند الازواج هيجاناً غير محتمل يتولد عند الواحد من أصغر نتوء في طبع الآخر ، لأن « الحياة المشتركة» تحك دائماً هذا النتوء في المكان نفسه . وعندما يكون الحك متبادلاً لا تعود الحياة الزوجية سوى جحيم .

« تحت شعرها المستعار ذي العصائب السود والذي يرسم القساوة على قسمات وجهها الشاحب ، مع قفازيها الطويلين الاسودين حيث تخرج منهما أصابع صغيرة كالمخالب ، كانت مدام لابيروز بهيئة مسخ . وقد استمرت تقول :

« ـ انه يوبخني لتجسسي عليه . هو دائماً في حاجة الى النو الكثير ، لكنه يتظاهر في الليل بأنه ينام ، وحين يعتقد انني نمت ، ينهض ، لبيحث في الأوراق القديمة ويبعثرها ؛ واحيا يتأخر حتى الصباح وهو يعيد قراءة رسائل قديمة لأخيه الميت ويبكي . انه يريد ان احتمل كل هذا دون ان أقول شيئاً ! . . .

« ثم شكت من ان العجوز أراد أدخالها الى مأوى . الأمر الذي سيكون أشد إيلاماً لها ، هكذا أضافت ، وانه عاجز تماما

عن العيش لوحده والاستغناء عن عنايتها . وكان هذا قد قيل بلهجة مشفقة توحي الرياء .

« وبينما كانت تتابع شكواها فُتح وراءها باب الصالـون بهدوء ، ودخل لابيروز دون ان تسمعه . ولما سمع عبـاراتها الاخيرة نظر إليّ مبتسمًا بتهكم ، ورفع يداً الى جبهته مشيراً الى انها مجنونة . ثم ، بفراغ صبر ، وبشراشة لا أعهده جديراً بها ، والتي بدت انها تثبت اتهامات الزوجة (ولكنها تعزى ايضاً الى حاجته لرفع صوته لتسمعه) ،

« قال :

« ـ هيا ، يا مدام . عليك ان تدركي انك اتعبتِ السيد بخطاباتك . لم يجيء ليراك انتِ . اتركينا .

« فأحتجت حينئذٍ ان الكنبة التي ظلت جالسة عليها هي لها وانها لن تتركها .

« فأجاب لابيروز ضاحكاً ·

« ـ في هذه الحالة نحن نخرج . إذا سمحتِ .

«ثم التفت إليّ وقال بلهجة ملطفة :

« ـ تعال . لنتركها .

« فألقيت تحية قلقة وتبعته الى الغرفة المجاورة ، تلك التي استقبلني فيها في المرة الأخيرة . وقال لي :

« ـ أنا سعيد لاستطاعتك الاصغاء اليها . ان الأمر هكذا طول النهار .

« وذهب يقفل النافذة .

« ـ مع ضوضاء الشارع لا نستطيع سماع بعضنا بعضاً . اني أمضي وقتي في اغلاق النوافذ بينما تمضي مدام لابيروز وقتها في فتحها . هي تزعم انها تختنق . انها تبالغ دائماً ، وترفض أن تحسب حساباً لكون الحر في الخارج أكثر منه في الداخل . ومع هذا فعندي هناك ميزان حرارة صغير ! ولكن حين أريها أياه تقول لي ان الأرقام لا تبرهن عن شيء . تريد ان تكون على حق حين تعرف انها على خطأ. وأكبر عمل لها هو معاكستي .

« وبدا لي وهو يتكلم انه هو نفسه غير متزن تماماً ؛ وتابع بحمية متزايدة :

« ـ كل الأخطاء التي ترتكبها في الحياة تتهمني انا بأني سببها . احكامها كلها خاطئة . وهكذا . انتبه ؛ سأجعلك تفهم : انت تعلم ان الصور تصل من الخارج الى دماغنا مقلوبة ، حيث يقوّمها الجهاز العصبي . ومدام لابيروز ، نفسها ، ليس عندها جهاز مقوِّم ، كل شيء عندها يظل مقلوباً . احكم انت كم ان هذا متعب .

« كان يشعر بتعزية في الايضاح . وحرصت على عدم مقاطعته ، فتابع :

« ـ مدام لابيروز تكثر دائماً من الأكل . لكنها تزعم انني انا الذي يكثر الأكل . ولو رأتني منذ لحظة ومعي قطعة شوكولا (هذا هو غذائي الرئيسي) لتمتمت « دائماً يقضم ! » انها

تراقبني . . . وتتهمني بالنهوض ليلاً لآكل خفية ، لأنها فاجأتني ذات مرة وأنا أعد فنجاناً من الشوكولا في المطبخ . . . ماذا تريد ؟ رؤيتها على المائدة وهي ترتمي على الصحون تُذهب كل شهية . ثم اتزعم انني اختلق المصاعب بسبب حاجني الى تعذيبها .

« وتوقف لحظة ، ثم قال بنوع من الاندفاع الغنائي :

« ـ انا معجب بالتوبيخات التي توجهها إليَّ ! وهكذا فحين تشكو من عرق الأنسر أرثي لها . حينئذٍ توقفني وتهز كتفيها : « لا تتظاهر برقة القلب » . وكل ما أفعله وأقوله فلكي اجعلها تتألم .

« كنا جالسين ؛ ولكنه نهض ، ثم عاد الى الجلوس حالاً ، وهو فريسة لقلق مرضي .

« ـ أتتصور انه يوجد أثاث لها وآخر لي في كل من هاتين الغرفتين ؟ وقد رأيتها منذ لحظة بكنبتها . انها تقول للمرأة التي تخدمنا نهاراً حين تقوم هذه بأعمال البيت : « كلا ، هذا للسيد ، لا تلمسيه » . وحين وضعت ذات يوم سهواً دفترا للموسيقى مجلداً على طاولة لها رمته على الأرض وتكسرت زواياه . . . . أوه ! هذا لا يمكن ان يستمر طويلاً . . . ولكن اسمع .

وأمسك بذراعي وقال خافضاً صوته :

« ـ لقد اتخذت احتياطاتي . وهي تهددني باستمرار » اذا

استمريت » ، بأن تذهب وتبحث عن مأوى في احد الملاجىء . انني ادّخرت مبلغاً من المال يجب ان يكفي لدفع اجرة ايوائها في سانت بيرين ؛ يقال انه افضل مكان والدروس القليلة التي لا أزال اعطيها لا تحمل إليّ شيئاً تقريباً . وستنفد مواردي في وقت قريب ، وسأرى نفسي مضطراً الى الاقتطاع من هذا المبلغ ؛ ولا أريد . إذاً ، صممت على أمر . . . وسيكون هذا بعد مدة تتجاوز الثلاثة اشهر بقليل . نعم ؛ لقد دونت التاريخ لو تدري اية تعزية اشعر بها حين افكر ان كل ساعة من الآن فصاعداً تقربني منه .

« كان قد انحنى ، ، وازداد انحناؤه ايضا

١ ـ وضعت جانباً صكاً دخل تدفعه الدولة . انه ليس بالشيء الكثير ، ولكني لا استطيع ان افعل اكثر من ذلك . ومدام لابيروز لا تعرف عنه شيئاً . انه في مكتبي تحت غلاف باسمك ، مع التعليمات اللازمة . أأستطيع الاعتماد عليك لتساعدني ؟ انني لا افقه شيئاً من هذه الأعمال . ولكن هناك كاتب عدل حدثته عنه وقال لي ان الدخل يمكن ان يدفع مباشرة لحفيدي ، حتى يبلغ سن الرشد ، حينئذاك يمتلك الصك . وقد اعتقدت انه ليس بالكثير ان اطلب من صداقتك السهر على تنفيذ ذلك . انا شديد الحذر من الكتّاب العدول ! واذا اردت ان تبعث الاطمئنان في نفسي فسترضى بأن تحمل معك حالاً هذا الغلاف . . . . نعم ، اليس كذلك ؟ سأبحث لك عنه .

« وخرج وهو يركض بخطى قصيرة على عادته وعاد مع غلاف كبير في يده .

« ـ ستعذرني لأنني ختمته ؛ هذا لأجل الشكليات . خذه .

« والقيت نظري عليه وقرأت تحت اسمي بحروف مخطوطة :

« ليفتح بعد وفاتي » .

« ـ لقد كتبت عنوانه هنا . لا اعرف مكانه . ها هو : « ساس ـ فيه Saas - Fée » اتعرفها ؟ انها في سويسرا . فتشت على الخريطة ولكني لم استطع ايجادها . فقلت :

« ـ ضعه في جيبك بسرعة لأعلم انه في مأمن . شكراً . . . آه . . . . انتظرتك طويلاً .

« كنت غالباً ما اشعر في لحظة احتفالية كهذه ان كل تأثر انساني يمكن ان يفسح في المجال لرهبة شبه غامضة ، لنوع من الحماسة يشعر كياني بواسطتها انه تمجّد ، أو بشكل أوضح : تحرر من رباطات الانانية ، كأنه تخلى عن ملكية نفسه وعن شخصيته . ومن لا يشعر بذلك لا يستطيع فهمي . ولكني شعرت ان لابيروز يفهم ذلك . كل اعتراض من ناحيتي لا طائل تحته ، ويبدو لي غير صائب . وقد اكتفيت بأن أشد بقوة على اليد التي تركها في يدي . لمعت عيناه ببريق غريب . وفي اليد الأخرى ، تلك التي كان يمسك بها الغلاف قبلاً ، احتفظ بورقة اخرى :

« ـ انها قرية صغيرة بالقرب من سرفان Cervin .

« هل هي بعيدة كثيراً ؟

ـ ليست بعيدة بحيث لا استطيع الذهاب اليها .

« ـ ماذا ! ستقوم بذلك ؟ أوه ! كم انت طيب ! اما انا فإني هرم جداً . ثم اني لا اسطيع ، بسبب الأم . . . مع ذلك يبدو لي انني . . . ـ وتردد باحثاً عن الكلمة ، وتابع : كنت أذهب الى هناك بسهولة ، لو استطعت ففط أن أراه .

« ـ يا صديقي المسكين . . . سأعمل كل ما يمكن عمله لآتي به اليك . سترى بوريس الصغير . . . اعدك بذلك .

« ـ شكراً . . . شكراً .

« وضمني بتشنج بين ذراعيه .

« ـ ولكن عدني بألا تفكر في . . . .

« ـ اوه . . . . هذا شيء آخر .

« قال ذلك وهو يقاطعني فجأة . ثم على الأثر ، وكأنه يريد منعي من الالحاح ، محولاً انتباهى ، قال :

« تصور ان ام احدى تلميذاتى القدامى أرادت ذات يوم اصطحابي الى المسرح ! منذ شهر تقريباً . فقد كان هناك حفلة صباحية على المسرح الفرنسي . لم أضع قدمي في قاعة تمثيل منذ عشرين سنة . كانوا يمثلون « هرناني » ، لفكتور هيغو . تعرف ؟ يبدو انها مثلت حيداً . والناس كلهم دهشوا . أما أنا فقد تألمت بشكل يفوق الوصف . ولو لم يمسكني التهذيب لما استطعت

البقاء . . . كنا في لوج . وكان أصدقائي يحاولون تهدئتي . كدت اهاجم الجمهور . أوه ! كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ .

« ولما لم افهم ما يعني سألته :

« ـ هل وجدت الممثلين بغيضين ؟

« ـ بالتأكيد . ولكن كيف تبلغ الجرأة الى عرض قباحات كهذه على المسرح ؟ وكان الجمهور يصفق ! وهناك أولاد في القاعة ؛ أولاد جاء بهم أهلهم الى هناك مع انهم يعرفون المسرحية . . . . هذا قبيح جداً . وهذا على مسرح تمنحه الدولة مساعدات مالية !

« ان سخط هذا الرجل الممتاز بعث السلوى في نفسي الآن . وكدت أضحك . واعترضت بأنه لا يمكن وجود فن دراماتيكي دون تصوير للشهوات . واعترض بدوره ان تصوير الشهوات كان في مثال يبعث على التكدير . واستمر الجدل حول هذا بعض الوقت ؛ وبما انني قارنت حينذاك هذا العنصر المؤثر بثورة الآلات النحاسية في اوركسترا ، قلت :

ـ « ـ مثلاً ، كدخول الأبواق التي تعجب به في سمفونيا بيتهوفن . . .

« ـ ولكنني لا اعجب به ، دخول الأبواق هذا . . . . لماذا تريدني ان اعجب بما يكدرني ؟

« هكذا صرخ بحدة غير عادية .

« وارتجف بكـل جسده . وقـد فـوجئت بلهجـة الغضب والعداء في صوته ، وبدت أنها أدهشته ايضاً لأنه تابـع بنبرة اهدأ :

« ـ هل لاحظت ان كل جهد الموسيقى الحديثة ينحصر في جعل بعض « الاكورات » التي كنـا نعتبرهـا غير منسجمـه ، محتملة ولطيفة أيضاً ؟

« فأجبت بسرعة :

« ـ بالتأكيد . كل شيء يعود أخيراً ويتحول الى التناسق .

« فأجاب هازاً كتفيه :

« ـ إلى التناسق ! انني لا أرى هنا سوى اعتياد الشر ، الخطيئة . فالاحساس يضعف ، والطهارة تكمد ، وردود الفعل تصبح أقل حيوية ؛ يتساهلون ، ويرضون . . .

« ـ ان من يسمعك لا يعود يجرؤ على فطام الأولاد

« ولكنه استمر دون ان يسمعني :

« ـ لو كان في الامكان استعادة تشدد الشباب ! إذاً لكان سخطنا سيكون أكثر ما يكون على الحالة التي وصلنا اليها .

« فـات الوقت لنلتقي بـأنفسنا في نقـاش لاهوتي ؛ وقـد حاولت ان اعيده الى صعيده :

« ـ مع ذلك فأنت لا تزعم انك تحصر الموسيقى في التعبير عن الطمأنينة . في هذه الحالة فإن « اكوراً » واحـداً يكفي .

« اكور » كامل مستمر .

« فأخذ يدي وكان في حالة ذهول ، ونظرته ضائعة في عبادة ، وردد مراراً :

« اكور » كامل مستمر ؛ نعم . ان الأمر كذلك . « اكور » كامل مستمر .

« وأضاف بكآبة :

« ـ ولكن عالمنا كله فريسة للتنافر .

« استأذنت منه . ورافقني الى الباب وعانقني ، وتمتم ايضاً :

« ـ آه ! كم سننتظر من أجل « الاكور » ! .

القسم الثاني

ساس ـ فيه
SAAS - FEE

١

من برنار إلى أوليفييه

«الاثنين»

« صديقي العزيز

لأقل لك أولاً أنني أجّلت البكالوريا. لا بد أن تكون قد أدركت ذلك عندما لم ترني في امتحانها. سأقدم الامتحان في تشرين الأول. وقد سنحت لي فرصة فريدة للذهاب في رحلة، فاغتنمتها، ولم أندم. على المرء أن يعقد العزم حالاً؛ لم أترك لنفسي وقتاً للتفكير، حتى ولا لأودعك. وبهذه المناسبة كُلفت التعبير لك عن كل أسف رفيقي في الرحلة لأنه سافر دون أن يراك. فهل تعرف من اصطحبني؟ تحزره الآن. . أنه أدوار خالك الشهير الذي التقيته مساء اليوم الذي وصل فيه إلى باريس، في ظروف غير عادية ومؤثرة سأسردها لك في ما بعد. ولكن كل شيء غير عادي في هذه المغامرة، وحين أعيد التفكير فيها يدور رأسي. واليوم أيضاً أتردد في الظن أن هذا حقيقي، وأن الذي يكتب إليك هذه الرسالة هو أنا، أنا الموجود في

سويسرا مع أدوار و. . ـ هيا يجب أن أخبرك كل شيء. ولكن مزّق رسالتي واحتفظ بكل هذا لنفسك.

«تصور أن تلك المرأة المسكينة التي تركها أخوك فنسان، تلك التي سمعتها تنتحب، ذات ليلة، بالقرب من بابك (والتي كنت كثير البلاهة لأنك لم تفتح لها، واسمح لي أن أقول لك ذلك) كانت صديقة كبيرة لأدوار وهي ابنة فيدال، وأخت صديقك أرمان. لا يجب أن أقص عليك كل ذلك، لأن الأمر يتعلق بشرف امرأة. ولكنني سأنشّق إذا لم أقصه على أحد.. مرة أخرى أيضاً، احفظ ذلك لنفسك. أنت تعرف أنها تزوجت، وربما تعرف أنها مرضت بعد زواجها بقليل وذهبت للاستشفاء في الجنوب. وهناك تعرفت إلى فنسان، في بو. ربما تعرف ذلك أيضاً ولكن ما لا تعرفه هو أن هذا اللقاء جعلها تحبل. عادت حبلى إلى باريس، حيث لم تجرؤ على الظهور أمام أهلها؛ كذلك لم تجرؤ على العودة إلى البيت الزوجي. ومع هذا فإن أخاك تركها في الظروف التي تعرفها وأوفر عليك الشروح ولكنني أستطيع القول لك أن لورا دوفيبه لم تنبس بكلمة لوم وحقد ضده. بل على العكس، اختلقت كل ما تستطيع لتبرير سلوكه. باختصار أنها امرأة ممتازة وجميلة جداً؛ وهناك آخر ممتاز أيضاً، هو أدوار. وبما أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل، ولا أين تذهب، فقد عرض عليها أن يأخذها إلى سويسرا، وفي الوقت نفسه عرض علي مرافقتها لأن سفره معها بمفردهما يضايقه، ولأنه لا يحمل لها إلا

عاطفة صداقة. وها قد سافرنا نحن الثلاثة. وقد تقرر هذا بسرعة: الوقت الذي احتجناه لحزم حقائبنا وتجهيزي (لأنك تعلم أنني تركت البيت دون شيء). أما ما كان عليه أدوار من لطف في هذا الظرف فلا يمكنك تكوين فكرة عنه؛ وفضلاً عن ذلك فقد كان يكرر على في كل وقت أنني أنا الذي أسداه خدمة. نعم يا صديقي، أنك لم تكذب علي: فخالك طراز مدهش.

«كانت الرحلة شاقة لأن لورا تعبة جداً وحالتها (لقد بدأت شهرها الثالث في الحمل) تتطلب الكثير من المداراة: والمكان الذي نقصده (لأسباب يطول شرحها) صعب الوصول إليه. وباختصار فإن لورا غالباً ما تعقد الأمور برفضها اتخاذ الاحتياطات، وقد اضطررنا إلى إجبارها على ذلك. كانت تردد في كل وقت أن أسعد ما تصبو إليه هو حادث يصيبها. وغني عن القول أننا كنا نبالغ في العناية بها. آه! يا صديقي، يا لها امرأة تستحق الإعجاب! لم أشعر بذلك قبل أن أعرفها. هناك أفكار لا أجرؤ على صياغتها وحركات في قلبي أكبح جماحها، لأني سأشعر بالعار إن لم أكن لائقاً بهذه المرأة. نعم، حقيقة، حين تكون بقربها تشعر أنك مجبر على التفكير بما هو نبيل. وهذا لا يمنع كون الحديث بيننا حراً جداً نحن الثلاثة، لأن لورا ليست مفرطة الحذر في ما يناقض اللياقة - ونتحدث عن أي شيء؛ ولكن أؤكد لك أن هناك كثيراً من الأشياء لا أشعر

بالرغبة في تكذيبها أمامها، وقد ظهرت لي اليوم أنها كثيرة الجدية.

«ستظن أنني مولع بها. آه! يا صديقي، لست مخطئاً، جنون، أليس كذلك؟ أتراني مغرماً بامرأة حبلى. من الطبيعي أن أحترمها ولا أجرؤ على لمسها بطرف أصبعي؟ ها أنت ترى أنني لم انقلب الى لاهٍ.

«حين وصلنا إلى «ساس ـ فيه» بعد صعوبات لا حصر لها (استأجرنا مقعداً للورا يحمله حمالون لأن العربات لا تصل إلى هناك) ولم يستطع الفندق أن يقدم لنا سوى غرفتين، واحدة كبيرة بسريرين والأخرى صغيرة، حيث اتفقنا أمام صاحب الفندق أن احتلها أنا ـ لأن لورا حسبت كأنها زوجة لأدوار، وذلك لتخفي هويتها. ولكن هي التي، كل ليلة، تشغل الغرفة الصغيرة، أما أنا فأذهب إلى غرفة أدوار. وفي كل صباح نقوم بالانتقال لنخدع الخدم. ومن حسن الحظ كانت الغرفتان متصلتين، وهذا ما سهل الأمر.

«ها قد مرّ علينا ستة أيام هنا، لم أكتب إليك أثناءها لأنني كنت في بادىء الأمر محتاراً وعلي أن أسوي أمري مع نفسي. بدأت فقط في التعرف إلى نفسي.

قمنا، أدوار وأنا، بجولات صغيرة في الجبال مسلية جداً ولكن والحق يقال، أن هذه البلاد لم تعجبني كثيراً؛ ولم تعجب

أدوار. فقد وجد المناظر الطبيعية مبهرجة. وهي كذلك.

«أفضل شيء هنا هو الهواء الذي نتنشقه؛ هواء بكر يطهر رئتيك. ثم أننا لا نريد أن نترك لورا وحدها طويلاً، لأنه غني عن القول أنها لا تستطيع مرافقتنا. مجتمع الفندق كثير التنوع. فهنا أناس من جميع الجنسيات. وقد عاشرنا على الخصوص طبيبة بولونية تقضي العطلة الصيفية هنا مع ابنتها وغلام صغير عهد به إليها. والحق أننا لم نأت إلى هنا إلا لمقابلة هذا الولد. أنه مصاب بنوع من المرض العصبي تعالجه الطبيبة وفقاً لطريقة جديدة تماماً. أما ما أفاد الصغير كثيراً، ولعمري أنه جذاب، فهو هيامه حتى الجنون بابنة الطبيبة التي تكبره ببضع سنوات، والتي هي أجمل مخلوق رأيته في حياتي. أنهما لا يتركان بعضهما البعض من الصباح حتى المساء، وهما لطيفان جداً حتى أنه ما من شخص يفكر في السخرية منهما.

«لم أشتغل كثيراً ولم أفتح كتاباً منذ رحيلي؛ ولكني فكرت كثيراً. حديث أدوار ذو فائدة عظيمة. هو لا يكلمني كثيراً مباشرة، لأنه يتظاهر بمعاملتي سكرتير؛ ولكني أسمعه يتحدث مع الآخرين، ومع لورا على الخصوص، حيث يحب أن يحدثها عن مشاريعه. لن تستطيع تصور الفائدة التي أجنيها من ذلك. وأقول لنفسي في بعض الأيام أن علي أن أدون ملاحظات؛ ولكني أعتقد أنني أحفظ كل شيء. وفي بعض الأيام أتمناك بولع؛ وأقول لنفسي أنك أنت الذي يجب أن تكون هنا؛ ولكني

لا أستطيع أن آسف على ما حدث لي، ولا أن اتمنى تغيير شيء فيه . قل لنفسك على الأقـل أنني لا أنسى أننى عرفت أدوار بفضلك وأني مدين لك بسعادتي. أعتقد أنك ستجدني متغيراً حين تراني .ولكن صداقتي لك لم تنقص وستبقى أعمق ما كانت في أي وقت كان.

«الأربعاء»

«ملاحظة: رجعنـا على التـوّ من جولـة ضخمة. صعـود الهّلالان Hallalin ـ أدلّاء بحبالهم معنا. ثلاجات، مهاو، أنهيال ثلوج الخ . نمنا في ملجأ وسط الثلوج، مليء بسيّاح آخرين؛ لا فائدة من القول أن عيوننا لم تغمض في الليل .في الغد رحيل مع الفجر. . . حسناً يا صديقي، لن أقول شراً عن سويسرا: حين يكون المرء هناك في الأعالي، وتغيب عن نظره كل المزروعات، كل النباتات، وكل ما يذكـر ببخل النـاس وحماقتهم، يشعـر بالرغبة في الغناء، والضحك، والبكاء أو الـطيران، وضـرب الرأس بالسماء أو الركوع على الركبتين .أقبلك.

«برنار»

كان برنار عفوياً أكثر من اللزوم، طبيعياً، نقياً كثيراً. كان لا يعرف أوليفييه حق المعرفة ليرتاب بموجة العواطف السيئة التي أثارتها فيه الرسالة؛ نوع من تلاطم الأمواج يختلط فيه شيء من الحزن الغاصب، واليأس، والغيظ. شعر أن مـركزه في قلب

برنار وأدوار معاً فد اختلس. إن صداقة صديقيه انترعت صداقته. وهناك عبارة على الخصوص في رسالة برنار قد عذبته، ولم يكن برنار ليكتبها لو أدرك كل ما يمكن أوليفييه أن يراه فيها: «في الغرفة نفسها» هكذا كان يردد ـ وكانت أفعى الغيرة المقينة تنبسط وتتلوّى في قلبه. « إنهما في غرفة واحدة!» ما الذي نخيله على الأثر؟..ه لقد امتلأ دماغه برؤى دنسة لم يحاول طردها. وخصوصاً لأنه لم يكن غيوراً من أدوار ولا من برنار، بل من الإثنين معاً. كان يتخيل الواحد والآخر بالدور أو الاثنين دفعة واحدة. تلقى الرساله عند الظهر. «آه! .. إذن فالأمر هكذا!..» هذا ما ظل يردده طوال ما بقي من النهار. في تلك الليلة سكنته شياطين الجحيم. صباح اليوم التالي أسرع إلى روبير. وكان الكونت دو باسّافان في انتظاره.

٢

يوميات أدوار

«لم أتعذب للعثور على بوريس الصغير. فبعد يوم من وصولنا سار إلى شرفة الفندق وبدأ بتطلع إلى الجبال من خلال

منظار طويل قائم على مدار، وموضوع تحت تصرف السياح. عرفته حالاً. وهناك فتاة صغيرة تكبره بقليل قد انضمت إليه. كنت أجلس قريباً منهما في الصالون الذي ظلت فرجة نافذته مفتوحة بحيث لم تفتني كلمة من حديثهما. شعرت برغبة كبيرة في التحدث إليه، لكني رأيت أن من الحكمة أن أوطد علاقاتي أولاً مع أم الفتاة الصغيرة، وهي طبيبة بولونية عهد إليها بأمر بوريس وكانت تسهر عليه عن قرب. برونجا الصغيرة لذيذ. لعلها في الخامسة عشرة. شعرها الأشقر ضفائر كثيفة، وينحدر حتى خصرها؛ نظرتها وجرس صوتها يبدو أن ملائكيين أكثر منهما إنسانيين. وقد نقلت حديث هذين الولدين:

«ـ بوريس، أمي تفضل ألا نلمس المنظار. ألا تريد أن تأتي للتنزه؟...

«ـ نعم، أريد. كلا، لا أريد

«هاتان العبارتان قيلتا بنفس واحد. أما برونجا فلم تلتقط سوى الثانية. فقالت:

«ـ لماذا؟

«ـ الحر شديد، البرد شديد. (وكان قد ترك المنظار).

«ـ بوريس، كن لطيفاً. أنت تعلم أن خروجنا معاً يسرُّ أمي. أين وضعت قبعتك؟

«ـ فيبروسكومينوباتوف، بلاف بلاف!

«ـ ما معنى هذا؟.

«ـ لا شيء.

«ـ إذن لماذا قلته؟

«ـ لكي لا تفهمي.

«ـ إذا كان هذا لا يعني شيئاً فلا يهمني إذا لم أفهمه

«ـ ولكن إذا كان يعني شيئاً فإنك مع ذلك لن تفهميه

«ـ يتكلم المرء ليكون مفهوماً

«ـ أتريدين أن نلعب بصنع كلمات لا يفهمها أحد غيرنا؟..

«ـ حاول أولاً أن تتكلم الفرنسية جيداً.

«ـ أمي تتكلم الفرنسية، والإنكليزية، والرومانية، والروسية، والتركية، والبولونية، والإيطالية، والإسبانية، ولغة الببغاء والكسيكسيتو.

«ـ كل هذا قيل بسرعة بنوع من الهيجان الغنائي .

« وضحكت برونجاه

«ـ بوريس، لماذا تظل تقول أشياء ليست حقيقية.

«ـ لماذا لا تصدقين ما أقوله لك؟..

«ـ أصدق ما تقوله لي حين يكون صحيحاً.

«ـ كيف تعرفين متى يكون صحيحاً؟ أنا صدقتك تماماً يوم حدثتني عن الملائكة. قولي يا برونجا. أتعتقدين أنني سأراها أنا أيضاً إذا صليت بحرارة؟...

«- يمكن أن تراها، إذا تخليت عن عاده الكذب وإدا أراد الله أن يريكها، ولكن الله لن بربكها إذا صلّيت اه لكي تراها فقط. هناك كثير من الأشياء الجميلة جداً يراها إذا كنا أقل شراً.

«- برونجا، أنت لست شريرة ولهذا تستطيعين رؤية الملائكة .أما أنا فسأبقى دائمًا شريراً.

- لماذا لا تحاول إلاّ تكونه؟ أتريد أن نذهب نحن الاثنين إلى (وهنا إشارة إلى مكان لا أعرفه) وهناك نستطيع كلانا أن نصلي لله وللعذراء ليساعداك حتى لا تكون شريراً.

«- نعم، لا. اسمعي: سنأخذ عصا؛ تمسكين أنت بطرف وأنا بالآخر. وسأطبق عيني وأعدك بألا افتحهما إلا حين نصل إلى هناك.

«وابتعدا قليلاً، وحين هبطا درجات الشرفة سمعت أيضاً.

«- نعم، لا. ليس هذا الطرف. انتظري حتى امسحه.

«- لماذا؟

«- لأني لمسته .

« اقتربت مني السيدة سوفرونيسكا حين أنهيت فطوري حيث كنت أتناوله وحيداً وحين كنت أبحث عن وسيلة للاقتراب منها. فوجئت حين رأيتها تمسك بيدها كتابي الأخير، وسألتني، وهي تبتسم بطريقة كثيرة اللطف، إذا كانت تتحدث إلى المؤلف: ثم اندفعت على الأثر بإطراء طويل لكتابي. وقد بدا لي

حكمها، من مدبـح ونمد، أدكى مس أولئـك الدين اعتـدت سماعهم، ثم أن وجهة نظرها ليست أدبية. فالت لي أنها تهتم فقط بالمسائل النفسيه وبما بمكن أن ينىر النفس البشريه بنهـار جديد. وفـد أضافت، أنهم قـلائل أولئـك السعراء، وكتّـاب المسرح، والروائيون الذبن يعرفون أن لا بكتفـوا بعلم نفسٍ جاهز (قلت لها أنه الوحبد الذي ىمكنه إرضاء القراء).

« كانت والدة بورس الصغبر قد عَهدت به اليها طـوال العطلة الصيفية. وقد حرصتُ على اظهار الأسباب البي ندعونى للاهتمام به ـ وقالت السبدة سوفرونيسكا

« ـ انه ضعبف جداً. ومجمع والدتـه لا ينفعه بشيء. كانت تتحدث عن المجيء معنا الى « ساس ـ فيه ». ولكني لم أقبل ان اهتم بانرلد إلا اذا تركته نهائياً لعابنى، وإلا فلست مسؤوله عن علاجي ـ نم استمرت: تصور يا سيد انها نربي هذا الصغير في حالة مں الهوس المسىمر الذي يساعد على تفجر اضطرابات عصبيه سيئة عنده. منذ وفاة الأب كان على هده المرأة ان تكسب عيشها. لم تكن سوى عازفة بيانو وعلي ان اقول: عازفة لا متبل لها؛ ولكن عزفها الكثبر الدقة لا يمكن ان يرضي معظم الجمهور. عزمت على الغناء في الحفلات، في الكازينوات، وان نصعد على خشبة المسرح. اخذت بورس معها الى لوجها. وأعنمد ان جو المسرح المفنعل ساهم كنيراً في اختلال توازن هذا الولد. امه نحبه كثىراً، ولكں من المسنحب

الا يعيش معها أبداً .

فسألتها :

« ـ ممّ يشكو ، على وجه الدقة ؟

فأخذت تضحك :

« ـ أتريد معرفة اسم مرضه ؟ آه ! ستستفيد كثيراً حين أقول لك اسمًا علمياً جميلاً .

« ـ قولي ببساطة ممّ يشكو . . . ؟

« ـ يشكو من عدد من الاضطرابات الصغيرة ، من تشنج عضلي ، من الهوس . وكل هذه تجعل الناس يقولون : انه ولد عصبي ، ويجب الاعتناء به كالعادة بالراحة والهواء الطلق والأوكسيجين . من المؤكد ان جهازاً عضويا متيناً لا يتيح لهذه الاضطرابات ان تحدث . ولكن اذا كان الهزال يساعد هذه الاضطرابات فإنه لا يسببها . واظن ان من الممكن ان نجد اصلها في اول خضّة للكائن ، معزوة لحادثٍ من المهم ان نكتشفه . ومنذ ان يدرك المريض هذا السبب يكون قد شفي نصف شفاء . ولكن هذا السبب يتفلت من ذاكرته في الغالب . ويقال انه يختفي في ظل المرض ، إني ابحث عنه وراء هذا المأوى لأظهره الى النور ، أريد ان اقول في حقل الرؤية . واعتقد ان النظر الثاقب ينظف الضمير كما يطهر شعاع النور الماء الآسن . » .

« رويت لسوفرونيسكا الحديث الذي سمعته بالأمس والذي

استنتجت منه ان بوريس لم يشف اطلاقاً بعد .

« . والسبب ايضاً انني بعيدة عن معرفة كل ما أنا بحاجة لمعرفته من ماضي بوريس ، ولم أبدأ علاجي إلا من وقت قريب .

« ـ من ماذا يتألف هذا العلاج ؟

« ـ أوه ! ببساطة ، بأن أدفعه الى الكلام . كل يوم أقضي بجانبه ساعة أو ساعتين . واوجه اليه الاسئلة ولكن بشكل قليل جداً . والمهم هو ان اربح ثقته . اعرف الآن كثيراً من الأشياء وأستشف أشياء اخرى ، ولكن الصغير لا يزال حذراً . انه خجل ؛ فاذا ألححت بسرعة وبقوة اكثر من اللازم ، إذا أردت أن اغتصب اعترافه فلن أحصل على ما ابتغيه ، وهو استسلامه الكامل لي . بل سيحصل العكس . سيعاند . ما دمت لم اتوصل الى الانتصار على تحفظه ، على حياته . . . . » .

« هذا « التفتيش » البوليسي الذي كانت تحدثني عنه بدا لي اعتدائياً الى حد اني بذلت جهدي كي لا أبدي حركة اعتراض . ولكن فضولي كان أقوى من استنكاري فسألتها :

« ـ هل تقصدين انك تتوقعين من الصغير اعترافات دنسة ؟

« ـ دنسة ؟ ليس هناك من دنس في معاينة جسم المريض . انا بحاجة لمعرفة كل شيء وعلى الخصوص معرفة ما يُبذل الكثير من الاهتمام في إخفائه . يجب ان اصل ببوريس الى الاعتراف الكامل . وقبل هذا لا استطيع شفاءه .

« ـ انت تعتقدين أذاً بوجود اعترافات يجب ان يقولها لك ؟ هل انت متأكدة ، وعذراً ، من انك لا توحين اليه بما تريدين منه الاقرار به ؟

« ـ هذا الشاغل يجب الا يغرب عني وهو الذي يملي الكثير من البطء . رأيت قضاة تحقيق حمقى يهمسون ، دون ان يريدوا ، لولد بشهادة مختلقة . والولد ، تحت ضغط الاستجواب ، يكذب بحسن نية كاملة ، ويوافق على جميع السيئات الخيالية ، ودوري هو ان ادع هذا الاقرار يأتي من تلقائه دون ان اوحي اليه بشيء . وهذا يحتاج الى صبر غير عادي .

« ـ اعتقد ان قيمة المنهج هنا من قيمة مطبق المنهج .

« ـ لم اجرؤ على قول ذلك . أؤكد لك اننا نصل بعد وقت من التطبيق العملي الى مهارة خارقة للعادة ، الى نوع من التكهن ، من الحدس اذا كنت تفضل ذلك . وبالاجمال يمكن السير احياناً وراء آثار خاطئة . والمهم هو عدم الاصرار على هذا . اسمع : اتعرف كيف نبدأ كل احاديثنا ؟ يبدأ بوريس بأن يقص عليّ ما حَلم به اثناء الليل .

« ـ من قال لكِ انه لا يختلق ؟

« ـ واذا اختلق ؟ كل اختلاق يصدر عن مخيلة مريضة فهو كاشف للسر » .

« وسكتت بضع لحظات ، ثم قالت .

« ـ اختلاق ، مخيلة مريضة . . . كلا ! . . . ليس هكذا . ان الكلمات تخوننا وبوريس يحلم امامي بصوت مرتفع . يرضى كل صباح ان يظل طوال ساعة في هذه الحالة من النوم النصفي حيث الصور التي تعرض علينا تتفلت من مراقبة عقلنا . انها تتجمع وتشترك ليس وفقاً للمنطق العادي ، بل وفقاً لموافقات غير منتظره ، وخصوصاً فإنها تلبي تطلباً داخلياً غامضاً هو الذي يهمنا أن نكتشفه ؛ وهذه الهذيانات من الولد تعلمني ما لا استطيع ان اتعلمه من اذكى تحليل صادر عن اكثر الناس وعياً . هناك كثير من الأشياء تتفلت من العقل . اما من يطبق عليها العقل فقط ، ليفهم الحياة ، فهو شبيه بمن يزعم انه يمسك اللهيب بملقط . لا يوجد امامه سوى قطعة من الخشب المتفحم ، والتي تنقطع حالاً عن الاشتعال » .

« وتوقفت من جديد وبدأت تتصفح كتابي ، وهتفت :

« ـ ما أقلَّ ما تقدمتم في الدخول الى النفس البشرية !

« ثم أضافت فجأة وهي تضحك :

« ـ أوه ! انا لا اتحدث عنك بوجه خاص ؛ وحين اقول انتم ، اعني : الروائيين ان معظم اشخاصكم تبدو وكأنها مقامة على أوتاد ؛ ليس لها من أساس ولا أقبية . اعتقد بصدق ان الحقيقه موجودة بشكل اكثر عند الشعراء : ان كل ما لم

يخلق إلا بواسطة الذكاء وحده فهو خاطىء . ولكنى اتكلم هنا بما لا يعنيني . . . . اتدري ما الذي يحيرني في بوريس ؟ هو انني اظنه متحلياً بطهارة كبيرة .

« ـ لماذا تقولين ان هذا يحيرك ؟

«ـ لأنني حينئذٍ لا اعرف اين ابحث عن مصدر الشر . في تسع مرات من عشر يوجد سر كبير مخزٍ في أصل أي اختلال مماثل .

«فقلت :

« ـ من الممكن وجوده عند كل منا . ولكنه لا يجعلنا كلنا مرضى ، والحمد لله .

« ـفي هذه اللحظة نهضت السيدة سفرونيسكا . فقد رأت من خلال النافذة ان برونجا قد مرت . وقالت وهي تريني إياها :

ـ « انظر ، هذا هو الطبيب الحقيقي لبوريس ، انها تبحث عني . يجب ان اتركك . ولكني سأعود لرؤيتك ، أليس كذلك ؟ .

« ادركت بالنتيجة ان ما تأخذه سوفرونيسكا على الرواية هو انها لا تقدم اليها فائدة ما ، ولكن هنا ، بعض اسباب فنية ، بعض أسباب عليا فاتتها ، أسباب جعلتني اعتقد انه لا يمكن صنع روائي جيد من عالم جيد في الطبيعيات .

« قدمت لورا الى السيدة سوفرونيسكا . بدتا انهما تفاهمتا

وكنت سعيداً بذلك . تضاءل همي حين أتفرد بنفسي لأني اعلم انهما تثرثران معاً . آسف لأن برنار لم يجد هنا أي رفيق من سنه ؛ ولكن امتحانه الذي يستعد له يشغله من ناحيته ساعات في النهار . لقد استطعت العودة الى روايتي » .

٣

رغم المظهر الأول ورغم ان كلاًّ منهما « يضع في الأمر شيئاً من نفسه » ، كما يقال ، فإن الحالة لم تكن سوى نصف حسنة بين الخال ادوار وبرنار . ولورا أيضاً لم تكن راضية . وكيف يمكن ان تكون ؟ لقد اجبرتها الظروف على القيام بدور لم تخلق له ؛ كانت فضيلتها تضايقها . كانت في حاجة الى الاعتماد على الاعراف والتقاليد ، كتلك الزوجات المحبات الطيبات اللواتي هن أوفى الزوجات ، وكانت تشعر انها بدون قوة منذ ان انتزعت من اطارها . وقد بدا لها موقفها حيال ادوار اكثر زيفاً يوماً بعد يوم ، وهذا ما كان يعذبها بوجه خاص . ذلك لأنها تعيش على حساب هذا المغيث ، أو بصورة افضل : لأنها لا تعطيه شيئاً مقابل ذلك ؛ وبدقة اكثر ايضا : لأن ادوار لم يطلب منها شيئاً مقابل ذلك ، مع انها تشعر انها مستعدة لمنحه كل شيء . يقول تاسيت من خلال مونتاني : « لا تكون الحسنات لطيفة إلا بقدر

ما يمكن وفاؤها » . وما من شك في ان هذا غير صحيح إلا للنفوس النبيلة . ولورا بالتأكيد كانت من هؤلاء . ومع انها كانت تريد ان تعطي فإنها هي التي كانت تأخذ دون انقطاع . وهذا ما أثارها ضد ادوار . وفضلاً عن ذلك ، فإنها حين تعود بذاكرتها الى الماضي يبدو لها ان ادوار قد خدعها بإيقاظه فيها حباً لا تزال تشعر بأتفاده ، ثم بتملصه من هذا الحب وتركه دون استعمال . ألم يكن هذا هو السر المسبب لضلالها ، وزواجها من دوفييه الذي كانت قد تخلت عنه والذي قادها ادوار اليه ، ثم تركها تذهب ، بعد ذلك ، وتتعرض لإغراءات الربيع ؟ كانت تبحث عن ادوار بين ذراعي فنسان ، وقد اضطرت الى الاعتراف بذلك . لم تحاول ان تشرح سبب هذا البرود من حبيبها فقد جعلت نفسها مسؤولة عنه ، وقالت لنفسها انه كان في إمكانها التغلب عليه لو كانت اجمل ، او اجرأ ، ولم تتوصل الى ان تبغضه ، فقد اتهمت نفسها ، وقللت من قيمتها ، وانكرت على نفسها كل قيمة ، وألغت سبب وجودها ، ولم تعترف لنفسها بأية فضيلة .

لنضف ايضاً ان حياة المخّيمات هذه ، والتي فرضها ترتيب الغرف ، والتي يمكن ان تبدو مسرة لرفيقيها ، تغيظ فيها الحياء ، ولم تستشف أي مخرج من هذا الوضع ، علمًا بأن استمراره صعب .

ولم تكن لورا تستمد القليل من التعزية والفرح إلا

باختلاقها حيال برنار واجبات جديدة ، واجبات العرّابة أو الأخت الكبرى كانت حساسة تجاه الاحترام الفائق الذي كرسه لها هذا اليافع المليء باللطف ؛ وتلك العبادة التي كانت موضوعاً لها أبقتها على منحدر هذا الاحتقار لنفسها ، هذا الاشمئزاز الذي يمكن ان يوصل الكائنات الأكثر تردداً الى حلول متطرفه . كان برنار في كل صباح ، حين لا تجره نزهة في الجبل قبل الفجر (لأنه كان يحب النهوض باكراً) يقضي بجانبها ساعتين كاملتين في قراءة الانكليزيه والامتحان الذي كان عليه ان يقدمه في تشرين الأول كان حجة ملائمة .

لا يمكن القول حقيقة أن وظيفة كسكرتير تأخذ الكثير من وقته . فقد كانت هذه الوظيفة غامضة التحديد. وحين قبل برنار القيام بأعبائها تخيل نفسه جالساً أمام طاولة الشغل، كاتباً ما يمليه عليه أدوار، واضعاً أنفه في المخطوطات. أن أدوار لم يمل شيئاً، والمخطوطات، إن كانت موجودة، فقد ظلت سجينة الحقيبة؛ كان برنار حراً في كل ساعة من النهار؛ ولكن بما أنه لا يمكن إلا لأدوار أن يستفيد من حبةٍ لا تطلب إلا أن تُستعمل، فإن برنار لم يعر عطلته الكثير من الاهتمام وهو لم يربح تلك الحياة العريضة إلا بفضل سخاء أدوار. لقد كان عازماً عزماً أكيداً على ألا تعوقه الأوهام. كان يؤمن، ولا أجرؤ على القول بالعناية الإلهية، بل بطالعه على الأقل. وأن بعضاً من هذه السعادة مدين به لهذا الطالع كالهواء للرئتين اللتين تتنشقانه؛

وكان برنار هو موزع هذا الهواء ويحمل اللقب الذي يحمله الخطيب المقدس حسب قول بوسويه، لقب الحكمة الإلهية. وفضلاً عن ذلك فإن النظام الحاضر خاله برنار وقتياً، معتقداً تمام الاعتقاد أن بامكانه الاستعفاء منه ذات يوم، حين يسكّ الثروة التي كان يزن وفرتها في قلبه. أما ما يثير غيظه فهو أن أدوار لم يستعن ببعض المواهب التي يشعر بها في نفسه والتي لم يجدها عند أدوار. «هو لا يعرف أن يستفيد مني»، هكذا فكر برنار الذي ابتلع حبه لذاته، وأضاف بتعقل على الأثر: «خسارة!».

ولكن، من أين يمكن أن يحصل الضيق بين أدوار وبرنار؟ فبرنار يبدو لي أنه من ذلك النوع من النفوس التي تجد اطمئناناً في المعارضة. لم يكن يحتمل تسلط أدوار عليه، ومع اضطراره للخضوع للتسلط فقد كان يعاند. وأدوار الذي لم يفكر قط في اخضاعه كان يهتاج ويحزن دورياً حين يشعر أنه حرون، مستعد للدفاع عن نفسه دون انقطاع، أو على الأقل، ليحمي نفسه. لقد وصل إلى أن يتساءل أن لم يكن قد أخطأ باصطحابه هذين الكائنين اللذين لم يجمعهما، كما يبدو له، إلا ليجعلهما يتحالفان ضده. ولما كان عاجزاً عن التغلغل إلى عواطف لورا الخفية فقد حمل انكماشها وانطواءها على محمل البرود. كان متضايقاً من التطلع إليها بوضوح وهذا ما فهمته لورا؛ بنوع أن حبها المحتقر لم يكن يستعمل قوته إلا في الاختباء وفي الصمت.

كانت ساعة تناول الشاي تجمع الثلاثة عادة في الغرفة الكبرى، وكان يحدث في الغالب أن تنضم إليهم السيدة سوفرونيسكا بناء على دعوتهم وخصوصاً في الأيام التي يذهب فيها بوريس وبرونجا للنزهة. كانت تترك لهما الحرية رغم صغر سنهما؛ وكانت واثقة تمام الثقة ببرونجا وتعرف أنها شديدة الحيطة، وخصوصاً مع بوريس الذي كان يبدو مطيعاً لها بشكل خاص. كانت البلاد آمنة، لأن المغامرة في الجبل لم تكن واردة عندهما، حتى ولا تسلق الصخور القريبة من الفندق. وذات يوم، وقد نال الولدان إذناً بالذهاب حتى سفح الثلاجة شرط ألا يبتعدا عن الطريق، فإن السيدة سوفرونيسكا كانت مدعوة لتناول الشاي، وقد شجعها برنار ولورا فخاطرت إلى حد أنها جرؤت على التوسل لأدوار أن يحدثهم عن روايته المقبلة، إذا كان هذا لا يسبب له أي ازعاج.

ـ أبداً؛ ولكنني لا أستطيع أن أرويها لكم.

ومع ذلك فقد بدا أنه حنق تقريباً حين سألته لورا (سؤال أحمق بالتأكيد) «ماذا يشبه هذا الكتاب».

ـ لا يشبه شيئاً.

ثم قال على الأثر، وكأنه لم يسمع سوى هذا التحريض:

ـ لماذا أعيد عمل ما عمله غيري قبلاً، أو ما عملته قبلاً أنا لنفسي، أو ما يمكن لآخرين غيري أن يعملوه؟

لم يكن حرياً بأدوار أن يلفظ هذا الكلام الذي يُشعر بعدم اللياقة، والافراط، والعبث أن هذه الأقوال بدت له غير لائقة، ومستحيلة؛ أو على الأقل كان يخشى أن يحكم عليها برنار أنها هكذا.

كان أدوار سريع الغيظ. وما أن يحدثه أحد عن عمله، أو يدفعه إلى الكلام عنه، حتى يفقد صوابه.

كان يحتقر غطرسة المؤلفين المعتادة احتقاراً تاماً ويلوم نفسه على غطرسته جهد استطاعته؛ ولكنه يبحث بطيبة خاطر عن نجدة لتواضعه في اعتبار الغير له؛ هـذا الاعتبار أوشـك أن يفقده، والتواضع أفلس على الأثر. كانت مكانته في قلب برنار تهمه جداً، فهل لأجل اكتساب هذه المكانة جعل فرسه تضرب برجليها أمامه؟ أن هذه أفضل وسيلة لفقد هذه المكانة، وهذا ما يشعر أدوار جيداً ويقوله لنفسه ويردده . ولكن بالرغم من كل عزم ، وخصوصاً أمام برنار ، يتصرف بغير ما يريـد ويتكلم بطريقة يحكم عليها حالاً أنها خرقاء (وهي بالحقيقة كذلك) .

وأخذ أدوار ينكلم كالخطيب:

ـ هل لأن الرواية تبقى هي الأكثر حرية، الأكثر تفلتاً من القانون بين جميع الأنواع الأدبية. . . ، هل لأجل هذا تقريباً، وبسبب الخوف من هذه الحرية نفسها (لأن الفنانين الدين هم أكثر من يسعى وراء الحرية، هم في الغالب الأكثر هلعاً عندما

يحصلون عليها) تتشبث الرواية دائمًا بالواقع هذا التشبث القلق؟ أنا لا أتكلم فقط عن الرواية الفرنسية. أن الرواية الروسية، مثلها مثل الإنكليزية، مهما كانت متفلتة من الإكراه فإنها تستعبد للتقليد. والتقدم الوحيد الذي تواجهه هو زيادة اقترابها مما هو طبيعي. أن الرواية لم تعرف بعد ذلك «التأكل الرهيب للنطاقات» الذي تحدث عنه نيتشه، وذلك الإبعاد الاختياري للحياة، اللذين أتاحا الإنشاء الجيد في مؤلفات كتّاب الدراما الإغريق مثلاً أو تراجيديات القرن السابع عشر الفرنسي. هل تعرفون ما هو أكثر كمالا وما هو أنساني أكثر عمقاً من هذه المؤلفات؟ ولكن، بالضبط، أنها ليست إنسانية إلا بعمق؛ فهذه الأعمال لا تدعي التظاهر بالإنسانية، ولا إظهارها على الأقل إظهارها واقعياً. أنها تظل عملاً فنياً.

كان أدوار قد نهض، وبدافع الخوف من أن يبدو كأنه يلقي درساً، سكب الشاي وهو يتكلم، ثم سار جيئة وذهاباً، ثم عصر ليمونة في قدحه ولكنه مع ذلك تابع:

ـ لأن بلزاك كان عبقرياً، ولأن كل عبقري يبدو أنه يحمل إلى فنه حلاً نهائياً مانعاً فقد صدر أمر أن تكون خاصة الرواية في «منافسة الأحوال الشخصية». لقد بنى بلزاك مؤلفاته، ولكنه لم يزعم قط أنه وضع قوانين للرواية؛ ومقاله عن ستاندال يظهر ذلك جيداً. منافسة الأحوال الشخصية! كأنه لم يكن يوجد قبلاً على الأرض ما يكفي من السعادين والتافهين! أي عمل لي في

الأحوال الشخصية! فالحالة هي أنا، الفنان! ومؤلفاتي سواء كانت مدنية أم لا، تنوي إلا تنافس شيئاً.

وحمي أدوار بشكل مفتعل قليلاً، فعاد إلى الجلوس. تظاهر بعدم النظر إلى برنار، ولكنه كان يتوجه إليه بالكلام. لو كان وحيداً معه لما عرف أن يقول شيئاً؛ كان معترفاً بفضل هاتين المرأتين اللتين دفعتاه إلى الكلام.

ـ يبدو لي أحياناً في الأدب أنني لا أعجب بشيء أكثر من النقاش عند راسين مثلاً بين ميتريدات وأولاده؛ حيث يُعرف تمام المعرفة أنه لا يمكن لأب وأولاده أن يتحدثوا بهذا الشكل، وحيث مع ذلك (وأريد أن أقول: بمقدار) جميع الآباء وجميع الأبناء يمكنهم التعرف إلى أنفسهم. وبتحديد المكان والتخصيص نكون قد لجأنا إلى الحصر. ليس هناك حقيقة سيكولوجية إلا خاصة، وهذا صحيح؛ ولكن ليس هناك من فن إلا وهو عام. كل المشكلة هي هنا؛ إظهار العام بواسطة الخاص؛ جعل العام يظهر بواسطة الخاص. أتسمحون أن أولع غليوني؟

فقالت سوفرونيسكا:

ـ أولع، أولع.

ـ حسناً، أريد رواية تكون في الوقت نفسه حقيقية وبعيدة عن الواقع. خاصة وعامة معاً، إنسانية ومختلقة مثل «أتالي Athalie»، مثل «تارتوف Tartuffe»، مثل «سينّا Cinna».

ـ و. . . موضوع هذه الرواية؟

فأجاب أدوار بخشونة:

ـ ليس لها موضوع، وهذا أكثر ما يثير الدهشة. أن روايتي لا موضوع لها. نعم، اعلم جيداً، أن ما أقوله هنا يبدو من الغباء. لنفرض، إذا فضلتم، أنه ليس لها موضوع واحد. . . «شريحة من الحياة» كما قالت المدرسة الطبيعية. أكبر عيب لهذه المدرسة هو أنها تقطع شريحتها دائمًا في الاتجاه نفسه، في اتجاه الزمن، بالطول. لماذا لا يكون بالعرض؟ أو بالعمق؟ أما أنا فلا أريد أن أقطع أبداً. افهموني: أريد إدخال كل شيء في هذه الرواية. ما من ضربة مقص لايقاف مادتها، هنا كما هناك. منذ أكثر من سنة وأنا اشتغل فيها ولم يحدث لي شيء إلا سكبته فيها وأردت أن أدخله فيها: ما أرى، ما أعرف وكل ما تعلمني حياة الأخرين وحياتي.

ـ وهل صيغ كل هذا صياغة انشائية؟

قالت سوفرونيسكا ذلك متظاهرة بانتباه شديد، ولكن أيضاً ببعض التهكم. ولم تستطع لورا أن تحبس ابتسامة. أما أدوار فقد هز كتفيه هزاً خفيفاً وتابع:

ـ ليس هذا نفسه ما أريد عمله. أن ما أريد عمله هو أن أقدم الواقع من ناحية، ومن ناحية أخرى أقدم ذلك الجهد المبذول لتشذيبه. وقد حدثتكم عنه الآن.

فقالت لورا وهي لا تستطيع إخفاء ابتسامتها، وقد بدت كضحكة حقيقية:

ـ يا صديقي المسكين، ستميت قراءك من الضجر.

ـ أبداً. للحصول على هذا الجهد، تابعيني، سأختلق شخصية روائي أضعه في دور رئيسي، أما موضوع هذا الكتاب، إذا أردت، فهو الصراع بين ما يقدمه الواقع لهذا الروائي وما يريد هو أن يفعل به.

فقالت سوفرونيسكا بأدب، وكانت ضحكة لورا على وشك الوصول إليها:

ـ نعم، نعم، يمكن هذا أن يكون مدهشاً، ولكنك تعلم أن تقديمك لرجال فكر في الروايات يشكل خطراً. أنهم يقتلون الجمهور؛ ولا يمكن أن تجعلهم يقولون سوى حماقات، وينقلون التجريد إلى كل من يلمسهم.

وقالت لورا:

ـ ثم أني أرى ما سوف يحدث. لن تستطيع أن تفعل شيئاً سوى أن ترسم نفسك في هذا الروائي.

كانت قد اتخذت منذ قليل، وهي تكلم أدوار، لهجة ساخرة أدهشتها هي نفسها وحيرت أدوار بمقدار ذلك البريق الذي فاجأه في نظرات برنار الخبيثة. وقال أدوار معترضاً:

ـ ولكن لا سأكون حريصاً على أن أجعله غير مستحب.

وكانت لورا قد سارت بعيداً فقالت وهي تنفجر بضحكة صريحة جرت وراءها ضحكات الثلاثة الآخرين:

ـ وأنه لكذلك. سيتعرف الناس عليك فيه

وسألت سوفرونيسكا محاولة اسعادة جدتها:

ـ وهل هناك مخطط موضوع لهذا الكتاب؟

ـ كلا بالطبع.

ـ كيف! كلا بالطبع؟

ـ اعلمي أن مخططاً لكتاب من هذا النوع هو غير مقبول أساساً. كل شيء سيصبح مزوراً فيه إذا صممت شيئاً جاهزاً. أنني انتظر أن يملبه الواقع علي.

ـ ولكني حسبت أنك تريد الإبتعاد عن الواقع.

ـ أن روائي سيريد الإبتعاد عنه، ولكني سأعيده إليه دون انقطاع. وحقيقة القول، سيكون الموضوع هنا: الصراع بين الحوادث التي يعرضها الوافع والواقع المثالي.

كان عدم المنطق ظاهراً في حدبثه يقفز إلى العينين بشكل متعب. وقد ظهر بوضوح أن أدوار يؤوي تحت جمجمته مطلبين لا يمكن التوفيق بينهما، وأنه يبلي نفسه في محاولة هذا التوفبق. وسألت سوفرونيسكا بتهذبب:

ـ وهل تقدمت فيه كثيراً.

ـ هذا يتوفف على ما نقصدينه بذلك. حقيقة القول أننى لم

أكتب سطراً واحداً من الكتاب بعد. ولكني اشتغلت فيه كثيراً من قبل. أفكر فيه كل يوم ودون انقطاع. اشتغل به بطريقة غريبة جداً سأقولها لك: أني أسجل كل يوم على دفتر صغير حالة هذه الرواية في نفسي؛ نعم أنها نوع من اليوميات أدونها، كان يمكن أن يدونوا يوميات ولد. يعني أنه بدلاً من الاكتفاء بحل كل صعوبة وفقاً لحدوثها (وكل عمل فني ليس إلا مجموع أو نتاج حلول لكمية من الصعوبات الصغيرة المتتابعة) فأني أعرض كلا من هذه الصعوبات وأدرسها. وإذا أردتِ، فإن هذا الدفتر يحتوي على نقد مستمر لروايتي؛ أو للرواية بوجه عام. فكّري في الفائدة التي كان من الممكن أن نجنيها من دفتر مماثل وضعه ديكنز أو بلزاك؛ لو حصلنا على يوميات «التربية العاطفية» أو «الأخوة كرامازوف»! تاريخ الأثر، تاريخ المخاض به! سيكون هذا مؤثراً... شائقاً أكثر من الأثر نفسه...

كان أدوار يأمل، مضطرباً، أن يُطلب منه قراءة هذه الملاحظات. لكن أحداً من الثلاثة الآخرين لم يظهر أي رغبة. وبدلاً من هذا قالت لورا برنة كئيبة:

ـ يا صديقي المسكين، أرى أنك لن تكتب هذه الرواية أبداً.

فصرخ أدوار باندفاع شديد:

ـ لا باس، أريد أن أقول شيئاً. الأمر عندي سواء. نعم، إذا كنت لم أتوصل إلى كتابة هذا الكتاب فلأن تاريخ الكتاب قد

شاقني أكثر من الكتاب نفسه. ليأخذ التاريخ مكانه وسيكون هذا حسناً.

ـ ألا تخشى، إذا تركت الواقع، أن تضل في مناطق صعبة الإدراك بشكل مميت، وأن تعمل رواية لا من كائنات حية بل من أفكار؟

فصرخ أدوار بشدة مضاعفة:

ـ وإذا حدث هذا! هل علينا أن نقضي على الرواية المصنوعة من أفكار بسبب بُلهاء ضلوا السبيل إليها؟ إنهم لم يقدموا لنا حتى الآن إلا روايات مقيتة ملتزمة بدلاً من روايات الأفكار. ولكن ليس هذا هو المقصود، وتعرفون جيداً. الأفكار...، الأفكار، واعترف لكم أنها تهمني أكثر من الناس، تهمني فوق كل شيء. أنها تعيش، أنها تقاتل، وتحتضر كالناس. ومن الطبيعي أنه يمكن القول أننا لا نعرفها إلا بواسطة الناس كما أننا لا نعرف الريح إلا بواسطة القصب الذي تحنيه؛ ولكن، مع ذلك، فإن الريح تهمنا أكثر من القصب. فقال برنار مجازفاً:

ـ الريح موجودة في معزل عن القصب.

جعلت مداخلته أدوار يقفز، وكان ينتظر ذلك منذ وقت طويل.

- نعم، أعلم ذلك: الأفكار لا توجد إلا بواسطة الناس. ولكن هنا ما يؤثر في النفس: أنها تعيش على حسابهم.

كان برنار قد أصغى إلى كل هذا بانتباه مستمر؛ كان مليئاً بالإرتياب وكاد أدوار يبدو له كصاحب أوهام؛ ومع ذلك، ففي اللحظات الأخيرة هزته فصاحة أدوار؛ وشعر تحت نسمات هذه الفصاحة أن تفكيره انحنى ولكن، كما قال لنفسه، كقصبة بعد مرور الريح، تعود حالاً وتستقيم وعاد بالذاكرة إلى ما كانوا يعلمونهم في المدرسة: أن الأهواء تقود الناس وليس الأفكار.
وكان أدوار قد تابع:

- إن ما أريد عمله، أفهموني، هو شيء يكون مثل «التسلسل الموسيقي» ولا أفهم لماذا يكون الممكن في الموسيقى مستحيلاً في الأدب...

وعلى هذا أجابت سوفرونيسكا بسرعة أن الموسيقى فن رياضي وأنها من فرط عدم أكتراثها إلا بالرقم، ومن فرط الغاء المؤثر والإنساني منها، بلغت، على يد باخ، حدود التحفة التجريدية في الضجر، وأصبحت نوعاً من الهيكل الفلكي لا يمكن أن يصل إليه إلا القلائل العالمون بسره. واعترض أدوار بأنه وجد هذا الهيكل يستحق الإعجاب وأنه يرى فيه دروة عمل باخ وقمته.

وأضافت لورا:

- وبعد هذا شفبت الموسيقى من «الفوغ» (Fugue) لوقت

طويل. فالتأثر الإنساني راح يبحث عن مساكن أخرى له بعدما أوصدت دونه مساكن الموسيقى.

وضاع النقاش في المماحكات أما برنار الذي احتفظ بصمته حتى هذه اللحظة، والذي بدأ يفقد صبره على مقعده، فإنه في النهاية لم يعد يستطيع الصبر؛ وباحترام مفرط، مبالغ فيه، ككل مرة يوجه فيها الكلام لأدوار، ولكن بذلك النوع من المزاح الذي يبدو أنه يجعل من هذا الاحترام لعباً، قال:

ـ عفواً يا سيدي لمعرفتي عنوان كتابك ما دامت هذه المعرفة ناتجة عن فضول، ولكنك أردت، تلطفاً منك، كما اعتقد أن تسامحني عليه و بدا لي هذا العنوان يعلن عن قصة.

فقالت لورا:

ـ أوه! قل لنا هذا العنوان.

ـ يا صديقتي العزيزة، إذا أردت... ولكني أنذرك أن م الممكن أن أبدله. أخشى أن يكون فيه شيء من الخداع. هيا. قل لهم يا برنار:

فقال برنار:

ـ أتسمح؟ «مزيفو النقود» ولكن جاء دورك الآن، قل لنا: من هم مزيفو النقود هؤلاء؟

فقال أدوار:

ـ ماذا؟ لا أعرف عنهم شيئاً.

وتطلع برنار ولورا بعضهما ببعض ثم تطلعا إلى سوفرونيسكا. وسُمعت زفرة طويلة؛ وأعتقد أنها صادرة عن لورا.

الحقيقة أن أدوار كان يفكر في بعض زملائه في بادىء الأمر حين فكر بـ «مزيفو النقود»، وخصوصاً الكونت دو باسّافان. ولكن التخصيص قد توسع بشكل ملحوظ؛ فقد كان أبطاله مرة كهنة ومرة ماسونيين، وفقاً لهبوب ريح العقل من روما أو من غيرها. ولو كان ترك دماغه على منحدره لانحدر بسرعة إلى الغموض حيث يتمرغ على هواه. كانت أفكار تبدل النقد، ونقص قيمته، وتضخمه تجتاح كتابه شيئاً فشيئاً، كنظريات الملابس في «سارتور ريزارتوس» لكارليل وتغتصب مكان الأشخاص. وأدوار الذي لا يستطيع التحدث عن هذا صمت بالشكل الأكثر حمقاً، وصمته الذي بدا وكأنه إقرار بالقحط بدأ يقلق الثلاثة الآخرين.

وسأل أخيراً:

ـ هل حدث لكم أن أمسكتم بأيديكم قطعة نقود زائفة؟

فقال برنار:

ـ نعم.

ولكن كلمة «لا» التي صدرت عن المرأتين غطت صوته.

ـ إذن، تخيلوا قطعة ذهبية بعشرة فرنكات تكون زائفة. هي في الواقع لا تساوي شيئاً. وستساوي عشرة فرنكات ما دامت لم

تَعرف أنها زائفة. فلو سرتُ من هذه الفكرة التي. . .

فقاطعه برنار متعجلاً:

ـ ولكن لماذا السير من فكرة؟ فلو سرت من حادث معروض جيداً لأتت الفكرة وسكنته من تلقائها. لو كنت كتبت: «مزيفو النقود» لبدأت بتقديم قطعة النقود الزائفة، تلك القطعة الصغيرة التي تحدثت عنها الآن. . . وهذه هي.

قال ذلك واخرج من جيبه قطعة صغيرة من فئة العشرة فرنكات وألقاها على الطاولة.

ـ اسمعوا كيف ترن جيداً. صوت الأخريات نفسه تقريباً. يمكن أن يقسم أنها من ذهب. لقد خُدعتُ بها هذا الصباح كما خُدع البقال الذي أوصلها إلي، هو نفسه قال لي. اعتقد أن وزنها ليس كاملاً ولكن بريقها بريق قطعة حقيقية وربما صوتها أيضاً. غشاؤها من ذهب بحيث تساوي أكثر من فلسين بقليل؛ ولكنها من بلور. ستصبح شفافة مع الاستعمال. كلا، لا تحكها؛ فقد تفسدها. يكاد هذا الفساد يُرى من قفاها.

كان أدوار قد التقطها وتأملها بفضول منتبه.

ـ ولكن ممن أخذها البقال؟

ـ لا يعرف. يعتقد أنها في درجه منذ عشرة أيام. أراد ا يلهو بإعطائها إياي ليرى إذا كنت أخدع بها. ولعمري فق قبلتها! ولكن بما أنه رجل فاضل، فقد كشف لي الخدعة، ثم

تركها لي مقابل خمسة فرنكات. كان يريد الاحتفاظ بها ليريها لمن يدعوهم «الهواة». وقد اعتقدت أن أفضل من يمتلكها هو مؤلف «مزيفو النقود»؛ اخذتها لأريك. إياها. أما الآن وقد فحصتها فأعدها إلي! أرى، مع الأسف، أن الواقع لا يشوقك كثيراً.

فقال أدوار:

- بلى، ولكنه يضايقني.

فقال برنار:

- مؤسف.

يوميات أدوار

«(هذا المساء نفسه). - سألتني سوفرونيسكا ولورا وبرنار عن روايتي. لماذا استسلمت إلى الكلام؟ لم أقل سوى حماقات قوطعت لحسن الحظ، برجوع الولدين. الولدان محمّران، لاهثان كأنهما ركضا كثيراً. وما أن دخلت برونجا حتى أسرعت إلى أمها؛ اعتقدت أنها ستنتحب. وصرخت:

«- ماما، وبخي بوريس قليلاً؛ كان يريد أن ينام عارياً على الثلج.

«تطلعت سوفرونسكا إلى برويس الذي كان واقفاً على عتبة الباب. الجبهة منخفضة مع نظر ثابت يبدو كأنه مشحون بالبغض، تظاهرت بأنها لم تلحظ ما يلوح على وجه هذا الولد من تعبير غير عادي، ولكنها قالت بهدوء يستحق الإعجاب:

«- اسمع يا بوريس. يجب ألا تفعل ذلك في المساء. إذا شئت فسنذهب غداً صباحاً إلى هناك. وسنجرب أولاً أن تذهب إلى هناك حافياً...

«وداعبتْ جبهة ابنها بلطف؛ ولكن هذه سقطت فجأة على الأرض وأخذت تنقلب متشنجة أصابنا الكثير من القلق. أخذتها سوفرونيسكا ومددتها على أريكة. وكان بوريس يتطلع إلى هذا المشهد، دون أن ينحرك، بعينين واسعتين بلهاوين.

«أعتقد أن أساليب سوفرونيسكا في التربية ممتازة نظرياً. ولكن لعلها خُدعت في ما يتعلق بمقاومة هذين الولدين.

«- أنت تتصرفين كما لو أن الخير يجب أن ينتصر دائمًا على الشر.

« هكذا قلت لها بعد حين حين وجدت نفسي وحيداً معها. (كنت أذهب بعد الطعام للسؤال عن أحوال برونجا التي لم تكن تستطيع النزول لتناول الطعام). قالت لي:

«- فعلاً. أعتقد اعتقاداً ثابتاً أن الخير يجب أن ينتصر على الشر ولي بذلك ملء الثقة.

«- ومع ذلك ، فمن الممكن ان تنخدعي إذا أفرطت بهذه الثقة .

«- كل مرة انخدع فيها فإن هذا الخداع ينشأ لأن ثقتي لم تكن شديدة بما فيه الكفاية. واليوم، حين تركت هذين الولدين يخرجان، بدا علي شيء من القلق؛ وقد شعرا بذلك؛ وكل ما تبقّى جاء من هنا.

«وأخذت يدي:

«- لا يبدو عليك أنك تؤمن بفضيلة اليقين. . . أريد القول بقوته العاملة.

فقلت ضاحكاً:

«- فعلاً، فأنا لست صوفياً.

«فصرخت باندفاع معجب:

«- لا بأس. أعتقد بكل كياني أنه، بلا التصوف، لا يحدث هنا على الأرض كبير، شيء جميل .

«اكتشاف اسم فكتور ستروفبلو في سجلّ السباح. لقد اضطر إلى ترك «ساس - فيه»، وفقاً لمعلومات صاحب الفندق، قبل يوم وصولنا بعدما مكث هنا ما يقرب من شهر كنت كثير الشوق لرؤيته ما من شك في أن سوفرونبسكا قد خالطته. يجب أن أسألها».

٤

قال برنار:

ـ أريد أن أسألك يا لورا، أتعتقدين بوجود شيء على الأرض لا يمكن وضعه موضع الشك؟ هدا إلى درجة أني أشك إذا كان لا يمكن أخذ الشك نفسه كنقطة ارتكاز. ذلك لأنني اعتقد أنه على الأقل لن يجعلنا نخطىء. استطيع الشك في واقع كل شيء، ولكن ليس في وافع شكي. وقد كنت أريد... عفواً إذا كنت أعبر بطريقة المدّعي، أنني بطبيعتي لست مدّعياً، ولكني أخرج من الفلسفة، ولا تعرفين «الطعجة» التي لا يلبث لتحليل أن يطبع بها العقل. ولكني سأصلح سلوكي، أقسم لك.

ـ لماذا هذه الجملة المعترضة؟ أتربد..؟

ـ أريد أن أكتب قصة واحد يصغى في بادىء الأمر لكل

إنسان، ويذهب مستشيراً كل إنسان، على نسق بانورج[1] Panurge، قبل أن يعقد العزم على أمر، وبعد أن يتثبت من أن آراء هؤلاء وأولئك تتنافض حول كل نقطة، يصمم العزم على ألا يسمع شيئاً إلا من نفسه، وهكذا يصبح قوياً.

فقالت لورا:

ـ هذا مشروع رجل عجوز.

ـ أنا أكثر نضجاً مما تظنين. قبل أيام بدأت أدون يومياتي، كإدوار، أكتب على الصفحة اليمنى رأياً، بينما أستطيع على الصفحة اليسرى تسجيل الرأي المعاكس. إليك مثلاً: ذلك المساء قالت لنا سوفرونيسكا أنها تجعل بوريس وبرونجا ينامان والنافذة مفتوحة على مصراعيها. وكل ما قالته لنا تبريراً لهذا النظام بدا معقولاً تماماً ومقنعاً، أليس صحيحاً؟ ولكن ها أنا أسمع البارحة، في غرفة التدخين في الفندق، ذلك الأستاذ الألماني الذي وصل حديثاً، يدعم نظرية معاكسة بدت لي معقولة أكثر وذات أساس أفضل، وأعترف بذلك. قال أن المهم هو أن نحصر أثناء النوم جهد استطاعتنا تلك النفقات وتجارة المبادلات التي هي الحياة، وهذا ما دعاه بعملية التفحيم، حينئذ فقط يصبح النوم مجدداً للقوى. وقد ضرب مثلاً العصافير التي تضع

(١) بانورج: من اشخاص قصة بانتا غريال لرابليه. كان وقحاً جباناً ولكنه كان دائم الحصب بالاختراعات الجديدة .. المترجم.

رؤوسها تحت أجنحتها، وجميع الحيوانات التي تتكوم لتنام، بنوع أنها لا تتنفس إلا بالجهد؛ وهكذا السلالات الأكثر قرباً من الطبيعة، كما قال، كالفلاحين الأقل ثقافة الذين يلازمون المخادع المسدودة؛ أما الأعراب المضطرون إلى النوم في العراء فيضعون قبعات برانسهم على وجوههم. ولكن برجوعنا إلى سوفرونيسكا والولدين اللذين تربيهما، فكرت أنها لم تخطىء أيضاً، وأن ما هو صالح للآخرين يكون ضاراً لهذين الصغيرين حيث، كما فهمت، تكمن بذور السل في جسديهما. باختصار، قلت لنفسي. . . ولكني أضجرك.

ـ لا تلق بالا لهذاه كنت تقول لنفسك؟

ـ ما عدت أعرف.

ـ هيا! ها هو يحرد. لا تخجل من أفكارك.

ـ قلت لنفسي أنه لا يوجد شيء يصلح لجميع الناس؛ بل للبعض فقط؛ وأنه لا يوجد شيء يكون صحيحاً عند الجميع؛ بل فقط لمن يعتقد أنه هكذا؛ وأنه لس هناك من طريقة أو نظربة يمكن تطبيقها على كل واحد بالشكل نفسه؛ وأنه إذا لزمنا أن نختار لنعمل فنحن على الأقل نملك حرية الاختيار؛ وأنه إدا لم نكن نملك حرية الأختيار، فإن الأمر هو أبسط أبضاً. ولكن ليصبح هذا صحيحاً (ليس بشكل مطلق دون شك بل بالنسبة إلي) بحيث يتيح لي أفضل استعمال لفواي، ويجعل فصائلي

تعمل. ذلك لأنني لا أستطيع ضبط شكوكي، والحيرة تجعلني في حالة رعب. أن «الوساده الرخوة الناعمه» عند مونتاني لم تصنع لأجل رأسي لأنني لم أشعر بالنعاس بعد ولا أريد أن أستريح. الطريق طويله، تلك التي توصل مما اعتقدت أنني هو إلى ما هو أنا تقريبا. أشعر أحيانا بالخوف من أنني صحوت أبكر من اللزوم

ـ اتخاف؟

ـ كلا، لا أخاف شيئا. لكنك تعلمين أنني تغيرت كثيراً؛ أو على الأقل فإن منظري الداخلي لم يبق هو نفسه كما كان يوم تركت البيت؛ منذ ما التقيت بك وعلى أثر ذلك انقطعت رغم كل شيء عن البحث عن حريتي. لعلك لم تدركي تماماً أني في خدمتك.

ـ ماذا تعني؟

ـ أوه! تعرفين جيداً. لماذا تريدين حملي على قوله؟ اتنتظرين مني اعترافات؟ لا، لا، أرجوك. لا تحجبي ابتسامتك، وإلا أصبت بالبرد.

ـ يا صديقي برنار، لن تذهب إلى الزعم أنك بدأت تحبني.

فقال برنار:

ـ أوه! لم أبدأ. يمكن أنك أنت التي بدأت تشعرين بذلك؛ ولكنك لا تستطيعين منعي.

. كان يسنوفني ألا أحدرك أما الآن فعلى ألا اقترب منك إلا بحدر، كمادة سربعه الاسعال. . ولكن فكر في تلك المخلوقة المشوهه المتفخة التي سأكونها عما قريب. أن منظري وحده سيعرف كيف يشفيك.

ـ نعم، إذا كنت لم أحب فيك سوى المظهر. ثم إني لست مريضاً؛ أو إذا كان يجب أن أكون مريضاً لأحبك فإني أفضل ألا أشفى.

قال ذلك برصانة، وكآبة. وتطلع إليها بحنو لم يصدر قط عن أدوار ولا عن دوفيبه، ولكن بكثير من الاحترام بحيث لم تستطع ملاحظة أية ريبة. كانت تضع على ركبتيها كتاباً إنكليزياً توقفت عن قراءته وأخذت تتصفحه لاهية، حتى ليقال أنها ما سمعت شيئاً، بحيث أن برنار استمر في كلامه دون كثير من الضيق.

ـ كنت أتصور الحب كشيء بركاني. الحب الذي خلقت لكي أبلوه. نعم، صحيح، كنت أعتقد أنني لا أستطيع أن أحب إلا بشكل وحشي، مخرب، على طراز برون. كم كنت أجهل نفسي! أنت يا لورا جعلتني أعرف نفسي؛ أختلف كثيراً عما اعتقدت أنني كنته! كنت أمثل دور شخص شنيع، وأسعى جهدي لأصبح شبيهاً له. حين أفكر في الرسالة التي كتبتها لوالدي الزائف قبل أن أترك البيت أشعر بكثير من الخزي، أؤكد لك حسبت نفسي متمرداً، خارجاً على القانون، يطلب

بقدميه كل ما بشكل عائقاً أمام رغبته؛ وها أنا إلى جانبك ليس لي رغبات. كنت أنظر إلى الحرية كأنها الخير الأسمى. وما كدت أصبح حراً حتى أخضعت نفسي لـ. . . آه! لو تدرين كم هو مغيظ أن تكون في الرأس كدسة عبارات لكتّاب كبار تأتي بشكل لا يقاوم إلى شفتيك عند إرادة التعبير عن عواطف صادقة. هذه العاطفة جديدة تماماً علي بحيث أنها لم تخترع لغتها بعد. لنفرض أن هذا ليس من الحب ما دامت هذه الكلمة لا ترضيك؛ ليكن من التعبد. يقال أن قوانينكم رسمت حدوداً لهذه الحرية التي كانت تبدو لي حتى ذلك الحين لا متناهية. ويقال أن كل ما يتحرك في داخلي مما هو طائش وناقص يرقص حولك رقصة متناغمة. وإذا ابتعدت إحدى أفكاري عنك فإنني أتركها. . . لورا، أنا لا أطلب منك أن تحبيني، لست سوى تلميذ حتى الآن؛ لا أستحق انتباهك؛ ولكن كل ما أريد عمله في الوقت الحاضر فلكيْ استحق شيئاً من. . . (آه! الكلمة فظيعة). . . اعتبارك.

وركع أمامها ومع أنها أرجعت مقعدها قليلاً إلى الوراء، فإن برنار لمس ثوبها بجبهته، وذراعاه ملقاتان إلى الوراء كعلامة عبادة؛ لكنه حين شعر بيد لورا تستقر على جبهته، أمسك بهذه اليد وضغط عليها بشفتيه.

وقالت وهي تسحب يدها:

ـ يا لك من ولد يا برنار! أنا لست حرة. خذ. أقرأ هذه.

وأخرجت من صدرها ورقة مدعوكة قدمتها إليه.

رأى برنار التوقيع أولاً. هذا ما كان يخشاه. أنه توقيع فليكس دوفييه. أبقى الرسالة لحظة في يده دون أن يقرأها. ورفع نظره إلى لورا. كانت تبكي. شعر برنار حينئذ أن رباطاً في قلبه قد انقطع، أنه أحد تلك الأربطة السرية التي تربط كلاً منا إلى نفسه، إلى ماضيه الأناني. ثم قرأ:

«محبوبتي لورا.

«باسم هذا الولد الصغير الذي يوشك أن يولد، والذي أقسمت أن أحبه أكثر مما لو كنت والداً له، أتوسل إليك أن تعودي. لا يدخلنّ في روعك أن هناك أي لوم يمكن أن يستقبل عودتك. لا تتهمي نفسك كثيراً لأن هذا على الخصوص يعذبني. لا تتأخري. انتظرك بكل روحي التي تعبدك وتخر ساجدة أمامك».

كان برنار قد جلس على الأرض أمامَ لورا. ولكنه سألها دون أن ينظر إليها:

ـ متى تلقيت هذه الرسالة؟

ـ هذا الصباح.

ـ ظننت أنه يجهل كل شيء. هل كتبت إليه؟

ـ نعم؛ اعترفت بكل شيء.

ـ وهل عرف أدوار بذلك؟

ـ لا يعرف شيئاً.

ظل برنار صامتاً بعض الوقت، مخفض الرأس. ثم دار نحوها من جديد:

ـ و. ماذا تنوين أن تفعلي الآن؟

ـ أتسألني هذا حقيقة؟ العودة إليه أن مكاني بجانبه نحب أن أعيش معه وأنت تعرف ذلك.

ـ نعم.

قال برنار.

وخيم صمت طويل وتابع برنار:

ـ أتعتقدين حقيقة أن الإنسان يستطيع أن يحب ابن رجل آخر أكثر من ابنه؟

ـ لا أدري إذا كنت اعتقد ذلك؛ ولكني آمله.

ـ أما أنا فأعتقد ذلك. ولا أعتقد، على العكس، بما يسمى من باب الحمق «صوت الدم». نعم. اعتقد أن هذا الصوت الشهير ليس سوى خرافة. قرأت أن ثمة عند بعض سكان جزر أوقيانيا عادة تبني أبناء الغير، وأن هؤلاء الأولاد المتبنين يفضّلون في الغالب على غيرهم. وقد قال الكاتب حرفياً، وأذكر ذلك جيداً: «نُعنى بهم أكثر من غيرهم». أتدرين في ما أفكر الآن؟ أفكر أن ذلك الرجل الذي هو محل أبي لم يقل شيئاً ولم يعمل شيئاً يبعث على الشك في أنني لم أكن ولده الحقيقي؛ وقد كتبت

حين كنت إليه أنى كنت أشعر دائماً بالفرو كان الأمر على العكس، كان يخصني بنوع من التفصل وكنت أشعر به، بنوع أن عموقي له كان أفظع. من تصرفي ذلك التصرف السيء حياله. لورا، يا صديقتي. كنت أريد أن أسألك هل ترين أن من واجبي أن أطلب عفوه، وأعود إليه؟..

فقالت لورا:

- لا.

- لماذا؟... ما دمت أنت ستعودين إلى دوفيه...

- قلت لي من لحظة أن ما هو صحيح للواحد ليس صحيحاً للآخر. أنا أشعر بضعفي، وأنت قوي. يستطيع السيد بروفيتانديو أن يحبك ولكن إذا صدقت ما قلت لي عنه فإنكما لم تخلقا لتتفاهما... أو على الأقل انتظر بعد. لا تعد إليه وأنت مفكك. أتريد أن تعرف كل فكري؟... لقد اقترحت هذا لأجلي وليس لأجله؛ لتحصل على ما سميته: اعتباري. لن تحصل عليه يا برنار إلا حين أشعر أنك لا تسعى إليه لا أستطيع أن أحبك إلا طبيعياً. دع لي التوبة، فهي لم تخلق لك يا برنار.

- أكاد أحب أسمي حين أسمعه من فمك. أتدرين من ماذا يزداد رعبي هناك؟ من المخفخة. كثير من الرفاهية، كثير من السهولة . شعرت بنفسي أنني أصبحت فوضوياً. أما الآن فبالعكس أعتقد أنني انقلبت محافظاً. أدركت هذا فجأة ذات

يوم، في ذلك الاشمئزاز الذي انتابني حين سمعت سائحاً على الحدود يتحدث عن السرور الذي يشعر به حين يخدع الجمرك. كان يقول: «سرقة الدولة ليست سرقة أحد». وبدافع الاحتجاج أدركت فجأة ما هي الدولة. وبدأت أحبها، ببساطة، لأن الناس يخطئون معها. لم أفكر في هذا قبل. وقال أيضاً: «ليست الدولة سوى اتفاق»، ما أجمل هذا الاتفاق الذي سيرتكز على حسن نية كل فرد. . لو كان لا يوجد سوى أناس نزهاء. . . . اسمعي، سئلت اليوم عن الفضيلة التي تبدو لي أنها الأجمل فأجبت دون تردد: النزاهة. أوه! لورا، كم أود طوال حياتي، وعند أقل صدمة، أن أردد صوتاً طاهراً، نزيهاً، أصيلاً. أن جميع الناس الذين عرفتهم تقريباً يرنون رنيناً زائفاً. أن تساوي بالضبط ما تتظاهر به؛ عدم محاولة التظاهر بأكثر مما تساوي. تظاهرك بغير ما أنت، واهتمامك الكثير بالظهور، بحيث ينتهي الأمر بالا تعرف من أنت. . عفواً لتحدثي إلبك هكذا. أنني أكشف لك أفكاري في الليل.

ـ كنت تفكر في تلك القطعة الصعيرة التي أريتنا إياها البارحة. حين أذهب. . .

ولم تستطع إتمام عبارتها؛ فالدموع نصاعدت إلى عينيها. وفي الجهد الذي بذلته لتمسك هذه الدموع رأى برنار شفتيها ترتجفان، فقال بكآبة:

ـ إذن ستذهبين يا لورا. . أخشى ألا أعود أساوي شيئاً،

أو قليلاً جداً، حين لا أشعر بوجودك بجانبي... ولكن قولي. كنت أربد أن أسألك: هل تذهبين، هل كنت كتبت هذه الاعترافات لو أن أدوار. . لا أعرف كيف أقول. . (احمر وجه لورا) لو أن أدوار يساوي أكثر من دلك؟ أوه! لا تعترضي أعرف رأيك فبه جيداً

ـ تقول هذا لأنك البارحه لاحظت ابتسامتي حين كان يتكلم. وقد توهمت على الأثر أن حكمنا عليه مماتل. ولكن لا. أخطأت. الحقيفة أنني لا أعرف رأيي فيه. أنه لا يبقى زمناً طويلاً على حاله. لا يرتبط بشيء. ولكن ما من شيء مشوق أكثر من هربه. أنت تعرفه منذ وقت قريب فلا تستطيع الحكم عليه. أن كيانه يتفكك ويترمم دون انقطاع. تظن أنك أمسكنه... أنه بروتيه[1] Protée. هو ينخذ شكل من يحبه. وهو نفسه، لكى تفهمه، يجب أن نحبه.

ـ أنت تحبينه. أوه! لورا. لا أشعر بالغبرة من دوفييه، و من فنسان؛ بل من أدوار.

ـ لماذا الغيرة؟ أنا أحب دوفييه؛ وأحب إدوار؛ ولكن بشئ يختلف. وإذا اضطررت أن أحبك فسيكون حباً آخر أيضاً.

---

(١) بروتيه: في الميثولوجيا هو إله بحري تلقى من والده نبتون القدرة على التنبؤ ولكن كان يرفض في الغالب ان يتكلم. ولكي يهرب من أولئك الدين يحرجونه بأسئلته كان يغير شكله حسب ارادته. المترجم

ـ لـورا، لورا، أنت لا تحبـين دوفسـه تشعـرين نحـوه بالعطف، بالشفقة، بالاعتبار ولكن هذا ليس بحب. اعتقد أن سر كآبتك (لأنك كئيبة يا لورا) يكمن في أن الحياة قسمتك؛ فالحب لم يقبل بك إلا ناقصة إنك توزعين أشخاص عديدين ما كان عليك أن تعطبه لواحد فقط. أما أنا، فأشعر أنني غيرقابل للتقسيم. لا أستطيع أن أعطي نفسي إلا بكاملها.

ـ لا تزال صغيراً لتتكلم هكـذا. لا نستطيـع أن تعرف الآن، إذا كنت أنت أيضاً لن «تقسمك» الحياة كما تقول أنا لا أستطيع أن أقبل منك إلا هذا. . . التفاني الذي قدمه لى. أما ما بقي فسينال مطالبه التي يجب أن نلبّى فى مكان آخر

ـ أيكون هذا صحيحاً؟. تكادين تجعلينني اشمئز مقدماً من نفسي ومن الحياة.

أنت لا تعرف شيئاً من الحباة. في إمكانك تنتظر منها كل شيء. أتدري ما كانت غلطتي؟. . . إن لا أنتظر شيئاً. كان ذلك، مع الأسف، عشت ذلك الربيع، في بّو، وكـأنني لن أحصل على أي ربيع آخر، كأن شيئاً لا يهمني. برنار، أستطيع أن أقول لك الآن إني عوقبت. . . لا تيأس أبداً من الحياة.

ما فائدة التكلم هكذا مع كائن صغبر مليء باللهب؟ علماً بأن ما قالته لورا لم يكن موجهاً لبرنار. واستجابة لنداء تعاطفها كانت تفكر أمامه بصوت مرتفع رغمًا عنها. كانت غير حادقة في

التظاهر، غير حادقة في السيطرة على نفسها. وبما أنها خضعت أولاً لذلك الاندفاع الذي ذهب بها منذ أن فكرت بأدوار حيث أفشت سر حبها، فإنها تركت نفسها تتوجه إلى حاجة التبكيت التي ورثتها، بالتأكيد، عن والدها. ولكن برنار كان يخاف التوصيات، يخاف النصائح، وخصوصاً إذا أتت من لورا؛ وابتسامته أنذرت لورا التي تابعت بلهجة اهدأ:

ـ أتفكر أن تبقى سكرتيراً لأدوار بعد عودتك إلى باريس؟

ـ نعم إذا رضي باستخدامي. ولكنه لا يعطيني شيئاً أعمله. أتعرفين ماذا يمكن أن يسليني؟ أن أكتب معه هذا الكتاب الذي لن يكتبه وحده أبداً. وقد أحسست البارحة بقولك له. وطريقة العمل تلك التي عرضها علينا أجدها مستحيلة. أن الراوية الجيدة تكتب بطريقة أبسط من ذلك. وقبل كل شيء يجب الإيمان بما يُروى، إلا تعتقدين؟ وأن يروى ببساطة. ظننت أولاً أنني أستطيع مساعدته. لو كان بحاجة إلى شرطي خاصر لأمكن أن أكون مسروراً من تطلبات العمل. ولكان عليه أن يشتغل بموجب الحوادث التي يكتشفها الشرطي ولكن لا يمكن عمل شيء مع رجل عقائدي. حين أكون بجانبه أشعر أن روحي روح مخبر في جريدة. إذا تشبث بضلاله فسأشتغل من ناحيتي. سأضطر أن أكسب معيشتي. سأقدم خدماتي إلى جريدة وأنظم أبياتاً بين وقت وآخر.

ـ لأنك، إلى جانب الصحافيين، ستشعر حتماً، أن روحك

روح شاعر.

- أوه! لا تسخري مني. أعرف أنني مضحك. لا تجعليني أشعر بذلك كثيراً.

- إبق مع أدوار. ستساعده، ودعه يساعدك. أنه طيب.
وسمع قرع جرس الفطور، فنهض برنار. وأخذت لورا بده:

- قل أيضاً. . . تلك القطعة الصغيرة التي أريتنا إياها البارحة. . . كتذكار منك، حين اذهب. - وتصلبت واستطاعت هذه المرة أن تتم عبارتها - أتريد أن تعطنيها؟

فقال برنار:

- إليك. ها هي، خذيها.

٥

يوميات إدوار

هذا هو ما يحصل لجميع أمراض الروح الإنسانية تقريباً التي نتوهم أننا شفيناها. كل ما في الأمر أننا نجعلها تتردد، كما يقال في الطب، وتبدل بغيرها.

سانت بوف (الاثنين، مجلد ١، ص ١٩).

«بدأت استشف ما يمكن أن أسميه «الموضوع العميق»

لكتابي وسيكون هذا دون شك خصومة للعالم الواقعي وخصومة لما مثلناه به. أن النسق الذي يفرضه علبنا عالم الظواهر وحيث نحاول أن نفرض على العالم الخارجي تأويلنا الخاص، يشكل مأساة حياتنا. أن مقاومة الأحداث تدعونا إلى نقل بنائنا المثالي إلى عالم الحلم، والأمل، والحياة المستقبلة التي يتغذى فيها إيماننا بكل خيباتنا فيها. الواقعيون ينطلقون من الأحداث، ويلائمون أفكارهم مع الأحداث. وبرنـار واقعي. أخشى ألا أستطيـع التفاهم معه.

«كيف استطعت أن أوافق حين قالت لي سوفرونيسكا أنه ليس عندي شيء من التصوف؟ أنا على استعداد للاعتراف معها بأن الإنسان دون تصوف لا يمكن أن ينجح في عمـل كبير. ولكن أليست هي صوفيتي التي جرّمتها لورا حين حدثتها عن كتابي؟ لنترك لهم هذا الجدل.

«حدثتني سوفرونيسكا ثانية عن بوريس وأنها توصلت إلى انتزاع الاعتراف الكامل منه، كما تعتقد. ليس في نفس الولد أقل غابة، أقل باقة عشب يلجأ إليها من نظرات الطبيبة. أنه معزول تماماً. وقد أظهـرت سوفـرونيسكا إلى النـور الدواليب المفككة الأكثر سنرا في جهازه العقلي، كما يفعل الساعاتي بقطع الساعة التي ينظفها. وإذا لم يصبح الصغير، بعد هذا، مثالاً للدقة في الانفعالات وردود الفعل فهذا يعني أن جهدها ذهب سدى. وهذا ما روته لى سوفرونبسكا:

«كان بوريس قد وُضع وهو في سن الناسعة في مدرسة في فرصوفيا. وقد توطدت علاقته مع رفيق له في صفه يدعى باتيستان كرافت أكبر منه بسنة أو اثنتين. وقد أشركه في ممارسة أعمال سرية كان هؤلاء الأولاد، المندهشون بسذاجة، يظنونها «من السحر». هذا هو الإسم الذي أطلقوه على عيبهم لأنهم سمعوا من يقول، أو قرأوا، أن السحر يتيح امتلاك ما يرغب المرء به، وأنه لا يجعل للمقدرة حدوداً. الخ... كانوا يعتقدون، بسلامة طويه، أنهم اكتشفوا سراً يعزيهم عن الغياب الحقيقي بالحضور الوهمي، ويوهمون أنفسهم بالإنبساط، ويصابون بالذهول على فراغ حيث تنب مخيلتهم المتعبة في العجائب متمتعة بزيادة كبيرة من اللذة. وغني عن القول أن سوفرونيسكا لم تتلاعب بهذه العبارات؛ فقد أرادت أن تنقل عبارات بوريس بالضبط، لكنها تزعم أنها لم تتوصل إلى فرز ما ذكر أعلاه، مع أنها شهدت لي بدقتها، إلا من خلال خليط من الاختلاقات، والإخفاءات، وعدم الوضوح. وقد أضافت:

«ـ التفسير الذي كنت أبحث عنه منذ زمن طويل وجدته في قصاصة كان بوريس يحتفظ بها دائمًا معه، موضوعة داخل كيس صغير بتدلى على صدره بجانب أوسمة القداسة التي أجبرته أمه على حملها ـ وعلى هذه القصاصة خمس كلمات مكتوبة بحروف كبيرة، صبيانية، ومعنى بها؛ خمس كلمات سألته عبثاً عن معناها:

غاز. تلفون. مئة ألف روبل.

«ـ ولكن هذا لا يعني شيئاً. أنه من السحر». هكذا كان يجيبني دائمًا حين أضغط عليه. هدا كل ما اسنطعت الحصول عليه اعرف الآن أن هذه الكلمات اللغزية كسها باتيستان الصغير، المعلم الأكبر وأستاذ السحر، وكانت هذه الكلمات الخمس كصيغة رقية للأولاد، و «يا سمسمة افتحي» الفردوس المخزي حيث كانوا يغطسون في اللذه. كان بوريس يسمي هذا الرق «تميمة» وقد تعذبت كثيراً لأحمله على أن يربني إياه ويتخلى عنه (كان هذا في بدء إقامتنا هنا)؛ لأنني كنت أريد أن يتخلص منه، كما أعرف الآن أنه كان قد تحرر فبلاً من عاداته السيئه. كنت آمل أن تختفي التشنجات والعادة المستهجنه التي يشكو منها مع هذه التميمة. ولكنه نعلق بها، وتعلّق المرض بها تعلقه بآخر ملجأ.

«ـ ومع ذلك فلت أنه تخلص من عاداته . .

«ـ لم يبدأ المرض العصبي إلا على أثر ذلك. لا ريب أنه نجم عن الضغط الذي اضطر بوريس إلى ممارسته على نفسه ليتحرر. عرفت منه أن والدنه فاجأته ذات يوم وهو «يمارس السحر» كما يقول. لماذا لم تخبرني بذلك؟ أكان بدافع الحياء؟

«ـ ودون شك لأنها كانت تعرف أنه قد أصلح.

«ـ هذه حماقه.. وهذا هو السبب الذي كنت أتلمسه منذ

وقت طويل. قلت لك أنني كنت أعتقد أن بوريس طاهر.

«- وقلت لي أيضاً أن هذا ما كان يضايقك.

«- أرأيت أني كنت على حق؟ كان على الأم أن تخبرني. وكان بوريس سيشفى لو استطعت أن أراه بعدها بوضوح.

«- وقلت أن هذه الاضطرابات النفسية لم تبدأ إلا على الأثر.

«- قلت أنها ولدت بدافع الاعتراض. أتصور أن أمه وبخته، وتوسلت إليه، وعنفته. وحدث أن مات الأب فتوهم بوريس أن أعماله السرية، التي صُورت له كأنها أعمال مجرمة، قد نالت عقابها؛ حسب نفسه مسؤولاً عن موت والده؛ ظن نفسه مجرماً، ملعوناً، وشعر بالخوف؛ حينذاك، وهو يشعر كأنه حيوان ملاحق، اختلق جهازه الواهن هذه الكمية من الحيل لصغيرة حيث أمضى عقوبته الخاصة.

«- إذا فهمتك جيداً فأنت تعتبرين أن انصراف بوريس باطمئنان إلى ممارسة «سحره» يكون أقل ضرراً.

«- أعتقد أنه لم يكن من الضروري أن نخيفه لنشفيه. أن تبديل الحياة الناتج عن موت والده كان كافياً دون شك لأن يشغله عن ذلك، وكان الرحيل من فرصوفيا كافياً لينقذه من تأثير صديقه. لا يمكن الحصول من الرعب على شيء صالح. حين عرفت كيف كان وذكّرته بكل ذلك وأعدته إلى ماضيه،

سببت له خجلاً لاستطاعنه تفضيل امتلاك خيرات خيالية على امتلاك خيرات حقيقية هى المكافأة على الجهد، كما قلت له. ودون أن أحاول المبالغة في تصوير عيبه، فقد مثّلته له ببساطه كأنه أحد أشكال الكسل؛ واعتقد فعلاً أنه أحد هذه الأشكال؛ أي أنه الأكثر دقة والأكثر غدراً. . .

«تذكرت، لمناسبة هذه الكلمات، بعض سطور من لاروشفوكو أردت أن أريها إياها، ومع أنني كنت أستطيع سردها من الذاكرة، ذهبت باحثاً عن الكتاب الصغير بعنوان «حِكم» والذي لا أسافر من دونه. وقرأت لها:

«الكسل هو الذي نجهله أكثر من غيره من بين جميع النزعات. أنه الأكثر احتداماً والأكثر ضرراً بين الجميع مع أن عنفه لا يُحَسُّ به والأضرار التي يسببها تظل مستورة. . . أن راحة الكسل هي فتنة خفية للنفس توقف فجأة أكثر الملاحقات احتداماً وأكثر العزائم عناداً. ولكي نعطي أخيراً الفكرة الحقيقيه عن هذه النزعة، يجب القول أن الكسل كغبطة للنفس، بعزيها عن خسائرها ويعوضها عن جميع الخبرات».

«فقالت لي سوفرونيسكا:

«ـ أتزعم أن لاروشفوكو بكنابته هذه أراد الإشارة إلى ما قلناه؟

«ـ يمكن؛ ولكني لا أعتقد. أن كتّابنا الكلاسبكيين أغنباء بكل التأويلات التي يسمحون بها. وبزداد إعجابنا بدقنهم بنسبة

كون هذه الدقة لا تدّعي أنها نهائية وباتة.

«طلبت إليها أن تريني تلك التميمة النهبرة، تميمة بوريس. فقالت أنها لبست في حوزتها، وأنها أعطتها لأحد الذين يهتمون ببوريس إذ طلب منها أن تتركها له كتذكار. - «رجل يدعى السيد ستروفيلو التقينه هنا قبل مجيئكم بوقت قليل».

«قلت لسوفرونيسكا أنني رأيت هذا الإسم في سجل الفندق، وأنني عرفت في السابق رجلاً يدعى ستروفيلو، وإنني كنت متشوقاً لأعرف إذا كان هو نفسه. وبناء على الوصف الذي رسمته لي لم يعد ممكناً أن أخطىء فيه. لكنها لم تعرف أن تقول عنه شيئاً يرضي فضولي عرفت فقط أنه كان لطيفاً جداً، مستعجلاً جداً، وأنه بدا لها كثير الذكاء، ولكنه كسول نوعاً. وأضافت ضاحكة: «إذا تجرأت على استعمال هذه الكلمة». رويت لها بدوري ما كنت أعرفه عن ستروفيلو، وجرني هذا إلى أن أحدثها عن البنسيون حيث كنا نلتقي، وعن أهل لورا (التي أدلت باعترافاتها بدورها). وأخيراً عن لابيروز العجوز، وعن رابطة القربى التي تربطه ببوريس الصغير، والوعد الذي قطعته له حين تركته بأن أجلب له هذا الولد. وبما أن سوفرونسكا قالت لي أنها تتمنى ألا يستمر بوريس في العيش مع أمه، سألتها: «لو تضعينه في البنسيون عند أزابيس»؟ فكرت، عند اقتراحي عليها ذلك، بالسرور العظيم الذي سيشعر به الجد حين يعرف أن بوريس قريب منه، عند أصدقائه يستطيع رؤيته

متى شاء لكني لم أسطع الاعتقاد أن الصغبر، من جهته، لن يكون مرناحاً هناك. قالت لي سوفرونيسكا أنها ستفكر في ذلك. ومع هذا فقد كانت شديدة الاهنمام بما أعلمتها عنه.

«نكرر سوفرونيسكا أن بوريس الصغير قـد سفي. وهذا العلاج من شأنه أن بفوي طريقتها. ولكن أخشى أن تكون قد استبقت الأمر قليلاً، ومن الطبيعي ألا أربد مناقضتها: اعترفت أن التسنجات العصبية، وحركات الـوبه، والتـلاعب باللغـة اخـفت تمريباً؛ ولكن يبدو أن المرض التجأ إلى منطقة أكثر عمقاً في الكائن، كمن يفلت من نظر الطبيب الفاحص، وأن النفس وحدها الآن هي التى أصيبت. وكما أن الحركات العصبية قد تبعت الإسمناء (العادة السرية l'onanisme) فإن هذه الحركات تترك مكانها لما لا أدري من رعب غير منـظور. صحبح أن سوفرونيسكا تقلق لرؤ بة بوريس يسرع على أثر برونجا في نوع من التصوف الصبياني؛ وهى ذكيـة بحيت تعرف أن «غبـطة النفس» الجـديدة هـذه التي يبحث عنهـا بـوربس في الـوقت الحاضر، لا تختلف كثيراً عن تلك التي كان يثيرها بادىء الأمر بواسطة الحيلة، وأنها إذا كانت أقل تبذيراً وأقل تخريباً للجهاز العضوي، ليست أقل أبعاداً له عن بذل الجهد وعن الإيجاز. ولكن، حين أحدثها عن ذلك تجيبني أن نفوساً كنفسي بوريس وبرونجا لا تستطيع الاستغناء عن غذاء وهمي، وإذا انتزع منها فإنها تموت، برونجا في اليأس وبوريس في مادية دنيئة، وفضلاً

عن ذلك فهي تعتبر أنه ليس من حقها أن تخسر ثقة هذين الصغيرين. ومع أنها تحسب أن إيمانهما كاذب فهي تريد أن ترى فيه رافعاً للغرائز المنحطة، وإلحاحاً سامياً، وتنشيطاً، ووقاية. ما أدراني؟ ودون أن تؤمن هي نفسها بعقيدة الكنيسة فإنها تؤمن بفاعلية هذا الإيمان. أنها تتكلم بتأثر عن تقوى هذين الولدين اللذين يقرآن معاً رؤ يا القديس يوحنا، ويتحمسان، ويتحدثان مع الملائكة، ويلبسان روحيهما اكفاناً بيضاء. هي مليئة بالمتناقضات ككل النساء، ولكنها على حق: أنا لست صوفياً، بالتأكيد. . لست أكثر من كسول. وأنا اعتمد كثيراً على جو بنسيون أزاييس وباريس لأجعل من بوريس نشيطاً، ولأشفيه أخيراً من «الخيرات الخيالية». أن سلامته هناك. اعتقد أن سوفرونيسكا وافقت على أن تعهد به إليه لكنها سنرافقه إلى باريس دون شك، راغبة في أن تسهر بنفسها على نزوله عند آل أزاييس، وبهذا تبعث الإطمئنان في الأم التي تراهن على كسب رضاها.

٦

هناك بعض العيون ، اذا وضعت موضع العمل تسطع أكثر من الفضيلة نفسها .

لاروشفوكو

من أوليفييه الى برنار

« صديقي العزيز

لأقل لك اولاً أنني اجتزت امتحان البكالوريا بنجاح . ولكن لهذا أهمية . لقد سنحت لي فرصة فريدة للذهاب في رحلة ، وكنت لا ازال متأرجحاً ، ولكني وثبت عليها بعد قراءة رسالتك . مقاومة خفيفة من والدتي في بادىء الامر ، لكن فنسان سرعان ما انتصر عليها . وقد اظهر لطفاً لم اكن آمله منه . لا استطيع الاعتقاد انه تصرف كشخص فظ في الظروف التي تشير اليها رسالتك . ان لنا ، في سننا ، ميلاً مكدراً الى مقاضاة الناس بقساوة كبيرة والحكم دون استئناف . هناك اعمال كثيرة كانت تبدو لنا معيبة ، مقيتة ايضاً ، لأننا لم ننعمق تعمقاً كافياً في الاسباب . وفنسان لم ... ولكن هذا يجرني بعيداً جداً ، وعندي كثير من الاشياء أقولها لك .

« إعلم ان الـذى نكتب اليـك هـو رئيس تحـريـر مجلة « الطلبعة » الجديدة . لقـد فبلت ، بعد قلبـل من المشاورة ، القيام باعباء هذه الوظيفة التي رأى الكونت دو باسافان انني جدير بها . انه هو الوصي على المجلة ، ولكنه لا يحرص كثيراً على ان يُعرف. وسبرسم على الغلاف اسمي وحده . سنبدأ بالصدور في نشرين الأول ؛ إحرص على ان نرسل الى شيئاً للعدد الأول ؛ سأغنم جداً اذا لم يلمع اسمك بجانب اسمي في الفهرس الأول . يريد باسافان ان يظهر في العدد الاول شيء فبه الكثير من الحرية ، والتوابل ، لأنه يعتبر ان اشد لوم ممت يمكن ان يصيب مجلة فتيه هي كونها حيية ؛ وأنا من رأيه . اننا نتحدث كتبراً عن هذا . وقد طلب إليّ كتابة شيء في الموضوع وأمدني بفكرة قصة على جانب من الجرأة. وقد بعث في دلك شيئاً من القلق بسبب امي التي اخشى ان تغتم . ولكن لا يهم . وكما قال باسافان : كلما كان المرء صغيراً كانت الفضيحة أقل نشوبهاً للسمعة .

« أكتب اليك من فيزافون . وفيزافون قريه صغيرة نتوسط منحدر جبل من أكثر جبال كورسيكا ارتفاعاً ، محتبئة في غابة ملتفة . والفندق الذي نرل فيـه بعبد عن القـريه وبستعمله السياح كنقطة انطلاق للنزهات . لم يمض علينا هنا سوى أيام . وقد بدأنا بأن حللنا في فندق غير بعيد عن خليج بورتو البديع ، وهو مقفر تماماً ، حيث ننزل لنسبح في الصباح ، وحيث نستطيع ان نعبش عراة طول النهار . وكان هذا رائعاً . ولكن الحر شديد

مما اضطرنا الى بلوغ الجبل .

« باسافان رفيق شائق ؛ انه غير مفتون بلقبه ، يريد ان ادعوه روبير ؛ وابتدع ان يدعوني اولبف . قل ، ألا ترى هذا شائقاً ؟ انه يفعل كل شيء ليجعلني أنسى سنه واؤكد لك أنه توصل الى ذلك . كانت امي خائفة من ذهابي معه لأنها لا نكاد نعرفه .

وقد ترددت خوفاً من ان أسبب لها الحزن . وكنت قد اقلعت عن الذهاب قبل ورود رسالتك . لقد اقنعها فنسان ، ورسالتك شجعتني . فجأة امضينا الأيام الاخيرة قبل الرحيل ونحن نطوف بالمخازن باسافان كريم جداً بحيث أراد ان يقدم لي كل شيء ، واضطررت دون انقطاع الى ايقافه . لكنه رأى ان ثيابي الحقيرة بشعة ؛ قمصان ، أربطة عنق ، احذية ، لم يعجبه شيء مما كان عندي . وكان يردد انه اذا كان علي ان اعيش معه لبعض الوقت فسيتألم كثيراً حين لا يراني مرتدياً كما يحب . يعني : كما يرضيه . ومن الطبيعي ان نرسل جميع البضائع المشتراة الى منزله خوفاً من ان يساور القلق امي وهو نفسه ذو انافة مفرطة . لكنه صاحب ذوق ممتاز على الخصوص ، وكثير من الأشياء التي كانت تبدو محتملة اصبحت معيبة في نظري . لن تتصور كم استطاع ان يكون لاهياً عند الباعة . انه طريف جداً . وأريد اعطاءك فكرة عنه : كنا عند برنتانو حيث اعطاه

قلمه للتصليح . وكان وراءه انكليزي ضخم يريد ان يمر قبل دوره . وحين دفعه روبير بشيء من الخشونه بدأ يرطن كلاماً موجهاً اليه لا ادري ما هو . فالتفت روببر ، وقال بكل هدوء :

« ـ سيان . فأنا لا اعرف الانكليرية .

« فاجاب الآخر ، اغاضباً ، بفرنسية صافبة :

ـ كان عليك ان تعرفها يا سبد .

« حينئذ اجاب روبير بتهذيب عميق وهو يبنسم :

« ـ انت ترى جيداً انه سيان .

« فثارت ثائرة الإنكلبزي . لكنه لم بعرف ما يقول . وكان هذا لاذعاً .

« وفي يوم آخر كنا في الأولمبيا . وأثناء فنرة الاسراحة كنا نتنزه في الرواق حيث يتجول جمع غفير من البغايا وقد دنا منه اثنتان منهن يدل مظهرهما على الفاقه .

« أتدفع ثمن قدح بيرة يا عزيزى ؟

« جلسنا معهن على الطاولة :

« ـ غارسون ! هات قدح بيرة لهاتين السبدتبن

« ـ ولهذين السيدين ؟

« ـ نحن ؟ أوه ! سنأخذ شامبانيا

« هكـذا قال بـاهمال . وطلب زجـاجة « مـوبت » Moet شربناها نحن الاثنين . لـو رأيت رأس الفتاتـبن المسكبنتين !

اعتقد انه يخاف البغايا . وقد أسر الي انه لم يدخل في حياته بيتاً عمومياً وأسمعني انه سيغضب مني جداً اذا ذهبت الى هناك .
ها انت ترى انه نظيف رغم هيئته واحاديثه اللئيمة ، حين يقول مثلاً انه اذا كان في رحلة ، يسمي « يوم عابس » ذلك النهار الذي لم يلتق فيه قبل الغداء بخمسة اشخاص على الاقل ممن يرغب في مضاجعتهم وعلي ان أقول لك ، بين متعارضين ، انني لم اعد الى . . . ـ وانت تفهمني .

« ان له طريقة خاصة ومسليه في الوعظ الاخلاقي . وقد قال لي ذات يوم :

« ـ ترى ، يا صغيري ، ان المهم في الحياة ، هو الا تكون مُقاداً. الشيء يجلب شيئاً آخر ، ثم ، فأنت لا تعرف اين تسير . وهكذا . فقد عرفت شاباً معرفة جيدة ، كان يريد الزواج من ابنة طاهيتي . وذات ليله دخل صدفه الى محل جوهري ، وقتله ، وبعد ذلك سرق ، وبعد ذلك توارى . ها انت ترى الى اين يقود هذا . والمرة الأخيره التي رأيته فيها كان قد اصبح كذوباً . انتبه .

« انه كذلك في كل وقت وهذا لأقول لك انني لا أسأم ابداً . ذهبنا على امل ان نشتغل كثيراً لكننا لم نفعل شيئاً حتى الآن عدا السباحه والشمس والثرثرة ان له حول كل شيء آراء وافكاراً مفرطة في الأصالة وكثيراً ما ادفعه جهد استطاعتي ليكتب بعض النظريات الجديدة التي عرضها أمامي عن

الحيوانات البحرية العائشه في الاعماق ، وعما يدعى « الأضواء الشخصيه » التي نسج لهده الحيوانات ان تستغني عن نور الشمس ويشبهها بنور الغوب الإلهي ونور « الوحي » . والعرض هكذا ببضع كلمات كما افعل أنا لا يمكن ان يعني شيئا ، لكني اؤكد لك انه شائق كروايه حين نتحدث عن ذلك . وعادة لا احد يعرف انه ضليع جدا بالتاريخ الطبيعي ؛ ولكنه يجد بعض الدلال في اخفاء معلوماته . وهذا ما يدعوه جواهره السرية . ويقول انه ما من احد يسر بعرض زينته امام اعين الجميع الا الأثرياء الذين لا يعرف اصل ثروانهم ، خصوصاً اذا كانت هذه الزينه زائفة .

« انه يعرف كما لا احد كيف يستعمل الافكار ، والصور ، والنار ، والاشياء ؛ يعني انه يستفيد من كل شيء . ويقول : ليس فن الحياة الكبير في ان نتمتع بل الى اي در نستطيع ان تغنم .

« كتبت بعض القصائد ولكني لست مسروراً منها كفاية لأرسلها اليك

« الى اللقاء يا صديقي ، في تشرين الاول . ستجدني متغيراً ، انا ايضاً . يزداد اطمئناني كل يوم . انا سعيد لمعرفتي انك في سويسرا . ولكن ها انت ترى انه ليس لي ما احسدك عليه .

«أوليفييه»

ناول برنار هذه الرساله لأدوار فقرأها دون ان تظهر سبئا من المشاعر التى تململ فى داخله كل ما رواه اوليفيه باعجاب عن روبير أثار سخطه وانتهى بأن جعله تكرهه واغتم على الخصوص لأن اسمه لم يرد فى هذه الرساله ولأن اوليفيه بدا انه نسيه قام بمجهود على غير طائل ليحل رموز الاسطر الثلاثه التي كتبت كملاحظة ، والمختفية تحت شطبات كثيفه . وهذه هي :

« قل للخال إ انني افكر فيه دائماً ؛ وانني لا استطيع انا اسامحه لأنه تركني ، وانني احتفظ منه بجرح مميت في قلبي »

هذه الاسطر كانت الصادقة الوحيدة في هذه الرسالة المرائية ، والتي املاها كلها الحزن الغاضب . وكان اوليفيية قد شطبها .

اعاد ادوار الرسالة الشنيعة الى برنار دون ان ينبس بكلمة ، واستعادها برنار دون ان ينبس بكلمة ابضاً . قلت انهما لا ينحدثان كثيراً ؛ فهناك نوع من الضغط الغريب ، المستغلق كان يثقل عليهما حالما يصبحان وحيدين مع بعضهما البعض (لا احب هذه الكلمة « مستغلق » ولم اكبها هنا الا بسبب النقص الموقت) ولكنهما انسحبا الى غرفتهما في هذا المساء . وبينما كان يتهيآن للنوم ، سأل برنار ، بادلاً الجهد وحلقومه متقلص :

ـ هل أرتك لورا الرسالة التي تلقتها من دوفييه ؟

فقال ادوار وهو يدخل السرير :

ـ لم اشك في ان دوفييه ليأخذ الأمر كما يجب . انه كثير الطيبة . يمكن ان يكون فيه شيء من الضعف ولكنه مع ذلك كثير الطيبة . انه سيعبد هذا الولد وانا متأكد من ذلك . ومن المؤكد ان الصغير سيصبح اصلب مما لم يعرف هو نفسه ان يكونه ، وذلك لأنه لا يبدو لي قوياً تماماً .

كان برنار يحب لورا كثيراً ولذلك صدم من تصرف ادوار ، ومع هذا فلم يظهر عليه شيء من ذلك .

وقال ادوار وهو يطفىء شمعته :

ـ ! . . أنا سعيد لرؤيي هذه الحكاية تنتهي على خير وجه والتي كانت تبدو انه لا مخرج لها سوى اليأس . وقد يحدث مع اي كان ان ينطلق انطلاقة خاطئة . يتشبث بالخطأ .

قال برنار تجنباً للنقاش :

ـ بالتأكيد .

ـ يجب ان اعترف لك يا برنار بانني اخشى ان بكون لي واحدة معك .

ـ انطلاقة خاطئة ؟ . .

ـ لعمري ، نعم . فالبرغم من كل العطف الذي اشعر به نحوك خيل الي قبل بضعة ايام اننا لم نخلق لنتفاهم وانني . . . (تردد لحظات باحثاً عن كلماته) أضللك اذا طالت صحبتك لي .

كان برنار يفكر في الشيء نفسه . منذ وقت طويل لم يكلمه ادوار ، ولكن من المؤكد ان ادوار لم يستطع ان يقول شيئاً اكثر نفعاً ليمتلك برنار ثانية . ان غريزة التناقض تستولي عليه . وقد اعترض هذا :

ـ انت لم تعرفني جيداً وانا لا أعرف نفسي . انت لم تختبرني . فهل استطيع الطلب منك ان تنتظر قليلاً اذا لم يكن لك اي شكوى مني ؟ . . انا قابل باننا لا نتشابه ابداً . ولكن فكرت بوضوح ان من الافضل لكل منا ألا نتشابه كثيراً . وأعتقد انني ، اذا استطعت مساعدتك ، فهذا على الخصوص بسبب اختلافي عنك ولأنني سآتيك بشيء جديد . واذا أسأت الاستعمال فسيكون امامك وقت لتحذيري . أنا لست ممن يشتكون ولا ممن يجيبون على تهم . ولكن اسمع . اليك ما اعرضه عليك ؛ يمكن ان يكون بلاهة . . . اذا كنت فهمت جيداً فان الصغير بوريس يجب ان يدخل بنسيون فيدال ـ أزاييس . الم توضح لك سوفرنيسكا خوفها من ان يشعر بالضياع هناك ؟ لو قدمت نفسي ، مع توصية من لورا ، الا أستطيع ان آمل في ان اجد هناك عملاً ، كناظر ، كبيدق ، وما يدريني ؟ . . انا بحاجة لكسب معيشتي . ولن اطلب كبير امر مقابل ما سوف اقوم به من عمل . الطعام والمأوى يكفيانني . . . سوفرونيسكا تثق بي ، وبوريس يتفاهم جيداً معي . سأحميه ، سأساعده ، سأعمل من نفسي مربياً له ،

صديقاً . ومع ذلك فسأظل تحت تصرفك ، واشتغل معك بين وقت وآخر ، وألبي عند اقل اشارة . فل ، ما رأيك ؟

وكأنه يربد ان يعطي الامر كثيراً من الوزن فأضاف :

ـ فكرت في ذلك منذ يومين .

وهذا لم يكن صحيحاً . لو لم يختلق هذا المشروع الجميل في اللحظة نفسها لكان حدث لورا قبلاً عنه . ولكن ما كان صحيحاً ، ولم يقله ، هو انه منذ قراءته الفضولية ليوميات ادوار ومنذ لقائه للورا كان يفكر غالباً في بسيون فيدال ؛ وكان يتمنى ان يتعرف الى أرمان ، ذلك الصديق لأولبفييه ، والذي لم يحدثه اوليفيية قط عنه ؛ وبتمنى اكثر ايضاً ان يعرف ساره ، الاخت الصغرى ، ولكن فضوله ظل سراً ؛ ولم بعترف به حتى لنفسه مراعاة للورا .

لم يقل ادوار شيئاً . ومع ذلك فان المشروع الذي عرضه برنار اعجبه ان كان يؤمن له مسكناً . لم يكن يهتم بانزاله ضيفاً . وأطفأ برنار شمعته ، ثم قال :

ـ لا تظن اني لم افهم شيئاً مما روبنه عن كتابك وعن التصادم الذي تخيلته بين الواقع المشوب وال ـ . . .

فقاطعه ادوار :

ـ انا لا اتخيله . انه موجود .

ـ ولكن اليس من المستحسن ان اجلو لك بعض الاحداث ليتاح لك الكفاح ضدها ؟ سأتولى الملاحظة في سبيلك .

خيل لادوار ان الآخر ربما يسخر منه قليلاً . والصحيح انه شعر بأن برنار قد اذله . ان هذا يعبر عن افكاره جيداً .

وقال ادوار :

ـ سنفكر في ذلك .

ومر وقت طويل . حاول برنار عبثاً ان ينام . كانت رسالة اوليفيية تعذبه . واخيراً لم يعد يفكر فيها . وسمع ادوار يتململ في سريره ، فتمتم .

ـ اذا كنت لم تنم فاني أود ان اسألك ايضاً . . . ما رأيك في الكونت دو باساقان .

فقال ادوار :

ـ انت تعرفه جيداً .

ثم قال بعد لحظة :

ـ وانت ؟

فقال برنار بوحشية .

ـ انا ، سوف أقتله .

٧

المسافر ، عندما يبلغ أعلى التلة ، يجلس ، ويتطلع قبل ان يعاود طريقه الذي ها قد اصبح منحدراً . انه يبحث لبميز ابن يقوده اخيراً هذا الدرب الملتوي الذي سار فبه ، والذي يبدو له انـه يضيع في الـظل ، وفي الليل لأن المسـاء هبط . وهكذا فالكاتب الغافل يتوقف لحظة ويستعيد نفسه ، ويتساءل بقلق اين تسير به قصته .

أخشى اذا عهد ببوريس الصغير الى آل ازاييس ان يرتكب ادوار حماقة . كيف نمنعه من ذلك ؟ . . كل كائن يتصرف وفقاً لقانونه ، وقانون ادوار يحمله على الاختبار دون انقطاع . انه ذو قلب طيب ، بالتأكيد ، ولكني أفضل في الغالب ، لأجل راحة الغير ، ان اراه يعمل بدافع الفائدة ، لأن الأريحية التي تجتذبه ليست في الغالب سوى رفيقة فضول يمكن ان يصبح قاسياً . انه يعرف بنسيون أزاييس ، يعرف الهواء الموبوء الذي يتنشقونه فيه تحت الغطاء الخانق من الاخلاق والدين . وهو يعرف بوريس ، ورقته ، وركاكته . وعليه ان يحسب الى اي نكد يعرضه . ولكنه لا يرضى ابداً ان يعتبر ان الحماية ، والنجدة ، والسند يمكن ان

تجدها طهارة الولد الوقتية في تقشف أزاييس العجوز . الى ابة سفسطات يعبر اذنه ؟ ما من شك في ان الشيطان هو الذي ينفخها فيه لانها لو اتته من الغير فما كان سيصغي اليها .

لقد أثارني ادوار اكثر من مرة (حين يتحدث عن دوفييه مثلاً) ، وأثار سخطي ايضاً ؛ آمل ان لا ادعه بلاحظ ذلك ؛ ولكني استطيع الآن ان اقوله له . فطربقة سلوكه ، الكريمة جداً احياناً ، مع لورا ، بدت لي مران مغضبه .

أما ما لا يعجبني عند ادوار فهي الاسباب التي يتذرع بها . لماذا يحاول التصور الآن انه يتآمر لخير بوريس ؟ الكذب على الناس مقبول ؛ ولكن على نفسه ! هل يرعم ان السيل الذي يغرق ولداً يحمل اليه الماء ليشرب ؟ . . انا لا انكر ان ثمة في العالم اعمالاً نبيلة ، كريمه حتى وغير مغرضة ، افول فقط انه يختبىء في الغالب وراء أفضل سبب ، شيطان حاذق يعرف ان يستخرج ربحاً مما قد نحسب اننا سلبناه منه .

لنغتنم زمن الصيف هذا الذي يبعثر اشخاصنا ، ولنفحصهم على مهل . كذلك فنحن في هذه النقطة المتوسطة من حكايتنا ، حبث سيرها يبطىء وتبدو انها تأخذ دافعاً جديداً لتتابع سرعتها من المؤكد ان برنار صغير على تسلم قيادة مكيدة . انه ينطوع لرقابه بوريس ، وسيسنطيع مرافبته جيداً . وقد رأينا قبلاً برنار يتغبر ، ويمكن الاهواء ان تزيد من تبدله . وجدت على دفتر صغير عبارات سجلتُ فبها ما كنت اراه فيه سابقاً :

« كان عليّ ان احذر بادرة مثل التي اقدم عليها برنار في بدء حكايته . وقد بدا لي ، استنادا الى استعداداته كأنه استنفد كل مدخراته من الفوضى التي يمكن ان تظل مصانة لو استمر على العيش عاطلاً ، كما يجب ، في جور عائلته . ومنذ ذلك الوقت عاش في رد فعل وكأنه احتجاج على هذا السلوك . وعادة التمرد والمعارضة تدفعه الى التمرد على تمرده نفسه . وما من شك في انه ولا واحد من ابطالي خيب املي مثله ، لأنه لم يكن احد من ابطالي تقريباً يجعلني اعقد عليه الامل الذي عقدته على برنار . لعله اطلق لنفسه العنان باكراً » .

ولكن هذا لا يبدو لي الآن كثير الصحة. اعتقد أنه من اللازم أن نعطيه المزيد من الفرص. كثير من الاريحية ينعشه. أشعر أن فيه رجولة، وقوة؛ أنه يعرف أن يغضب. هو معجب بكلامه؛ ولكن هذا لأنه يحسن الكلام. أنني أحذر العواطف التي تجد تعبيرها بسرعة. أنه تلميذ جيد ، ولكن العواطف الجديدة لا تسيل بملء اختيارها في الأشكال المكتسبة. أن قليلاً من الاختلاق يضطره إلى اللجلجة. لقد قرأ كثيراً من قبل، وحفظ كثيراً، وتعلم من الكتب أكثر مما تعلمه من الحياة.

لا استطيع ان اعزي نفسي عن المغامرة العابرة التي جعلته يحتل مكان اوليفييه بجانب ادوار . ان الحوادث قد ترتبت بشكل سيء . واوليفييه هو الذي أحبه ادوار . بأية عناية أنضجه هذا ؟ . . بأي احترام محب ؟ . . ألم يفده ، ويسنده ، ويحمله

الى نفسه ؟ . . ان باسافان سيفسده ، وهذا اكيد . لا شيء عنده اكثر افساداً من هذا الاحتضان الذي لا رادع له . آمل ان يستطيع اوليفييه ، وهو يعرفه جيداً ، الدفاع عن نفسه ؛ ولكنه ذو طبيعة لدنة ، سريعة التأثر بالتمليق . ينفعل ويتأثر بسهولة . وفضلاً عن ذلك فقد اعتقدت انني فهمت من بعض لهجات رسالته الى برنار انه كان على شيء من الزهو . . . شهوة ، حزن غاضب ، زهو ، اي تأثير لهذا عليه ! . . . واخشى حين يجده ادوار ان يكون الوقت قد فات . ولكنه لا يزال فتياً ومن الحق ان نأمل .

باسافان . . . الافضل ان لا نتكلم عنه ، أليس كذلك ؟ . . ما من شيء اكثر شؤماً واكثر نيلاً للتصفيق معاً من الرجال الذين هم على شاكلته ، الا النساء الشبيهات بالليدي غريفث . في الايام الأولى ، وأعترف بذلك ، كانت هذه تفرض نفسها علي كثيراً . ولكني عرفت خطاي بسرعة . ان اشخاصاً من هذا النوع قد فصلوا في ثوب رقيق . وقد اصدرت امبركا كثيراً منهم ، ولكنها ليست وحيدة في انتاجهم . ثروة ، ذكاء ، جمال . يبدو ان عندهم كل شيء ، ما عدا الروح . ما من شك في ان فنسان سيقتنع بذلك حالاً . انهم لا يشعرون بأي ماض ، بأي الزام يثقل عليهم ، انهم بلا قوانين ، بلا أسياد ، بلا قيود ، احرار وطوعيون ، يبعثون اليأس في الروائي الذي لا يحصل منهم الا على ردود فعل لا قيمة لها .

آمل ألا ارى الليدي غريفث حتى وقت طويل . آسف لانها اختطفت منا فنسان الذي اثار اهتمامي كثيراً ولكنه يبتذل نفسه بمعاشرتها ، سيخسر بخداعها له . وهذا مؤسف .

لو حدث لي ان أختلق قصة لما اسكنت فيها الا سجايا منشطة ، حيث الحياة تشحذ ولا تضعف .. لورا ، دوفييه ، لابيروز ، أزابيس ... ما العمل مع كل هؤلاء الناس ؟ .. لم ابحث عنهم قط ، ولكني وجدتهم على طريقي وانا اسبر في أثر برنار وأوليفييه . لا حيلة لي في ذلك . فأنا ، من الآن وصاعداً ، مدين لهؤلاء جميعاً .

القسم الثالث

باريس

حين يصبح في حوزتنا ايضاً بعض الكتب الجيدة الاقليمية الجـديدة التي تعـالج مـوضوعـاً واحداً ـ حينئـذ فقط ، يجمع معطياتها ، وبمقارنـة هذه المعـطيات ، وبمقـابلة بعضها ببعض بدقة ، يستطاع استئناف القضية الجامعة وجعلها تقوم بخطوة جديدة حاسمة . والعمل بخلاف ذلـك يعني السير ، مجهـزاً بفكرتين او ثلاث فكرات بسيطة مضخمة ، في سبيل نوع من الغزوة السريعة . ويعني ذلك ، المرور في معظم الحالات ، بجانب ما هو خاص ، وفردي ، وغير منتظم ـ وبالاجمال ، يعني بجانب الاكثر مدعاة للاهتمام

لوسيان فافر

« الارض والتطور البشري »

١

عودته الى باريس لم تسبب له اي سرور

« التربية العاطفية » فلوبير

يوميات ادوار

« ٢٢ ايلول . ـ حر . ضجر . الرجوع الى باريس قبل الأوان بثمانية أيام . ان عجلتي الشديدة تجعلني دائمًا أسبق النداء . فضول أكثر منه حمية ؛ رغبة في السبق . لم اعرف قط ان اتكيف مع عطشي

« أخذ بوريس الى جده . سوفرونبسكا التي حملت اليه النبأ البارحة اخبرتني ان مدام لابيروز دخلت احد الملاجىء . أوف ! . .

« تركت الصغير على الدرج بعدما قرعت الجرس ، معتبراً

ان من الاليف الا أحضر اللقاء الأول . كنت اخشى شكر العجوز . سألت الصغير بعد دلك ولكن لم يمكني الحصول على شيء منه . قالت لى سوفرونيسكا ، التي رأيتها تانية ، ان الولد لم يحدثها كثيراً . وحين ذهبت بعد ساعه لنعود به ، كما جرى الاتفاق ، فتحت خادمة الباب لها . رأت سوفرونيسكا ان العجوز جالس امام لعبة داماً ، والولد في احدى الزوايا ، في طرف الغرفه ، وكان حرداً .

« وقال لابيروز مصدوماً :

« ـ عجيب . كان يبدو انه يلهو ، ولكنه انقطع فجأة . اخشى ان يفقد شيئاً من الصبر . . .

« كان من الخطأ تركهما وحيدين لمدة طويلة

« ٢٧ ايلول . ـ لقاء مع مولينييه تحت الاوديون هذا الصباح . بولين وجورج لن يعودا الا بعد غد . وحيد في باريس منذ البارحة ، اذا كان مولينييه ضجراً مثلي فليس مما يدهش ان يسر برؤيتي . جلسنا في اللوكسمبور في انتظار وقت الفطور الذي اتفقنا ان نتناوله معاً .

« مولينييه يتصنع معي نبرة مرحة ، بطرة احياناً ، يعتقد دون شك انها تسر فناناً . شيء من الاهتمام لي يبدو انه لا يزال فتياً .

« وقد صرح لي :

« ـ في داخلي ، انا رجل شغوف .

« ادركت انه اراد ان يقول : شهواني . ابتسمت كما يبتسم عند سماع امرأة تصرح ان ساقيها جميلتان ؛ ابتسامة تعني : « ثق انني ما شككت في ذلك قط » . لم أر منه حتى اليوم سوى القاضي . وها ان الانسان فيه يبعد جبة القاضي .

« انتظرت ان نجلس الى المائدة عند فوايو لأحدثه عن اوليفييه ، وقلت له اني عرفت أخباره حديثاً من احد اصدقائه وعلمت انه سافر الى كورسيكا مع الكونت دو باسافان .

« ـ نعم انه صديق لفنسان . عرض عليه ان يأخذه معه . وبما ان اوليفييه نال البكالوريا بنجاح فقد اعتقدت امه ان من الواجب الا ترفض له هذه المتعة . . . انه رجل من اهل القلم ، هذا الكونت دو باسافان يجب ان تعرفه .

« لم أخف عنه انني ما أحببت كتبه ولا شخصه . فقال :

« ـ بين الزملاء ، يكون الحكم احياناً شديد القسوة . حاولت قراءة روايته الاخيرة التي جعل منها بعض النقاد قضية كبرى . لم أر فيها كبير امر ؛ ولكن انت تعلم انني لست من اهل الموضوع . . . »

« وبما انني اوضحت مخاوفي حول التأثير الذي يمكن ان يفرضه باسافان على اوليفييه ، اضاف بانصياع :

« ـ حقيقة القول انني شخصياً لم أستصوب هذه الرحلة .

ولكن يجب ان يدخل في الحساب ان الاولاد يتفلتون منا ابتداء من سن معينة ان هذا من طبيعة الامور ولا يمكن منعه . كانت بولين تريد ان تظل حادبة عليهم . انها ككل الامهات . وكنت اقول لها احياناً : « ولكنك تزعجبنهم ، دعيهم بسلام . اسئلتك هذه هي التي توحي اليهم الافكار العاطله . » اعتقد ان مراقبتهم لا تفيد شيئاً . المهم ان تلقنهم التربية الأولى بعض المبادىء الصالحة . والمهم على الخصوص ان يكون عندهم من يلقنهم اياها . نرى يا عزيزي ان الوراثة تنتصر على كل شيء . هناك بعض الأشرار لا شيء يمكن ان يصلحهم ؛ كتب عليهم ذلك . من الضروري ان نبقي هؤلاء محصورين . اما اذا كانت القضية تتعلق بطبائع صالحة فبالامكان ترك المقود قليلاً .

« فقلت :

« ـ مع ذلك قلت لي ان هذا الاختطاف لأوليفييه لم ينل رضاك .

« فقال وأنفه في صحنه :

« ـ اوه ! . . رضاي . . . رضاي ، انهم يتخطون رضاي أحياناً . يجب ان ندخل في الحساب ان الزوج في العائلات ، وأتكلم عن الاكثرها اتحاداً ، ليس دائماً هو الذي يقرر . انت لست متزوجاً ، وهذا لا يهمك .

« فقلت ضاحكاً :

« ـ عفواً ، انا روائي

« ـ اذا فلا شك انك لاحظت ان الرجل الذي يسلم قيادة الى زوجته لا يفعل ذلك دائمًا بسبب ضعف شخصيته .

« فوافقت بنوع من الزهو :

« ـ فعلاً ، هناك رجال من ذوي الصلابة والتسلط ايضاً ، نكتشف انهم في البت طيعون كالحملان .

« فأجاب :

« ـ أتعرف الى ماذا يعود هذا ؟ . . في تسع مرات من عشر حين يخضع الزوج لامرأته يكون عنده ما يسعى لتسامحه على فعله . المرأة الفاضلة يا عزيزي تستفيد من كل شيء . وما ان يحي الرجل ظهره لحظة حى تثب على كتفيه . آه ! يا صديقي . الأزواج المساكين يستحقون الشفقة احياناً . حين كنا شباباً كنا نتمنى نساء عفيفات دون ان نعلم ما سوف تكلفنا فضيلتهن .

« المرفقان على الطاولة ، والذقن في اليدين ، كنت اتأمل مولينييه . لم يكن الرجل المسكين يشك كم كانت الوضعية المعوجة التي يشكو منها تظهر طبيعة على ظهره . كان يمسح جبهته كثيراً ، ويأكل كثيراً ليس كخبير بالاطعمة بل بالاكثر كنهم . وبدا انه يقدر على الخصوص النبيذ البورغوني المعتق الذي طلبناه . وكان سعيداً لوجود من يصغي اليه ، ويفهمه . وفكر دون شك انه نال الاستحسان ، ففاض بالاعترافات :

« ـ صفتي قاضياً ، عرفت منهن من لا يرضين بازواجهن الا مرغمات ، كاذبات . . . ومع ذلك يشتد غيظهن حين يذهب البائس المنبوذ باحثاً في الخارج عن خليط من العلف .

« بدأ الحاكم عبارته في الماضي ، واكملها الزوج في الحاضر ، في إحياء شخصي لا يمكن إنكاره . وأضاف بشيء من الحكمة ، بين لقمتين :

« ـ ان شهيات الآخرين سرعان ما تبدو لنا مفرطة حين لا نشاركهم اياها .

« وشرب جرعة كبيرة من الخمر وتابع :

« ـ وهذا يوضح لك يا صديقي العزيز كيف يفقد الزوج ادارة بيته .

« بالنتيجة سمعت واكتشفت ، من خلال التفكك الظاهر في حديثه ، رغبته في ان يحمل فضيلة زوجته مسؤولية إخفاقاته . وقلت لنفسي ان كائنات مفككة كهذه الدمية بالكاد تكفيهم كل انانيتهم ليبقوا العناصر المقطعة الاوصال من صورتهم مرتبطة بعضها ببعض . قليل من نسيان انفسهم ويتبددون قطعاً . وكان قد سكت . شعرت بالحاجة لسكب شيء من التفكير ، كما يسكب الزيت على آلة انتهت من اجتياز مرحلة لدعوتها الى مواصلة السير . وقلت مجازفاً :

« ـ من حسن الحظ ان بولين ذكية .

« فأخرج كلمة « نعم » ومطها حتى اصبحت مدعاة للريبة ، ثم قال :

« ـ ولكن مع ذلك هناك أشياء لا تفهمها . مهما كانت المرأة ذكية ، فأنت تعرف . . . بالاجمال ، اعترف انني لم اكن حاذقاً في ذلك الظرف بدأت احدتها عن مغامرة صغيرة ، بينما كنت اظن ، وانا نفسي كنت مقتنعاً ، ان الحكاية تقف عند هذا الحد . كانت الحكاية أبعد من ذلك ، وكذلك شكوك بولين . كنت مخطئاً باثارة ظنها وفضولها ، وقد اضطررت الى الكتمان ، الى الكذب . . . هذا هو ما يعني ان يكون للمرء لسان طويل جداً . ماذا تريد ؟ انني ذو طبيعة واثقة . . . ولكن بولين ذات غيرة مخيفة ولن تتصور كم اضطررت الى استعمال الحيلة .

« فسألته :

« ـ هل مر على ذلك وقت طويل ؟

« ـ اوه ! كان هذا قبل خمس سنوات تقريباً وأعتبر انني طمأنتها تماماً . ولكن كل شيء يعود الى البدء من جديد . . . تصور انني قبل البارحة ، وانا عائد الى منزلي . . . لو طلبنا كأساً ثانية من البومار ، ما رأيك ؟

« ـ ليس لي . أرجوك .

« ـ يمكن ان يكون عندهم أنصاف زجاجات . بعد ذلك سأذهب الى البيت لأنام قليلاً الحر يضايقني . . قلت لك

انني قبل البارحة ، وانا عائد الى منزلي ، فتحت خزانتي لأنظم اوراقي فيها . جئت بالدرج حيث خبأت رسائل . . . الشخص المذكور . تصور دهشتي يا عزيزي . كان الدرج فارغاً . اوه ! لم اتصور الا القليل مما سوف يحدث : قبل خمسة عشر يوماً ذهبت بولين مع جورج الى باريس بسبب زواج ابنة احد زملائي حيث لم يكن بامكاني الحضور . انت تعلم انني كنت في هولندا . . . ثم ، ان هذه الاحتفالات هي من شؤون النساء . كانت دون عمل في تلك الشقة الفارغة ، وبحجة ترتيب البيت ، وانت تعرف النساء ، فضوليات دائماً . . . بدأت تبحث . . . اوه ! دون ان تتوجس شراً . انا لا أتهمها . ولكن بولين ترى في الترتيب حاجة مقدسة . . . حينئذ ، ماذا تريد ان اقول لها الآن والبراهين في يدها ؟ . . . ويا ليت الصغيرة لم تدعوني باسمي ! . . عائلة في مثل هذا الوئام ! حين أتصور ما سألاقي . . .

« كان الرجل المسكين ينعثر في نجواه صدم جبهته ، وتروح . لقد شربت اقل منه بكثير . ان القلب لا يأتيك بالرأفة عند الطلب . لم اشعر نحوه بسوى الاشمئزاز . قبلت به اباً لعائلة (وايضاً كان صعباً علي ان اقول لنفسي انه كان اباً لأوليفييه) ، وبورجوازياً حسن التصرف ، وفاضلاً ، ومتقاعداً ، أما عاشقاً فاني لم اتخيله الا مضحكاً . كنت متضايقاً بوجه خاص من غباء حديثه ، وإيمائه ، والعواطف التي كان يوضحها

لي ، فلا وجهه ولا صوته ظهرا لي انهما خلقا ليعبرا عنها فكأنه « كونترباس » يجرب بعض انعام « الألتو » ؛ ان آلته لا تحصل الا على نشاز .

« ـ قلت لي ان جورج كان معها

« ـ نعم ، لم نشأ ان تتركه وحده . ولكن من الطبيعى انه لن يكون برفقتها دائمًا في باريس . لو قلت لك يا عزيزي انه لم يحدث بيني وبينها اقل حادث منذ ست وعشرين سنة ، ولا اقل مشاجرة . . . ولكن حين افكر في تلك التي تُهيأ . . . لأن بولين ستعود بعد يومين . آه ! . . اليك ، لنتحدث بشيء آخر . حسناً . ما قولك بفنسان ؟ امير موناكو ، سياحة في البحر . . . يا للعجب ! . . كيف لم تعرف ؟ . . . نعم ، ها هو قد ذهب ليراقب عمليات سبر الاعماق وصيد السمك بالقرب من آسور . آه ! هذا ، ليس لي ان أقلق من ناحينه ، أؤكد لك ! سيصنع طريقه جيداً بمفرده .

« ـ وصحته ؟ .

« ـ شفي تماماً . اعنقد انه بذكائه يشق طريقه الى المجد لم يخف الكونت دو باسافان عني انه يعتبره واحداً من اعظم النوابغ الذين التقاهم . وقال ايضاً : الاكثر نبوغاً . . . ولكن يجب ان نحسب نصيب المبالغة . . .

« وانتهى الطعام ، فأشعل سيكاراً ، وقال :

« ـ أأستطيع ان اسألك من هـو ذلك الصـديق لأوليفييه الذي زودك بأخباره ؟ سأقول لك اني اعلق اهمية كبرى خاصة على من يعاشر اولادي ، معتبراً انهم مهما احتاطـوا لانفسهم سيظلون مقصرين . ومن حسن الحظ ان اولادي عندهم ميل طبيعي لتوثيق الصلة بالافضل . انظر ، فنسان ؛ اوليفييه مع الكونت دو باسافان . . . جورج ، نفسه ، وجد في « هولغات » رفيقاً صغيراً من رفاق مدرسته ، فتى من عائلة أدامنتي سيدخل معه الى بنسيون فيدال ـ أزاييس ، وهو غلام ممتاز . والده عضو في مجلس شيوخ كورسيكا . ولكن انظر كيف يجب الحذر : كان لأوليفييـه صديق يبـدو انه من احسن عـائلة ، يدعى بـرنـار بروفيتانديو . يجب القول ان بروفيتانديو الأب هو زميل لي . ومن افضـل الرجـال المـطارطـين، وأكن له اعتبـاراً خاصـاً . ولكن . . . (ليبق هذا بيننا) ها قد علمت انه ليس اباً للولد الذي يحمل اسمه ! ما قولك ؟

« فقلت :

« ـ ان بـرنار بـروفيتانـديو هـو نفسه الـذي حدثني عن اوليفييه .

« فسحب مـولينييه سحبـات كبيرة من سيكـاره ، ورفـع حاجبيه عالياً ، بحبث تغطت جبهته بالغضون :

« ـ أفضل الا يكثر اوليفييه من معاشرة هذا العلام . . . لدي معلومات رديئة عنه ؛ ومع ذلك فانها لم تثر دهشتي . لنفل

انه لا يمكن انتظار شيء حسن من غلام ولد في هده الشروط المحزنة . انه ليس سوى ابن حرام ولا يمكن ان يحوي صفات كبيرة ، ولا فضائل ولكن ثمرة الفجور والجموح تحمل بالضرورة بذور الفوضى فيه .

نعم يا عزيزي   ما يجب ان يحصل قد حصل . برنار الصغير ترك البيت العائلي فجأة الى حيث لن يعود اليه ابداً . لقد ذهب « يعيش حياته » كما قال اميل أوجيه ؛ لا احد يعرف كيف يعيش ، ولا اين يعيش . وبروفيتانديو المسكين الذي اخبرني بنفسه عن هذا الحادث الغريب ، كان أول الامر يظهر عطفاً متناهياً عليه . جعلته يدرك ان من الواجب الا يعير الامر كل هذه العناية . وفضلاً عن ذلك ، فان رحيل هدا الغلام اعاد الامور الى نصابها .

« واعترضت بقولي انني عرفت برنار معرفة كافية واستطيع ان اكفل لطفه واستقامته (وغني عن القول انني لم اتكلم عن قصة الحفيبة) . ولكن مولينييه قفز على الأثر :

« ـ هيا ! ارى ان من اللازم ان اسرد لك اكثر من ذلك .

« ثم انحنى الى الامام ، وقال بصوت خافت :

« ـ لقد كلف زميلي بروفيتانديو جلاء قضية ذات وعورة متناهية ، وتحمل على الضيق في ذاتها وفي الضجة والذيول المترتبة عليها . انها قصة بعيدة عن المعقول ، يحب المرء ان لا

يصدقها . .. الأمر يا عزيزي يعلق بمشروع بغاء ب ـ . . كلا ، لا استطيع استعمال كلمات قذرة . لنفرض وجود بيت لتناول الشاي يمثل بيناً للفضائح ، وان رواد صالوناته هم في معظمهم ، او فقط تقريباً ، من الطلاب الذين لا يزالون صغاراً . قلت لك ان هذا لا يصدق . ومن المؤكد ان هؤلاء الاولاد لا يقدرون اهمية اعمالهم ، لأنهم ما يكادون يحاولون التستر . ويحدث هذا عند الخروج من الصفوف . يشربون ، ويتحدثون ، ويتلهون مع هؤلاء النسوة ، ثم تتابع الالعاب في غرف ملاصقة للصالونات . ومن الطبيعي الا يدخل الى هناك من يريد . يجب ان يكون هناك من يقدمه ، او ان يكون عالماً بالسر . . . من الذي يدفع نفقات هذه الدعارات ؟ . من يدفع اجره الشقة ؟ هذا ما بدا انه غير صعب الاكتشاف . ولكن لا يمكن التقدم في التحرى الا بحيطة بالغة خوفاً من معرفه الكثير ، ومن التوغل ، ومن ان يرغم على تشويه سمعة عائلات محترمة حيث يظن أن أبناءها بين الزبائن الرئيسين . بذلت جهدي لأخفف من حماسة بروفيناندبو الذي كان مندفعاً كالثور في هذه القضية ، دون ان يشك انه عند أول نطحة من قرنه (آه ! .. عفواً ؛ فلم أقلها عمداً . آه ! آه ! آه ! .. هذا عجيب ، هذا فاتني) ... كان يخشى ان يصطاد ابنه ، ومن حسن الحظ ان العطلة المدرسية الكبرى بعثرت جميع الناس ؛ والطلاب تفرقوا ، وآمل ان تذهب كل هذه القضية مع ماء المعى ، وان تخنق بعد شيء من التحذيرات والعقوبات دون ان

تثير الشكوك .

« ـ أنت متأكد ان برنار بروفينانديو قد غطس هناك ؟

« ـ لست متأكداً ، ولكن . . .

« ـ ما الذي يحملك على الظن ؟

« ـ اولاً لأنه ابن حرام ، وانت توافقني ان غلاماً من سنه لا يهرب من منزله دون ان يكرع كل ما هناك من خزي . . ثم اني اعتقد تماماً ان بروفيتانديو ساورته بعض الشكوك لأن حميته قد خفت فجأة ؛ ماذا اقول ؟ لقد بدا انه يسوق آلته الى الوراء . والمرة الأخيرة التي سألته فيها اين أصبحت هذه القضية أظهر شيئاً من الضيق وقال لي : « اعتقد ان هذا لن ينتهي بشيء » . ثم غير الحديث فجأة . مسكين بروفيتانديو ! انت تعرف انه لا يستحق ما حدث له . انه فاضل ، وشجاع ايضاً ، وهذا ما هو اندر ما يكون آه ، مثلاً ، ابنته تزوجت زواجاً موفقاً . لم اسطع حضور هذا الزواج لأنني كنت فى هولندا ، ولكن بولين وجورج عادا لأجل ذلك . قلت لك ذلك قبلاً . جاء موعد نومي . ماذا ، أحفيفة تريد أن تدفع الحساب كله ؟ أترك اذاً ! بين الشباب والرفاق ، تقسم النفقات . . . أما من وسيلة ؟ هيا ، وداعاً . . لا تنس ان بولين تعود بعد يومين . تعال لزيارتنا ثم لا تدعوني مولينييه ، قل : اوسكار ، ببساطة ! كنت اريد ان اطلب منك ذلك منذ زمن . »

« هذا المساء ، رسالة من راشيل شفيقة لورا :

« عندي أشياء خطيرة اود قولها لك . اتستطيع ، دون ان يكون في ذلك ما يزعجك ، ان تمر على البنسيون غداً بعد الظهر ؟ انك بذلك تسديني خدمة كبيرة » .

« لو كان هذا لتحدثني عن لورا لما كانت انتظرت الى الآن . انها المرة الأولى التي تكتب فيها الى » .

- ٢ -

يوميات ادوار

(تابع)

« ٢٨ ايلول . - وجدت راشيل على عتبة قاعة الدرس الكبرى ، في الطبقة الارضية من البنسيون . كان هناك خادمان ينظفان الارض ، وهي نفسها تضع مريلة خادمة ، وفي يدها ممسحة . قالت لي وهي تمد يدها ، بكآبة رقيقة ، مستسلمة ، مبتسمة رغم كل شيء ابتسامة اكثر تأثيراً من الجمال :

« - كنت اعرف اني اسطيع الاعتماد عليك . اذا كنت غير

متعجل فمن الأفضل ان تصعد اولاً لتقوم بزيارة قصيرة لجدي ، ثم لأمي . لو عرفا انك اتيت ولم ترهما لاغتما كثيراً . ولكن اقتصد شيئاً من الوقت فضروري ان اتحدث اليك . ستعود الى هنا ؛ ارأيت كيف اني اراقب الشغل ؟

« لم نقل : اني اشتغل ، ودلك بدافع الحياء كانت راشيل منزوية طوال حياتها وليس هناك شيء اكثر رصانة واكثر احتشاماً من فضيلتها . كان انكار الذات طبيعياً لديها حتى ان احداً من أهلها لم يكن يعرف كثيراً عن تضحيتها المستمرة . انها اجمل نفس عرفتها في امرأة

« صعود الى الطبقة الثانية عند أزابيس . العجوز لا يفارق كنبته ابداً . اجلسني بجانبه وبدأ حالاً يحدثني عن لابيروز .

« ـ منذ عرفت انه وحيد وأنا قلق عليه . كنت اريد اقناعه لبأتي ويسكن البنسيون . انت تعلم اننا اصدقاء قدماء . وقد رأيته في المرة الأخيرة ، واخشى ان يكون رحيل زوجته العزيزة الى سان بيرين قد زاد من حزنه . قالت لي خادمته انه بالكاد يتناول غداءه . أنا اعتبر اننا عادة نأكل بافراط . ولكن يجب وضع مقياس في كل شيء ومن الممكن ان يفرط المرء في الناحيتين وهو يرى ان لا فائدة من طهي طعام له بمفرده . ولكن بتناوله الطعام معنا ، ورؤيته الآخرين بأكلون فسيقوده هذا الى الاكل . سوف يكون هنا بقرب حفيده وبغير ذلك لن

تتاح له فرصة رؤينه ، لأن المجيء من شارع فافان الى فوبور سانت اوندريه يعتبر رحلة . وفضلاً عن ذلك فانني لا احب ان ادع الولد يخرج بمفرده الى باريس عرفت اناطول لابيرور منذ زمن بعيد . كان دائماً غريب الأطوار . وليس هذا مجرد لوم ؛ ولكنه دو طببعه فيها شيء من الكبرياء ، ومن الممكن الا يقبل الضيافة التي اقدمها له دون ان يدفع شيئاً . فكرت ان في امكاني ان اعرض عليه القيام بمراقبة صفوف الدرس ، وهذا لن يتعبه ابداً . وفضلاً عن ذلك سيجد ما يلهو به ، ويخرج قليلاً من نفسه . وهو رياضي ممتاز ويستطيع عند الحاجة اعطاء مراجعات في الهندسة او الجبر . والآن حيث لا تلامذة لديه ، فان اثاث بيته والبيانو لا تفيده شيء . يجب ان يعطيها اجارة . وبما ان مجيئه الى هنا يوفر عليه الايجار ، فقد فكرت ان في وسعنا ن نحدد له اجرة صغيره للبنسيون بحيث لا يشعر بفضلي عليه عليك ان تحاول اقناعه ، وذلك دون تأخير لاني اخشى ان يهزل بسرعه من جراء نظام التغذية السيء . وفضلاً عن ذلك فان افتتاح البنسيون للطلاب سيكون بعد يومين ، ومن المفيد ان نعرف على ماذا عقد النية وفيما اذا كان من الممكن الاعتماد عليه . . . كما يستطيع هو الاعتماد علينا .

« وعدت بالذهاب للتحدث مع لابيروز منذ الغد . وعلى اثر ذلك قال ، كأنه فرج عن نفسه :

« ـ إيه ! يا له من غلام شجاع ، محميك برنار لقد تقدم

بلطف ليقوم هنا بخدمات صغيرة . كان يتحدث عن مراقبة الدرس ؛ ولكني اخشى ان يكون هو نفسه صغيراً فلا يعرف كيف يفرض احترامه تحدثت اليه طويلاً ووجدته خفيف الروح . ان افضل المسيحيين يصعـون من سجايـا هذا المزاح . من المؤسف حقاً ان قيادة هذه النفس قد زيفت بتربيته الأولى . لقد اعترف لي انه بدون ايمان . ولكنه قال بلهجه بعنت في الامل . اجبته انني آمل ان اجد فيه جميع الصفات اللازمه لتكوين جندي صغير شجاع للمسيح ، وان عليه ان يهتم بالتفكير في ان يكون على مستوى المواهب التي اودعها الله فيه . قرأنا معاً بعض امثال الانجيل وأعتقد ان البذار الصالح لم يسقط في ارض رديئه . لقد بدا متأثراً بكلامي ووعدني التفكير فيه .

« كان برنار قد حدثني قبلا عن هذه المقابلة مع العجوز . وكنت اعرف بماذا يفكر ، وهكذا فان المحادثة بدت متعبة لي نهضت للذهاب ، ولكنه قال ، وهو يحتفظ بين يديه باليد التي مددتها اليه .

« - إيه ! قل لي ، لقد رأيت لورتنا ! كنت اعلم ان هذه الابنة العزيزة امضت شهراً كاملاً معـك في الجبل الجميـل ؛ ويبدو انه افادها كثيراً . انا سعيد لمعرفتي انها عادت الى زوجها الذي بدأ يتألم لغيابها الطويل . مؤسف ان عمله لم يسمح له باللحاق بكم الى هناك .

« انسحبت لأذهب ، وضيقي يزداد اكثر فاكثر لانني اجهل

ما قالته له لورا . لكنه جذبني نحوه بحركة عنيفة متسلطة ، وانحنى الى الامام نحو اذني :

« ـ اسرت الي لورا انها كانت تعقد آمالاً ؛ ولكن ، هس ! . . . هي تفضل الا يعرف ذلك احد . اقوله لك لعلمي انك عارف ، ولأننا رصينان نحن الاثنان . كانت الصغيرة كثيرة الاضطراب وهي تحدثني ، ووجهها مكسو بالحمرة ؛ انها كثيرة التحفظ . وبما انها ركعت امامي فقد صلينا لله نحن الاثنان لأنه اراد ان يبارك هذا الاتحاد .

« يبدو لي ان لورا احسنت عملاً بارجائها هذا الاعتراف الذي لا تشجع حالتها على القيام به . لو شاورتني لنصحتها بالتريث لترى دوفيبيه قبل ان تقول شيئاً ؛ اما أزاييس فلم يكن يرى شيئاً ، ولكن افراد عائلته كلهم لن يكونوا بلهاء مثله .

« عزف العجوز أيضاً الحاناً حول بعض المواضيع الرعوية ثم قال لي ان ابنته تكون سعيدة برؤيتي . وهكذا هبطت الى طبقة آل فيدال .

« أعدت قراءة ما ذكر اعلاه . وحديثي بهذا الشكل عن أزاييس يجعلني انا نفسي بغيضاً . افهمه جيداً هكذا ؛ واضيف هذه السطور القليلة ليستعملها برنار ، اذا ما دفعه طيشه البديع لادخال انفه من جديد في هذا الدفتر . وباستمراره في معاشرة العجوز سيفهم ما اريد قوله . اني احب العجوز كثيراً و « فضلاً عن ذلك » كما يقول ، احترمه ؛ ولكن ما أكاد اصبح بالقرب

منه حتى لا أعود استطيع الشعور بنفسي ! وهذا ما يجعل اجتماعي به شاقاً .

« أحب ابنته كثيراً ، القسيسة . مدام فيدال تشبه إلفير Elvire لامارتين ؛ إلفير هرمة . حديثها لا يخلو من روعة . يحدث لها في الغالب الا تتم عباراتها ، الأمر الذي يعطي تفكيرها نوعاً من الرشاقة الشعرية . انها تضع اللامنتهي مع الغامض والناقص . تنتظر من الحياة المستقبلة ما ينقصها هنا . وهذا يتيح لها ان توسع آمالها الى ما لا حد له . انها تندفع على ضيق ارضها . ورؤيتها القليلة جداً لفيدال جعلتها تتصور انها تحبه . فالرجل الجليل على اهبة الاقلاع دائماً ، فهو مطلوب لألف عنايه ، لألف هم ، مواعظ ، مؤتمرات ، زيارات للفقراء والمرضى . لا يشد على يدك الا عند مروره ، ولكن بكثير من الصداقة .

« ـ مستعجل جداً لا استطيع التحدث اليوم .

« فقلت له :

« ـ سيتم اللقاء في السماء

ولكن لم يكن لديه وقت ليسمعني .

« وتأوهت مدام فيدال :

« ـ ليس له لحظة من وقته . لو كنت تعرف كل ما يتطوع لعمله منذ ما . . . وبما أنه معروف انه لا يرفض شيئاً فالناس

كلهم . . . حين يعود مساء يكون متعباً جداً في أكثر الأحيان بحيث لا أكاد اجرؤ على ان اكلمه خوفاً ان . . . انه يعطي الآخرين كل شيء ولا يبقى لأهل بيته شيء .

« بينما كانت تحدثني تذكرت بعض عودات لفيدال يوم كنت اسكن البنسيون . رأينه يأخذ رأسه بين يديه ويصيح بعد مهلة قصيرة . حينئذ فكرت انه يخشى هذه المهلة اكثر مما يتمناها ، وان ما من شيء يمكن ان يعطى له يكون اكثر مدعاة للتعب من وقت قليل للتفكير .

« وسألتني مدام فيدال حين ظهرت خادمة تحمل صينية ملأى :

« ـ أتشرب قدح شاي ؟

« ـ سيدتي ، لا يوجد من السكر ما يكفي .

« ـ قلت لك قبلاً ان عليك طلب ذلك من الآنسة راشيل . اذهبي بسرعة . . . هل اخبرت اولئك السادة ؟

« ـ السيد برنار والسيد بوريس خرجا .

« ـ لا بأس ! والسيد ارمان ؟ اسرعي .

« ثم ، دون ان تنتظر خروج الخادمة :

« ـ هذه الفتاة المسكينة اتت من ستراسبور . ليس لها أي . . . نضطر ان نقول لها كل شيء . . . هيه ! . . ماذا تنتظرين ؟ . .

« فالتفتت الخادمة كأفعى ديس على ذيلها ·

« ـ المعيد موجود تحت ، ويريد الصعود . يقول انه لن يذهب قبل ان يدفع له .

« واوضحت قسمات مدام فيدال قلقاً مفجعاً .

« ـ كم مرة يجب ان اكرر انني لست المكلفة تسديد الحسابات . قولي له ان يتوجه الى الآنسة . اذهبي ! . . ما من ساعة راحة ! . . . في الحقيقة لا اعرف بماذا تفكر راشيل .

« ـ الا ننتظرها لتناول الشاي ؟ . .

« ـ هي لا تشربه ابداً . . . آه ! . . . افتتاح المدرسة يسبب لنا الكثير من الهم . الاساتذة المعبدون الذين يعرضون انفسهم يطلبون اجوراً تفوق الحد ؛ او حين تكون اجورهم مقبولة ، فانهم ، هم انفسهم ، لا يكونون مقبولين . كان ابي يشكو من الأخير . لقد كان أبي ضعيفاً معه . والآن هو الـذي يهدد . سمعت ما قالته الصغيرة . كل هؤلاء الناس لا يفكرون الا في المال . . . كأن لا شيء اهم منه في الدنيا . لا نعرف كيف نستبدلهم . يعتقد بروسبر دائماً انه ليس لنا الا ان نتوسل الى الله ليسير كل شيء على ما يرام .

« ودخلت الخادمة بالسكر .

« ـ هل اخبرت السيد أرمان ؟

« ـ نعم يا سيدتي . سيأتي حالاً .

« ـ وساره ؟ .

« هكذا سألتها أنا .

« ـ لن تعود الا بعد يومين . انها عند بعض الأصدقاء في انكلترا ؛ عند أهل تلك الفتاة التي رأيتها عندنا . كانوا لطفاء جداً . وأنا سعيدة لأن ساره تستطيع قليلاً ان . . . انها مثل لورا . وجدتها في احسن هيئة . هذه الاقامة في سويسرا ، بعد الجنوب ، أفادتها كثيراً وكنت كثير اللطف لحملها على هذا العزم . ليس هناك سوى هذا المسكين أرمان الذي لم يترك باريس في كل عطلاته المدرسية .

« ـ وراشيل ؟

« ـ نعم . صحيح . هي ايضاً . لقد استدعيت من جهات مختلفة ولكنها فضلت البقاء في باريس . ثم ان جدي في حاجة اليها . ومع ذلك فان الانسان في هذه الحياة لا يفعل ما يريد . هذا ما كنت اضطر ان اقوله للاولاد بين وقت وآخر . يجب أيضاً ان نفكر في الآخرين . هل تعتقد انني ، أنا أيضاً ، لم يكن يروح عني الذهاب للنزهة في « ساس ـ فيه » ؟ وبروسبير نفسه ، حين يسافر ، أتعتقد انه يفعل ذلك لمجرد سروره ؟ ارمان ، تعرف جيداً انني لا احب ان نأتي الى هنا دون طوق عنق .

« أضافت ذلك حين رأت ولدها يدخل

« وقال هذا ماداً إلي يده :

« ـ با امي العزيزة لقد علمتني دينياً ألا أعلق اي اهمية على لبسي ، وبالمناسبة فان الغاسلة لا تعود الا يوم الثلثاء والأطواق الباقية لي ممزقة .

« تذكرت ما قاله لي اوليفييه عن صديقه ، وبدا لي فعلاً ان اثراً من الهم العميق يختبىء وراء تهكمه الشرير . كان وجه ارمان نظيفاً ، وانفه منقبضاً يعوجه على شفتيه الرقيقتين المخطوفتي اللون . وتابع :

« ـ هل اخبرت السيد ، زائرك النبيل ، اننا ضمنا فريقنا العادي الملتزم ، لأجل افتتاح فصلنا الشتائي ، بعض النجوم ذوي التأثير : ابن عضو مجلس شيوخ ، والفيكونت الصغير دو باسافان شقيق مؤلف شهير؟ فضلاً عن اثنين آخرين تعرفانهما قبلاً ، ولكنهما لن يكونا في هذا الا اكثر شرفاً : الأمير بوريس والمركي دو بروفيتانديو ؛ ثم هناك آخرون لا تزال القابهم وفضائلهم قيد الاكتشاف .

« فقالت الام ضاحكة لمزاحه :

« ـ انت ترى انه لم يتغير .

« كنت كثير الخوف من ان يبدأ الحديث عن لورا ، فاوجزت زيارتي وهبطت بسرعة للاجتماع براشيل .

« كانت رافعة كمي قميصها لتساعد في ترتيب غرفة

الدرس ؛ لكنها اسقطتهما بسرعة حين رأتني أقترب .

« ـ كان من أشق الامور عليّ ان ألجأ اليك . ـ قالت ذلك وهي تسير بي الى غرفة صغيرة مجاورة ، تستعمل للدروس الخاصة . ـ كنت اريد ان الجأ الى دوفييه الذي كان قد رجاني لذلك . ولكن منذ ان رأيت لورا ثانية ادركت انني لا استطيع ان الجأ اليه . . .

« كانت كثيرة الشحوب ، وحين قالت الكلمات الاخيرة تحركت ذقنها وشفتاها باضطراب تشنجي منعها من التكلم بعض الوقت . وقد أشحت بنظري عنها خوفاً من مضايقتها . استندت الى الباب الذي اغلقته . وأردت ان آخذ يدها لكنها انتزعتها من بين يدي . وتابعت أخيراً كأن صوتها انقبض بتأثير الجهد :

« ـ أتستطيع ان تقرضني عشرة آلاف فرنك ؟ افتتاح المدرسة يبشر بخير ، وآمل ان استطيع اعادتها لك بعد الافتتاح .

« ـ متى تحتاجينها ؟

« فلم تجب . وقلت :

« ـ معي الآن ما يزيد قليلاً عن الالف فرنك . سأكمل المبلغ صباح الغد . . . هذا المساء اذا لزم الامر .

« ـ كلا ؛ غداً يكفي . ولكن اذا استطعت ان تترك لي الف فرنك حالاً ، على الا تحرم نفسك .

« اخرجت الالف فرنك من حافظة نقودي وقدمتها اليها :

« ـ اتريدين الفاً واربعمئة فرنك ؟

« فخفضت رأسها ولفظت « نعم » ضعيفة بحيث لم اكد اسمعها ، ثم سارت مترنحة الى احد مقاعد الدرس وارتمت عليه ، وأسندت مرفقيها الى الطبقة امامها ، وظلت لحظات ووجهها بين يديها . فكرت انها تبكي ولكن حين وضعت يدي على كتفها رفعت جبهتها ورأيت عينيها جافتين . فقلت لها :

« ـ راشيل ، لا تضطربي لطلبك هذا مني . أنا سعيد لاستطاعتي إسداء هذا المعروف اليك .

« فتطلعت الي بوقار :

« ـ ان الشاق عليّ هو اضطراري للتوسل اليك ألا تحدث بذلك جدي ولا امي . فمنذ عهدا الي بحسابات البنسيون جعلتهما يظنان ان . . . اخيراً انهما لا يعرفان . لا تقل لهما شيئاً ، اتوسل اليك . جدي هرم وامي لا تحتمل الكثير من الألم .

« ـ راشيل ، ليست هي التي نقاسي كل هدا الالم ، بل أنتِ .

« ـ انها قاست الكثير من الألم . اما الآن فهي متعبة . وقد جاء دوري . ليس لي ما اعمله غير ذلك .

« قالت ببساطة كل هذه الكلمات البسيطة ولم أشعر بأي مرارة في هذا الاستسلام ، بل على العكس ، شعرت بنوع من

طمأنينة الفكر وقالت :

« ـ ولكن لا تظن ان الامور تسير بشكل سيء ، كل ما في الامر انها فترة صعبة لأن بعض الدائنين فارغو الصبر .

« سمعت الخادمة منذ لحظة تتحدث عن اساذ معيد يطالب بدينه .

« ـ نعم . جاء يرهق جدي بمشهد مؤلم ومن المؤسف انني لم استطع منعه . انه رجل شرس ، فظ . ويجب ان اذهب لأدفع له .

« ـ أترضين ان اذهب بدلاً منك ؟

« فترددت لحظة وحاولت عبثاً ان تبتسم .

« ـ شكراً ، ولكن لا . من الافضل ان اكون انا . . . ولكن اخرج معي ، اتريد ؟ اشعر بشيء من الخوف منه ، اذا رآك فلن يجرؤ ان يقول شيئاً

« ساحة البنسيون تشرف بعد بضع درجات على الحديقة التابعة لها ، والتي يفصلها عنها درابزين كان المعيد يستند اليه ، ومرفقاه محدوفان الى الوراء . كان يعتمر لبادة رخوة ويدخن غليوناً . وبينما كانت راشيل تفاوضه جاء أرمان الي ، وقال بوقاحة :

« ـ راشيل استدانت منك . وقد اتيت سريعاً لتخرجها من قلق خانق . انه كالعادة الكسندر ، اخي الخنزير ، الذي

يستدين في المستعمرات . ارادت اخفاء ذلك عن اهلي . وقد تركت قبلاً نصف بائنتها لتضخم بائنة لورا . ولكن الباقي كله ذهب هذه المرة . لم تحدثك بشيء من ذلك كما يبدو . ان تواضعها يثير حنقي . هذه واحدة من أشأم المزحات في هذا العالم السافل : في كل مرة يضحي واحد بنفسه في سبيل الآخرين ، فكن واثقاً انه افضل منهم ... كل ما فعلته في سبيل لورا ! .. كافأتها هذه جيداً ، الساقطة ! ..

« فصرخت مشمئزاً :

« ـ أرمان ، ليس من حقك الحكم على اختك .

« ولكنه قال بصوت مرتج ذي صفير :

« ـ بل على العكس ، لأنني لست افضل منها احكم عليها . انا اعرف ذلك في نفسي . وراشيل ، هي ، لا تحكم علينا . انها لا تحكم على احد أبداً ... نعم ، الساقطة ، الساقطة ... وما اعتقده فيها لم اخفه عنها ، واقسم لك ... انت الذي غطيت ، حميت كل هذا ! انت الذي كنا نعرف ... جدي نفسه لا يرى شيئاً في الأمر . وامي تجهد نفسها لئلا تفهم شيئاً . اما ابي فيسلم هذا للرب ؛ وهذا اسهل . عند كل صعوبة يجثو للصلاة ويترك راشيل تتملص من الورطة . كل ما يطلبه هو الا يرى الامور على حقيقتها . انه يركض ، ويبذل الجهد . ولا يبقى في البيت . انا ادرك انه يختنق هنا ؛ اما انا

فأموت . هو يبحث عن تخدير لنفسه ، وامي اثناء ذلك تنظم اشعاراً . اوه ! . . انا لا الومها فأنا افعل ذلك ايضاً . ولكني اعرف على الاقل اني قذر . ولم احاول قط ان اكون شيئاً آخر . قل اليس مقرفاً : جدي الذي « يعمل محسناً » مع لابيروز لأنه بحاجه الى معبد ؟ ـ وفجأة . ـ ماذا تجرأ هذا الخنزير هناك ان يقول لأختي ؟ اذا لم يلق عليها التحية حين ذهـابه فسـأدخل قبضتي فى حلقومه . . .

« واندفع نحو البوهيمي ، وظننت انه راح يصدمه . ولكن الآخر حين رآه يقترب انحنى له رافعاً قبعته بحركة مسـرحية ساخرة ، ثم غاب تحت القبة . وفي تلك اللحظة فتح الباب الكبير ودخل القسيس . كان يرتدي معطفـاً ، ويحمل انبـوب موقد ، وقفازين اسودين ، كمن يعود من حفلة عمادة او دفن . وتبادل مع المعيد السابق تحية احتفالية .

« اقترب ارمان وراشيل . وحين لحق بهما فيدال بالقرب مني قالت راشيل لوالدها :

« ـ لقد سوي كل شيء .

« فقبلها هذا في جبهتها :

« ها انت ترين ما قلته لك يا ابنتي : ان الله لا يترك من يعتمد عليه .

« ثم امسكني بيدي :

« ـ اذاهب انت الآن ؟ . . الى اللقاء في القريب : أليس كذلك ؟

٣

يوميات ادوار

(تابع)

« ٢٩ ايلول ـ زيارة للابيروز . ترددت الخادمة في دعوتي الى الدخول . « السيد لا يريد رؤ ية احد » . ألححت كثيراً حتى أدخلتني الى الصالون . كانت مصاريع النوافذ مقفلة : لم أكد أتبين في الظلام معلمي القديم الغارق في كنبة كبيرة مستقيمة لم ينهض . ودون ان ينظر الي مد من جانبه يده الرخوة التي سقطت بعدما شددت عليها . جلست بجانبه بحيث لا اراه الا جانبياً . ظلت قسماته قاسية جامدة . كانت شفتاه ترتجفان لحظات ، لكنه لم يقل شيئاً . بدأت ارتاب فيما اذا كان قد عرفني . دق المنبه اربع ساعات ؛ حينئذ كأنه تحرك بدولاب الساعة ، فأدار رأسه ببطء ، وبصوت احتفالي قوي لكنه غير معبر كأنه آت من وراء القبر ، قال :

« ـ لماذا أدخلت؟ . . . كنت امرت الخادمة ان تقول لكل من يأتي في طلبي « ان السيد لابيروز مات » .

« اغتممت ، ليس من كلماته الحمقاء بقدر ما هو من نبرته المبهرجة المتصنعة والتي لم يعودني اياها استاذي القديم الذي كان من عادته ان يكون طبيعياً معي وواثقاً بي .

« اخيراً اجبت :

« ـ هذه الفتاة لم تشأ ان تكذب . لا توبخها لأنها فتحت لي . انا سعيد برؤ يتك .

« فردد بغباء : « السيد لابيروز مات » . ثم عاد الى الانغماس في الصمت . اما انا فأتيت بحركة سأم ونهضت استعداداً للرحيل ، مؤجلاً البحث عن سبب هذه المهزلة المحزنة الى يوم آخر . لكن الخادمة دخلت هذه اللحظة ؛ وكانت تحمل قدحاً من الشوكولا الساخنة :

« ـ ليجهد السيد نفسه قليلاً . انه لم يتناول شيئاً بعد .

« فأتى لابيروز بانتفاضة ملل كممثل قطع عليه كومبارس أخرق عمله .

« ـ في ما بعد . حين يذهب هذا السيد .

« ولكن ما كادت الخادمة تغلق الباب حتى قال :

« ـ يا صديقي ، كن طيباً . هات لي قدح ماء ، ارجوك . قدح ماء بسيط . اكاد اموت من العطش .

« وجدت في غرفة الطعام زجاجة وقدحاً . فملأ القدح وأفرغه دفعة واحدة ، ومسح شفتيه بكم سترته الحريرية

القديمة . وسألته :

« ـ اتشعر بالحمى ؟ . .

« فذكرته عبارتي بعاطفة شخصه :
« ـ السيد لابيروز لا يشكو الحمى . ليس به شيء . منذ مساء الاربعاء لم يعد السيد لابيروز حياً .
« ترددت في ما اذا لم يكن من الافضل عدم الدخول في لعبه :
« ـ أليس نهار الاربعاء هو النهار الذي جاء فيه بوريس ليراك ؟ . .

« فأدار رأسه نحوي ؛ وانارت ابتسامة ، كظل ابتسامته الماضية ، قسماته عند ذكر اسم بوريس . ورضي اخيراً ان يتخلى عن الدور الذي يمثله :
« ـ يا صديقي ، استطيع ان اقول لك ، لك انت : هذه الاربعاء كانت اليوم الاخير الذي بقي لي . ـ ثم تابع بصوت اكثر انخفاضاً : ـ النهار الاخير الذي منحته لنفسي قبل . . . ان أنتهي .

« كان مما يؤلمني حتى النهاية ان أرى لابيروز يعود الى ذلك الحديث المشؤوم . وأدركت انني لم اكن احمل ما قاله لي سابقاً على محمل الجد لأنني تركت ذاكرتي تتخلى عنه ، وها انا ألومه الآن . تذكرت كل شيء ولكنه أدهشني ، لأنه حدثني اولاً عن

استحقاق دين بعيد جداً ، وبما انني جعلته يلاحظ ذلك ، فقد اعترف لي ، بنبرة صوت عاد طبيعياً ، وبشيء من التهكم ايضاً ، انه خدعني في ما يتعلق بالتاريخ ، وانه ارجعه قليلاً الى الوراء خوفاً من ان احاول الاستيلاء عليه او ان اسرع لأفعل ذلك عند عودتي . ولكنه ركع على طول امسيات عديدة متتابعة متوسلاً الى الله ان يمنحه قبل موته رؤية بوريس . وأضاف :

« ـ كنت متفقاً معه ايضاً انني عند الضرورة أرجىء رحيلي بضعة ايام . . . وذلك بسبب تأكيدك لي انك ستأتي به إليَّ، اتذكر ؟ . . .

« اخذت يده ؛ كانت باردة كالثلج ، فأدفأتها بين يدي . وتابع بصوت رتيب :

« ـ حينئذ ، لما رأيت انك لم تنتظر نهاية العطلة لتعود ، وان في وسعي رؤية الصغير دون ان يؤخر ذلك رحيلي ، ظننت ان . . . بدا لي ان الله استجاب صلاتي . ظننت استحسنني ، نعم ، ظننت ذلك . لم ادرك انه كان يسخر مني ، كما هي الحال دائماً .

« واختطف يده من يدي ، وبنبرة اكثر حياة :

« ـ اذاً ، وعدت نفسي بالانتهاء من الحياة مساء الاربعاء ؛ ونهار الاربعاء اتيتني ببوريس . يجب ان اقول انني لم اشعر عند رؤيته بكل السرور الذي وعدت نفسي به . فكرت في ذلك

على الاتر . بالتأكيد لم اكن على حق في ان آمل ان هذا الصغير يمكن ان يكون سعيداً برؤيتي . والدته لم تحدثه عني مطلقاً .

« توقف ، وشفناه ترتجفان فظننت انه على اهبه البكاء . فقلت مجازفاً :

« ـ بوريس لا يطلب سوى ان يحبك . ولكن اترك له الوقت الكافي ليعرفك .

فقال لابيروز :

« ـ بعدما تركني الصغير دون ان يصغى الي ، وحين وجدت نفسي وحيداً في المساء (لأنك تعلم ان مدام دو لابيروز ليست هنا) ، قلت لنفسي : « هيا ! . هذه هي اللحظة المناسبة » . يجب ان تعلم ان اخي ، ذلك الذي فقدته ، قد اوصى لي بزوج من المسدسات احتفظ بهما دائماً بجانبي ، في غلاف على رأس فراش سريري . اخذت هذا الغلاف . وجلست على كنبة ؛ هناك ، كما انا في هذه اللحظة . وحشوت احد المسدسين بالرصاص . . .

« والتفت نحوي . وفجأة ، وبشراسة ، ردد كما لو انني شككت في كلامه :

« ـ نعم ، حشوته بالرصاص . تستطيع رؤيته . انه لا يزال محشواً . ماذا جرى ؟ . . لم استطع ان افهم . حملت المسدس الى جبهتي ، وأبقيته طويلاً على صدغي . ولم اطلق

النــار . لم استــطع . . . في اللحــظة الأخيـرة . من العــار القول . . . انني لم اكن املك الشجاعة الكافية لاطلاق النار .

« وكان قد حمي وهو يتكلم . عادت نظرته اكثر حياة ، ولون الدم خديه قليلاً . وتطلع الي هازاً رأسه :

« ـ كيف تفسر ذلك ؟ . . امر عزمت عليه ، ومنذ شهور لم أكف عن التفكـير فيه . . . ربمـا بسبب ذلك استنفـدت كل شجاعتي بالتفكير . . .

« فقلت له :

« ـ كيف استنفدت السرور برؤ ية بوريس قبل عودته ؟ . .

« ولكنه استمر :

« ـ ظللت طويلاً والمسدس على صدغي . كانت اصبعي على الزناد . ضغطت قليلاً ، ولكن ليس بقوة . قلت لنفسي : « بعد لحظة سأزيد من الضغط وتنطلق الرصاصة » . شعرت ببـرودة المعـدن ، وقلت لنفسي : « بعـد لحـظة ، لن اشعـر بشيء ، ولكني سأسمع دوياً رهيباً . . . » تصور ! بالقرب من الاذن ! . . ان هذا على الخصوص هو الذي أوقفني : الخوف من الـدوي . . . مستحيل ؛ ففي اللحـظة التي يمـوت المـرء فيها . . . نعم ! . . ولكن كنت آمل ان يكون الموت كالنوم ؛ ودوي الانفجار؟ ان هذا لا ينيم ، انه يوقظ . . . نعم ؛ ان هذا بالتأكيد هو ما خفت منه . كنت خائفاً ان استيقظ فجأة بدلاً من ان انام .

« وبد انه تمالك نفسه ؛ او بالاحرى تجمع . وعادت شفتاه طوال لحظات تتحركان في الفراغ ، وتابع :

« ـ كل هذا لم أقله لنفسي الا في ما بعد . والحقيقة ، اذا كنت لم اقتل نفسي فلانني لم اكن حراً . واقول الأن : كنت خائفاً ؛ ولكن لا : لم يكن الامر كذلك . شيء غريب تماماً عن ارادتي ، أقوى من ارادتي ، امسكني . . . كما لو ان الله لا يريد ان اذهب . تصور عروساً دمية تريد ترك المسرح قبل نهاية المسرحية . . . ققفى هناك ! . .

لا يزالون بحاجة اليكِ لاجل النهاية . آه ! . . هل اعتقدتِ ان في امكانكِ الرحيل حين تشائين ؟ . . . ادركت ان ما ندعوه ارادتنا ، هي الخيوط التي تجعل العروس الدمية تمشي ، وان الله يسحب هذه الخيوط . ألم تفهم ؟ . . . سأشرح لك . اليك : اقول لنفسي في الوقت الحاضر : « اريد ان ارفع ذراعي اليمنى » ؛ وأرفعها . (ورفعها فعلاً) . ولكن الخيط كان قد رفع فعلاً ليجعلني افكر واقول : « اريد ان ارفع ذراعي اليمنى » . والبرهان على انني لست حراً هو انه لو اضطررت الى رفع الذراع الاخرى لكنت قلت : « سأرفع ذراعي اليسرى » . . . كلا ، ارى انك لم تفهمني . لست حراً بفهمك لي . . . اوه ! . انني الآن احسب ان الله يلهو . وذاك الذي يجعلنا نفعله ، فانه يلهو بأن يدعنا نظن اننا اردنا ان نفعله . وهنا لعبه الشنيع . . . اتعتقد انني اصبحت مجنوناً ؟ . . .

للمناسبة : تصور ان مدام لابيروز . . . انت تعلم انها دخلت الى ملجأ للعجزة . . . حسناً ، تصور انها تتوهم انه مأوى للمجانين وانني ادخلتها اليه لأتخلص منها قاصداً ان يظن انها مجنونة . . قل لي ان هذا عجيب : ان أي عابر سبيل تصادفه في الشارع يمكن ان يفهمك افضل من تلك التي اعطيتها حياتك . . . في الايام الاولى كنت اذهب كل بوم لرؤيتها . ولكن ما ان تشاهدني : « آه ! انت هنا ! جئت تتجسس علي ايضاً . . . » فاضطررت الى الاقلاع عن هذه الزيارات التي لا تنفع في غير اثارتها . كيف تريد ان نتعلق بعد بالحياة ما دمنا لا نستطيع عمل خير مع إنسان ؟ . .

« وخنقت الدموع صوته ، فخفض رأسه ، وظننت انه سيسقط منهوكاً ، ولكنه قال باندفاع فجائي :

« ـ اتدري ماذا فعلت قبل رحيلها ؟ . . اغتصبت درجي وأحرقت جميع رسائل المرحوم اخي . كانت دائماً تغار من اخي . خصوصاً منذ وفاته . كانت تثير لي المشاكل حين تفاجئني ليلاً وانا اقرأ رسائله . فتصرخ « آه ! . . . انت تنتظر نومي . انت تختبىء مني » . وايضاً : « من الافضل ان تذهب وتنام . انت تتعب عينيك » . كان يقال انها كثيرة العناية بي ، ولكني اعرفها . كان ذلك من الغيرة لم تكن تريد ان تتركني وحيداً معه .

« ـ هذا يدل على انها تحبك ، فلا غيرة بلا حب .

« ـ لا بأس . وافقني على انه امر محزن ان يصبح الحب بلية الحياة بدلاً من ان يصنع سعادتها .

« وكان قد حمي كتبراً وهو بتكلم ، وفجأة قال ·

« ـ انا جائع . حين اريد ان آكل فان هذه الخادمه تأتيني دائمًا بالشوكولا قالت لها مدام لابيروز انني لا اتناول شيئاً آخر . ستكون لطيفاً اذا ذهبت الى المطبخ . . . الباب الناني الى اليمين ، في الدهليز . . . لترى اذا كان هنالك بيض . اظن انها قالت يوجد بيض .

« ـ اتريد ان تهيء لك بيضة بالصحن ؟

« ـ اظن سآكل اثنين . اتكون كثير الطيبة ؟ . . انا لم انوصل الى ان اكون مطاعاً .

« فقلت له عند عودتي :

« ـ يا صديقي العزيز ، سيكون بيضك جاهزاً بعد لحظة . اذا سمحت لي فسأبقى لأراك تتناوله : نعم ، هذا يسرني . كان شاقاً علي ان اسمعك تقول من لحظة انك لم تستطع ان تعمل خيراً مع احد . يبدو انك نسست حفيدك . وصديقك ، السيد أزابيس ، يعرض عليك الذهاب لتعيش بجانبه في البنسيون . طلب الي ان افول لك ذلك . بعتقد انه ما دامت مدام لابيروز لم تعد هنا الآن ، فليس من شيء يرغمك على البقاء .

« كنت انتظر بعض المقاومة منه . لكنه استعلم عن شروط الاقامة الجديدة التي قدمت له . . وقال :

« ـ اذا لم اكن قتلت نفسي ، فلست أقل موتاً . هنا او هناك ؛ سيان . تستطيع ان تأخذني .

« وافقت على المجيء لآخذه في الغد ؛ وأن أضع منذ الآن تحت تصرفه حقيبتين ليستطيع ان يرتب فيهما الملابس التي سيكون في حاجة اليها والتي يأخذها معه وأضفت :

« ـ بما انك ستحتفظ بالتصرف بهذه الشقة الى نهاية عقد الاجار ، فسيبقى امامك متسع من الوقت لتأتي وتأخذ ما ينقصك .

« فكرر :

« ـ انني اسبب لك الكثير من التعب . انت طيب .

« كنت اريد ان يعهد الي بمسدسيه اللذين لا يحتاجهما ، كما قلت له ، ولكنه أبي ان يتركهما لي .

« ـ لا يساورك خوف . فالذي لم افعله في ذلك اليوم اعلم انني لن استطيع فعله ابداً . لكنهما التذكار الوحيد الذى بقي لي من اخي . وانا في حاجة ايضاً الى ان يذكراني بأني لست سوى لعبة بين يدي الله . »

٤

كان الحر شديداً ذلك النهار . من نوافذ بنسيون فيدال المفتوحة بانت رؤوس اشجار الحديقة التي لا يزال يطفو عليها شيء كثير من صيف قيد الاعداد .

يوم افتتاح المدرسة هذا كان فرصة لأزابيس العجوز لكي يلقي خطاباً . كان واقفاً بجانب المنبر مديراً وجهه نحو التلامذة كما يجمل به . وكان لابيرور العجوز جالساً على المنبر . وقد نهض عند دخول التلامذة . الا ان اشارة صداقة من أزاييس دعته للجلوس . استقر نظره القلق على بوريس أولاً . هذه النظرة كانت تضايق بوريس اكثر مما ضايقه أزاييس في خطابه ، حين قدم للاولاد استاذهم الجديد ، ظاناً ان من واجبه ان يشير الى القربى التي تربط الاستاذ بواحدٍ منهم . ومع ذلك فان لابيروز اغتمّ لاستطاعته التقاط نظر بوريس . وفكر: انها لا مبالاة منه ، انه برود .

وكان بوريس يفكر :

ـ أوه ! . . ليتركني وشأني . ليقلع عن ان يجعلني « محط الانظار » . كان رفاقه يخيفونه . وكان يضطر الى الانضمام اليهم

عند الخروج من المدرسة ، وسمع احادبثهم طوال المسافه بين المدرسة و « العلبة » . كان يريد ان يحذو حذوهم بدافع الحاجة القصوى للتعاطف ، ولكن طبيعته المرهفة جداً كانت تخالفه ؛ والكلمات تقف على شفتيه ؛ وكان يحفد على ضسقه ويحاول ان يمنع ظهوره ، ويحاول ايضاً ان يضحك ليتجنب السخرية ؛ ولكنه عبثاً حاول : فقد ظهر بين الآخربن كأنه فتاة ، وكان يشعر بذلك ويحزن جداً .

وتشكلت جماعات على الأثر ، كان حبة العقد فيها تلميذ يدعى ليون جيريدانيزول ، وقد فرض نفسه . انه اكبر بقليل من الآخرين ، واكثر تفدماً في دروسه . اسمر الجلد ، اسود الشعر ، اسود العينين . ولم يكن كثير الكبر او قوياً بشكل خاص ، ولكن كان عنده ما يسمى « إقدام » . مهيب حفيفة . حتى ان جورج مولينييه نفسه اقر بأن جيريدانيزول قد بهره ؛ « وانت تعرف ان بهري يحتاج الى شيء عظيم » . الم يره بأم عينه هذا الصباح يقترب من امرأة شابة تحمل ولداً بين ذراعيها ويقول لها :

ـ هل هذا الولد لك يا سيدتي ؟ . . (فيل هذا بتحية كبيرة) . انه قبيح جداً ، ولدك . ولكن اطمئني : فانه لن يعيش .

وضحك جورج ضحكة مجلجلة .

ـ لا ، دون مزاح ؟ . .

هكذا قال فيلب أدامنتي ، صديقه ، والذي اورد جورج قصته .

هذا الحديث الوقح كان مبعث سرورهم ؛ لا ينخيلون الطف منه . انه زورق استعمل كثيراً من قبل ، أخذه لون من ابن عمه ستروفيلو ، ولكن لم تكن لجورج ان يعرفه .

في البنسيون نال موليبيه وأدامنتي حق الجلوس على المقعد الذي يجلس عليه جيربدانيزول ، وهو المقعد الخامس ، وذلك حتى لا يتعرضوا كثيراً لنظر البيدق . كان ادامسي الى يسار مولينييه ، والى يمينه جيريدانيزول ، المسمى جيري ، وعلى طرف المقعد يجلس بوربس ، ووراء هذا باسافان .

عاش غونتران دو باسافان حياة بائسة منذ وفاة والده . والحياة التي كان يحياها قبلاً لم تكن مرحه . ادرك منذ وقت طويل انه ليس له ان ينتظر اي تعاطف او سند من اخيه . وكان قد أمضى العطلة في مقاطعة بروتانية حيث اخذته خادمته العجوز المخلصة سرافين الى عائلتها . انه شعر برغبه حقيقيه تحثه لينبت لأخيه انه افضل منه . وقد دخل البنسيون من تلقائه ، وبمحض اختياره ، وبالرغبة في عدم السكن عند اخيه في ذلك القصر القائم في شارع بابيلون الذي لا يذكره الا بامور حزينه . لم تشأ سرافين ان تتركه ، فاتخذت مسكناً في باريس وتاح لها ذلك دخل قليل وضعه ولدا الكونت المرحوم تحت تصرفها بناء على بند صريح في الوصية . وكان لغونتران

غرفته الخاصة التي يشغلها ابام خروجه من المدرسة . وقد زينها حسب ذوقه . وكان بناول وجبتين من الطعام اسبوعياً مع سيرافين ؛ وكانت هذه تعني بـه ، وتحرص على الا ينقصه شيء . وبجانبها يثرثر غوبنراں على هواه ، مع انه لا يستطيع ان يحدثها بشيء مما يعتمل في صدره. وفي البنسيون لا يدع الأخرين يطعنون شخصه . يسمع رفاقه بأذن ساهية وهم يمزحون ويرفض في الغالب ان يلعب معهم هو ايضاً يفضل القراءة على الالعاب التي لا تكون في الهواء الطلق . يحب الرياضة ، جميع انواع الرياضه ، لكنه يفضل اللعبة التي يستطيع لعبها بمفرده . وهو ايضاً فخور ولا يلهو مع احد . وايام الآحاد ، حسب الفصول ، يتزلج ، ويسبح ، ويجذف ، او يذهب في سباقات كبيرة في البرية . انه كثير النفور ولا يحاول التغلب على نفوره : لا لأنه لا يحاول ان يوسع مداركه ، ولكنه يقوي هذه المدارك . لقد رأيناه بجانب سرير والده لعله ليس بالسذاجة التى يظن . عند وفاته . ولكنه لا يحب الغوامض . ويضيق ذرعاً حين لا يعود يشبه نفسه . واذا كان قد توصل الى البقاء على رأس صفه فقد كان ذلك بدافع الاجتهاد لا من السهولة . سوف يجد بوريس حماية بجانبه اذا عرف كيف يبحث عن هذه الحماية ، ولكن جاره جورج هو الذي يجتذبه ، اما جورج فلا ينتبه الا الى جيري الذي لا ينتبه الى احد .

كان لدى جورج اخبار مهمة يريد ايصالها الى فليب ادامنتي ، لكنه رأى ان من الحكمة الا يكتبها اليه كتابة .

صباح يوم الافتتاح وصل امام باب المدرسة ، قبل بدء الصفوف بربع ساعة . لقد انتظر هذا الافتتاح حقيقة . وبعدما مشى مئة خطوة امام الباب سمع لبون جيريدانيزول يخاطب امرأة شابة ؛ وعلى اثر ذلك كان الولدان قد عرقا في حديث ليكتشفا انهما سيكونان رفيقين في البنسيون . وكان سرور جورج عظيمًا .

وعند الخروج من المدرسة استطاع جورج وفيليب ان يلتقيا اخيراً ، فسارا نحو بنسيون أزاييس مع التلامذة الآخرين ، ولكن في معزل عنهم ليستطيعا التحدث بحرية وقد بدأ جورج وهو يشير باصبعه الى الوردة الصفراء التي ما زال فيفي يزين عروته بها :

ـ الافضل ان تخفي هذه .

فسأل فيليب وقد رأى ان جورج لا يضع وردته :

ـ لماذا ؟

ـ يخشى ان يقبض عليك يا صغيري. اردت ان اقول لك ذلك قبل الصف ؛ ما كان عليك الا ان تصل قبل الوقت . انتظرتك امام الباب لأحذرك .

فقال فيفي :

ـ ولكني لم اعرف .

فقال جورج مقلداً :

ـ لم اعرف ، لم اعرف . كان عليك ان تفكر ان من الممكن ان يكون لدي ما اقوله لك منذ ان تعذرت على رؤيتك في هولغات .

كان الهم الدائم لهذين الولدين هو ان يحجز كل منهما على الآخر . ان فيفي مدين بما يمتاز به عن غيره لوضعيه والده وثروته ، ولكن جورج يفضله كثيراً بجرأته ووقاحته . ويضطر فيفي الى ان يبذل جهداً مفرطاً حتى لا يبقى في آخر الجمع . وليس هو بالغلام العاطل ولكنه رخو . قال :

ـ حسبناً ! . . هات ما عندك .

وسمعهما لبون جيريدانيزول الذي اقترب منهما . ولم يكن جورج ليغتم اذا سمعه هذا ؛ واذا كان الآخر يدهشه احياناً فان لدى جورج ما يدهشه بدوره . ولهذا قال لفيفي بنبر كثيرة البساطة :

ـ لقد سجنت برالين الصغيرة .

ـ برالين ! . .

هكذا صرخ فيفي وقد أرعبه برود جورج . وبما ان ليون تظاهر بالاهتمام فان فيفي سأل جورج :

ـ ايمكن ان نقول له ؟ . .

ـ بالتأكيد ! . .

قال جورج وهو يهز كتفيه . حينئذٍ قال فيفي لجيري مشيراً الى جورج :

ـ انها صاحبته .

ثم لجورج :

ـ كيف عرفت ذلك ؟ . .

ـ جرمين التي التقيتها هي التي اخبرتني .

وقص على فيفي انه حين مر بباريس منذ اثنتي عشر يوماً اراد رؤيه احدى الشفق التى كان مولينيه وكيل النيابه قد اشار اليها في السابق على انها « مسرح هذه الموبقات » . ووجد الباب مقفلاً . واثناء طوافه في الحي التقى بعد وقت طويل بجرمين ، صاحبة ففي ، التي نقلت اليه الخبر : « كبسة » قام بها الشرطة عند بدء العطلة . اما ما كان يجهله هؤلاء النسوة وأولئك الاولاد فهو ان بروفيتانديو كان يحرص اشد الحرص على ان يعين لهذه العملية موعداً يكون فيه الجانحون القاصرون قد تفرقوا ، راغباً في عدم إيقاعهم في الشبكة ليوفر هذه الفضيحة على اهلهم .

وردد فيفي من دون تعليق :

ـ نعم يا صديقي ، نعم يا صديقي ! . .

معتبراً ان جورج وهو قد نجوا من هذه الورطة

وقال جورج وهو يضحك :

ـ ان هذا يبعث البرد في عمودك الفقري ، اليس كذلك؟

اما ان يكون هو نفسه خائفاً فقد رأى ان لا فائدة من

الاعتراف بذلك خصوصاً أمـام جيريدانيزول .

يمكن الظن ، من هذا الحـوار ، ان هؤلاء الاولاد اكثر فساداً مما هم . انهم يتكلمون كذلك ليروحوا عن انفسهم ، وانا متأكد من ذلك . ويدخل في حالتهم شيء من التبجح . لا يهم : جيريدانيزول يسمعهم ؛ يسمعهم ويدفعهم للكلام . ان هذه الاحاديث ستسلي ابن عمه ستروفيلو حين ينقلها اليها هذا المساء .

في هذا المساء نفسه لقي برنار ادوار .

ـ هل مر الافتتاح على خير ؟

ـ لا بأس .

وبما انه سكت ، اضاف ادوار :

ـ يا سيد برنار ، اذا لم تكن ذا مزاج لتتكلم من تلقائك فلا تعتمد علي لأدفعك . انا اكره الاستجوابات . ولكن اسمح لي بتذكيرك انك عرضت علي خدماتك ، وان من حقي ان آمل منك بعض القصص . . .

فقال برنار مكرهاً :

ـ وماذا تريد ان تعرف ؟ الأب أزاييس القى خطاباً احتفالياً عـرض فيه عـلى الاولاد ان يثبوا « بـاندفـاع مشتـرك وبهمـة شباب . . . » وقد حفظت هذه الكلمات لأنها تكررت ثلاث مرات . ويزعم أرمان ان العجوز يضع هذه الكلمات في كل

من خطاباته . كنا جالسين ، انا وهو ، على المقعد الأخير ، في صدر قاعة الصف نتأمل دخول الاولاد ، كما كان نوح يتأمل دخول الحيوانات الى السفينة كان بينهم من جميع الانواع · المجنرة ، وذات الجلود السميكه ، والرخويـات ، وغيرهـا من عـادمات الفقـار . وحين اخـذوا ينحدثـون في ما بينهم بعـد الخـطاب ، لاحظنـا ، أرمان وانـا ، ان اربعـاً من عشـر من عباراتهم تبدأ : « يبدو لي انك لا . . . »

ـ والست الأخريات ؟ . .

تبدأ بـ : « أنا ، أ . . . »

ـ ما أحسن ما لاحظت ! انى اخشى ملاحظتك . وماذا غير ذلك ؟ . .

ـ يبدو لي ان لبعضهم شخصية مصنوعة .

فسأل ادوار :

ـ ماذا تعني بهذا ؟

ـ افكر خصوصاً بواحد منهم . كان جالساً بجانب باسافان الصغير ، ويبدو عاقلاً . اما جاره الذي لاحظته طويلاً فيبدو انه اتخذ قاعدة له في الحياة قاعدة القدماء Ne quid nimis . الا ترى ان هذا الشعار مستحيل لمن كان في مثل سنه ؟ . . ملابسه ضيقه وربطة عنقه مشدودة ، ليس هناك ما يلاءم مع العقدة حتى اشرطة حذائه . ومع انني تحدثت معه قليلاً فقد اتسع له

الوقت ليقول لي انه يرى ثغرة للقوة في كل مكان ، وكان يردد كاللازمة : « لا تبذلوا جهداً دون فائدة » .

فقال ادوار :

- الى الجحيم لكل نوع من انواع الادخار !

واضاف ادوار :

- لم تقل لي شيئاً عن ارمان ؟

- انه ثمرة عجيبة . حقيقة لم القول انه لا يعجبني ابداً . انا لا احب المشوهين . هو ليس احمق ، بالتأكيد ، ولكن روحه لا تعمل الا لتخرب : وبالاجمال ، انه يبدو اكثر ضراوة ضد نفسه . انه يخجل من كل ما هو خير ، وكريم ، ونبيل ، وحنون فيه . يجب ان يمارس الرياضة ، ان يتروح . انه يحمض اذا بقي سجيناً كل النهار . يبدو انه يطلب حضوري ؛ وانا لا اهرب منه ولكني لا استطيع ان اكيف نفسي مع عقله .

- الا تعتقد ان سخريته وتهكمه يخفيان حساسية مفرطة ، ويمكن انهما يخفيان المًا عظيمًا ؟ . . ان اوليفييه يعتقد ذلك .

- يمكن . وقد قلت ذلك لنفسي . لا اعرفه جيداً بعد . وما بقي من افكاري لم ينضج . وانا بحاجة الى التفكير فيه ؛ سأجعل لك منه نصيباً ، ولكن في ما بعد . عفواً اذا تركتك هذا المساء ؛ عندي امتحاني بعد يومين ؛ ثم ، لاعترف لك بذلك : اشعر اني حزين .

٥

يجب الا نأخذ ، اذا لم اخطىء ، الا الزهرة من كل شيء

فنيلون

اوليفييه الذي عاد الى باريس منذ امس نهض مرتاحاً . كان الهواء حاراً ، والسماء صافية . وحين خرج ، وقد حلق ، وأخذ حماماً بارداً ، وارتدى ملابسه باناقه ، شاعراً بقوته ، بشبابه ، بجماله ، كان باسافان لا يزال نائماً .

اسرع اوليفييه الى السوربون . هذا الصباح يقدم برنار امتحانه الخطي . كيف عرف اوليفييه بذلك؟ ربما لم يعرف . لكنه ذهب للاستعلام . اسرع . لم يكن قد رأى صديقه منذ تلك الليلة التي جاء فيها برنار يطلب ملجأ في غرفته . اي تغييرات حدثت منذ ذلك الوقت ! . من يقول انه كان منعجلاً ليريه نفسه اكثر من عجلته لرؤيته ؟ انه غاضب لأن برنار قليل الاهتمام بالاناقة ! ولكنه ذوق يأتي احياناً مع الرخاء . واوليفييه هو البرهان على ذلك ، بفضل الكونت دو باسافان .

يقدم برنار الامتحان الخطي هذا الصباح . ولن يخرج الا

عند الظهر . اوليفييه ينتظره في الساحة . عرف بعض الرفاق ، شد على الايدي ، ثم انتحى جانباً . انه متضايق قليلاً من ملابسه . وأصبح اكثر ضيقاً حين انتهى برنار وتقدم في الساحة وهتف ، وهو يمد اليه يده :

ـ ما أجمله ! . .

واوليفييه الذي كان يعتقد ان الخجل لا يعرف سبيله اليه ، احمر خجلاً . كيف لا يرى تهكمًا في هذه الكلمة رغم لهجتها الودادية ؟ لا يزال برنار يرتدي الملابس التي كان يرتديها مساء هربه لم يتوقع ان يجد اوليفييه . كان يقوده وهو يوجه اليه الأسئلة . كان سروره برؤيته فجائياً . وان هو ابتسم في بادىء الامر امام اناقته المفرطة ، فقد كان ذلك دون اي خبث . انه ذو قلب طيب ، دون حقد .

ـ ستتناول الفطور معي ، أليس كذلك ؟ نعم ، يجب ان ادرس حتى الساعة الاولى والنصف لأجل امتحان اللاتينية . هذا الصباح كان امتحان اللغة الفرنسية .

ـ أمسرور انت ؟

ـ أنا ، نعم . ولكني لا اعلم اذا كان ما بضته سيلائم ذوق الفاحصين . كان الموضوع يتعلق بابداء الرأي حول اربعة أبيات للافونتين .

فـراشة البـرناس ، وشبيهـة النحـل الـذي يقـارن
افلاطون الطيب بدائعنا به ، انا شيء خفيف اطير
الى كل موضوع ، اسير من زهـرة الى زهرة ومن
شيء الى شيء

قل ، ماذا كنت نفعل بهدا ؟

لم يسنطع أوليفييه ان يفاوم رغبه النألق ، فقال :

ـ كنت اقول ان لافونتين ، وهو يرسم نفسه ، صنع صوره الفنان ، صورة ذلك الدي يرضى الا يأخذ من الدنيا سوى مظهرها الخارجي ، سوى السطح ، سوى الزهرة . ثم كنت أعرض للانظار صورة لعالم ، لباحث ، لـذلك الـدي يحفر ، وأظهر أخيراً انه بينما يكون العالم يبحث فان الفنان يجد وان من يحفر لا بد ان يغوص ، وان من يغوص لابد ان يصاب بالعمى ؛ وان الحفيقه هي المظهر ، وان الغامض هو الشكل ، وان أعمق شيء في الانسان هو جلده .

هذه العبارة الاخيرة اخذها اوليفييه من باسافـان ، وهذا اقتطفها من شفتي بول ـ امبرواز بينما كان هذا يخطب ذات يوم في احد الصالونات . كان باسافان يرى في كل ما لم يطبع غنمه طيبة ؛ وما دعاه « الأفكار في الهـواء » كان يعني بـه : افكار الآخرين .

شيء ما في لهجة اوليفييه أنذر برنار بان هذه العباره لبست

له . ان صوت أوليفييه فد نعثر بها . كان برنـار يوشـك ان يسأل : « هذه العبارة لمن ؟ . . » ولكن بصرف النظر عن انه لا بريد ان يكدر صديقه ، كان يخشى ان يسمع اسم باسـافان الذي كان الآخر حريصاً على ألا يلفظه حتى الآن اكتفى برنار بالتطلع الى صديقه بالحاح عجيب ؛ واحمر وجه اوليفييه للمرة الثانية

المفاجأة التي اصابت برنار بسماعه اوليفييه العاطفي يشرح افكاراً تختلف تماماً عن الافكار التي يعـرفها فيه ، أفسحت المجال لاشمئزاز عنيف ، لشيء فجائي مذهل ، لا يقاوم كأنه إعصار .

وبدفه ، لم يكن حنقه بسبب هذه الافكار ، مع انها تبدو له مستحيلة . على كل حال يمكن ألا تكون اكثر استحالـة من ذلك . انه يستطيع ان يضعها مقابل افكاره الخاصة على دفتره الذي يسجل فيه الآراء المتضاربة . لو كانت هي افكار اوليفييه الاصلية لما كان اغتاظ منه ولا منها ؛ ولكنه كان يشعر ان هناك من اختفى وراءها ؛ انه كان يغتاظ من باسافان .

ـ بأفكار كهذه تسمم فرنسا .

هكذا صرخ بصوت مبهم ولكنه حاد لقد تكلم من عل، راغباً في التحليق فوق باسافان . وقد دهش هو نفسه مما قاله ، كما لو ان عبارته سبقت تفكيره ! ومع ذلك كانت هذه الفكرة

هى نفسها التي ادرجها هذا الصباح فى مسابقته ولكن وسوء من الخفر ، كان برفض أن « بننازل » في كلامه ، حصوصاً عدما يخاطب اوليفييه ، وبطهر شئاً مما يسميه « العواطف الكبرى » فما ان يعبر عن هذا النوع من العواطف حتى تبدو له افل صدفا . وهكذا لم نكن اوليفييه فد سمع صديقه نتكلم مره عن « مصالح فرنسا » . مما ادهشه هو هده المره . ففتح عينين واسعين ولم يفكر في الابتسام . انه لم نعرف برنار . وكرر بغباء :

ـ فرنسا ؟ . . ثم برأ نفسه من المسؤولية لان برنار لم يكن يمزح : ـ ولكن يا صديقي ، لست انا الذى يفكر هكذا ؛ انه لافونتين

واصبح برنار اعتدائياً تقريباً ، وصرخ .

ـ بالتأكيد ! . . اعرف بالتأكيد انك لست بالذى تفكر هكذا . ولكن يا صديقي ، ولا لافونتين ايضاً لو لم يكن فيه سوى هذه الخفه ، ولقد تاب واعتذر فى نهاية حياته ـ لما كان الفنان الذي نعجب به . هذا بالضبط ما قلته في موضوعي هذا الصباح . واستعنت باستشهادات كثيرة ، وانت نعلم ابي املك ذاكرة جيدة . ولكن بتركي لافونتين قليلاً والانتباه الى ما يمكن لبعض النفوس السطحيه التفكير في ان تجدها في شعره ، فاني استوفيت حمى شتيمة ضد روح عدم الاكتراث ، والكذب ، والتهكم ، وما يسمى اخيراً « الروح الفرنسيه » التى تكلفنا في

الخارج احياناً سمعة يرثى لها . لقد قلت ان من اللازم ان يرى فيها كشرة فرنسا وليس ابتسامتها ؛ وان الروح الحقيقة لفرنسا كانت روح بحث ، روح منطق ، روح حب وتغلغل صبور ، وانه لو لم تكن هذه الروح قد أحيت لافونتين لكان من الممكن ان يكتب حكاياته ، ولكن ليس اساطيره ، ولا تلك الرسالة الشعرية البديعة (اظهرت اني اعرفها) التي اسنخرجت منها تلك الأبيات التي أعطيت للشرح . نعم يا صديقي ، لقد افرغت جعبتي ، وقد يجعلني ذلك ارسب . ولكن لا يهمني ، لقد كنت بحاجة لأن اقول ذلك .

لم يكن أوليفييه متمسكاً بما قاله منذ لحظة، ولكنه خضع لحاجة التألق ، ولأن يسرد ، بلا مبالاة ، عبارة يعتبرها ذات طبيعة تذهل صديقه . وما دام هذا الآن يحاسبه بهذه اللهجة فلم يعد امامه سوى التراجع . كان يبقى له الا ان يرجع القهقرى . كان ضعفه العظيم منأتياً من انه بحاجة الى مودة برنار اكثر مما برنار بحاجة الى مودته لقد أذله تصريح برنار ، أماته . حقد على نفسه لانه اسرع في الكلام . وقد فات الوقت الآن للرجوع عن كلامه ، لتقصير خطواته ، كما كان يفعل لو ترك برنار يتكلم اولاً . ولكن كيف يستطيع التخمين ان برنار ، الذي تركه كثير اللوم ، ينصب نفسه مدافعاً عن عواطف وافكار كان باسافان قد علمه الا يطالعها دون ان يبتسم . اما ان يبتسم ، فلم يكن راغباً في ذلك حقيقة ؛ لقد

كان خجلاً . لم يستطع الرجوع عن كلامه ، ولا ان يقوم ضد ادوار الذي فرض عليه انفعاله الاحترام . لم يكن يحاول الا ان يحتمي ، ان يتملص .

ـ اذا كان هذا ما كتبته في امتحانك ، فانك لم تكتب ضدي انا . . . اني أحب هذا

كان يتكلم كأنه مرغم وليس باللهجة التي ارادها . وقال برنار :

ـ ولكني اقوله الآن لك .

هذه العبارة طعنت أوليفييه في قلبه . وما من شك في ان برنار لم يقلها بنية عدائية ، ولكن كيف يحسبها غير ذلك ؟ . . وصمت اوليفييه . لقد حفرت هوة بين برنار وبينه . فتش عن اسئلة يستطيع الماءها من حافةٍ الى اخرى من هذه الهوة ، اسئلة تعيد اصلاح الاتصال . فتش دون امل . وكان يقول لنفسه : « ألم يفهم شقائي ؟ » وقد ازداد شقاؤه ربما لم تدمع عيناه ، الا أن الامر كان قادراً على ابكائه . انها غلطته ايضاً : كان هذا اللقاء يبدو له اقل كآبة لو وعد نفسه فيه بفرح أقل . وحين كان مسرعاً قبل شهرين لملاقة ادوار كان يشعر بالشيء نفسه . وقال لنفسه انه سيظل دائماً هكذا . كان يريد ترك برنار ، والذهاب الى اي مكان ، ونسيان باسافان ، وادوار . . . ولكن لقاء ليس بالحسبان قطع مجرى تفكيره الكئيب .

على بعد خطوات امامها ، في بولفار سان ميشال الذي كان

يصعدانه ، شاهد اوليفييه اخاه الصغير جورج فأمسك برنار من ذراعه ، ودار حالاً على عقبيه ، وجر برنار بسرعة :

ـ اتظن انه رآنا .. عائلتي لا تعرف انني عدت .

لم يكن جورج الصغير وحده ، كان يرافقه ليون جيريدانيزول وفيليب أدامنتي . كان الحديث بين هؤلاء الثلاثة حامياً جداً ؛ ولكن اهتمام جورج به لم يمنعه من ابقاء نظره يقظاً . ولنستمع اليهم ، علينا ان نترك اوليفييه وبرنار لحظة ، بعدما دخلا الى المطعم . وكان صديقانا ، لفترة قصيرة ، اكثر اهتماماً بالأكل منهما بالكلام . وكان في ذلك عزاء لأوليفييه .

قال فيليب لجورج :

ـ اذاً ، اذهب انت .

فأجاب جورج واضعاً في صوته كل ما يمكن من احتقار تهكمي يصلح لتحميس فيليب :

ـ اوه ! .. انه خائف ! انه خائف !

وقال جيريدانيزول متعالياً :

ـ يا حملي ، اذا لم تريدا فقولا حالاً . لن اعدم ايجاد آخرين عندهم من الإقدام اكثر منكما هيا . أعيدا الي هذا .

والتفت نحو جورج الذي يمسك بيده المطبقة قطعة صغيرة .

وصرخ جورج باندفاع مفاجىء :

ـ انا ادهب . تعال معي . (انهم امام مكىب للتبغ) .
ففال ليون :
ـ كلا ننطرك ى زاويه الشارع . تعال يا فيفي .
وخرج جورج بعد لحطة من الدكان يحمل علبة سكاير من نوع« لوكس » ، وقدمها لرفيقبه .
ـ إبه ؟ . .
سأل فيفى باضطراب .
ـ إبه ماذا ؟ .
اجاب جورج متكلفاً اللامبالاه كأن ما فعله اصبح طبيعياً الى حد انه لا بسنحق ان بنحدث عنه . ولكن فيلب ألح :
ـ هل مررتها ؟
ـ بالتأكد .
ـ اما فبل لك شىء ؟
فهز حورج كنفبه ·
ـ ماذا كنت تربد ان يفال لي ؟ . .
ـ هل اعىد لك المال ؟

هده المرة لم يننازل جورج للاجانه . ولكن بما ان الآخر لا نزال مرتابا ، خائفا فقد فال ملحاً : « أرنى » . فأحرج جورج المال من جبىه . واخذ فلبب يعده . الفرنكات السعة موجودة . كان بشىهي ان يسأل : « أأنت متأكد على الافل انها

صالحة ، هذه ؟ » ولكنه امتنع

كان جورج قد دفع عملة رائفة . وكان من المتفق عليه ان يقتسموا المال . فناول جيريدانيزول ثلاثة فرنكات ، اما فيفي فلم ينل اي فلس ؛ وعلى الاكثر سيكارة ؛ وهذا سيكون درساً له .

وتشجع فيفي بهذا النجاح الاول فأصبح يريد الآن . طلب من ليون ان يبيع له قطعة ثانية . ولكن ليون وجد فيفي هلوعاً . ولكي يشجعه على اتم وجه تكلف نوعاً من الاحتقار لجبنه الاول وتظاهر باحراده . « ليس له الا ان بصمم بسرعة ؛ يمكن اللعب بدونه » . وفي النهاية رأى ليون ان من الغفلة المجازفة بتجربة جديدة قريبة من الاولى . ثم ان الوفت فات الآن . ان ابن عمه ستروفيلو ينتظره على الفطور .

ليس جيريدانيزول عاجزاً عن تصريف قطعه بنفسه ؛ ولكنه ، وفقاً لتعليمات ابن عمه الكبير ، يحاول التحصن وراء الشركاء بالتواطؤ . سيقدم حساباً عن مهمته التي تمت على اكمل وجه .

ـ أبناء العائلات المرموقة ، وأنت تعرف ، هؤلاء هم الذين نحتاجهم ، لأن القضية اذا انكشفت يعمل الأهل على طمسها (ابن العم ستروفيلو ، عميله الوقتي ، هو الذي كان بكلمه هكذا بينما كانا يتناولان الفطور) . ـ فقط ، بذلك النظام القاضي ببيع القطع واحدة واحدة . وبهذا تباع بسهولة وبطء .

معي اثنتان وخمسون علبة في كل منها عشرون قطعة ، للاستثمار . يجب ان تباع كل منها بعشرين فرنكاً ، ولكن ليس لأي كان . وانت تفهم . من الأفضل تأليف شركة لا يشترك فيها احد دون ان يأتي برهن . يجب ان يعرض الاولاد انفسهم للخطر وان يأتوا بما نمسك به أهلهم . ستحاول ان تفهمهم ذلك قبل ان تترك القطع . أوه ! . . دون ان تفزعهم . يجب الا تخيف الاولاد ابداً . قلت لي ان مولينييه الاب كان قاضياً . هذا حسن . . . وأب أدامنتي ؟ . .

ـ عضو في مجلس الشيوخ .

ـ وهذا ايضاً افضل . انت الآن ناضج نضجاً كافياً لتدرك انه ليس هناك عائلة دون سر ؛ وان أصحاب العلاقة يرتجفون هلعاً اذا عرف هذا السر . يجب ان تطلق الاولاد للصيد . وهذا سيشغلهم . والمرء عادة يضجر كثيراً في العائلة . ثم ، يمكن لهذا ان يعلمهم الملاحظة ، والبحث . وهذا بسيط جداً : من لا يجلب شيئاً لا يأخذ شيئاً . وحين يدرك بعض الاهل انهم في قبضتنا فانهم يدفعون غالياً ثمن الصمت . ليس في نيتنا ان نجعلهم يصرخون . فنحن اناس شرفاء . والمقصود الاحتفاظ بهم . سكوتهم مقابل سكوتنا . ليصمتوا وليجعلوا غيرهم يصمت ؛ حينئذ سنسكت نحن ايضاً . لنشرب نخب صحتهم .

وملأ ستروفيلو قدحين . وقرعاهما . وقال :

ـ هذا حسن . مما لا غني عنه خلق علاقات تبادل بين المواطنين . هكذا تتألف المجتمعات المتينة . يحصل الاتفاق ، ماذا ! نمسك الصغار ، الذين يمسكون اهلهم ، الذين يمسكوننا . هذا غاية في الاتقان . افهمت ؟

وفهم ليون تماماً . وضحك ، وبدأ قائلاً :

ـ جورج الصغير . . .

ـ ماذا ؟ . . جورج الصغير . . .

ـ مولينييه ؛ اظن انه ناضج . لقد سرق رسائل لوالده مرسلة من فتاة في الاولمبيا .

ـ أرأيتها ؟ . .

ـ أراني اياها . وسمعته حين كان يتحدث مع أدامنتي . اعتقد انهما كانا مسرورين لأني سمعتهما . وعلى كل حال فهما لا يختبئان مني ؛ لقد اتخذت احتياطاتي لذلك وقدمت لهما طبقاً على طريقتك لأجعلهما يثقان بي . كان جورج يقول لفيليب (لكي يدهشه) : « ان لأبي عشيقة » . واجاب فيفي على ذلك حتى لا يبقى متأخراً عنه : « ابي له اثنتان » وكانت هذه حماقة ، فليس هناك ما يوجب ان يتضاربا من اجله ؛ ولكني اقتربت وقلت لجورج : « ماذا تعرف عن ذلك ؟ . . » فقال لي : « لقد رأيت رسائل » . فتظاهرت بالارتياب ، وقلت : « يا لها كذبة . . . » اخيراً دفعته فأنتهى بان قال لي ان هذه الرسائل موجودة معه ، واخرجها من محفظة كبيرة ، وأراني اياها .

ـ أقرأتها ؟ . .

ـ لم يكن لدي وقت . رأيت فقط انها بخط واحد ، وواحدة منها مرسلة الى : « هري الكبير العزيز » .

ـ وموقعه ؟ . .

ـ « فأرتك البيضاء » . وقد سألت جورج : « كيف اخذتها ؟ » حينئذ اخرج من جيب بنطلونه ، وهو يمزح ، سلسلة مفاتيح ضخمة وقال لي : « يوجد مفاتيح لجميع الادراج » .

ـ وماذا قال السيد فيفي ؟ . .

ـ لا شيء . اظن انه اصيب بالغيرة .

ـ وهل يعطيك جورج هذه الرسائل ؟

ـ سأعرف كيف ادفعه الى ذلك، اذا لزم الامر . لم أشأ ان آخذها منه . وسيعطيها اذا مشى فيفي ايضاً . فالاثنان يدفع واحدهما الآخر .

ـ هذا ما يسمى بالمنافسة . الم تر آخرين غيرهم في البنسيون ؟

سأبحث .

ـ اريد ان اقول لك ايضاً . . . لابد انك واجد في البنسيون من يدعى بوريس الصغير . هذا ، دعه وشأنه . ـ ثم توقف قليلاً واضاف بصوت اكثر انخفاضاً : ـ موقتاً .

اوليفييه وبرنار هما الآن جالسان في مطعم في الشارع . وقد

ذاب شقاء اوليفييه كالجليد في الشمس امام ابتسامة صديقه الحارة . ان برنار يتجنب ان يلفظ اسم باسافان ؛ وشعر اوليفييه بذلك ؛ انها غريزة خفية انذرته . ولكن هذا الاسم على شفتيه ؛ يجب ان يتكلم ، وليحدث ما يحدث .

ـ نعم ، لقد عدنا قبل ان أخبر عائلتي . في هذا المساء سيقيم محررو مجلة « الأرغونوت » مأدبة . ويحرص باسافان على حضورها . انه يريد ان تعيش مجلتنا على وئام مع شقيقتها الكبرى وان لا تقف منها موقف الخصومة . . . يجب ان تأتي ؛ وتعرف . . . يجب ان تأتي بادوار اليها . . . ليس الى المأدبة نفسها ،لأنه لا بد أن يكون مدعواً ولكن بعد انتهائها . ستقام في احدى قاعات الطبقة الاولى في حانة البانتيون . وسيكون هناك محررو «الأرغونوت» الرئيسيون وكثيرون من الذين سوف يساعدون في تحرير « الطليعة » . عددنا الاول جاهز تقريباً ؛ ولكن قل . . . لماذ لم ترسل الي شيئاً ؟

فأجاب برنار بشيء من الجفاف :

ـ لأنه لم يكن لدي شيء جاهز .

واصبح صوت اوليفييه شبه متوسل :

ـ كتبت اسمك بجانب اسمي في الملخص . . . يمكن الانتظار قليلاً اذ لزم الأمر . لا يهم مهما يكن . . . ولكن اي شيء . . لقد وعدتنا . . .

وكـان يشق على بـرنار ان يكـدر اوليفييه ؛ ولكنـه قـال متشدداً :

ـ اسمع يا صديقي ، من الافضل ان اقول لك حالاً ؛ اخشى ألا اتفاهم جيداً مع باسافان .

ـ ولكن ما دمت انا الذي يتولى الرئاسـة ! لقد تـرك لي الحرية الكاملة .

ـ ثم ، لا يرضيني ان أرسل اليك اي شيء . اني لا اريد ان اكتب « اي شيء » .

ـ قلت « اي شيء » لأني اعرف تماماً ان اي شيء يصدر عنك يكون بالغ الجودة . . . ومن المؤكد انه لن يكون « اي شيء » .

لم يدر ما يقول . انه يدندن . لو لم يشعر بوجود صديقه بقربه لما بقيت هذه المجلة تهمه . انه جميل هذا الحلم ، ان يبدآ العمل معاً .

ـ ثم ، يا صديقي ، لو بدأت اعـرف جيداً مـا لا اريد عمله ، فاني لا أعرف بعد ما سأعمله معرفة جيدة . حتى اني لا اعرف اذا كنت سأكتب .

هذا التصريح احزن اوليفييه . ولكن برنار تابع :

ـ ما من شيء يغريني في ما اكتبه بسهولة . ولأني أسبك عباراتي جيداً اخاف العبارات الجيدة السبك . وليس ذلك لأني احب الصعوبة لمجرد الصعوبة ولكني ارى ان ادباء اليوم لا

يتعبون انفسهم . لكي اكتب رواية ، فاني لا اعرف بعد حياة الآخرين معرفة كافية ، وانا نفسي لم اعش بعد . والشعر يضجرني . والتفعيلات بليت حتى الخيوط ، والشعر الحر مشوه . ان الشاعر الوحيد الذي يعجبني اليوم هو رامبو .

ـ هذا بالضبط ما اقوله في البيان .

ـ اذاً لا لزوم لتكراره . كلا يا صديقي ؛ كلا . لا اعرف اذا كنت سأكتب . يبدو لي احياناً ان الكتابة تمنع من الحياة وان من الممكن ان يوضح المرء افكاره بالاعمال اكثر من الكلمات .

ـ المؤلفات الفنية هي اعمال خالدة .

هكذا جازف اوليفييه بخوف . ولكن برنار لم يسمعه :

ـ وهذا ما يعجبني اكثر من كل شيء في رامبو ؛ هو انه آثر الحياة .

ـ لقد أفسد حياته .

ـ ماذا تعرف عنه ؟ . .

ـ اوه ! هذا ، يا صديقي . . .

ـ لا يمكن الحكم على حياة الاخرين من الخارج . ولكن ، لنسلم انه أخفق ؛ انه سيء الحظ ، البؤس والمرض . . . مهما كانت حياته فاني أغبطه ؛ نعم ؛ نعم ، تزداد غبطتي له حتى مع نهايته القذرة ، كنهاية . . .

ولم يتم برنار عبارته ، كان على اهبة تسمية معاصر شهير .

وقد تردد بين اسماء كثيرة . هز كتفيه وتابع :

ـ اني اشعر في نفسي ، بشكل غامض ، باندفاعات قلبية خارقة للعادة ، بانواع من الامواج العميقة ، بحركات ، بتململ غير مفهوم ، وبانني لا اريد محاولة فهمها ، ولا اريد ايضاً ملاحظتها خوفاً من منعها من الحدوث . منذ وقت غير طويل لجأت الى تحليل نفسي دون انقطاع ، كانت لدي عادة التكلم الى نفسي باستمرار . والآن ، حين اريد ذلك ، لا أستطيع . لقد انتهت هذه العادة الغريبة فجأة ، حتى دون ان انتبه اليها . اعتقد ان هذه المناجاة للنفس ، هذا « الحوار الداخلي » كما يقول استاذنا ، كان يتطلب نوعاً من التجزئة لم اعد قادراً عليها منذ اليوم الذي بدأت احب احداً غيري ، اكثر من نفسي .

فقال اوليفييه :

ـ تريد التحدث عن لورا . الا تزال تحبها دائماً كالسابق ؟

فقال برنار :

ـ كلا ، بل اكثر . اعتقد ان خاصة الحب هي هذه ، ألا تستطيع البقاء على حال واحد ، ان تضطر الى الزيـادة تحت طائلة النقصان . وهذا ما يميزه عن الصداقة .

فقال اوليفييه بكآبة :

ـ وهي ايضاً يمكن ان تضعف .

ـ اعتقد ان الصداقة ليست ذات هوامش واسعة .

ـ قل . . . لن تغضب اذا سألتك شيئاً ؟

ـ سترى جيداً .

ـ ان ما اريده هو الا اغضبك .

ـ سيزداد غضبي اذا احتفظت بأسئلتك لنفسك .

ـ اريد ان اعلم اذا كنت تشعر حيال لورا . . . بالرغبة ؟

فأصبح برنار فجأة كثير الرصانة :

ـ لا بأس ما دمت انت . . . حسناً يا صديقي . يجري في داخلي شيء غريب ، هو انني منذ ان عرفتها لم يعد عندي رغبات . انا الذي كان في السابق ، وانت تذكر ، يشتعل دفعة واحدة لعشرين امرأة التقي بهن في الشارع (وهذا ما منعني من اختيار واحدة منهن) . اما الآن ، فأعتقد انني لن استطيع ان اكون حساساً لشكل آخر من الجمال غير جمالها ؛ وانني لن استطيع ابداً ان احب جبهة اخرى كجبهتها ، كشفتيها ، كنظرتها . ولكن ما اشعر به نحوها هو الاجلال . وبقربها ، فان كل فكرة جسدية تبدو لي كافرة . اعتقد انني اخطأت في حكمي على نفسي ، وان طبيعتي طاهرة جداً . لقد سمت غرائزي بفضل لورا . واشعر في نفسي بقوة كبيرة غير مستعملة ، واريد استعمالها . انا أغبط الراهب الذي يطوي كبرياءه تحت النظام ؛ ذلك الذي يقال له : « انا اعتمد عليك » . اغبط الجندي . . . او بالاحرى ، كلا ، انا لا اغبط احداً . ولكن طيشي الداخلي

ـ نعم . سأحاول ان آتي بادوار . لكنك تعلم انه لا يحب باسافان كثيراً . واجتماعات الادباء تقتله . سيكون مجيئه لرؤيتك فقط .

قل : الا استطيع رؤيتك بعد امتحان اللاتينية ؟

لم يجب اوليفييه فوراً . كان يفكر يائساً انه وعد باسافان بالذهاب للقائه في الساعة الرابعة عند صاحب المطبعة التي ستطبع « الطليعة » . ما الذي لم يعطه ليكون حراً ! . .

ـ كنت اريد بطيبة خاطر ولكني مرتبط .

ـ لا بأس .

وعلى هذا افترق الصديقان .

لم يقل اوليفييه شيئاً لبرنار من كل ما وعد نفسه بان يقوله له . كان يخشى ان يغيظه . وقد اغاظ نفسه . ومع انه كان كثير المرح هذا الصباح فقد مشى الآن مطأطأ الرأس . ان صداقة باسافان التي كان فخوراً بها في بادىء الامر اصبحت تضايقه ؛ لأنه شعر بنفور برنار يثقل عليها . هذا المساء ، وفي هذه الوليمة ، لو رأى صديقه تحت انظار الجميع لما استطاع ان يكلمه . وهذه الوليمة يمكن الا تكون مسلية الا اذا لقي احدهما الآخر قبلاً . وتلك الفكرة المكدرة التي املاها الزهو بان يجتذب الى الحفلة الخال ادوار ايضاً ! عليه ان يتيه عجباً الى جانب باسافان المحاط بالكتاب الكبار والزملاء والذين سيساعدون في

المستقبل في تحرير « الطليعة » ! سيزداد خطأ أدوار في حكمه عليه ؛ لا شك في أنه سيظل مخطئاً في حكمه عليه الى الابد . لو كان يستطيع على الاقل ان يراه قبل هذه المأدبة ! . . يراه حالاً . سيرتمي على عنقه ؛ وربما بكى ؛ سيفضي اليه بدخيلته . لا يزال لديه وقت من الآن حتى الساعة الرابعة . سيارة ، بسرعة .

اعطى السائق العنوان . وصل امام الباب وقلبه يدق . رن الجرس : لقد خرج ادوار .

مسكين اوليفييه ! لماذا لا يذهب الى اهله بكل بساطة بدلاً من الاختباء منهم ؟ . . لو ذهب لوجد خاله ادوار بجانب والدته .

٦

يوميات ادوار

«يخدعنا الروائيون حين ينشئون الفرد دون أن يحسبوا حساباً لضغط المحيط. أن الغابة تكيف الشجرة. لم يترك لكل منا إلا مكان صغيرا كم من براعم قد ضمرت! كل واحد يقذف فرعه حيث يستطيع. الغصن الصوفي في الغالب، مدين للقمع. لا

يضيق علي وآمل ان اهذبه . انه كالبخار في داخلي ، يمكن ان يتفلت بالتنفس (هذا هو الشعر) ، ويدير مكابس ، ودواليب ، او انه يفجر الآلة . اتدري ما العمل الذي يبدو لي احياناً اني اوضح افكاري بموجبه بشكل افضل ؟ انـه . . . اوه ! اعرف جيداً انني لن اقتل نفسي . ولكني افهم ديمتري كارامـازوف باعجاب حين سأل اخاه اذا كان يدرك ان من الممكن ان يقتـل المرء نفسه بدافع الحماسة ، بدافع افراط بسيط في الحياة . . ـ بالانفجار .

اشعاع غير عادي كان ينبثق من كيانه كله . ما أحسن ما أوضح افكاره ! . . كـان اوليفييه يتـأمله بنوع من الاعجـاب الشديد . وتمتم بخوف :

ـ انا ايضاً ، افهم ان يقتل المرء نفسه . ولكن هذا يحدث بعد ان يكون قد تذوق سروراً عظيماً تشحب معه كل حياته التي تلي ؛ سرور يمكن ان يقول المرء بعده : يكفي ، انا مسرور ، ابداً لن . . .

ولكن برنار لم يكن يسمعه . فصمت . ما فائدة الكلام في الفراغ ؟ لقد تجهمت سماؤه كلها من جديد . سحب بـرنار ساعته :

ـ حان وقت ذهابي . اذا ، قلت ، هذا المساء . . . في اي ساعة ؟

ـ اوه ! . . اعتقد ان الساعة العاشرة هي الوقت المناسب أتأتي ؟

يمكن التفلت إلا في الأعالي. أنا لا أفهم كيف عملت بولين لكي تمنع نمو غصن صوفي، ولا أي زيادات في الضغط تنتظر كلمتني بمودة لم تفعلها حتى الآن. وأعترف بأن الشك لم يساورني بكل ما تخبىء تحت مظاهر السعادة من غموم واستسلام. ولكني أعترف أنها بحاجة إلى نفس خاملة جداً لكي لا يخدعها مولينييه . . . بحديثي معه أمس الأول استطعت أن أقيس حدوده. كيف استطاعت بولين أن تتزوجه؟. . مع الأسف! . . أن النقص المحزن، نقص السجية، مخبأ ولا يكشف نفسه إلا عند الاستعمال.

« لقد وجهت بولين كل عنايتها لستر نقص زوجها وضعفه ، ولإخفاء ذلك عن عيون الجميع ؛ وخصوصاً عن عيون الاولاد . كانت تحتال لتتيح لهؤلاء الاولاد ان يحترموا والدهم . الحقيقة بذلت جهداً .

لكنها تصرفت بشكل صرت معها نا نفسي مخدوعاً . انها تتحدث عن زوجها دون احتقار ؛ ولكن بنوع من التساهل فيه الكثير من المعنى . هي تشكو من انه ليس ذا سلطة على الاولاد ؛ ولما كنت قد عبرت عن اسفي لرؤية اوليفييه مع باسافان ، فقد ادركت انه لو كان الامر متعلقاً بها وحدها لما كان هناك مكان لرحلة الى كورسيكا . وقد قالت لي :

« ـ لم استصوب هذا الرحيل . وهذا السيد باسافان ، والحق يقال ، لا يعجبني ابداً . ولكن ، ماذا تريد ؟ الامر الذي

اری انني لا استطيع منعه أفضل الموافقة عليه بالرضا . اوسكار نفسه يخضع دائمًا ! يخضع لي انا ايضاً . ولكن حين اری من واجبي ان اعارض بعض مشاريع الأولاد ، واقاومهم ، وأقف في وجههم ، فاني لا اجد عنده اي سند . ان فنسان نفسه تدخل في القضية . عندئذ ، اية مقاومة استطيع فيها معارضة اوليفييه دون المجازفة بنزع ثقته بي ؟ هذه الثقة هي التي اتمسك بها .

« كانت تصلح جوارب قديمة من تلك التي لا يرضى بها اوليفييه ، كما قالت لي . وقد توقفت لتدخل الخيط في الابرة . ثم قالت بنبرة اكثر انخفاضاً كأنها اكثر ثقة واكثر كآبة :

« ـ ثقته . . . لو كنت على الأقل واثقة من حصولي عليها ! ولكن لا ؛ لقد فقدتها . . .

الاعتراض الذي اقدمت عليه دون اقتناع ، جعلها تبتسم . لقد تركت الشغل يسقط من يدها وقالت :

« ـ إليك : انا اعرف انه في باريس . لقد التقى به جورج هذا الصباح ؛ قال ذلك بطريق العرض . وتظاهرت بعدم سماعه لأنه لا يعجبني ان اراه يشي بأخيه . ولكني اخيراً عرفت . ان اوليفييه يختبىء مني . وحين اراه سيظن انه مجبر على الكذب ، وسأتظاهر بتصديقه ، كما اتظاهر بتصديق والده حين يختبىء مني في كل مرة .

« هذا من خوفه ان يحزنك .

« ـ هكذا يزيد حزني . انا لست منصلبة . فهناك عدد من الذنوب الصغيرة أتساهل بها ، واغمض عنها عيني

« ـ عمن تتكلمين الآن ؟

« ـ اوه ! . . عن الأب والابن ايضاً .

« ـ انك ايضاً تكذبين عليهما بتظاهرك بعدم رؤيتهما

« ـ ولكن كيف تريد ان افعل ؟ هذا اكثر مما يجب عدم الشكوى منه . ولكني مع ذلك لا استطيع استحسانه ! كلا ، وانت ترى ، وقد قلت لنفسي ان قبضتي ستفلت عنهم عاجلاً ام آجلاً ؛ وأن احنى حب لا بستطيع عمل شيء في سبيل ذلك . ماذا اقول ؟ انه يضايق ، انه يزعج . وقد اتوصل الى اخفاء حتى هذا الحب .

« ـ انت الآن تتحدثين عن اولادك .

« ـ لماذا قلت هذا ؟ اتزعم انني لا اعرف ان احب اوسكار ؟ . . اقول هذا لنفسي احياناً ؛ ولكني اقول لنفسي ايضاً ان خوفي من ان اتعذب كثيراً يمنعني من ان ازداد حباً له . و . . نعم ، لابد أن تكون على حق . اذا كان الامر يتعلق بأوليفييه فاني افضل ان أتعذب .

« ـ وفنسان ؟

« ـ قبل بضع سنوات كنت اقول عنه ما قلته عن اوليفييه .

« ـ يا صديقتي المسكينة . . . وعما قليل ستقولينه عن جورج .

« ـ ولكن المرء يستسلم ببطء . ومع ذلك لا يطلب الكثير من الحياة . يتعلم المرء ابضاً ان يطلب اقل . . . دائماً اقل ـ ثم اضافت بهدوء : ـ اما من نفسه فدائماً اكثر .

« فقلت مبتسماً بدوري :

« ـ بهذه الافكار يكون المرء مسيحياً تقريباً .

« ـ وهذا ما أقوله احباناً لنفسي ، ولكن ان يكون مع المرء هذه الافكار ، لا يكفي ليكون مسيحياً .

« ـ ولا يكفي ايضاً ان يكون مسيحياً لتكون معه هذه الافكار .

« ـ لقد فكرت كثيراً ، ودعني اقل لك أنك تستطيع التحدث الى الاولاد ما دام والدهم غير موجود .

« ـ ان فنسان بعبد

« ـ لقد فات الوقت معه . انى افكر في أوليفبيه . كنت اتمنى ان يذهب معك .

« لدى هذه الكلمات ، التي تركتني اتخيل فجأة ما كان يمكن ان يحدث لو لم اقبل المغامرة دون تبصر ، شعرت بتأثر مخيف يضيق علي ، ولم استطع ايجاد شيء اقوله في بادىء الامر ؛ وبما ان الدموع صعدت الى عيني ، قلت متأوهاً راغباً في

اعطاء اضطرابي مظهراً معللاً :

« - ومع اوليفييه ايضاً اخشى ان يكون الوقت قد فات .

« فأمسكت بولين عندئذ بيدي وقالت :

« - ما أطيب قلبك !

« وشعرت بالضيق لرؤيتها تخطىء بهذا الشكل ، وبما انني لا اريد خداعها فقد اردت على الاقل ان اوجه الحديث نحو موضوع جعلني اكثر ضيقاً .

« فسألت :

« - وجورج ؟

« فأجابت :

« - انه يسبب لي هموماً لم يسببها الاثنـان الآخران . لا أستطيع ان اقول عنه انه افلت من قبضتي لأنه لم يكن قط واثقاً ولا خاضعاً .

« وترددت بضع لحظات . من المؤكد ان ما يأتي كان صعباً عليها قوله .

« - جرى في هذا الصيف حادث خطير ، حادث يؤلمني جداً ان اسرده لك ، وقد احتفظت ببعض الشكوك حول موضوعه . لقد اختفت ورقة مالية بمئة فرنك من الخزانة حيث كان من عادتي ان اضع مالي . وخوفي من الارتياب الخاطىء امسكني عن اتهام احد . والخادمة التي تخدمنا في الفندق فتاة صغيرة جداً

وتبدو لي امينة . قلت امام جورج اني فقدت هذا المال ؛ وأعترف لك ان شكوكي اتجهت اليه . لم يضطرب . لم يحمر خجلاً . . . خجلت من شكوكي ! . . اردت ان اظن انني كنت مخطئة ؟ أعدت حسابي . مع الاسف ! ليس هناك من وسيلة للشك : مئة فرنك بالناقص . ترددت في سؤاله ، واخيراً لم استطع عمل شيء معه . لقد أوقفني الخوف من ان اراه يضيف الكذب الى السرقة . هل كنت مخطئة ؟ نعم ، اني الوم نفسي الآن لأني لم اكن كثيرة الالحاح . لعلي ايضاً كنت اخاف الاضطرار الى ان اكون صارمة ؛ او لعدم معرفتي ان اكون كذلك ؛ والخلاصة مثلت دور من تجهل ، ولكن قلبي تعذب كثيراً ، أؤكد لك . تركت الوقت يمضي وقلت لنفسي ان الوقت فات وان العقاب اصبح بعيداً جداً عن الخطأ . وكيف اعاقبه ؟ . . لم افعل شيئاً ؛ ولمت نفسي على ذلك . . . ولكن ماذا كان في وسعي ان اعمل ؟ . .

« فكرت في ارساله الى انكلترا ؛ واردت ايضاً ان استشيرك في هذا الموضوع ، ولكني لم اكن اعرف اين كنت . . . على الاقل لم أخف عنه كدري وقلقي ، وأعتقد انه أحس بذلك لأنه ذو قلب طيب ، وانت تعرف . . . اعتمدت على اللوم الذي يستطيع ان يوجهه الى نفسه ، اذا كان هو السارق حقيقة ، اكثر من اعتمادي على ما أستطيع توجيهه اليه . انه لن يعود الى ذلك وانا واثقة . كان هناك بصحبة رفيق غني جداً يجره الى الانفاق .

اكيد تركت الخزانة مفتوحة . . . ومرة اخرى ايضاً لست متأكدة من انه هو . فهناك كثير من الناس العابرين يجولون في الفندق .

« أعجبت بمهارتها حين وضعت في المقدمة ما يبرىء ولدها . وقلت :

« ـ كنت اتمنى ان يعيد المال ال المكان الذي اخذه منه .

« ـ قلت ذلك لنفسي أيضاً . وبما انه لم يفعل ، فقد اردت ان ارى في ذلك برهاناً على براءته . وقلت لنفسي ايضاً انه لا يجرؤ .

« ـ وهل حدثت والده عن ذلك ؟ . .

« ـ فترددت لحظات وقالت اخيراً :

« ـ كلا ، افضل الا يعرف شيئاً .

« ظننت انها سمعت حركة في الغرفة المجاورة فذهبت تطمئن الى عدم وجود احد ، ثم عادت الى الجلوس بجانبي .

« ـ قال لي اوسكار انكما تناولتما الغداء معاً ذلك اليوم . وقد اثنى عليك كثيراً بحيث اعتقدت انك اضطررت الى الإصغاء اليه بوجه خاص . (وابتسمت بكآبة عند قولها هذه الكلمات) . اذا كان قد اسر اليك باعترافات فاني اريد احترامها . . . ثم اني اعرف عن حياته الخاصة اكثر بكثير مما يظن . . . ولكن منذ عودتي لم افهم ما به . انه مخطىء . منذ

زمن طويل وانا على علم بالعلاقات التي يعقدها . . . حتى اني اعرف مع من . هو يظن أني أجهلها ويتخذ احتياطات ضخمة ليخفيها عني ؛ ولكن هذه الاحتياطات شفافة الى درجة انها تظهر اكثر مما تخفي . وفي كل مرة يتأهب للخروج يتظاهر بهيئة المشغول ، المعاكس ، المهموم . اعرف انه يركض وراء لذته . كنت راغبة في ان اقول له : « ولكن يا صديقي ، لن أمسكك ، هل انت خائف من ان أغار؟ . . » كنت أضحك لو استطعت . وكان خوفي الوحيد هو الا يلاحظ الاولاد شيئاً ؛ انه كثير الغفلة ، كثير الخرق ! . . احياناً اجد نفسي مجبرة على مساعدته دون ان يشعر ، كما لو انني استعد للعبه . وقد انتهيت بأن اجد في ذلك شبه تسلية ، أؤكد لك . لقد اختلقت له اعذاراً ، وأعدت الى جيب معطفه رسائل تركها تقع .

«فقلت لها :

« ـ من المؤكد انه يخشى ان تكوني قد وقعت على الرسائل .

« ـ اقال لك ذلك ؟

« ـ هذا ما جعله خائفاً .

« ـ اتعتقد اني احاول قراءتها ؟

« وانتصبت بفعل شيء من الكبرياء الجريحة . واضطررت ان اضيف :

« ـ الامر لا يتعلق بتلك التي أضاعها سهواً ؛ بل برسائل كان وضعها في احد الادراج وقال انه لم يجدها . هو يعتقد انك استوليت عليها .

« عند هذه الكلمات رأيت بولين تشحب . والشك الرهيب الذي ساورها استولى فجأة على نفسي . أسفت لأني تكلمت ، ولكن ما فات فات . حولت نظرها عني وتمتمت :

« ـ حاشا ان اكون أنا . . .

« وبدت متعبة . ورددت :

« ـ ما العمل ؟ ما العمل ؟ . . ـ ثم رفعت عينيها الي من جديد : ـ الا تستطيع انت ان تكلمه ؟ . .

« ومع انها تجنبت مثلي ان تلفظ اسم جورج ، الا انه كان من الراهن انها تفكر فيه .

« ـ سأجرب . سأفكر في ذلك .

« هكذا قلت لها وانا انهض . وحين رافقتني الى غرفة الزوار قالت :

« ـ لا تقل شيئاً من ذلك لأوسكار . ارجوك . ليستمر على ارتيابه بي ؛ وليظن ما يظن . . . هذا أفضل . عد لرؤ يتي » .

٧

فكر أوليفييه الشديد الحزن لعدم لقائه الخال أدوار، والذي لا يستطيع احتمال وحدته، فكر في تحويل قلبه نحو أرمان بحثاً عن الصداقة. ولذلك سار في طريق بنسيون فيدال.

استقبله أرمان في غرفته. كانت هناك سلم للخدم توصل إليها. إنها غرفة صغيرة ضيقة، تطل نافذتها على ساحة داخلية وتشرف عليها أيضاً مستراحات ومطابخ البناية المجاورة. وهناك عاكس للنور من الزنك المنتفخ يجتني الضوء من أعلى ويخفضه شاحباً. الغرفة سيئة التهوية وتعمرها رائحة متعبة.

وقال أرمان:

ـ هكذا اقتضى الأمر. أنت تعلم أن أهلي يحتفظون بأفضل الغرف للتلامذة الذين يدفعون. وهذا طبيعي. وقد تخليت عن الغرفة التي كنت أشغلها في السنة الماضية إلى فيكونت: شقيق صديقك الشهير باسّافان. أنها تليق بالأمراء؛ كثير من الغرف هنا تحت رقابة راشيل، ولكنها كلها ليست مستقلة. وهكذا فإن ساره المسكينة التي عادت من انكلترا هذا الصباح لترجع إلى غرفتها الجديدة، مجبرة على المرور من غرفة أهلي (الأمر الذي لا

يحل قضيتها)، أو من غرفتي التي لم تكن في بادىء الأمر سوى غرفة زينة أو مستودع للأمتعة القديمة. أن لدي هنا على الأقل ميزة الدخول والخروج حينما أريد، دون أن يتجسس علي أحد. وأفضل هذه الغرفة على غرفة السقف حيث يسكن الخدم. حقيقة القول إني أحب أن أكون في مسكن سيء، لأن أبي سوف يدعو ذلك: ذوق النقع، وسوف يشرح لك أن ما هو ضار بالجسم يهيء خلاص النفس. والخلاصة، فهو لم يدخل إلى هنا قط. وأنت تعلم أن لديه شواغل أخرى غير القلق على مأوى ولده. والدي مدهش جداً. يعرف عن ظاهر قلب كدسة من عبارات التعزية لأجل حوادث الحياة الرئيسية. وهي جميلة على السمع. ومما يؤسف له أن لا وقت لديه للتحدث... ها أنت ترى رواق لوحاتي؛ والمرء يتمتع بشكل أفضل في الصباح.

هذه، أنها صورة على الخشب بالألوان، لأحد تلامذة باولو أو كسللو؛ ليستعملها الأطباء البيطريون. لقد ركز الفنان على حصان واحد، في جهد بديع من التركيب، كل الآلام التي بمساعدتها تطهر العناية الإلهية النفس الحصانية. سوف تلاحظ روحانية النظرات... وهذه، أنها لوحة رمزية عن مراحل الحياة، من المهد إلى اللحد. وهي كرسم، ليست قوية جداً، ولكن قيمتها في القصد منها. وهناك، بعيداً، ستعجب بصورة فوتوغرافية لأحدى مخطيات تيسيان، أني أضعها فوق سريري لتوحى إلي أفكاراً داعرة. وهذا الباب، هو باب غرفة ساره.

منظر المكان شبه القذر أثر على أوليفييه بشكل مؤلم.

فالسربر لم يكن مرتباً. وعلى طاولة الزينة لم يكن الطشت قد أفرغ من الماء.

وقال أرمان مجيباً على نظراته القلقة:

ـ نعم، إني أرتب غرفني بنفسي. هنا ترى طاولة عملي ليس لديك أي فكرة عما يوحيه إلى جو هذه الغرفه:

«جو العزلة العزيزة...»

إني مدين لهذا الجو بفكرة قصيدتي الأخيرة: «المبولة».

جاء أوليفييه لرؤية أرمان قاصداً أن يحدثه عن مجلنه ويحصل على مساعدته؛ لم يعد يجرؤ على ذلك. ولكن أرمان فتح الحديث من تلقائه:

ـ «المبولة!». ما أجمل هذا العنوان!.. مع ذلك الشاهد لبودلير:

«هل تنتظر أيها الإناء المأتمي
شيئاً من البكاء؟...»

إني أستعيد منه تلك المقارنة القديمة (الشابه دائماً) للخزّاف المبدع الذي يكيف كل كائن بشري على هيئة إناء مدعو لأن يحتوي ما لا يُعرف. وأقارن نفسي، باندفاع غنائي، بالإناء المذكور؛ وهي فكرة، كما قلت لك، جاءتني وأنا اتنشق رائحة هذه الغرفة. وأنا مسرور على الخصوص من استهلال القصيدة:

«كل من في الأربعين لم يكن مصاباً بالبواسير . .»

وقد وضعت في بادىء الأمر لطمأنينة القارىء: «كل من في الخمسين. . .» ولكن هذا يفسد علي الترديد. أما «البواسير» فهي فعلاً أجمل كلمة في اللغة الفرنسية، بصرف النظر عن معناها.

هكذا أضاف مقهقهاً. أما أوليفييه فكان صامتاً منقبض القلب. وتابع أرمان:

ـ لا فائدة من القول لك أن المبولة قد فُتِنت على الخصوص حين تلقت زيارة إناء مثلك مليء بالطيب.

وانتهى أوليفييه إلى السؤال بيأس:

ـ ألم تكتب شيئاً غير هذا؟ . . .

ـ كنت سأعرض «مبولتي» على مجلتك المجيدة، ولكن مع اللهجة التي قلت فيها «هذا؟ . .» أرى أنه ليس هناك من حظ لإرضائك. وفي هذه الحالات يظل عند الشاعر سبيل ليبرهن: «أنا لا أكتب لأرضي الناس» ولأن يتوهم أنه باض إحدى الطرف. ولكن ليس لي أن أخفي عنك أنني رأيت قصيدتي كريهة. وباختصار، فإني لم أكتب منها سوى البيت الأول. وحينما أقول «أكتب» فهذه أيضاً طريقة في التعبير، لأني صنعتها على شرفك، في اللحظة نفسها. . . كلا، ولكن أتفكر حقيقة في نشر شيء لي؟ . . . أتتمنى مساعدتي؟ . . . إذن لم تحكم علي بأني غير قادر على كتابة شيء خاص بي؟ . . هل أبصرت جلياً على جبهتي

سمات العبقرية الكاشفة؟.. اعلم أن الرؤيه هنا غير جيدة لكي يتطلع المرء إلى المرآة، ولكن حين أتـأمل نفسي فيهـا، كنرسيس، لا أجد سوى رأس خائب. وبعد كل شيء يمكن هذا أن يكون من تأثير انعكاس الضوء.... كلا يا عزيزي أوليفييه، كلا، لم أكتب شيئاً في هذا الصيف. وإذا كنت تعتمد علي في مجلتك فبإمكانك تنظيف نفسك بالفرشاة. ولكن كفى كـلاماً عني... إذن هـل مضى كل شيء عـلى ما يـرام في كورسيكا؟... هل ارتحت جيداً من أتعابك؟.. هل...

ـ اسكت يا صديقي. كفى مزاحاً... إذا كنت تظن أني أجد هذا طريفاً...

فقال أرمان:

ـ حسناً... وأنا!... آه!. كلا، يا عزيزي؛ ليس الأمر هو نفسه!. لست بالأحمق إلى هذا الحد. عندي أيضاً ما يكفي من الذكاء لأدرك أن كل ما أقوله لك هو بلاهة.

ـ ألا تستطيع أن تتكلم بجد؟..

ـ سنتكلم جدياً ما دام النوع الجدي يرضيك. راشيل، اختي الكبرى، أصبحت عمياء. ضعف بصرها كثيراً في هذه الأيام الأخيرة. ومنذ سنتين لا تستطيع القراءة دون نظارات. ظننت أولاً أنه ليس عليها إلا أن تغير الزجاج. ولكن هذا لم يكفـ. وقد استشارت اختصاصياً بناء على توسلاتي. فبدا أن

الحساسية الشبكية هي التي ضعفت. أنت تدرك أن هناك شيئين مختلفين جداً: فمن ناحية، تكييف معيب للبلور بحيث يسبب الزجاج الشفاء. ولكن حتى بعدما أبعد الزجاج الصورة البصرية وقرّبها فإن هذه يمكن أن تؤثر تأثيراً غير كاف على الشبكة وهذه الصورة لا تُنقل إلى الدماغ إلا مشوشة. هل كلامي واضح؟.. أنت لا تعرف راشيل تقريباً. والنتيجة، إياك أن تظن إني أحاول إثارة شفقتك على مصيرها. إذن، لماذا أقص عليك كل ذلك؟... لأنه خطر ببالي، وأنا أفكر في حالتها، أن الأفكار، كالصور، يمكن أن تعرض على الدماغ بشكل أكثر أو أقل وضوحاً. أن الروح العليظة لا تتلقى سوى إدراكات مشوشة، ولكن، بسبب هذا نفسه، لا تهتم بأنها غليظه. ولن تبدأ بالتألم من حماقتها إلا إذا وعت هذه الحماقة، ولكي تعي ذلك يجب أن تصبح ذكية. تخيّل هذا المسخ لحظة: أن في الأبله من الذكاء ما يكفي ليدرك أنه أبله

- إذن، لن يكون أبله.

- بلى يا عزيزي، صدقني. أنا أعرفه. ما دام هذا الأبله هو أنا.

فهز أوليفييه كتفيه، وقال أرمان:

- الأبله الحقيقي لا يعي فكرة وراء فكرته. أما أنا، فإني أعي «في ما وراء». ولكني أبله مع كل هذا، لأني أعلم أن هذه الـ «في ما وراء» لن أستطيع بلوغها أبداً.

فقال أوليفييه باندفاع تعاطفي:

ـ ولكن، يا صديقي المسكين، كلنا خُلقنا هكذا بحيث لا نستطيع أن نكون أفضل مما نحن. واعتقد أن أعظم ذكاء هو الأكثر تألماً من حدوده.

ودفع أرمان اليد التي وضعها أوليفبيه بمودة على ذراعه، وقال:

ـ هناك آخرون يشعرون بما عندهم، أما أنا فليس عندي سوى الشعور بما ينقصني. نقص المال، نقص القوى، نفص العقل، نقص الحب. العجز دائماً. وسأبقى دائماً من هذا الجانب.

واقترب من طاولة الزينة وغمس فرشاة شعر في ماء الطشت القذر وأنزل شعره على جبهته بشكل شنيع.

ـ فلت لك أنني لم أكتب شيئاً. ومع ذلك جاءتني فكرة بحث في هذه الأيام الأخيرة، وقد دعوته: بحث في النقص. ولكن من الطبيعي أنني ناقص فلا أستطيع كتابته. وكنت قلت عنه... ولكني أزعجك.

ـ أكمل... تزعجني حين تمزح، أما الآن فتشوقني كثيراً.

ـ بحثت له خلال الطبيعة كلها عن الحد الأخير الذي لا يوجد بعده شيء. وإليك مثلاً يجعلك تفهم: نقلت الصحف حكاية عامل صعقته الكهرباء فمات. كان يحرك أشرطة الاتصال

بغفلة، ولم يكن الفولتاج كثير القوة، ولكن يبدو أن جسد العامل كان يرشح عرقاً. وقد عزي موته «لى تلك الطبقة الرطبة التي أتاحت للمجرى الكهربائي أن يغلف جسده. ولو كان الجسد أكثر جفافاً لما وقع الحادث. ولكن لنُضف العرق قطره بعد قطرة. . . قطرة واحدة أيضاً: وانتهى الأمر.

فقال أوليفييه:

ـ لم أفهم.

ـ هذا لأني لم أحسن اختيار المثل. دائماً لا أحسن اختيار امثلتي.

هذا مثل آخر: سنة من الغرقى التفطوا في زورق. منذ عشرة أيام والعاصفة تضللهم؛ مات ثلاثة، وأنقذ اثنان. أما السادس فكان مغمى عليه. وكان هناك أمل في إعادته إلى الحياة. كان جهازه العضوي قد بلغ الحد الأخبر.

فقال أوليفييه:

ـ نعم، فهمت. بعد ساعة يمكن إنقاذه.

ـ ساعة، ما أسرع ما تصل إلى نتيجة!. . أنا أحسب اللحظة النهائية: يمكن أيضاً. . . . يمكن أيضاً. لا يمكن أبداً!. . أنها حسكة ضيقة تتنزه روحي عليها. حطر التماس هذا الفاصل، بين الكائن واللاكائن، أسعى لأرسمه في كل مكان. حد المقاومة. . . إليك متلاً ما يدعوه أبي: إغواء. ولا

يزال يحدث عنه؛ الحبل ممدود حتى يكاد ينقطع، والشيطان يشد.. لو زاد الشد قليلاً جداً لانقطع الحبل: ويصبح المرء ملعوناً. أفهمت الآن؟ . قليل جداً بالناقص. اللاكائن. لو لم يخلق الله العالم لما كان شيء... «وجه العالم كان يتغير» يقول باسكال. ولكن لا يكفي أن أفكر: «لو كان أنف كليوبطرا أقصر قليلاً» بل ألح، واسأل: أكثر قصراً... بكم؟... لأنه أخيراً سيستطيع أن يقصر قليلاً جداً، أليس كذلك؟.. بالتدريج، بالتدريج، ثم، قفزة فجائية. . أن الطبيعة لا تقفز قفزاً Natura non facit saltus، الكذبة الجميلة! . أما أنا، فكالعربي خلال الصحراء، يكاد يموت عطشاً. أصل إلى تلك النقطة المعينة، أفهمت؟ حيث قطرة ماء يمكن أن تنقذه... أو دمعة...

واختنق صوته، فاتخذ نبرة مؤثرة أدهشت أوليفييه وجعلته يضطرب. وتابع بشكل أكثر هدوءاً وأكثر رقة تقريباً:

ـ أنت تذكر: «لقد ذرفت دمعة كهذه في سبيلك...».

من المؤكد أن أوليفييه يتذكر عبارة باسكال؛ وكان أيضاً متضايقاً لأن صديقه لم يسردها بدقة لم يستطع أن يمسك نفسه عن إصلاحها: «لقد ذرفت قطرة دم مثلها..».

وحالاً هبطت حماسة أرمان، فهز كتفيه:

ـ ماذا نستطيع حيال ذلك؟.. فهناك من يستقبلون وهم

مرفوعو الأيدي... أفهمت الآن ما يعني أن يشعر المرء دائمًا أنه «على الحد؟» سينقصني دائمًا نقطة...

وأخذ يضحك. فكر أوليفييه أن هذا الضحك بدافع الخوف من البكاء. كان يريد أن يتكلم بدوره، وأن يقول لأرمان كم حرّكته أقواله، ويقول له عما شعر به من غمّ تحت هذا التهكم الساخط. ولكن موعده مع باسافان جعله يسرع. فسحب ساعته، وقال:

- يجب ان أتركك. هل أنت حر هذا المساء؟..

- لماذا؟..

- لتأتي إلي في حانة البانتيون. أن جماعة «الأرغونوت» يقيمون مأدبة. ستذهب إلى هناك بعد نهايتها، سيكون هناك كثير من الناس الأكثر أو الأقل شهرة والمخمورين قليلاً. لقد وعدني برنار بروفيتانديو بالمجيء إلى هناك. يمكن أن يكون هذا مسلياً.

فقال أرمان بلهجة عابسة:

- لم أحلق ذقني. ثم ماذا تريد أن أعمل بذهابي بين ذوي الشهرة هؤلاء؟. ولكن أتعرف ماذا؟ سل ساره التي عادت هذا الصباح من انكلترا. أن هذا يسليها كثيراً، وأنا متأكد. أتريد أن أدعوها باسمك؟ سيأخذها برنار إلى هناك.

فقال أوليفييه:

- يا صديقي، لا بأس.

٨

كان من المتفق عليه إذاً أن يمر برنار وأدوار، بعد أن يتعشيا معاً، لبأخذا ساره قبل الساعة العاشرة بقليل. وكان أرمان قد أخبرها فقبلت العرض بسرور. وعند الساعة التاسعة والنصف انسحبت إلى غرفتها حيث رافقتها والدتها. وقد اجتازا غرفة الأبوين ليصلا إلى هذه الغرفة. لكن هناك بابا آخر، يُظن أنه مقفل، يصل بين غرفة ساره وغرفة أرمان التي تفتح من الناحية الأخرى على سلّم الخَدَم كما أسلفنا.

تظاهرت ساره أمام أمها بالنوم، وطلبت أن تُترك لتنام. وما إن أصبحت وحدها حتى اقتربت من طاولة زينتها لتعيد التألق إلى شفتيها وخديها. وطاولة الزينة تحجب الباب المغلق، وهي ليست كثيرة الثقل لتعجز ساره عن نقلها دون ضجة، وفتحت الباب السري.

كانت ساره تتخوف من أن تلتقي أخاها، لأنها تخاف سخريته. صحيح أن أرمان كان يشجعها في مجازفاتها الأكثر جسارة، حتى ليقال أنه يجد بها لذة، ولكن بنوع من التساهل الموقت فقط؛ وذلك ليقاضيها على الأثر وبكثير من الصرامة؛

حتى أن ساره لم تكن لتعرف إذا كانت تساهلاته ليست هي نفسها مادة صرامته.

كانت غرفة أرمان فارغة. جلست سارة على مقعد صغير منخفض، منتظرة وهي سارحة في تأملاتها. كانت تغرس في نفسها، بنوع من الاحتجاج الاحتياطي، احتقاراً سهلاً لجميع الفضائل المنزلية. كان الضغط العائلي قد وتّر نشاطها وأحنق غرائز التمرد فيها. وقد عرفت طوال مدة إقامتها في إنكلترا أن تزيد من حرارة شجاعتها، وكانت عازمة على نيل حريتها كالآنسة أبردين التلميذة الإنكليزية الشابة، وأن تمنح نفسها كل رخصة، وتجرؤ على كل أمر. كانت تشعر في نفسها بالاستعداد لمجابهة جميع الاحتقارات، وجميع التوبيخات، والقدرة على جميع التحديات. وفي دروسها السابقة إلى جانب أوليفييه كانت قد انتصرت على حشمتها الطبيعة وعلى كثير من الحياء المكتسب. كان مَثَل أختيها قد علمها؛ كانت تعتبر استسلام راشيل الديني غشاً. ولم ترض أن ترى في زواج لورا سوى عملية بيع محزنة تقود إلى العبودية. والتعليم الذي تلقته، وذلك الذي أعطي لها، والذي اكتسبته، قد هيأها بشكل سيء، كما تعتبر، إلى ما تدعوه: التفاني الزوجي. إنها لا تفهم لماذا من ستتزوجه هو حتماً أعلى منها مستوى؟ ألم تقدم امتحانات كالرجل؟.. ألم تكن لها آراؤها الخاصة، وأفكارها، حول أي موضوع؟.. وحول مساواة

الجنسين بنوع خاص؟ ويبدو لها أبضاً أن المرأه فدمت في أعلب الأحيان برهانا على الفكبر   ككتير من الرجال، فى سلوك الحياة، والأعمال، وفى السياسه عسها إذا اقتضى الأمر.

سمعت وفع خطوات على السلم. أرهفت أدنها، ثم فتحت الباب بهدوء

لم يكن برنار وساره قد تعارفا بعد. كان الرواق دون نور. لم يستطيعا في الظلام أن يميزا بعضهما البعض إلا بالجهد. وتمتم برنار:

ـ الآنسة ساره فيدال؟

فتأبطت ذراعه دون كلفة.

ـ أدوار ينتظرنا في راويه الشارع في سيارة. لقد فضّل الا ينزل خوفاً من أن يلتقي بأهلك. أما أنا فلا اهمية لذلك عندي: أنت تعرفين أنني أسكن هنا.

حرص برنار على ترك الباب الكبير مفتوحا قليلا لئلا يثير انتباه البواب. بعد لحظات وضعتهم السياره، ثلاثتهم، أمام حانة البانتيون. وبينما كان أدوار يدفع أجرة السائق سمعوا الساعة تدق العاشرة.

كانت الوليمه قد انتهت. ورفع الطعام، لكن الطاوله ظلت مزدحمة بفناجين القهوة والزجاجات والكؤوس. كان الجميع يدخنون، وأصبح الجو غير صالح للتنفس. مدام دو بروس

زوجة مابير «الأرغونوت» طلبت الهواء. كان صوتها الحاد ينفذ من خلال المحادثات الخصوصية. وفتحت النافذة. ولكن جوستنيان الذي كان يريد إلقاء خطاب عاد وأغلقها على الأثر «لأجل تقوية الصوت». وكان قد نهض، وضرب على كأسه بملعقة دون أن يتوصل إلى لفت النظر وتدخل مدير «الأرغونوت» الذي يدعى الرئيس دو بروس وانتهى بالحصول على قليل من الصمت. وسال صوت جوستنيان بأغطية وافرة من الضجر. واختفى ابتذال تفكيره تحت موجة من الصور. كان يوضح أفكاره بفخفخة حلت محل الروح ووجدت الوسيلة لنوجيه تهنئة غامضة لكل فرد. وعند الوقفة الأولى، وحين دخل أدوار وبرنار وسارة، انفجرت تصفيقات المجاملة. وقد مددها بعضهم بشكل تهكمي دون شك كأنهم يأملون أن يضعوا حداً للخطاب؛ ولكن عبثاً: ففد تابع جوسننيان؛ وما من شيء يصعف شجاعة فصاحته. لقد غطى الآن الكونت دو باسّافان بأزاهير بلاغته. تحدث عن «الحاجز الثابت» كأنها إلياذة جديدة. وشرب الجميع على صحة باسّافان. لم يكن لدى أدوار كأس، كذلك برنار وساره، وهذا ما أعفاهم من قرع الكؤوس.

وانتهى خطاب حوستنيان بنميات للمجله الجديدة، وببعض التهاني لمدبرها في المستقبل «الشاب الموهوب مولينييه، المحبوب من آلهة الفن، صاحب الجبهة النبيلة الطاهرة التي لن تنتظر طويلاً إكليل الغار».

كـان أوليفييه واقفـاً قرب بـاب الدخـول بحيث يستقبل أصدقاءه حال وصولهم. وقد ضايقته تحيات جوستنيان المفرطة، بشكل ظاهر. لكنه لم يستطع أن يتوارى عن الهتـاف الفلبل الذي تلا.

كان القادمون الثلاثة الجدد قد تناولوا طعامهم بكثير من التقشف فلم يستطيعوا الارتفاع إلى مستوى نشوة المجتمعين. ففي هذه الأنواع من الأجتماعات يفسر الآتون متأخرين تفسيراً سيئاً كثرة هياج الآخرين. انهم يحكمون بينما لا يجمل بهم أن يحكموا، ويمارسون، ولو لم يكن عفوياً، نقداً دون تساهل؛ هذه كانت حال أدوار وبرنار على الأقل. أما ساره التي كانت حديثة على هذا الوسط، فلم تكن تفكر إلا في أن تتعلم. ولم يكن لها من هم إلا أن تقتفي آثار الآخرين.

لم يكن برنار يعرف أحداً. وأوليفييه الذي تأبط ذراعه، كان يريد أن يقدمه لباسّافان ولدو بروس. لكنه رفض. ومع ذلك فقد اغتنم باسافان الفرصة وتقدم، ومد إليه يداً لم يستطع، للباقة، أن يرفضها.

ـ سمعت من يتحدث عنك منذ وقت طويل حتى خيل إلي إنني أعرفك.

ـ وأنا كذلك.

هكذا قال برنار بنبرة جمدت لطف باسافان. وعلى أثر ذلك

اقترب من أدوار.

ومع أن أدوار كان في الغالب مسافراً، وعائشاً في معزل عن الناس حتى في باريس، فقد كان يعرف الكثير من المدعوين. ولم يكن يشعر بأي ضيق. وهو وإن لم يكن محبوباً من زملائه، إلا أنهم يقدرون مكانته وإن كان قلما يختلط بهم. رضي أن يُحسب ذا كبرياء. وكان يسمع أكثر مما يتكلم.

وبدأ باسّافان بصوت هادىء شبه منخفض.

- ابن أختك جعلني آمل حضورك. وقد سررت بذلك لأني...

ولكن نظرة أدوار التهكمية قطعت ما بقي من عبارته. ولما كان باسّافان ماهراً في الإغراء، معتاداً نيل الرضا، فقد كان بحاجة إلى التعور أمامه بمرآة مطواعة لكي يتألق. ومع ذلك فقد تمالك نفسه لأنه لم يكن من أولئك الذين يفقدون ثقتهم بأنفسهم لوقت طويل ويقبلون بالنزول عن مكانتهم. فرفع جبهته وشحن عينيه بالوقاحة. إذا لم يستجب أدوار للعبه بطيبة خاطر فإن لديه، على كل حال، ما يذله به. وقال باسافان كأنه يكمل فكرته:

- كنت أريد أن أسألك... هل لديك شيء من أخبار ابن أختك الآخر، صديقي فنسان .. فهو الذي كنت على علاقة وطيدة به

فقال إدوار بنشاف:

ـ كلا.

هذه الـ «كلا» قلبت باسافان عن السرج من جديد ولم يعرف إذا كان يجب أن يعنبرها تكذيباً استفزازياً أوجواباً بسيطاً عن سؤاله. لم يدم اضطرابه سوى لحظة. وبكل براءة إعادة أدوار إلى السرج عندما أضاف على الأثر:

ـ علمت ففط من والده أنه يقوم بسياحة مع أمير موباكو.

ـ كنت قد طلبت من إحدى صديقاتي أن تقدمه إلى الأمير، فعلاً. كنت سعيداً باختلاق هذه الألهية لألهيه قليلاً عن معامرته البائسة مع تلك السيدة دوفييه... التي تعرفها كما قال لي أوليفييه. كان معرضاً لافساد حياته.

كان باسّافان يجيد استعمال الإزدراء والاحتقار والتنازل بكثير من المهارة: ولكن كان يكفيه أن يربح هذه الدورة ويرغم أدوار على احترامه. وكان هذا يبحث عن أي شيء يضرب به ولكنه فقد حضور الذهن بشكل غريب. وما من شك في أنه كان قليلاً ما يحب الناس لهذا السبب: لم يكن لديه شيء مما يحتاجه لكي يتألق بينهم. ومع ذلك فقد تقطب حاجباه. وكان باسّافان يتحلى بحاسة الشم؛ فحين يكون هناك شيء سيء يقال له فأنه يشعر بمجيئه، ويدور. ولهذا سأل وهو يبتسم، مغيراً لهجته فجأة دون أن يستعيد أنفاسه:

ـ ولكن من هذه الفتاة اللذيذة التي نرافقك؟

فقال أدوار:

ـ إنها الآنسة ساره فيدال، شقيقة مدام دوفيه صديقتي.

ولعجزه عن قول ما هو خير من ذلك فقد شحذ كلمة «صديقتي» كالسهم؛ ولكنه لم يبلغ هدفه، وقد تركه باسّافان يسقط.

ـ تكون لطيفا جداً إذا قدمتني إليها.

قال هذه الكلمات الأخيرة والعبارة السابقة بصوت مرتفع لتستطيع ساره أن تسمعه؛ وبما أنها التفتت نحوهما فلم يستطع أدوار أن يتملص، وقال بابتسامة قسرية:

ـ ساره، الكونت دو باسّافان بأمل التشرف بمعرفتك.

وطلب باسّافان ثلاث كؤوس جديدة ملأها «بالكومّل». وشرب الأربعة على صحة أوليفييه. كانت الزجاجة شبه فارغة. وبما أن ساره دهشت للبلورات التي بقيت في القعر فقد بذل باسّافان جهده ليفصلها عنه بواسطة القش. عند ذلك تقدم شخص يشبه خادماً غبياً غريباً، بوجه بلون الطحين، وعين كأنها من الزجاج الملون، وشعر كطاقية من جلد الخلد الناعم، وهو يعلك كل مقطع بجهد ظاهر، وقال:

ـ لن تتوصل إلى فعل شيء. أعطني الزجاجة لأبقرها.

وأخذها، وكسرها بضربة واحدة على حافة النافذة وقدم

الفعر إلى ساره، وقال:

ـ بهذه الأشكال ذات الوجوه المعـددة الصغيرة القـاطعة ستحصل الآنسة اللطيفة دون جهد على ثقب في الزجاجة.

ـ من هو هذا المضحك؟

هكذا سألت باسافان الذي اجلسها وجلس بجانبها

ـ أنه الفريد جارّي Jarry مؤلف «أوبـو الملك»، وجماعـة «الأرغونوت» بصفونه بالعبقرية لأن الجمهور صفر لمسرحيته أنها أغرب ما مُثّل على المسرح منذ وقت طويل.

فقالت ساره:

ـ أحب «أوبو الملك» كثيراً وأنا مسرورة جداً للقاء جارّي. قيل لي أنه دائمًا سكران.

ـ سيضطر أن يكون كذلك هذا المساء. رأيته يشرب على الغداء كأسين كبيرتين مليئتين بالأسنت الصرف ولا تدل هيئته على أنه تضايق منهما. أتريدين سكارة؟ على المرء أن يدخن بنفسه لئلا يختنق من دخان الغير.

وانحنى نحوها مقدماً لها النار. وقصمت بعض البلورات وقالت منخدعة قليلاً:

ـ ولكن ليس هذا سوى سكر مجفف. كنت آمل أن يكون قوياً جداً.

وكـانت وهي تحدث بـاسّافـان تبتسم لبرنـار الذي ظـل

بجانبها. وكانت عياها اللاهيتان تتألقان ببريق غير عادي. وبرنار الذى لم يستطع رؤيتها في الظلام دهش من سبهها بلورا. الجبهة نفسها، التسفنان نفسهما. لكن قسماتها توحي ملاحة أقل ملائكية. وكانت نظراتها تحرك في قلبه ما لا يعرف من الإضطراب. وأحس بشيء من الضيق فالتفت نحو أوليفييه:

ـ قدمني لصديقك بركاي.

كان قد التقى ببركاي في اللوكسمبور، لكنه لم يتحدث إليه أبداً. قط. وبركاي الذي كان في غير وسطه، فى هذا الوسط الذي أدخله فيه أوليفييه، بحيث لم يفارقه خجله، كان يحمر حياء في كل مرة يقدمه فيها صديقه كواحد من محرري «الطليعة» الرئيسيين. والحقيقة أن تلك القصيدة الرمرية التي كان يحدث أوليفييه عنها في بدء قصتنا سوف تظهر في بداية المحله الحديدة، بعد الافتتاحية مباشرة.

وقال أوليفييه لبرنار:

ـ في المكان الذي احتفظت به لك، أنا على ثقة أنها ستعجبك. فهي أفضل ما في العدد. طريفة جداً.

كان أوليفييه يشعر بالسرور في مديح أصدقائه أكثر من سروره بسماع مديح موجه إليه. وباقتراب برنار نهض بركاي؛ كان يمسك فنجان القهوة بيده بشكل أخرق حتى أنه سكب نصفه على صدرته من فرط تأثره. وفى هذه اللحظة سمع صوت جارّي الميكانيكي.

ـ بركاي الصغير سيتسمم لأني وضعت سمًا في فنجانه.

كان جارّي يلهو بخجل بركاي ويجد متعة في التشويش عليه. ولكن بركاي لم يكن يخاف جارّي، فهز كتفيه وأكمل فنجانه باطمئنان

وسأل برنار:

ـ من هذا؟...

ـ كيف!. ألا تعرف مؤلف «أوبو الملك»؟

ـ غير ممكن!.. أهذا جارّي؟.. حسبته خادماً.

فقال أوليفيبه بشيء من الغيظ لأنه كان فخوراً برجاله الكبار:

ـ أوه!... أرجوك! تطلع إليه بصورة أفضل ألا تجده خارقاً؟

فقال برنار الذي لا يمدح إلا ما هو طبيعي، ولكنه مع ذلك كان يولي «أوبو» الكثير من الاعتبار:

ـ أنه يفعل كل ما يستطيع ليظهر خارقاً.

كان كل ما في جارّي يوحي التصنع. من ملابس «غوغوس» التقليديه لميدان السباق التي ارتداها، إلى بنوع أحص، طريقته في الكلام التي ينافس في تقليدها كثير من جماعة «الأرغونوت»، بحيث يطرّق مقاطعه، ويختلق كلمات غريبة، ويلفق كلمات أخرى بشكل غريب، ولكن في الحقيقة لبس

هناك سوى جارّي نفسه الذي يجعلنا نحصل على صوت دون رنة، دون حرارة، دون لحن، دون رونق.

وقال أوليفييه:

ـ حين تتعرف علبه تجده فاتناً.

ـ أفضل ألاّ أعرفه. يبدو ضارياً.

ـ هو شكل يتظاهر به. ويعتقد باسّافان أنه في سريرة نفسه هادىء جداً، ولكنه شرب بشكل مخيف هذا المساء! دون أي قطرة ماء، وأرجو أن تصدق ذلك، ولا نبيذ. لا شيء سوى الأبسنت ومشروبات قوية. باسّافان يخشى أن يرتكب بعض الحماقات.

كان اسم باسافان يعود إلى شفتيه بإصرار، رغمًا عنه، بقدر ما كان يريد أن يتجنبه.

وسخط لأنه غير مالك نفسه. فغيّر الحديث كأن نفسه تلاحقه:

ـ الأفضل أن تذهب وتتحدث قليلاً مع دورمر. أخشى أن يكون قد تمنى لي الموت لانتزاعي منه إدارة «الطليعة»؛ ولكن ليس الخطأ خطئي. لم أستطع إلا أن أقبل. عليك أن تحاول إفهامه ذلك، وتهدئه. باسا... قيل لي أنه غاضب جداً علي.

تعثر ولكنه لم يقع هذه المرة. وقال بركاي:

ـ آمل أن يكون قد استعاد مخطوطته. لا أحب ما يكتب.

ثم التفت إلى بروفيناندير.

ـ ولكن أنت يا سيد. كنت أفكر أن . .

ـ أوه! . . لا تدعني سيداً . . . أعرف تماماً أني أحمل اسمًا مزعجاً مضحكاً . . أنوي أن اتخذ اسمًا مستعاراً، إذا كتبت.

ـ لماذا لم تعطنا شيئاً؟ . . .

ـ لأنني لا أملك شيئاً جاهزاً.

واقترب أوليفييه من أدوار، تاركاً صديقيه يتحدثان.

ـ كم كنت لطيفاً بمجيئك! . . كنت راغباً في مشاهدتك. ولكني كنت أتمنى أن أراك في أي مكان، في الخارج بدلاً من هنا . . . في هذا الأصيل قرعت جرس بابك . . . هل قيل لك؟ . . كنت ساخطاً لعدم لقائك. ولو عرفت أين أجدك . . .

كان سعيدا جدا بإيضاح أفكاره بهذه السهولة، متذكر الوقت الذي كان وجوده أمام أدوار يبقيه ساكتاً. كان يعزو هذ السهولة، مع الأسف، إلى تفاهة حديثه وإلى الإفراط في الشرب. وكان أدوار قد أدرك ذلك بكآبة.

ـ كنت عند والدنكم.

ـ هذا ما علمته عند عودتي إلى المنزل.

أجاب أوليفييه الذي كدره استعمال أدوار صيغة الجمع في مخاطبته. وتردد فيها إذا كان سيقول ذلك له. وسأله أدوار وهو يحدق فيه:

ـ أفي هذا الوسط سعيش من الآن فصاعدا؟

ـ أوه! لن أحمل على غير ما أفصد.

ـ أواثق أنت؟ . .

قبل هذا بلهجة رصبنة، رفيعه، أخوبة. . . وسعر أوليفييه بطمأنينته تترنح.

ـ أترى أنني أخطأت بمعاشرة هؤلاء الناس؟

ـ كلا، أبداً، تقريباً: ولكن بعضاً منهم، دون شك.

حسب أوليفييه أن هذا الجمع هو مفرد. طن أن أدوار يعني باسافان بوجه خاص. وكان هدا، في سمائه الداخليه، كبرق لامع مؤلم يخترق السحب التي تكاثفت منذ الصباح بشكل مخيف في قلبه. كان يحب برنار، ويحب أدوار كثيراً ليحتمل احتقارهما. بجانب أدوار تزداد حماسه أفضل ما فيه. أما بجانب باسافان فإن أسوأ ما فيه يستيقظ أنه يعترف بذلك لنفسه الآن. ثم، ألم يعترف دائماً بذلك؟ . . ألم تكن عماوته بجانب باسافان طوعيه؟ . . إن إقراره بالفضل لكل ما عمله الكونت في سبيله قد تحول إلى ضغينه. لقد عاد إلى نكرانه بولع. وما رآه الآن، هنا، جعله يكرهه. ففد رأى ما يأتي:

باسافان منحن على ساره، وقد طوق حصرها بدراعه وبدا يضغط أكثر فأكثر. كان قد بلغه الدوى المكدر الذي انتشر حول ملاقاته بأوليفييه، فأراد الآن أن يكذب الإشاعات. ولكي

بزيد من لفت الأنظار نوى أن يدعو ساره للجلوس على ركبتيه وساره، حتى الآن، لم تمانع إلا قليلاً. ولكن عينيها كانتا تبحثان عن عيني برنار ولما التفت عيونهما ابتسمت كأنها تقول له:

ـ انظر الى أي حدٍ يمكن المرء أن يتجرأ معي.

ومع ذلك فقد كان باسافان يخشى أن يسير سيرعه. كانت تنقصه الممارسة وقال لنفسه، مادأ اليد التي بقيت حرة نحـو زجاجة من الكوراساو:

ـ لو توصلت فقط إلى أن أجعلها تشرب قليلاً بعد.

وأوليفييه الذي كان يراقبه، سبق حركته، واستولى عـلى الزجاجة، لكي يخطفها من باسافان؛ ولكن بدا له أنه سيستعيد في الشراب شيئاً من الشجاعه التي أحس بها تخور والتي كان بحاجة إليها ليوصل إلى إدوار تلك الشكوى التي تصاعدت إلى شفتيه:

ـ كان الأمر يتوقف عليك...

وملأ أوليفييه كأسه وأفرغها دفعة واحدة. وفي تلك اللحظة سُمع جارّي الذي كان يطوف من جماعة إلى أخرى يهول بصوت مختنق وهو يمر وراء بركاي.

ـ والآن سنفنل بركاي الصغير.

فالتفت هذا فجأة وقال؛

ـ أعد ما قلته بصوت مرتفع.

كان جارّي قد ابتعد فانتظر حتى دار حول الطاولة وأعاد بصوت حاد:

ـ والان· سنقتل بركاي.

ثم أخرج من جيبه مسدساً ضخماً كان جماعة «الأرغونوت» يرونه غالباً وهو يلعب به؛ وصوّبه نحو بركاي.

كان جارّي قد اكتسب شهرة كبيره باطلاق النار. وارتفعت الاحتجاجات ولم يكن أحد يعلم أنه سيقتصر على التمثيل وهو في هده الحالة من السكر. ولكن بركاي الصغير أراد أن يظهر عدم خوفه، فصعد على كرسي وذراعاه منصالبان وراء ظهره، واتخذ وقفة نابليونية. كان فيه شيء مضحك. وارتفعت بعض الضحكات، ثم تغطت بالتصفيق.

وقال باسافان لساره بسرعة:

ـ يمكن أن ينتهي الأمر نهاية سيئة. أنه مخمور تماماً. اختبئي تحت الطاولة.

وحاول دو بروس أن يمسك جارّي، ولكن هذا أفلت منه واعتلى بدوره مقعداً (لاحظ برنار أنه ينتعل خفين للرقص) ولما أصبح وجهاً لوجه أمام بركاي مد ذراعه ليصوّب.

وصرخ دو بروس:

ـ اطفئوا الأنوار، أطفئوا الأنوار.

وكان أدوار باقياً بقرب الباب فأدار عاكس التيار.

كانت ساره قد نهضت مستجيبة أمر باسّافان. وما أن أصبحا في الظلام حتى التصقت ببرنار لتقوده معها تحت الطاولة.

وذهبت الطلقه. لم يكن المسدس محشواً إلا بالبارود. ومع ذلك ففد سُمعت صرخة ألم. أنه جوستنيان الذي تلقى الطلقة في عينه.

وحبن أعيد النور، اعجب الجميع ببركاي الذي ظل واقفاً على كرسيه، محتفظاً بوقفته، جامداً ولا يكاد شحوبه يزيد عما كان.

ومع ذلك فإن الرئبسة نالت حقها أزمة عصبية. وسمع من قال:

ـ أنها لحماقة أن تحدث أمور كهذه!..

ولما لم يكن هناك ماء على الطاولة، فإن جارّي هبط عن قاعدته وغمس منديلاً في الكحول ليفرك به صدغي الرئيسة، بشكل اعتذار.

لم يلبث برنار تحت الطاولة إلا هنيهة؛ الوقت الكافي ليشعر بشفتي ساره المحرفتين تنسحقان بلذة على شفتيه. وكان أوليفييه قد تبعهما، بدافع الصداقة، بدافع الغيرة... لقد أثر السكر عنده شعور البقاء على الهامش، هذا الشعور الذي يعرفه جيداً. وحين خرج بدوره من تحت الطاولة كان رأسه يدور قليلاً حينئذ سمع صوت دورمر يصرخ:

ـ انظروا مولينييه! . . أنه جبان كالمرأة.

وكان هذا كثيراً. ودون أن يعرف أوليفييه ماذا يفعل، هجم، ويده مرفوعة، على دورمر. خيّل إليه أنه بتحرك في حلم. وتجنب دورمر الضربة. وكما في الحلم، فإن يد أوليفييه لم تلتق سوى الفراغ.

وأصبح الإضطراب عاماً. وبينما كان بعض الحضور مشغولين بجانب الرئيسة التي استمرت في الإكثار من الحركات مخرجة ضغاباً حاداً، كان آخرون يحيطون بدورمر الذي كان يصرخ: «لم يصبني!. لم يصبني!». وبذل آخرون كثيراً من الجهد ليهدئوا من ثائرة أوليفييه الذي كان يستعد لهجمة أخرى، ووجهه كالنار.

وسواء أصيب دورمر أم لا فقد اعتبر نفسه كأنه قد صُفع. وهذا ما سعى جوستنيان ليفهمه إياه، وهو يمسح عينه. أنها قضية شرف. ولكن دورمر قليلاً ما يهتم بدروس جوستنيان عن الشرف وقد سمع وهو يردد بإصرار:

ـ لم أصَب. . . لم أصَب. . .

فقال دو بروس:

ـ دعه. لا يمكن إجبار الناس على القتال رغماً عنهم.

ومع ذلك فإن أوليفييه كان يصرخ عالياً أن دورمر إذا لم يكن راضياً فهو مستعد لصفعه أيضاً. ولما كان عازماً على جر

الآخر إلى الميدان فقد طلب من برنار وبركاي أن يكونا شاهديه. لم يكن أحد منهما يعرف شيئاً عما يدعى قضايا «الشرف» ولكن أوليفييه لم يجرؤ على طلب ذلك من أدوار كانت ربطة عنقه قد انحلت عقدتها وسقط شعره على جبهته المتقصدة عرقاً.

ـ كان هناك اضطراب متشنج يحرك يديه. وأمسكه أدوار من ذراعه

ـ تعال وضع قليلاً من الماء على وجهك. أنك تبدو كمجنون.

وقاده إلى مغسلة.

وما أن أصبح أوليفيه خارج القاعة حتى أدرك كم كان ثملاً. وحين شعر بيد أدوار على ذراعه ظن أنه سيسقط وترك نفسه يُقاد دون مقاومة. ولم يدرك شيئاً مما قاله له أدوار سوى صيغة المفرد المخاطب. وكسحابة كبيرة من زوبعة تنفجر مطراً بدا له أن قلبه ذاب فجأة وسال دموعاً. ووضع أدوار على جبهته منشفة مبللة جعلته يصحو من سكره. ماذا جرى؟.. لقد احتفظ بوعي مبهم من تصرفه كولد، كبهيمه... شعر أنه مضحك، حقير... حينئذ ارتمى على أدوار، وهو يرتعش من الشقاء والحنو، وضمه إليه وراح ينتحب:

ـ خذني...

كان أدوار متأثراً حتى المهابة، فسأله:

ـ أهلك؟ . .

ـ لا يعرفون أني عدت.

وبينما كانا يجتازان المقهى للخروج، قال أوليفييه لصديقه أنه يريد أن يكتب كلمة.

ـ إذا وُضعت في البريد هذا المساء فستصل غداً في الساعة الأولى. وجلس على منضدة في المقهى، وكتب.

«عزيزي جورج.

«نعم، هذا أنا الذي يكتب إليك، لأطلب منك إسدائي خدمه صغيرة. لن أعلمك «جديد دون شك بقولي لك أنني عدت إلى باريس، لأني اعتقد جيداً أنك شاهدتني هذا الصباح قرب السوربون. كنت نازلاً عند الكونت دو باسّافان (وأعطى العنوان)؛ وأمتعتي هي أيضاً عنده. ولأسباب بطول شرحها لك ولن تسرك أبداً أفضّل ألا أعود إلى عنده. ليس هناك غيرك من أستطيع الطلب منه أن يأتيني بهده الأمتعة. ستقوم بهذه الخدمة بطيبة خاطر، أليس كذلك؟ بشرط المبادلة. هناك صندوق مقفل. أما الأمتعة الموجودة في الغرفة فستضعها بنفسك في حقيبتي وتنقل كل شيء إلى منزل الخال إدوار. سأدفع أجرة السيارة. من حسن الحظ أن غداً هو الأحد، وتستطيع القيام بذلك حالماً تتسلم هذه الكلمة. أنا معتمد عليك. مفهوم؟

أخوك الكبير أوليفييه

«ملاحظة: أعرفك حسن التدبير ولا أشك في أنك ستقوم بذلك على أكمل وجه ولكن انتبه، إذا كان تعاطيك مع باسّافان مباشرة فيجب أن تظل كثير البرود معه. إلى صباح الغد».

الذين لم يسمعوا أقوال دورمر المهينة لم يفهموا جيداً هجوم أولبفييه الفجائي. كان يبدو أنه أضاع عقله. ولو عرف كيف يحتفظ برباطة جأشه لنال استحسان برنار. برنار لم يكن يحب دورمر ولكنه يعرف أن أوليفبيه تصرف كمجنون وبدا كأنه ارتكب جميع الأخطاء. وكان برنار يتألم عندما يسمعه وهو يصدر حكمه بصرامة اقرب من بركاي وأخذ منه موعداً. ومهما كانت هذه القضية مستحيلة ففد كان يهمهما، الإثنان، أن يكونا دقيقين، واتفقا على أن يذهبا لمقابلة زبونهما في الساعة التاسعة من صباح الغد.

وبرنار، حبن ذهب صديقاه، لم يبق عنده أي سبب وأي رغبة في البفاء. بحث بعيبيه عن ساره، وامتلأ قلبه غضباً حين رآها جالسة على ركبتي باسّافان. كان الاثنان يبدوان ثملين، ولكن ساره مع ذلك نهضت حين رأت برنار يقترب. وقالت وهي تتأبط ذراعه:

ـ لنذهب...

كانت تريد أن تعود على القدمين، فالمسافة ليست طويلة؛ وقد قطعاها دون أن يقولا كلمة. في البنسيون كانت الأنوار مطفأة. وخوفاً من أن ينيرا الإنتباه صعدا سلّم الخدمة تلمُساً، ثم أشعلا ثقاباً. كان أرمان لا يزال ساهراً. وحين سمعهما يصعدان خرج على رأس الدرج وفي يده مصباح. وقال لبرنار (وكانا يكلمان بعضهما البعض بصيغة المفرد منذ البارحة):

ـ خذ المصباح. أنر لساره؛ ليس في غرفتها شمعة... أعطني أعواد الثقاب لأضيء شمعتي.

ورافق برنار ساره إلى الغرفة الثانية، وما كادا يدخلان حتى كان أرمان المنحني وراءهما قد أطفأ القنديل بنفخة ثم قال ساخراً:

ـ ليلة سعيدة!... ولكن لا تحدثا ضجة. فالأهل ينامون قربكما.

ثم تقهقر فجأة، وأغلق عليهما الباب وسحب المزلاج.

٩

تمدد أرمان وهو مرتدٍ ثيابه. يعرف أنه لن يستطيع النوم. أنه ينتظر نهاية الليل يتأمل، يصغي. البيت ينام، المدينة، الطبيعة كلها. ليس هناك أي جلبة.

ما إن ظهر نور ضعيف أنزله عاكس النور من أعالي السماء الضيقة إلى غرفته، وأتاح له أن يميز الشناعة من جديد، حتى نهض. ذهب نحو الباب الذي أغلقه بالمزلاج مساء أمس، وفتحه بهدوء...

ستائر غرفة سارة غير مغلقة. والفجر الطالع يلقي بياضاً على الزجاج. تقدم أرمان نحو السرير حيث تنام أخته وبرنار. هناك غطاء يغطي إلى النصف أعضاءهما المتشابكة. ما أجملهما!. تأملهما أرمان طويلاً. كان يريد أن يكون غفوهما، قبلانهما. ابتسم في بادىء الأمر. ثم ركع فجأة عند رجل السرير، بين الأغطية الملقاة. أي إله يمكن أن يصلي هكذا ويداه مضمومتان؟.. عراه تأثر يعجز عنه الوصف. ارتجفت شفتاه.. شاهد تحت الوسادة منديلاً ملوثاً بالدم؛ نهض، استولى عليه، حمله، وعلى الطاولة الصغيرة ذات الرائحة العنبرية، وضع شفتيه وهو ينتحب.

ولكنه التفت عند الباب. كان يريد إيقاظ برنار. على هذا أن يعود إلى غرفته قبل أن ينهض أحد في البنسيون. وفتح برنار عينيه بسبب الجلبة الخفيفة الصادرة عن أرمان. وهرب أرمان تاركاً الباب مفتوحاً، وترك الغرفة، وهبط الدرج؛ سيختبىء في أي مكان. أن وجوده يزعج برنار؛ لا يريد أن يلتقيه

سيراه من نافذة غرفة الدرس بعد لحظات وهو يمر ملاصقاً الجدار كاللص...

برنار لم ينم كثيراً، لكنه ذاق هذه الليلة سباتاً يجلب الراحة أكثر من الإغفاء: تضاعف نشاط كيانه وتلاشى لهذا الكيان. لقد انزلق في نهار جديد، غريب عنه، وهو مشعث، خفيف، جديد، هادىء، مرتعش كأنه اله. لقد ترك سارة نائمة، وتخلص هارباً من بين ذراعيها إيه، ماذا؟.. دون أية قبلة جديدة، دون نظرة أخيرة، دون عناق غرامي سام؟ لا أدري. هو نفسه لا يدري. سعى جهده لكيلا يفكر. أنه متضايق لاضطراره أن يدمج هذه الليلة التي لا ماضي لها بما مضى من تاريخه. كلا؛ أنها ذيل، ملحق لا يستطيع أن يجد مكاناً له فى صلب الكتاب - حيث قصة حياته ستستمر كأن شيئاً لم يكن، وستتابع مجراها

صعد إلى الغرفة التي يتقاسمها مع بوريس الصغير كان هذا ينام نوماً عميقاً. يا له من ولد!.. خرّب برنار ترتيب سريره، ودعك الأغطية بقصد الخداع. واغسل بكثير من الماء. لكن رؤية بوريس أعادته إلى «ساس - فيه» تذكر ما قالته له

لورا حينذاك: «أنا لا أستطيع أن أقبل منك إلا هذا التفاني الذي قدمته لي. أما ما بقي فسبال مطالبه التي يجب أن تُلبّى في مكان آخر». هذه العبارة أثارته. يحيل إليه أنه لا يزال يسمعها لم بكن يفكر في ذلك، ولكن ذاكرته هذا الصباح تبدو واضحة وعاملة بشكل خارق للعادة. دماغه يعمل رغمًا عنه بقوة مدهشة. طردبرنار صورة لورا، وأراد أن يخنق ذكرياتها، ولكي يمنع نفسه من التفكير أخذ كتاباً مدرسياً، وتكلف الاستعداد لامتحانه. ولكن هده الغرفة تبعث على الاختناق. فهبط إلى الحديقة ليشتغل. كان يريد الخروج إلى الشارع، يمشي، يركض، يذهب بعيداً، يتروّح. أنه يراقب الباب الكبير. وسيهرب حالما يفتحه البواب.

وصل إلى اللوكسمبور مع كنابه، وجلس على مقعد. وانحلت عقدة تفكيره، ولكن بشكل هش، فإذا أكثر من الشد ينقطع الخيط. وما أن ينوي أن بنشتغل حتى تجول بين كنابه وبينه ذكريات وقحة. ليست ذكريات لحظات سروره الحادة، بل تفاصيل صغيرة مضحكة، حقيرة، يتعلق فيها حب الذات، وبنسلخ، ويلين. بعد الندم لن يكون ساذجاً إلى هذا الحد.

نهض نحو الساعة الناسعة وذهب للقاء لوسيان سركاي. وذهب الاثنان إلى منزل أدوار.

كان أدوار يسكن في باسّي، في الطبقة الأخيرة من بناية. غرفه توصل إلى مسعل واسع. وعند أول الفجر كان أوليفييه قد

نهض. ولم يكن أدوار قد أحس بالقلق بعد.

وقال أوليفييه:

ـ سأرتاح قليلاً على هذه الأريكة.

وبما أن أدوار كان يخشى عليه أن يصاب بالبرد فقد طلب منه أن يأخذ بعض الاغطية. وبعد ذلك بقليل نهض أدوار بدوره. من المؤكد أنه نام دون أن يلقي بالاً لأنه دهش من تقدم النهار. كان يريد أن يعرف كيف أمضى أوليفييه ليلته، يريد أن يراه. لعل شعوراً مبهماً كان يقوده...

كان المشغل فارغاً. وقد بقيت الأغطية عند رجل الأريكة، وهي لا تزال مطوية. أنذرته رائحة غاز هائلة. فهناك غرفة صغيرة مطلة على المشغل وتستعمل كغرفة حمام. والرائحة آتية من هناك. ركض إليها؛ لكنه لم يستطع فتح الباب في بادىء الأمر، فهناك شيء كان يعوق ذلك: إنه جسد أوليفييه المنهار أمام المغطس، كان عارياً، بارداً، مزرقّاً، ملوثاً بالقيء بشكل رهيب.

أقفل أدوار حالاً صنبور المدفئة الذي ينفلت الغاز منه، ماذا جرى؟.. حادث؟. احتقان دم؟... لم يستطع الاعتقاد بذلك. كان المغطس فارغاً. أخذ المحتضر بين ذراعيه وحمله إلى المشغل ومدده على طنفسة أمام النافذة المفتوحة وركع على ركبتيه، وانحنى بحنو، واستمع إلى القلب. لا يزال أوليفييه يتنفس

ولكن بشكل ضعيف. حينئذ أخذ أدوار يحاول بولع أن يقوي هذا القليل من الحياة الاخذ بالانطفاء. رفع الذراعين المرتخيتين بشكل إيقاعي، وضغط على الخاصرتين، وفرك القفص الصدري جرب كل ما يذكره مما يتخذ في حالة الاختناق يجب أن يعمل ذلك، وقد سخط لعدم استطاعته عمل كل هذا دفعة واحدة. بقيت عينا أوليفييه مطبقتين. رفع أدوار بأصبعه الجفنين اللذين عادا وتعلقا على نظرة لا حياة فيها. ومع ذلك فالقلب يخفق بحث عبثاً عن كونياك، عن ملح. سخن ماء وغسل أعلى الجسم والوجه. ثم مدد هذا الجسد الهامد على الأريكة ووضع عليه الأغطية. كان يريد أن يدعو طبيباً ولكنه لم يجرؤ على الإبتعاد. كان هناك خادمة تأتي كل صباح لترتيب البيت، لكنها لا تصل إلا في الساعة التاسعة. وما إن سمعها حتى أرسلها في طلب طبيب من الحي ثم عاد واستدعاها على الأثر خائفاً من التعرض لتحقيق.

وعاد أوليفييه إلى الحياة رويداً رويداً. كان أدوار جالساً على حافة السرير قرب الأريكه. كان يتأمل هذا الوجه المغلق ويتعثر في حل لغزه. لماذا؟.. لماذا؟.. قد يقدم المرء على إفعال مجنونة كهذه دون تبصر مع المساء، في حالة السكر. ولكن نوايا الفجر تحمل حمولتها الكاملة من الفضيلة. لقد أقلع عن أن يفهم شيئاً بانتظار اللحظة التي يستطيع أوليفييه أن يتكلم فيها. لن يتركه أبداً منذ الآن. أخذ إحدى يديه وركز استجوابه، تفكيره، حياته

بكاملها في هذا النماسّ. خيل إليه أخيراً أنه شعر بيد أوليفييه تستجيب لقبضته. فانحنى، ووضع شفتيه على تلك الجبهة التي تحمل بين غصونها ألماً عطيى غامضاً.

وقُرع الجرس. نهض أدوار ليفتح الباب. أنهما برنار ولوسيان بركاي. أبقاهما أدوار في الدهليز وأخبرهما، ثم انتحى جانباً ببرنار وسأله إذا كان يعرف إذا كان من عادة أوليفييه أن يصاب بدورات وأرمات عصبية؟... فتذكر برنار فجأة حديثهما البارحة وخصوصاً بعض كلمات من أوليفييه لم يسمعها إلا بالجهد ولكنه يحفظها الآن بشكل واضح. وقال لأدوار:

- أنا حدثته عن الانتحار. سألته إذا كان يدرك أنه من الممكن أن يقتل المرء نفسه لمجرد فورة بسيطة من الحياة «بدافع الحماسة» كما قال ديمتري كارامازوف. كنت مستغرقاً تماماً في تفكيري ولم انتبه حينذاك إلا لأقوالي الخاصة. ولكني أذكر الآن بماذا أجابني.

- بماذا أجاب؟..

قال أدوار هذا بإلحاح لأن برنار توقف وبدا أنه لا يريد أن يزيد شيئاً.

- هو يدرك أن المرء يقتل نفسه، ولكن فقط بعد أن يبلغ قمة معينة من السرور، والتي يمكنه بعدها أن يهبط.

وتطلع الاثنان بعضهما إلى بعض دون أن يضيفا شيئاً.

وانبلج النهار في نفسهما. وأخيراً حوّل أدوار عينيه؛ وغضب برنار من نفسه لأنه تكلم واقتربا من ركاي.

وقال هذا:

- المزعج في الأمر أنه يمكن الظن أنه أراد قتل نفسه ليتجنب المبارزة.

ولم يكن أدوار يفكر في هذه المبارزة. وقال:

- تظاهر كأن لم يحدث شيء. واذهب إلى دورمر واطلب منه أن يوصلك إلى شهوده. مع هؤلاء يجب أن تتكلم إذا لم يتسرّ هذا العمل الأبله من تلقائه. أن دورمر يبدو غير راغب في هذه المبارزة.

فقال لوسيان:

- لن نحدثه بشيء. لنترك له خزي التقهقر، لأنه سيتوارى. وأنا متأكد.

وسأل برنار إذا كان في وسعه رؤية أوليفييه. ولكن أدوار أراد أن يتركه ليرتاح بهدوء.

كان برنار ولوسيان على وشك الخروج حين وصل جورج الصغير. كان آتيا من منزل باسّافان لكنه لم يستطع تسلم أشياء أخيه.

- السيد الكونت خرج ولم يترك لنا أوامر.

هكذا أجابه خادم الكونت واقفل الباب في وجهه.

كان هناك بعض الرزانة في لهجة أدوار وفي هيئة الاثنين الآخرين مما أقلق جورج، فاشتم شيئاً غير عادي، واستفسر، فاضطر أدوار إلى أن يقص عليه كل شيء

ـ ولكن لا تقل شيئاً من ذلك لأهلك.

وشعر جورج بالنشوة لمشاركته بالسر.

ـ أعرف أن أسكت.

ولما كان عاطلاً عن العمل هذا الصباح فقد عرض أن يرافق برنار ولوسيان إلى دورمر.

بعدما ترك أدوار الزوار الثلاثة دعا مدبرة البيت. كان هناك إلى جانب غرفته غرفة لأحد أصدقائه، فطلب من المرأة أن تعدها ليستطيع أوليفييه البقاء فيها. ثم دخل إلى المشغل دون جلبة. كان أوليفييه ينام. جلس أدوار بجانبه، وأخذ كتاباً، لكنه ألقاه حالاً من غير أن يفتحه وتطلع إلى صديقه وهو نائم.

١٠

لا شيء بسيط مما ينعرض للنفس، والنفس لا تعرض نفسها بسيطة لأي موضوع على الإطلاق.

باسكال

في اليوم التالي قال أدوار لبرنار:

ـ أظن أنه سيكون سعيداً برؤيتك. سألني هذا الصباح إذا كنت لم تأت البارحة. لقد سمع صوتك بينما كنت أعتقد أنه فاقد الوعي... أنه يبقي عينيه مغمضتين ولكنه لا ينام. لا يقول شيئاً. يضع أحياناً يده على جبهته علامة الألم. وما أن أتوجه إليه بالكلام حتى تنغضن جبهته؛ أما إذا ابتعدت فأنه يناديني ويجلسني بجانبه... كلا، أنه ليس في المشغل .. فقد اسكنته الغرفة التي بجانب غرفتي، بحيث أني أستطيع استقبال زيارات دون أن أزعجه.

ودخلا إلى تلك الغرفة. وقال برنار بكثير من الدقة:

ـ جئت استعلم عن أخبارك.

وبُعثت الحياة في قسمات أوليفييه حين سمع صوت

صديقه. وبدت على وجهه شبه ابتسامه

- كنت انتظرك.

- سأذهب إذا كنت أتعبك

- إبقَ.

ولكن حين قال أوليفييه هذه الكلمه وضع أصبعاً على شفتيه كان يطلب ألا يكلمه أحد. وبرنار الذي كان مضطراً لتقديم الامتحانات الشفهية بعد ثلاثة أيام لم يكن ينجول دون أن يكون معه أحد تلك الكتب التي يتركز فيها، كإكسير، كل مرارة مواد امتحانه. جلس على رأس سرير صديقه واستغرق في المراءة وبدا أن أوليفييه الذي كان وجهه إلى الجدار، ينام. انسحب أدوار إلى غرفته؛ وشوهد يظهر على الباب الموصل بين الغرفتين والذي ظل مفتوحاً. كان يعطي أوليفييه كأساً من الحلبب كل ساعتين ولكن منذ هذا الصباح فقط. طوال نهار البارحة لم تحتمل معدة المريض شيئاً.

ومر وقت طويل. ونهض برنار ليذهب. فالتفت أولبفييه ومد إليه يده محاولاً الإبتسام:

- هل تجيء غداً؟

وفي اللحظة الأخيرة ناداه ثانية، وأشار إليه أن بنحني، كأنه يخشى ألا يكون صوته مسموعاً، وقال بصوت منخفض:

- أرأيت كم أني كنت أحمق!

ثم، وكأنه بريد أن يستبق اعتراضاً من برنار، رفع من جديد إصبعاً إلى سفتيه:

ـ كلا؛ كلا... في ما بعد سأشرح لك.

وفي الغد تلقى أدوار رسالة من لورا؛ وحين عاد برنار أعطاه الرسالة ليقرأ:

«صديقي العزيز،

«أكتب إليك بكثير من السرعة محاولة تمادي مصيبة خرقاء. ستساعدني، وأنا واثقة، إذا وصلت إليك هذه الرسالة بسرعة.

«فليكس ذهب إلى باريس قاصداً أن يراك. هو يعتقد أنه سيحصل منك على إيضاحات رفضت إعطاءها له، ويعلم بواسطتك اسم ذلك الذي يريد أن يتحداه للمبارزة. فعلت ما استطعت لأمسكه، ولكن عزمه ظل راسخاً وكل ما قلته له كان يزيده رسوخاً. أنت وحدك يمكن أن تتوصل إلى ثنيه عن عزمه. هو يثق بك وسيصغي إليك، وآمل ذلك. تصور أنه لم يمسك بيده مسدساً ولا سيفاً. وفكرة مخاطرته بحياته لأجلي لا أستطيع احتمالها؛ وأكرر ما أخشاه، ولا أكاد أجرؤ على الاعتراف بذلك، هو أن يتغطى بالعار.

«منذ عودتي وفليكس معي مليء بالنشاط، بالحنو، باللطف، ولكني لا أستطيع أن أتظاهر له بأكثر مما عندي من الحب. وهو يتألم من ذلك؛ وأعتقد أن الرغبة في اغتصاب اعتباري،

إعجابي، هي التي دفعته إلى ذلك المسعى الذي ستعتبره طائشاً. لكنه يفكر فيه كل يوم وقد ركز فكرته عليه منذ عودتي. ما من شك في أنه سامحني ولكنه يكره الآخر حتى الموت.

«أتوسل إليك أن تستفبله بالعطف الذي تستقبلني به؛ ولن تجد برهاناً أفضل من ذلك تقدمه لي على صداقتك ـ برهاناً سأكون حساسة جداً له. عفواً لأني لم أكتب إليك قبلاً لأعبر لك عن كل عرفان الجميل الذي احفظه لإخلاصك وللعناية التي بذلتها في سبيلي طوال مدة إقامتنا في سويسرا. أن ذكرى ذلك الوقت تحييني وتساعدني على تحمل أعباء الحياة.

«صديفتك القلقة دائمًا والواثقة بك دائمًا
«لورا»

وسأل برنار وهو يعيد الرسالة.

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

أجاب أدوار بشيء من الضيق لا من سؤال برنار بل من كونه سبق أن طرح هذا السؤال على نفسه.

ـ إذا فسأستقبله بأفضل ما أستطيع، وسأقدم إليه النصيحة جهد استطاعتي إذا استشارني؛ سأحاول أن أقنعه بأن خير ما يفعله هو أن لا يفعل شيئاً. أن أشخاصاً كهذا المسكين دوفييه يخطئون دائمًا عند محاولتهم الوقوف في المقدمة. ستفكر التفكير

نفسه لو كنت تعرفه، صدقني. أما لورا فقد خلقت للادوار الأولى كل منا يقوم باعباء مأساة على قدره ويتلقى نصيبه من الفاجعه. ماذا نستطيع حيال ذلك؟.. أن مأساة لورا هي في أنها تزوجت أحد أفراد الكومبارس وليس هناك ما يمكن عمله لتلافي ذلك.

وأجاب برنار:

ـ ومأساة دوفييه هي في أنه تزوج امرأة تظل متفوقة عليه مهما عمل.

فأجاب أدوار كرجع الصدى.

ـ مهما عمل... ومهما استطاعت لورا أن تعمل. أما ما يستحق الاعجاب فهو أن لـورا أرادت، بدافـع الأسف على خطيئتها، بدافع التوبة، أن تمتهن نفسها أمامه؛ لكنه خرّ أمامها بشكل أكثر انخفاضاً منها. وكل ما يفعله الواحد منهما والآخر فلن يتوصل إلا إلى تصغيره وتكبيرها.

وقال برنار:

ـ إني أرثي له كثيراً. ولكن لماذا لا تقبل أن يكبر هو أيضاً في هذا السجود؟

فقال أدوار بشكل جازم:

ـ لأن الغنائية تعوزه.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أنه لا ينسى نفسه أبداً في ما يتسعر به، بنوع أنه لا يشعر بشيء عظيم. لا تدفعني كثيراً في هذا المضمار، فإن لي أفكاري الخاصة؛ ولكنها أفكار تناقض القياس ولا أحاول دبيراً أن أقيسها. من عادة بول أمبرواز أن يقول أنه لا يرضى أن يحسب حساباً إلا لما يمكن أن يُرقم؛ ولهذا اعتبر أنه يلعب على كلمته «يحسب حساباً»؛ فهو في «هذا الحساب» كما يقال مجبر على إهمال الله. هذا ما يرمي إليه، وما يرغبه... إليك: أعتقد أني أطلق اسم «غنائية» على حالة الإنسان الذي برضى أن يغلب الله.

ـ أليس هذا أيضاً ما تعني كلمة: حماسة؟..

ـ ويمكن كلمة: إلهام. نعم، هذا ما أريد قوله. دوفييه غير نادر على الإلهام. وأقبل بان بول امبرواز على حق حين يعتبر الالهام من أكثر الأمور الضارة بالفن؛ واعتقد أن المرء لا يكون فناناً إلا بشرط السيطرة على الحالة الغنائية؛ ولكن من المهم الشعور بها أولاً قبل السيطرة عليها.

ـ ألا تعتقد أن هذه حالة الزيارة الإلهية هذه يمكن شرحها فيزيولوجياً بواسطة...

فقاطعه أدوار:

ـ إن هذا لا يقدم ولا يؤخر. اعتبارات كهذه، حتى لو كانت صحيحة، لا تصلح إلا لمضايقة الحمقى. ليس هناك من حركة رمزية ليس لها كفيلها المادي. وبعد؟.. فالروح، لكي

تقوم بشهادتها، لا تستطيع أن تتغاضى عن المادة. ومن هنا جاء سر التجسد.

ـ وبعكس دلك، فإن المادة تتخطى الـروح بشكل يثـ الإعجاب

فقال أدوار ضاحكاً:

ـ هذا، لا نعلم عنه شيئاً.

كان برنار يشعر بكثير من التسلية وهو يسمعه يتكلم هكذا. وأدوار قليلاً ما يستسلم عادة. أما الحماسة التي يظهرها اليوم فقد جاءته من وجود أوليفييه.

وقد أدرك برنار ذلث، ففكر:

ـ أنه يحدثني كما يريد أن يحدثه في ما بعد. يريد أن يجعل من أوليفييه سكرتيراً له. سأنسحب حالماً يشفى أوليفييه. أن مكاني هو في الخارج.

كـان يفكر في هـذا دون مرارة. فهـو مشغول من الآن فصاعداً بساره التي عاود زيارتها الليلة الماضية ويستعد ليزورها الليله.

وقال بدوره وهو يضحك:

ـ ها نحن بعيدون جداً عن دوفييه. هل ستحدثـه عن فنسان؟

ـ طبعاً لا، وما فائدة ذلك؟

ـ ألا تعتقد ان ما يسمم دوفييه هو أنه لا يعرف إلى من يوجه شكوكه؟

ـ يمكن أن تكون على حق. ولكن يجب أن يقول هذا للورا. لا أستطيع أن أتكلم دون أن أنكث بعهدها... لا أعرف أين هو

ـ فنسان؟.. باسّافان يعرف.

وقطعت حديثهما رنة جرس. لقد جاءت مدام مولينييه تستعلم عن ولدها. وجاءها أدوار في المشغل.

يوميات إدوار

«زيارة بولين. كنت حائراً كيف أخبرها. ومع ذلك فما كنت لأستطيع أن أدعها تجهل أن ولدها مريض. رأيت أن لا فائدة من أن أسرد عليها محاولة الانتحار الغامضة؛ تكلمت ببساطة عن أزمة عنيفة في الكبد كانت فعلاً أوضح نتيجة لهذه المجازفة. وقالت لي بولين:

«ـ كنت مطمئنة لعلمي أن أوليفييه عندك. لن أعتني به أفضل منك لأني أشعر أنك تحبه اكثر مني.

«قالت هذه الكلمات الأخيرة وتطلعت إلي بإلحاح غريب. هل تصورت المقصد الذي بدا لي أنها وضعته في هذه النطرة؟ كنت أشعر أمام بولين بما يسمى عادة «ضمبر متعب». ولم أستطع إلا أن أتمتم ما لا أدري مما هو غير واضح. ويجب الفول أن ارتعاشي من التأثير منذ يومين جعلني أفقد السيطرة على نفسي. ولعل اضطرابي كان بادياً، إذ أضافت:

ـ احمرارك فصيح... يا صديقي المسكين، لا تنتظر مني لوماً. كنت لأوجه إلبك لوماً لو أنك كنت لا تحب اللوم... أأستطيع رؤ يته؟..

«أخذتها إلى جانب أوليفييه؛ وحين أحس برنار بمجيئنا انسحب.

«ـ ما أجمله!..

«هكذا تمتمت وهي تنحني فوق السربر. ثم التفتت إلي وقالت؛

«ـ ستقبّله عني. أخشى أن أوقظه.

«مما لا شك فيه أن بولين امرأة غير عادية. وليس اعتقادي هذا وليد اليوم ولكني لم أسنطع الأمل أن تصل بإدراكها بعيداً إلى هذا الحد. كان يخيل إلي في كل مرة أني استشف نوعاً من القسر خلال عاطفة كلامها وفي ذلك النوع من البشاشة الذي تضعه في نبرة صوتها (يمكن أن يكون ذلك بسبب الجهد الذي أبذله لأخفي ضيقي). وتذكرت عبارة من حديثنا السابق، عبارة

ظهرت لي يومذاك كثيرة الحكمة بينما كنت غير مهتم بأن أجدها كذلك: «أفضّل أن أمنح عن طيبة خاطر ما اعلم أني لن أستطيع منعه». بالتأكيد، بولين تسعى جهدها لنصل إلى طيبة الخاطر. وقالت عندما عدنا إلى المشغل، وكأنها تجيب على فكرتي الخفية:

«- أخشى أن أفضحك بعدم فضيحة نفسي الآن. هناك بعض الحريات في التفكير يريد الرجال الاحتفاظ باحتكارها. ومع ذلك فلا أستطيع التظاهر معك بأكثر مما أشعر به من الاستنكار أن الحياة علمتني. أنا أدرك مقدار تعرض طهارة الصبيان للزوال بينما تبدو مصانة كأفضل شيء. وفضلاً عن ذلك فلا أعتقد أن اليافعين الأكثر عفة يكونون أفضل الأزواج في ما بعد، ولا الأكثر إخلاصاً، مع الأسف! - هكذا أضافت وهي تبتسم بحزن - وأخيراً فإن مَثَل والدهم جعلني أتمنى لأولادي فضائل أخرى. ولكني أخاف عليهم الفسق، أو العلاقات المخزيه. أن أوليفييه ينقاد بسهوله. وعليك أن تمسكه. اعتقد أن في إمكانك أن تفعل له الخير، فهو لا يتعلق إلا بك.

«كلمات كهذه ملأتني اضطراباً

«- لقد جعلتني أفضل مما أنا. . .

«هذا كل ما استطعت أن أقوله، بالطريقه الأكثر ابتذالاً والأكثر تكلفاً.

«وتابعت برقة لذيذة:

«ـ أن أوليفييه هو الذي سيجعلك أفضل مما أنت. وأي شيء لا يجعلنا الحب نناله؟

«وسألتها لأضع شيئاً من الهواء بيني وبينها:

«ـ هل يعلم أوسكار بوجوده عندي؟

«ـ هو لا يعرف أنه في باريس. قلت لك أنه لا يهتم كثيراً بأولاده، ولهذا اعتمدت عليك لكي تكلم جورج. هل فعلت؟

«ـ كلا، بعد.

«ودكنت جبهة بولين فجأة:

«ـ قلقي يزداد أكثر فأكثر. أنه يتخذ هيئة الاطمئنان حيث لا أرى إلا عدم الاكتراث، إلا الوقاحة، إلا الزهو. أنه يشتغل جيداً وأساتذته مسرورون منه. وقلقي لا يعرف على ماذا يرتكز.

« وعدلت عن هدوئها فجأة بحدة:

«ـ أرأيت ما الذي صارته حياتي؟... أني حصرت سعادتي؛ من سنة إلى سنة اضطررت إلى أن أخفضها، واختصرت آمالي واحداً واحداً. خضعت، تساهلت، تظاهرت بعدم الفهم، بعدم النظر... ولكن المرء يتعلق أخيراً بشيء ما، وحين يفلت منك هذا القليل!... في المساء يأتي ويشتغل بجانبي تحت هذا المصباح، وحين يرفع أحياناً رأسه عن كتابه، فليست المحبة هي التي ألقاها في نظرته، بل التحدي. قليلاً ما استحققت هذا... يبدو لي أحياناً، وفجأة، أن حبي له تحول

إلى كراهية؛ وأتمنى ألا بكون لي أولاد.

«كان صوتها يرتجف. وأخذت يدها.

«- أوليفييه سبكافئك؛ وأنا أتعهد بذلك

«فبذلت جهداً لتملك نفسها

- صحيح، أنا مجنونة لتكلمي هكذا؛ كأن لس لي ثلاثة أولاد. حين أفكر في واحد منهم لا أرى إلا هذا... ستجدني غير منطقية. ولكن العقل لا يكفي أحياناً.

«فقلت ببرود آملاً أن أهدئها:

«-ومع ذلك فالعقل هو أكثر ما يعجبني فيك.

«- حدثتني ذات يوم عن أوسكار بكثير من الحكمة.

« وانتصبت بولين فجأة وتطلعت إلي، وهزت كتفيها. وقالت بتجهم:

«- دائماً تبدو المرأة أكثر عقلاً عندما تبدو أكثر استسلاماً.

«لقد أثارتني هذه الفكرة بسبب صحتها. ولكي لا أظهر شيئاً من ذلك قلت على الأثر:

«- أما من جديد بخصوص الرسائل؟

«- جديد؟ جديد؟ ما الذي تريده أن يحدث من جديد بين أوسكار وبيني؟..

«- كان ننتظر إيضاحاً.

«- وأنا أيضاً كنت انتظر إيضاحاً. طول حياته يظل الإنسان

ينتظر إيضاحات.

«وقلت في شيء من الضيق:

«- ولكن أوسكار يرى نفسه في وضع غلط.

«- ولكن، يا صديقي، أنت تعلم أن الأوضاع الغلط هي أكثر الأوضاع ميلاً إلى الاستمرار وهذه القضية، عليكم أنتم الروائيين أن تبحثوا لها عن حل. في الحياة لا يُحل شيء. كل شيء يستمر. ويبقى المرء رهن الشك. وسيبقى إلى النهاية دون أن يعرف شيئاً. وفي انتظار ذلك تستمر الحياة، وتستمر، كأن شيئاً لم يكن. من هذا أيضاً يأخذ المرء نصيبه كما يأخذه من الباقي كله... كما يأخذه من كل شيء. هيا. وداعاً.

«اغتممت بشكل محزن من دوي بعض الرّنات الجديدة التي ميزتها في صوتها، نوع من الهجوم أجبرني على التفكير (ربما ليس في اللحظة نفسها وإنما أثناء استذكاري حديثنا) أن بولين استسلمت إلى واقع علاقاتي بأوليفييه بسهولة أقل. مما ادّعت بكثير. بسهولة أقل من كل ما بقي. أريد القول أنها لم تستصوب تماماً هذه العلاقات؛ وأنها تستبشر بها لبعض الاعتبارات كما جعلتني اسمع؛ ولكنها لم تستطع منع نفسها من الغيرة، ولو لم تعترف بذلك.

«هذا هو التفسير الوحيد الذي وجدته لتلك الانتفاضة الفجائية من التمرد، بهذه السرعة وحول موضوع قليلاً ما يثقل

على قلبها. حتى ليقال أنها استنفدت احنباطها من الرفق بمنحها لي في بادىء الأمر ما كلفها كثيراً، ووجدت نفسها فجأة مفتقرة إليه. ومن هذه كانت أقوالها المنطرفه شبه المعتوهة التي يجب أن تدهش هي نفسها منها عندما تعد التفكر فبها، وحيث غبرتها فصحت نفسها.

«وإني لاتساءل في الواقع ماذا يمكن أن نكون حالة امرأة غير مستسلمة؟ اقصد: «امرأة فاضله»... كأن ما بدعى «فضيلة» عند النساء لا يتضمن دائمًا استسلاماً!

«عند المساء بدأ أوليفييه يتحسن بشكل محسوس. ولكن الحياة التي تعود تجلب معها القلق. حاولت أن أطمئنه.

«مبارزته؟ - أن دورمر هرب ومن غير الممكن الركض وراءه.

«المجلة؟ - بركاي يهتم بها.

«الأشياء الني تركها عند باسافان؟ - هي النفطة الأكثر دقة. اضطررت إلى الاعتراف أن جورج لم يستطع نسلمها. ولكني تعهدت بالذهاب بنفسي في صباح الغد للبحث عنها. كان يخشى، كما بدا لي، أن يمسكها باسّافان كرهن؛ الأمر الذي لم أستطع القبول به لحظة واحدة.

«تأخرت البارحة في المشغل بعدما كتبت هده الصفحات، حين سمعت أوليفييه يدعوني. فقفزت إلى عنده. فال لى:

«- أنا الذي كان سيأتي لو لم أكن كثير الضعف. أردت أن

أنهض، ولكن حين وقفت دار رأسي وخفت أن أسقط. كلا، كلا، لا أشعر بكثير من الألم، بالعكس... ولكني بحاجة لأن اكلمك.

«يجب أن تقطع وعداً... بألا تحاول أبداً معرفة السبب الذي جعلني أريد قتل نفسي أمس الأول. أعتقد أني أنا نفسي لا أعرف كنت أريد أن أقوله، صحيح! لم أستطع. ولكن يجب ألا تعتقد أن ذلك كان بسبب شيء غامض في حياتي، شيء لا تعرفه - ثم بصوت أكثر انخفاضاً: - كلا، لا تتصور أن ذلك كان بدافع الخجل..

«ومع أننا كنا في الظلام، فقد غطى جبهته بكتفي.

«- أوه! إذا كنت أشعر بالخجل، فمن تلك الوليمة في ذلك اليوم، من سكرى، من هبجاني، من دموعي، ومن أشهر الصيف تلك؛ ولأني أنتظرتك بشكل غير لائق.

«ثم اعترض بأنه بعد الآن لن يعود يرى نفسه ولا في شيء من كل هذا، وأن هذا كله هو ما أراد أن يقتله، وأنه محاه من حياته

«شعرت بضعفه حتى في هياجه، وهدهدته كطفل دون أن أقول شيئاً. لقد كان بحاجة إلى الراحة. وسكوته جعلني أعتقد أنه غفا، ولكني سمعته يتمتم أخيراً:

«- بالقرب منك، أنا سعيد جداً بالنوم.

«ولم يدعني أفارقه إلا في الصباح».

١١

جاء برنار باكراً هذا الصباح، وكان أوليفييه لا يزال نائمًا. وكما كان يفعل في الأيام السابقة، جلس على رأس سرير صديقه ومعه كتاب. وهذا ما أتاح لإدوار أن يقطع حراسته ليذهب إلى منزل الكونت دو باسّافان كما وعد أن يفعل. كان واثقاً أنه سيجده في هذه الساعة.

كانت الشمس تتألق، وهواء عنيف ينظف الأشجار من بقايا أوراقها؛ وكان كل شيء يبدو صافياً، لازوردياً. ولم يكن أدوار قد خرج منذ ثلاثة أيام. سرور عظيم كان يشرح قلبه؛ حتى خيل إليه أن كل كيانه غلاف مفتوح مفرغ، يطفو على بحر مشاع، على أوقيانوس إلهي من الطيبة. إن الحب والطقس الجميل لا يفيمان حدوداً لما يحيط بنا.

كان أدوار يعرف أنه في حاجة إلى سيارة لحمل أشياء أوليفييه؛ لكنه لم يتعجل أخذها؛ كان يجد منعة في السير على القدمين، وحالة الاستلطاف التي شعر بها حيال الطبيعة بكاملها أعدته إعداداً سيئاً لمجابهة باسّافان. كان يحدث نفسه بأن عليه أن يمقته، وعرض في فكره كل ما سبّب من أذى إلا أنه لم يشعر

منها بأي فرصة. لقد اختلس مكان هذا الخصم الذي كـان يكرهه حتى نهار البارحة، اختلسـه شكل كـامل، فلم يعـد يستطيع أن يكرهه بعد الآن. على الأقل لا يستطيع ذلك هذا الصباح. وبما أنه يعتبر انه يجب أن لا يظهر شيء من هذا الانقلاب حتى لا يفضح سعادته، أراد أن يتوارى عن المواجهة. وبالفعل، لماذا يذهب إليـه هو نفسـه، هو بـالضبط، أدوار؟ سيذهب إلى شارع بـابيلون ويطلب أمتعـة أوليفييه، إلى أي عنوان؟.. لقد قبل القيام بهذه المهمة دون تبصر، هكذا قال لنفسه وهو يمشي - مما سيجعل الآخرين يستنتجون أن أوليفييه اختار اقامته عنده؛ وهذا بالضبط ما كان يريد إخفاءه... فات الوقت للعودة. لقد نال أوليفييه وعداً منه. كان المهم، على الأقل، أن يظهر أمام باسّافان كثير البرود، كثير الصلابة. ومرت سيارة أجرة، فناداها

لم يكن أدوار يعرف باسّافان معرفة جيدة. كان يجهل أحدى سمات طباعه. أن باسّافان الذي لا يؤخذ بسهولة لم يكن يطيق أن يُخدع. ولكي لا يعترف بانكساراته كان يتظاهر دائمًا بأنه تمنى مصيره، وارتضاه بملء إرادته مهما حدث. ومنذ أن علم أن أوليفييه أفلت منه لم يكن له من هم إلا أن يخفي ثورته. ولما كان بعيداً عن الركض وراءه والمجازفة بأن يصبح أضحوكة، فقد تصلب وبذل جهده ليهز كتفيه. لم تكن تأثيراته عنيفة بالقدر الذي يمنعه من التغلب عليها. وهذا ما يستبشر به بعض الناس

دون أن يرضوا بالاعتراف أنهم مدينون بهذه السيطرة على أنفسهم لفقر في مزاجهم أكثر مما هم مدينون لقوة في طباعهم. وإني امتنع عن التعميم. ولنفرض أن ما قلته لا ينطبق إلا على باسافان. إذاً فهو لن يتعب كثيراً في أن يتخيل أنه شبع من أوليفييه؛ وأنه في ذينك الشهرين من الصيف قد استنفد كل ميلٍ إلى مغامرة أصبح يخشى أن تزعج حياته وأنه بالنتيجة غالى في جمال هذا الولد وفي كياسته وموارد روحه. وقد حل الوقت أيضاً لتتفتح عيناه على المحاذير المترتبة على أن يعهد بإدارة مجلة لفتى لا يزال صغيراً وغير مجرب. لقد نظر إلى كل هذا بعين الاعتبار، وستروفيلو يقوم بعمله أفضل منه بكثير. وهذا يصلح أن يكون مديراً لمجلة. وقد كتب إليه يدعوه هذا الصباح.

لنضف ان باسافان قد اخطأ حول سبب هرب أوليفييه. كان يظن انه أثار غيرته بإكثاره من ملاطفة ساره؛ ورضي عن نفسه بهذه الفكرة التي ترضي اعجابه الطبيعي بنفسه. ولهذا كان حقده قد خمد.

إذاً كان ينتظر ستروفيلو؛ وبما أنه أصدر أمره بإدخاله فور وصوله، فإن أدوار استفاد من هذا الأمر ووجد نفسه أمام باسّافان دون أن يُعلن عن قودمه.

لم يظهر باسّافان شيئاً من دهشته. ومن حسن حظه فإن الدور الذي يجب أن يلعبه يلائم طبيعته ولا يحير أفكاره. وما إن

عرض أدوار أسباب مجيئه حتى قال:

ـ كم أنا سعيد بما قلته لي. إذاً، صحيح؟ أتريد الاهتمام به؟ . ألا يزعجك هذا كثيراً؟.. أوليفييه غلام بديع ولكن وجوده هنا بدأ يضايقني بشكل مخيف، لم أجرؤ أن أدعه يشعر! أنه كثير اللطف. . كنت أعلم أنه يفضل... ألا يعود إلى أهله .. الأهل الذين تركهم ذات مرة... ولكن أفكر فيه، أليست أمه نصف أخت لك؟.. أو شيئاً من هذا القبيل؟... لقد اضطر أولفييه أن يوضح لي ذلك في الماضي. إذاً ما من شيء أكثر طبيعية من سكنه عندك. ما من أحد يجد في ذلك ما يدفعه إلى الإبتسام (أما هو فقد ابتسم وهو يقول ذلك). وأنت تعلم أن وجوده عندي كان أكثر صعوبة. وقد كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أرغب في رحيله.. مع أنه ليس من عادتي أن اهتم بالرأي العام. كلا. أن هذا لمصلحته...

لم تبدأ المحادثة بشكل سيء. ولكن باسّافان لا يستطيع مقاومة اللذة في أن يسكب على سعادة أدوار بعض قطرات من سم مكره. كان يحتفظ من هذا السم باحتياطي، فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث.

شعر أدوار بأن صبره قد نفذ. ولكنه تذكر فنسان فجأة، ولا بد أن يكون عند باسّافان شيء من أخباره. صحيح أنه الى على نفسه ألا يتحدث عن فنسان إلى دوفييه إذا جاء هذا وسأله.

ولكنه لكي يستطيع التهرب من الإستجواب، شكل أفضل رأى أن يكون هو نفسه عا واً ببعض المعلومات عن فنسان، مما يجعل مقاومته قوية. فتمسك بهذه الحجة للتشاغل. وقال باسافان:

ـ فنسان لم يكتب إلي؛ ولكني تلقيت رسالة من الليدي غريفث ـ وأنت تعرف جيداً إنها: البديلة ـ تحدثني فيها طويلاً. خذ. هذه هي الرسالة... وبعد، فلا أدري لماذا لا تطلع عليها.

وناوله الرسالة. وقرأ ادوار:

٢٥ آب

«عزيزي.

«سيسافر يخت الأمير من دكار دوننا. ومن يعلم أين نكون حين تصلك هذه الرسالة التي يحملها اليخت؟ قد نكون على شاطىء «الكازامانس» حيث شئنا ذلك. فنسان يجمع النبات وأنا اصطاد لا أعرف كثيراً إذا كنت أذهب به أو يذهب بي؛ أو بالأحرى إذا كان شيطان المغامرة هو الذي يحرضنا نحن الأثنين هكذا. لقد قدمنا إليه شيطان الضجر الذي تعرفت إليه على ظهر الباخرة... آه! يا عزيزي. يجب أن تعيش على يخت لتتعلم كيف تعرف الضجر. في وقت العاصفة تظل الحياة عليه

محتملة، أننا نساهم في هياج المركب ولكن منذ تنيريف[1] Téneriffe، ما من نسمة، ما من تغضن على صفحة البحر.

. . . مرآة يأسي

الكبيرة.

ثم، أتعرف بماذا أهتم منذ مدة؟ . . بأن أكره فنسان. نعم يا عزيزي. أن الحب يبدو لنا تافهاً، وقد عزمنا على أن نكره بعضنا بعضاً. وحقيقة القول أن هذا قد بدأ من قبل: نعم، منذ إبحارنا. في بادىء الأمر لم يكن سوى غضب، سوى نوع من الحقد لم يكن يمنع تلاحم جسدينا. ومع الطقس الجميل، أصبح هذا ضارياً. آه! أعرف الآن ما معنى أن يشعر المرء بحب أحد الناس. . .».

كانت الرسالة طويلة وقال أدوار وهو يعيدها إلى باسّافان:

ـ لست بحاجة لقراءة أكثر من ذلك. متى يعود؟

ـ الليدي غريفث لا تتحدث عن العودة.

كان باسافان متكدراً لأن أدوار لم يبد كثيراً من الشهية لهذه الرسالة. ومنذ اللحظة التي سمح له بقراءتها، عزم أن يعتبر عدم رغبته في معرفة ما فيها كإهانة. كان يرفض مختاراً ما يقدم

(١) تنيريف : اكبر جزر ارخبيل كناريا في الأطلسي مقابل موريتانيا . المترجم .

إليه ولكنه لا يحتمل احتقار ما يقدمه هو. ملأته هذه الرساله سروراً. كان يغذي بعض المحبة للبلبان ولفنسان؛ ولكنه أتبت أنه يستطيع أن يكون محسناً إليهما، ميالاً إلى مساعدتهما. إلا أن محبته ضعفت منذ أن استغنى عنها. أن صديقه لم يسيرا نحو السعادة حين تركاه، وهذا ما دعاه للتفكير أن هذا حسن.

أما أدوار فإن غبطته الصباحية كانت كثيرة الصدق مما جعله يشعر بالضيق أمام صورة العواطف المجنونه. ولهذا أعاد الرسالة دون أي تصنع.

وكان يهم باسّافان أن يستعيد المبادرة حالاً:

ـ آه! كنت أريد أن أقول لك أيضاً: هل تعلم إني كنت فكرت في أوليفييه لإدارة مجلة؟... من الطبيعي ألا يعود هذا موضع بحث.

ـ هذا لا يحتاج إلى بحث.

أجاب أدوار، الذي خلصه باسّافان من هم كبير دون أن يشعر. وقد أدرك من لهجة أدوار أنه لعب لعبته، فقال دون أن يفسح مجالاً ليعض على شفتيه:

ـ الأمتعة التي تركها أوليفييه موجودة في الغرفة التي كان يشغلها معك سيارة دون شك. ستنقل الأمتعة إليها. للمناسبة، كيف حاله؟

ـ على خير ما يرام.

كان باسّافان قد نهض، وحذا أدوار حذوه. وافترق الإثنان على تحية من أبرد التحيات.

زيارة أدوار أزعجت الكونت دو باسّافان بشكل مرعب

ـ أوف!...

هذا ما قال عندما رأى ستروفيلو يدخل.

ومع أن ستروفيلو يعاكسه فإن باسّافان شعر أنه مرتاح معه، أو بصورة أصح: فقد ترفه. والحقيقة أن وقعته هذه مع خصم قوي، وهو يعرفه، ولكنه يعتقد بنفسه أنه ذو قوة ويفتخر بإثباتها. وقال وهو يقدم إليه كنبة:

ـ خذ سكانك يا عزيزي ستروفيلو. أنا في الحقيقة سعيد برؤ يتك.

ـ السيد الكونت طلبني وها أنا في خدمته.

كان ستروفيلو يتكلف معه وقاحة خادم؛ ولكن باسّافان كان مصنوعاً على نمطه.

ـ إلى العمل رأساً. لقد جاء الوقت للخروج من تحت الأثاث، كما قال الآخر. إنك امتهنت في السابق كثيراً من المهن... وأريد اليوم أن أعرض عليك وظيفة حقيقية لدكتاتور. ولنسرع بالإضافة أن الأمر يتعلق بالأدب.

ـ ما هم ـ ثم، وبما أن باسّافان مدّ نحوه علبة سكاير: ـ لو سمحت، إني أفضّل ..

لا أسمح أبداً. ستلوث غرفتي بسكايرك المخيفة المهربة. لم أفهم أي لذة تجدونها في تدخين هذه السكاير.

ـ أوه! . . لا أستطيع القول إني مولع بها. ولكن هذا يضايق الجيران.

ـ إنك دائمًا من راشقي المقلاع.

ـ مع ذلك، يجب ألا تحسبني معتوهاً.

وستروفيلو، دون أن يجيب مباشرة على عرض باسّافان، ظن أن من الملائم أن يستوضح، وأن يركز وضعه جيداً؛ وهذا ما سوف يظهر حالاً. وقال:

ـ محبة الناس لم تكن قط ميزتي الأساسية.

فقال باسّافان:

ـ اعلم، اعلم.

ـ والأنانية أيضاً. وهذا ما لا تعرفه جيداً. . . لقد أرادوا أن يدخلوا في خلدنا أن ليس للإنسان من مهرب من الأنانية إلا بإيثار أكثر شناعة منها! أما أنا، فأزعم أنه إذا كان هناك من يستحق الاحتقار أكثر من الإنسان وأكثر صغاراً منه فهو الكثير من الناس. وليس هناك برهان يجعلني اقتنع أن جمع الوحدات القذرة يمكن أن يعطي مجموعاً لذيذاً. لم يحدث لي أن صعدت إلى حافلة كهربائية أو قطار حديدي إلا تمنيت أن يحدث حادث جميل يحول كل هذه الأقذار الحية إلى حساء. ولم أدخل قاعة

مسرح إلا تمنيت إنهيار الثريات أو انفجار قنبلة؛ وحين اضطر إلى الانفجار معها فسأحملها مختاراً تحت سترتي، هـذا إذا لم احتفظ بنفسي لشيء أفضل. ماذا قلت؟..

ـ كلا، لا شيء، استمر. أني مصغ إليـك. لستَ من أولئك الخطباء الذين ينتظرون سوط المعارضة ليسيروا.

ـ خيل إلي أني سمعتك تقدم لي كأساً من شرابك «البورتو» المعتبر.

فابتسم باسّافان، وقال وهو يناوله الزجاجة:

ـ ابق الزجاجة قربك. أفرغها إذا شئت، ولكن تكلم.

فملأ ستروفيلو كأسه، وطوى شراعه في كنبة عميقة، وبدأ:

ـ لا أدري إذا كنت أملك ما يدعى قلباً جافاً؛ ولكني أظن ذلك لأن عندي الكثير من السخط، والتقزز؛ وقليلاً ما يهمني. صحيح أني كبحت في هذا العضو منذ وقت طويل كل ما أخشى أن يبعث فيه الشفقة. ولكني قادر على الإعجاب، وعلى نوع من الإخلاص الأخرق. لأنني كإنسان، احتقر واكره نفسي اسـوة بالغير. وقد سمعت من يردد دائمًا في كل مكان أن الأدب، والفنون، والعلوم تعمل لخير الإنسانية حتى الرمق الآخير، وهذا يكفيني لأتقيأها. ولكن مـا من شيء يمسكني من أن أعكس القضبة، حينئذ أتنفس. نعم، إن ما يرضيني تخيله هو العكس تماما· الإنسـانيـة الخسيسـة وهـي تعمل في تـشـيـيـد

نصب ضـار مـا؛ شخص كبرنار بـاليسي (لقـد أزعجـونـا كثيراً به) وهو يحرق النساء والأولاد، ويحرق نفسه أيضاً، في سبيل الحصول على بريق طبق جميل. أحب أن أعكس المسائل ماذا تريد، أن روحي خلقت هكذا بحيث تبقى في توازن أفضل إذا كان الرأس إلى أسفل. وإذا لم أستطع احتمال فكرة مسيح يضحي بنفسه في سبيل خلاص جاحد من كل هؤلاء الناس الشنيعين الذين أدفعهم بمرفقي، فإني أجد شيئاً من السرور، ونوعاً من الطمأنينه أيضاً، بأن أتخيل هذا الخليط بتعفن في سبيل انتاج مسيح. . . وأفضّل شيئاً آخر أيضاً، لأن كل تعاليم هذا لم تستخدم إلا في مزيد من تغطيس الإنسانية في الوحل. المصيبة تأتي من أنانية الضواري. ضراوة مخلصة، هذا ما ينتج أشياء عـظيمة. أننـا نتنكب الطريق بحمـاية البؤسـاء، والضعفاء، والعاجزين، والجرحى. ولهذا السبب أكره الدين الذي يعلمنا ذلـك. . .رالسلام العظيم الذي يزعم محبو البشر أنفسهم أنهم يغترفونه من تأمل الطبيعـة، حيوانـاتها ونبـاتها، يـأتي من أن الكائنات القوية تنجح وحدها في الحالة الوحشية؛ أما الباقي كله، النفاية، فيستعمل سماداً. لكنهم لا يعـرفون أن يـروا ذلك، ولا يريدون الاعتراف به.

ـ بلى، بلى، أني أعترف به مختاراً، أكمل.

ـ أليس هذا مخجلاً، بائساً؟. . . أن يكون الإنسان قد فعل ما فعل في سبيل الحصول على نسل جميل من الحبول، والماشيه،

والطيور، والحبوب، والزهور ـ وهو نفسه، وفي سبيل نفسه، لا يزال يبحث في الطب عن عزاء لبؤسه، وفي المحبة عن مسكّن وقتي، وفي الدين عن سلوى، وفي السكر عن النسيان. . . أن ما يحب الاشتغال به هو تحسين النسل ولكن كل اختيار [illegible] النصف [illegible] مشوهي الخلقة [illegible] في مجتمع [illegible] أن يحله. وهو لا يعرف أيضاً أن يأخذ على عاتقه خصاء فاسدي النوع؛ وهم الأكثر قدرة على التناسل. أما ما يلزم فهو مريض لتحسين النسل وليس المستشفيات.

ـ أنت تسرني بهذا يا ستروفيلو.

ـ أخشى أن تكون قد أخطأت الظن بي حتى الآن، يا سيدي الكونت. لقد حسبتني ارتيابياً وأنا مثالي، صوفي. أن الإرتيابية لم تعط شيئاً صالحاً. وقد أصبح معلوماً إلى أين تقود. . . إلى الساهل! إني أعتقد أن الإرتيابيين أناس دون مثل اعلى، دون مخيلة، كحمقى. . . ولا أجهل شيئاً من الرقة، واللطافة العاطفية اللتين سيحذفهما انتاج هؤلاء الدتر الأشداء. ولكن لن يكون هناك أحد ليأسف على الرقة واللطافة، دام جميع الرقيقين واللطفاء سيحذفون معهما. لا تنخدع، فعندي ما يسمى: الثقافة، واعرف جيداً أن مثلي الأعلى قد اكتشفه بعض اليونانيين؛ وإني أجد لذةً على الأقل بأن أتخيله لنفسي، وأن أتذكر أن كوريه Corée ابنة سيريس هبطت إلى الجحيم ملأى بالشفقة على الظلال. ولكنها وقد أصبحت ملكة، وزوجة

لبلوتون Pluton، فإن هـوميروس لم يـطلق عليها سـوى اسم «بروزربين البلا رحمة». راجع الأوديسة ـ النشيـد السادس ـ «البلا رحمة». هذا ما يجب أن يكونه الإنسـان الذي يـدعي الفضيلة.

ـ أنا سعيد بأن أراك تعود إلى الأدب، هذا إذا كنا قد تركناه. إني أسألك يا ستروفيلو الفاضل إذا كنت تقبل أن تصبح المدير «البلا رحمة» للمجلة.

ـ الحق يقال، يا عزيزي الكونت... يجب أن أعترف لك إن الأدب يقززني أكثر من أي شيء بين جميع البرازات الإنسانية التي تسبب القيء. لا أرى فيه سوى مجاملات وتمليقات. وقد بدأت أشك فيها إذا كان بمكن أن يكون شيئاً آخر ما دام لم يكنس الماضي على الأقل. أننا نعيش عـلى عواطف متعـارف عليها، والقارىء يتخيل أنه يشعر بها لأنه يؤمن بكل ما يُطبع؛ والمؤلف يضارب من فوق كأنه يضارب على انفاقات يعنقدها قواعد لغته. هذه العواطف ترن رنيناً زائفاً كفيش القمـار، ولكنها متداولة. «النقود الرديئة تـطرد النقود الجيـدة» كما هـو معروف. ومن يقدم للجمهور مسرحيات حقيقية يبدو أنه يدفع لنا كلمات. والإنسان الحقيقي هو الذي يبدو كدجال في دنيا كل من فيها يلجأ إلى الغش. إني أنذرتك بذلك: إذا قمت بإدارة مجلة فلكي أبقرها بالطعنات، ولأقضي فيها على جميع العواطف الجميلة؛ والأوراق النقدية هذه: هي الكلمات

ـ أحب أن أعرف كيف تتصرف بها

ـ دعني أعمل وسنرى جيداً كثيراً ما فكرت في هذا

ـ لن تكون مفهوماً من أحد، ولن يتبعك أحد.

ـ أعوذ بالله! . إن الفنيان الأقل خمولاً واعون اليوم للنضخم الشعري. أنهم يعرفون ماذا يتخبأ من ريح وراء الإيقاعات المدعية والترديدات الغنائية الرنانة. ليقترح أحدنا الهدم والزنود ستتوافر. أتريد أن نؤسس مدرسة لا يكون لها من هدف سوى أن نتلف كل شيء؟ . . أيخيفك هذا؟ . . .

ـ كلا . . . إذا لم تُدَس حديقتي.

ـ هناك ما يمكن العمل به خارجاً . . . وبانتظار ذلك، فإن الساعة مناسبة. وأنا أعرف من لا ينتظرون سوى إشارة الاجتماع؛ من الصغار . . . نعم، هذا يعجبك، وأنا أعلم، ولكني أنذرك بأنهم لن يقعوا في فخ أحد. وغالباً ما تساءلت بأية معجزة أصبح الرسم متقدماً وكيف حدث أن الأدب قد سُبق؟ وبأي هوان سقط اليوم ما كان يعتبر عادة في الرسم أنه «الباعث»! . . موضوع جميل! إن هذا يدعو إلى الضحك. والرسامون لا يجرؤون على المجازفة بصورة إلا بشرط تجنب كل شبه. إذا سرنا بعملنا سيراً حسناً، وفي وسعك الاعتماد علي في هذا، فإني لا أطلب سنتين لكي أجعل شاعر الغد يعتقد أنه أهين في شرفه إذا استطاع أحد أن يفهم ما يريد أن يقول.

نعم، يا سيدي الكونت؛ أتريد أن تراهن؟.. أن كل معنى، وكل تفسير سوف يُعتبران ضد الشعر. أني أقترح أن نعمل لمصلحة اللامنطقية. «المنظفون!» ما أجمله عنواناً لمجله!..

كان باسّافان يصغي دون أن يحرك ساكناً وقال بعد صمت:

ـ هل تعدّ ابن أخيك الفتى بين اتباعك؟

ـ ليون الصغير، طاهر. الاستقامة والمثابرة تدفعان الإنسان إلى التقدم حقيقة. أن هناك لذة في تعليمه. قبل الصيف كان يجد من المضحك أن يقفز فوق الأقوياء في موضوع صفه وأن ينال جميع الجوائز، ومنذ دخوله إلى المدرسة لم يعد يعمل شيئاً. ولا أدري ماذا يطبخ؛ ولكني منحته ثقتي ولا أريد أن أزعجه.

ـ أتأتي به إلي؟...

ـ أظن أن السيد الكونت يمزح.... إذاً هذه المجلة؟..

ـ سنعود إلى الحديث عنها. أنها بحاجة لإنضاج ... بعد في نفسي. وبانتظار ذلك يجب أن تأتيني بسكرنير؛ فذاك الذي كان عندي لم يعد يعجبني.

ـ سأرسل إليك منذ الغد كوبلافلور الصغير الذي لا بد أن أراه بسرعة، والذي سيقوم بعملك دون شك.

ـ هل هو من جنس «منظف؟».

ـ قليلاً.

ـ من جنس واحد؟ Exuno

ـ كلا!.. لا تحكم على هـذا وفقاً لـذاك. فهذا فنـوع ويناسبك تماماً.

ونهض سنروفيلو. وقال باسافان:

ـ للمناسبة، أظن أني لم أعطك كتابي. آسف لعدم وجود نسخة من الطبعة الأولى.....

ـ ما دمت لا أنوي بيعه فليس لهذا أهمية.

ـ الطبعة الثانية أفضل.

ـ أوه!.. ما دمت لا أنوي أيضاً أن أقرأه... إلى اللقاء. وإذا كان ذلك على بالك: أنا بخدمتك لي الشرف أن أحييك.

١٢

يوميات ادوار

«جئت بأمتعته. بعد العودة من عند باسّافان، شغل. حماسة هادئه واعبة. فرح غير معروف حتى هذا اليوم. كتابة ثلاثين صفحه من «مزيفو النقود»، دون تردد، دون شطب. كمنظر طبيعي ليلي على ضوء برق فجائي هكذا انبثقت المأساة من الظل كثيرة الاختلاف عما سعيت عبثاً لابتداعه. والكتب التي كتبتها

حتى الآن تبدو لي شبيهة بتلك الأحواض في الحدائق العامة، ذات إطار معين، كامل تقريباً، ولكن الماء الموجود فيها هو دون حياة. أما الآن فأريد أن أتركه يسيل وفقاً لانحداره، تارة سريعاً وطوراً بطيئاً، في شباك أرفض أن أستشفها.

«X» يرى أن الروائي الجيد عليه قبل أن يبدأ كتابه أن يعرف كيف سينتهي هذا الكتاب. أما أنا الذي نترك كتابه يسير بلا قصد معين فاعتبر أن الحياة لا تعرض علينا شيئاً لا يمكن أن يعتبر كنقطة انطلاق جديدة. «يمكن أن يستمر...» بهذه الكلمات أريد أن أنهي كتابي «مزيفو النقود».

«زيارة دوفييه. طبعاً هو غلام طيب.

«بما أنني أفرطت في تعاطفي، كان علي أن أكابد تدفقاً عاطفياً يبعث على كثير من الضيق حين كنت أتحدث إليه استعدت في نفسي هذه الكلمات لروشفوكو: «أنا قليل الشعور بالشفقة، ولا أريد أن أشفق إطلاقاً. أني أقول أنه على المرء أن يكتفي بإظهار الشفقة وأن يحمي ذاته من الشعور بها». ومع ذلك فتعاطفي كان حقبقياً، لا يمكن إنكاره، وكنت متأثراً حتى الدموع. وحقيقة القول أن دموعي بدت لي كتعزية أكثر من أقوالي. وأظن أيضاً أنه أقلع عن حزنه مذ رآني أبكي.

«كنت مصمماً بشدة على ألا أكشف له اسم من اغوى امرأنه. لكنه ادهشني بعدم سؤاله عنه. اعتقد أن غيرته تلاشت

منذ أن سعر بأن لورا لم تعد تنعم النظر إليه وعلى كل حال فإن تصرفه معى نانح عن شيء من التعب أصاب همه.

«شيء من اللامنطقية فى حالته؛ هو حانق لأن الآخر أهمل لورا. وقد أطهرت له أن لورا لم تكن لنعود إليه حتى لو لم نصدر عنه هذا الإهمال. وعد بأن يحب الولد كما سيحب ابناً له. ومن يدري هل كان سيعرف إلى مسرات الأبوه لولا داك الذي أغوى امرأته؟ هدا ما تجنبت أن أجعله بلاحظه، لأن غيرته ستزداد عندما ينذكر عدم كفاءته. ولكن هذه الغيرة عند ذلك ستتحول إلى حب الذات ولا تعود تهمني.

«إذا كان واحد كعطيل غيوراً فهذا يظل مفهوما، لأن صورة اللذة التي حصلت عليها زوجته مع رجل آخر كانت تلازمه. ولكن واحداً كدوفيه ليكون غيوراً يحب أن ينخيل أن علبه أن يكون هذا الغيور.

«ما من سك في أنه برعى في نفسه هذا المبل بدافع حاجة خفيه لبقوي شخصه الهزيل وسوف تكون السعادة طبيعية له، لكنه في حاجة للاعجاب بنفسه. أما ما يعتبره فهو الحاصل وليس الطبيعي. إذاً ففد بذلت جهدي لأصور له أن السعادة البسيطة نستحق الاعتبار أكثر من العذاب، وبلوغها صعب جداً. لم أدعه يدهب إلا وهو أكثر بشاشة.

«تناقص فى الشخصيات.الأشخاص الذين يتصرفون كما قدر

لهم من أول الرواية أو المأساة إلى آخرها. . . فإن ثباتهم هذا قد عرض لينال إعجابنا. أما أنا فعلى العكس لأني أعرف أن هؤلاء الأشخاص ليسوا سوى اصطناعيين ومصنوعين

«ولا أزعم أن التناقض يجب أن يكون الدليل الأكيد على الطبيعي، لأننا نجد كثيراً من التناقض المصطنع، لا سيما بين النساء. ومن ناحية أخرى أستطيع أن أعجب عند بعض القلائل بما يدعى «روح التعاقب»؛ ولكن نتيجة الكائن هذه لم يُحصل عليها في أغلب الأحيان إلا بواسطة تشبث مزهو، وعلى حساب الطبيعي. وكلما كان الفرد ذا كنهٍ شريف تكثر إمكاناته، وكلما ظل ناشطاً للتغيير يقل تركه لماضيه أن يبت مستقبله. «أن الإستقامة والمثابرة يدفعان الإنسان إلى التقدم «Justum et tenacem propositi virum»، فهذه العبارة التي تعرض علينا كأنموذج لا تقدم في الغالب سوى أرض صخرية صعبة حراثتها.

«وعرفت، من نوع آخر أيضاً، من يصنعون بالمثابرة أصالة واعية، ويكون همهم الرئيسي ألا يحيدوا عنها، بعد اختيار بعض منهم؛ ومن يظلون على أهبة الاستعداد ولا يتسامحون في أي إهمال. (أني أفكر في X الذي رفض كأساً من شراب مونتراشيه ١٩٠٤ الذي قدمته إليه، وقال: «لا أحب سوى نبيذ بوردو»، وحين قدمته إليه كأنه نبيذ بوردو بدا له المونتراشيه لذيذاً جداً).

«عندما كنت صغيراً كنت أعقد العزم على أمور أتخيلها فاضلة. وكنت أقلق من أن أكون ما كنته أقل من أن أصبح ما

كنت أزعم أن أكونه. أما في الوقت الحاضر فإني أكاد أرى في التردد سر عدم الشيخوخة.

«سألني أوليفييه عماذا اشتغل. انسقت إلى أن أحدثه عن كتابي، وأن أقرأ له الصفحات التي كتبتها ما دمت أراه مهتمًا. كنت أخاف حكمه، عارفاً بتشدد الشباب وبالصعوبة التي يشعر بها في قبول وجهة نظر أخرى غير وجهة نظره. ولكن بعض الملاحظات التي تجرأ على قولها بخوف بدت لي كثيرة الحصافة إلى درجة أني استفدت منها حالاً.

«اشعر وأتنفس بواسطته ومن خلاله.

«كان لا يزال قلقاً حول موضوع تلك المجلة التي عليه أن يتولى إدارتها، وخصوصاً حول تلك القصة التي أنكر كتابتها، والتي وضعها بناء على طلب باسّافان. قلت له أن الترتيبات الجديدة التي اتخذها هذا سوف تقود إلى تغيير في الفهرس، وسيستطيع استعادة مخطوطته.

«استقبلت الزيارة غير المنتظرة، زيارة السيد بروفيتانديو قاضي التحقيق. كان يجفف جبهته ويتنفس بشدة، وقد بدا لي أن ضيق نفسه ناتج عن كدره أكثر من صعوده. احتفظ بقبعته في يده ولم يجلس إلا بعد دعوتي. أنه رجل ذو مظهر جميل، متين البنية، طويل القامة، لا شك في مهابته. وقال لي:

«ـ اعتقد أنك شقيق زوجة الرئيس مولينييه. سمحت

لنفسي أن آتي لمقابلتك في موضوع ولده جورج. تريد دون شك أن تعفو عن مسلك من الممكن أن يبدو لك في بادىء الأمر غير رصين، ولكني آمل أن يكفي العطف والمودة اللذان احملهما لزميلي لإيضاح ذلك لك.

«وتوقف هنيهة. فنهضت وأسدلت ستاراً خوفاً من أن تستطيع مدبرة البيت أن تسمع، وهي فضولية، واعرف أنها في الغرفة المجاورة. وقد استصوب بروفيتانديو عملي بابتسامة، وقال:

«- بصفتي قاضي تحقيق كان علي أن أهتم بقضية أزعجتني جداً. أن ابن أختك الصغير كان قد اشترك سابقاً في مغامرة.. . وليبق هذا بيننا أليس كذلك؟ - مغامرة تجلب الفضيحة، حيث أريد الظن، آخذاً في الاعتبار صغر سنه، أن سلامة طويته وبراءته قد غرر بهما. وأعترف لك بأن هذا جعلني حينذاك ألجأ إلى شيء من المهارة لكي... أحصرها في حدود معينة دون أن أسيء إلى مصلحة العدالة. وأمام عودة إلى ارتكاب الجرم... أسارع فأقول: من نوع آخر تماماً... لا أستطيع التعهد بأن يتخلص جورج الصغير من الورطة بالسهولة التي تخلص بها هذه المرة، وأشك إذا كانت محاولة تخليصه تكون في صالحه، رغم كل رغبتي الحبية في توفير الفضيحة على صهرك. ومع ذلك سأجرب. ولكن عندي رجال، كما تعلم، ويبذلون نشاطاً لا أستطيع دائماً أن أوقفه. أو إذا فضّلت، فإني لا أزال

قادراً على إيقافه. أما غداً فلن أستطيع أبداً. وهذا ما دعاني للتفكير أن عليك أن تكلم ابن أختك وتخبره عما يعرّض نفسه له..

«زيارة بروفيناندو أقلقني بادىء الأمر بشكل مخيف، ولماذا لا اعترف بذلك؟ ولكن حين علمت أنه لم يأت كعدو أو كقاض شعرت بشيء من التسلية. وقد ازداد فهمي له حين قال:

«- إن قطعاً من العملة الزائفة أنزلت للتداول منذ زمن وقد أنبئت بذلك. لم أنجح بعد في اكتشاف مصدرها. ولكني أعرف أن جورج الصغير. وأريد الاعتقاد أنه كثير السذاجة - هو أحد الذين يستعملونها ويعملون على ترويجها. والذين يتعاطون هذه التجارة كلهم من الصغار في سن ابن أختك. ولا أشكّ أن هناك من استغل براءتهم. وأن هؤلاء الأولاد، وهم دون بصيرة، يلعبون دور الحمقى بين أيدي بعض المجرمين الكبار. وقد استطعنا قبلاً أن نقبض على بعض الجانحين الصغار وجعلناهم يعترفون، دون بذل أي جهد، بمصدر هذه القطع. ولكني أعلم أننا إذا اجتزنا نقطة ما فإن القضية تتفلت منا... وأعني أن التحقيق لا يمكن أن نجهله. لقد نويت التوصل إلى اكتشاف المجرمين الحقيقيين دون اللجوء إلى شهادة هؤلاء الصغار. ولهذا أصدرت أمراً بتركهم وشأنهم. ولكن هذا الأمر ليس إلا وقتياً. وأريد ألا يجبرني ابن أختك على العودة عن هذا الأمر. وسيكون من الأفضل أن يعرف ابن أختك أن العين

مفتوحة عليه. ولن ترتكب شراً إذا أخفته قليلاً. أنه يسير على منحدر وعر....

«اعترضت أنني سأبذل ما بوسعي لأنذره، ولكن بروفيتانديو بدا أنه لم يسمعني. وقد ضاعت نظراته، وردد مرتين: «على ما يسمى منحدر وعر». ثم سكت

«لا أدري كم استغرق سكوته، ودون أن يعبر عن تفكيره بدا لي هذا التفكير منتشراً في نفسه. وقد سمعت أقواله قبل أن يقولها لي:

«ـ وأنا نفسي أب، أيها السيد...

«لقد اختفى كل ما قاله قبلاً ولم يبق بيننا سوى برنار. أما الباقي فليس سوى ذريعة؛ لقد جاء لكي يحدثني عنه.

«إذا كان تدفق العواطف يضايقني، وإذا كان الإفراط في العواطف يزعجني، فما من شيء يمكن أن يؤثر أكثر من ذلك التأثر المكبوت. لقد كبحه جهد استطاعته ولكن بجهد عظيم جعل شفتيه ويديه ترتجفان. لم يستطع الاستمرار وفجأة غطى وجهه بيديه واهتز أعلى جسمه كله من النحيب وتمتم:

«ـ ها أنت ترى، ها أنت ترى أيها السيد أنه يمكن لابن أن يجعلنا بؤساء.

«ما فائدة المواربة؟. أنا نفسي تأثرت حتى النهاية.

«وقلت:

«ـ لو رآك برنار لذاب قلبه، وأنا الضمين لذلك.

«لقد شعرت بكثير من الحيرة. فبرنار لم يحدثني قط عن أبيه. وقد قبلت بتركه لعائلته واعتبرت هذا الهرب طبيعياً، وكذلك لم أرَ فيه سوى فائدة كبرى للولد. وفي حالة برنار، أضيفت حالة كونه ابن زنى..

ولكن ها هو والده الزائف يتكشف عن عواطف قوية دون شك، بعيدة عن التصنع وكثيرة الصدق لأن ليس وراءها هدف. وأمام هذا الحب، هذا الغم، تساءلت إذا كان برنار على حق. لم أشعر في قلبي أني أستصوب عمله. وقلت:

«ـ كلفني إذا كنت تعتقد بفائدتي لك، إذا كنت تعتقد بجدوى كلامي معه. أنه ذو قلب طيب.

ـ أعرف، أعرف... نعم، أنت تستطيع كثيراً. أني أعلم أنه كان معك هذا الصيف. لقد أحسن رجالي القيام بواجبهم... وأعلم أيضاً أنه يقدم اليوم امتحانه الشفهي. اغتنمت الوقت الذي أعرف أنه خلاله في السوربون لآتي إليك. أني أخشى أن التقي به.

«منذ لحظات كان تأثري قد هبط لأني لاحظت أن فعل «علم» دخل كل عباراته. وأصبحت أقل اهتماماً بما يقوله لي وأكثر اهتماماً بملاحظة عادته تلك.

«وقال لي أنه «علم» أيضاً أن برنار اجتاز الامتحان الخطي

بنجاح بالـغ. ومسايـرة أحد الفـاحصين الـذي ظهر أنـه من أصدقائه، جعلته يعرف أيضاً مسابقة ولده في الإنشاء الفرنسي، والتي كانت من أحسن المسابقات، كما يبدو كان ينحدث عن برنار بنوع من الإعجاب المستمر جعلني أتساءل أن لم يكن يظن نفسه والده الحقيقي وأضاف:

«يا إلهي! لا تقل له شيئاً من هذا! أنه ذو طبيعة كثيرة الكبرياء، كثيرة النفور! إذا اعرف أني، منذ رحيله، لم انقطع عن التفكير فيه ومتابعته!. . . ولكن مهما كان الأمر، فإن ما تستطيع قوله هو أنك رأيتني (كان يتنفس بمشقة بين كل عبارة). ما تستطيع وحدك أن تقوله له، هو أنني لا أحقد عليه (ثم بصوت آخذ بالضعف): وأنني لم انقطع عن حبه. كولدي. نعم، اعرف جيداً أنك تعرف. . . وما تستطيع قوله له أيضاً. . . (ودون أن ينظر إلي، وبصعوبة، وبحالة من التشوبش البالغ): هو أن أمه تركتني. . . نعم، نهائياً، هذا الصيف؛ وأنه إذا أراد أن بعود فإنني. . .

«ولم يستطع أن يكمله

«رجل كبير، قوي، إيجابي، مستقر في الحياة، منمكن في وظيفته، يقلع فجأة عن كل تحفظ ويفتح نفسه ويتدفق أمام غريب. وقد استطعت التحقق مرة أخرى أيضاً بهذه المناسبة أنني أتأثر بسهولة من تدفق عواطف رجل مجهول أكثر من تأثري من رجل أعرفـه. سأحاول شرح ذلك في يوم آخر.

«لم يخف علي بروفيتانديو الميول التي كان يغذيها بصددي في بادىء الأمر، وقد فسر ذلك بشكل سيء، ولا يـزال يسيء التفسير أيضاً، من أن برنار ترك منزله ليلحق بي وهذا ما أمسكه أيضاً عن محاولة رؤيتي لم أحرؤ على سرد قصة حقيبتي عليه ولم أتكلم إلا عن صـداقة ولـده لأوليفييه، وقلت لـه أن صلتنا توطدت بسبب هذه الصداقة. وقال بروفيتانديو:

«ـ هؤلاء الشبان يندفعون في الحياة من غير أن يعرفوا إلى ما يعرضون انفسهم أن قوتهم ناتجـة دون شك عن جهلهم للأخطار. لكننا نحن الذين يعرفون، نحن الآباء، نرتجف هلعاً عليهم. أن عنايتنا بهم تتبرهم ومن الأفضل ألا نريهم الكثير منها. أنا اعلم أنها تمارس بلجاجة، بعدم تبصر أحيـاناً. بدلاً من أن نردد أمام الولد دون انقطاع أن النار تحرق، فلنرض أن نتركه يحترق قليلاً. من المؤكد أن التجربة تعلم أكثر من النصيحة. كنت دائمًا أمنح برنار أكبر قدر من الحرية إلى أن وصلت به إلى الظن أنني فليل الاهتمام به، ويا لـلأسف!... أخشى ألا يكون قد احتقر نفسه بعد هربه، وطننت أيضاً أن من الأفضل أن أتركه يفعل ذلك؛ وأنا أسهر عليه من بعيد دون أن يساوره الشك أنني رتبت الوسائل لذلك والحمد لله. (ما من شك في أن بروفيتانديو اسنرجع كبرياءه في ذلك وقد بدا على الخصوص فخوراً بتنظيم شرطته. وهذه هي المرة الثالثة التي يحدثني عنها). ظننت أن من اللازم أن أقلل في عيني هذا الولد من مخاطر إقدامه. ألم اعترف لك أن هذا العصيان، رغـم الغم الدي سببه

لي، قد زادني تعلقاً به؟ لقد رأيت فيه برهاناً على الشجاعة، والقيمة . . .

«والآن، وقد شعر هذا الرجل الممتاز بالثقة، راح تدفقه يجري بلا انقطاع. حاولت توجيه الحديث نحو ما يزداد اهتمامي به، فقطعت حديثه بأن سألته إذا كان رأى تلك الفئة النقدية الزائفة التي حدثني عنها أولاً. كنت مشتاقاً لأعرف إذا كانت شبيهة بقطعة البلور التي أرانا إياها برنار. ولم أكد أحدثه عنها حتى تغير وأطبق جفنيه نصف أطباقة بينما كان في أعماق عينيه يتألق لهيب غريب؛ وانقبضت شفتاه، وجر الانتباه كل قسماته نحو الأعلى، وكل ما قاله أولاً لم يعد ذا موضوع. أن القاضي اجتاح الأب، ولم يعد موجوداً لديه سوى المهنة. ألحف علي بالأسئلة، ودوّن ملاحظات، وتحدث عن إرسال شرطي إلى «ساس ـ فيه» لينقل أسماء المسافرين عن سجلات الفنادق.

وأضاف:

ـ علمًا بأن هذه القطعة الزائفة، ربما يكون قد تسلمها بقالك من أحد المغامرين عابري السبيل، وفي مكان لم يمكث فيه بل مر به مرور الكرام.

«أجبت على ذلك أن «ساس ـ فيه» تقع في نهاية طريق غير نافذ وأنه لا يستطاع الذهاب إليها والرجوع منها بسهولة في يوم واحد؛ وقد بدا مسروراً من هذه المعلومات الأخيرة. وتركني بعدما شكرني بحرارة، وهو مشغل البال، منتش، ودون أن يعود إلى الحديث عن جورج ولا عن أوليفييه.

١٣

شعر برنار هذا الصباحِ أن ما من فرح، بالنسبة إلى طبيعة كريمة كطبيعته، تفوق فرحة اسعاد كائن آخر. وهـذه الفرحـة ممنوعة عليه. لقد نجح في امتحانه بتنويه، ولم يجد أحداً بجانبه ليزف إليه هذا الخبر السعيد. وكان هذا يثقل عليه. كان برنار يعلم أن والده سيكون أكثر الناس سروراً. وقد تردد هنيهة فيما إذا كان يذهب إليه حالاً ليعلمه؛ ولكن الكبريـاء أمسكته. وأدوار؟.. وأوليفييه؟.. أنه يجعل كثيراً من الأهميـة لدبلومـه أصبح من حملة البكالوريا. يا للتقدم الجميل!. الآن بدأت الصعوبة.

في ساحة السوربون رأى أحد رفاقه، وكان ناجحاً مثله. كان هذا الرفيق منزوياً عن الآخرين، ويبكي. هو في حالة حداد وبرنار يعلم أنه فقد والدته. أن اندفاعاً عظيّاً من التعاطف دفع به نحو اليتيم؛ اقترب، ثم تجاوز عنه بدافع من الحياء الأحمق. أما الآخر الذي رآه يقترب ثم يتجاوزه فقد شعر بالخجل من دموعه، كان يحترم برنار، ويتألم مما يحسبه احتقاراً.

دخل برنار إلى حديقة اللوكسمبور، وجلس على مقعد في ذلك الجزء من الحديقة حيث كان قد جاء للبحث عن أوليفييه مساء، يوم كان يبحث عن مأوى. الهواء فاتر، واللون اللازوردي يبتسم له من خلال أغصان الأشجار الكبيرة الجرداء. وقد يرتاب المرء في حقيقة اقتراب الشتاء. هناك عصافير مغردة يبدو أن دفء الطقس خدعها. ولكن برنار لم ينظر إلى الحديقة. فقد رأى أوقيانوس الحياة يمتد أمامه. يقال أن هناك طرقات على البحر؛ ولكنها ليست مرسومة، وبرنار لم يكن يعرف أي طريق هي طريقه بينها.

كان غارقاً في التأمل منذ بضع لحظات حين رأى ملاكاً يقترب منه، منزلقاً، بقدم خفيفة تبعث على الشعور بأنه يستطيع أن يضعها على الأمواج. لم يكن برنار قد رأى ملائكة من قبل، ولكنه لم يتردد لحظة. وحين قال له الملاك: «تعال» نهض مطيعاً وتبعه. ولم تكن دهشته عظيمة إلا لأنه ليس في حلمه وقد حاول في ما بعد أن يتذكر إذا كان الملاك قد أمسك بيده، ولكنهما في الواقع لم يتلامسا، حتى أنهما احتفظا ببعض المسافة بينهما. وعادا كلاهما إلى تلك الساحة حيث برنار ترك اليتيم، عازما أن يكلمه. ولكن الساحة كانت فارغة.

وسار برنار في طريقه، ورافقه الملاك نحو كنيسة السوربون، فدخلها الملاك أولاً، أما برنار فلم يكن قد دخلها قبلاً. هناك ملائكة آخرون يتجولون في ذلك المكان؛ ولكن لم تكن لبرنار

العينان اللازمتان ليستطيع رؤ يتهم. لقد أحاط به سلام مجهول؛ واقترب الملاك من سيد المذبح وحين رآه برنار يركع ركع بجانبه. لم يكن يؤمن بأي إله، بحيث أنه لا يستطيع الصلاة. ولكن قلبه اجتيح بحاجه إلى العطاء، إلى الهبة، إلى التصحية، وقدم نفسه. ظل تأثره مشوشاً بحيث لا يمكن أية كلمة أن توضحه. وفجأة ارتفع غناء الأرغن. وقال الملاك.

ـ لقد قدمت نفسك كذلك إلى لورا.

وشعر برنار بدموعه تجري على خديه.

ـ تعال، اتبعني.

واصطدم برنار، بينما كان الملاك يقوده، بأحد أصدقائه القدماء الذي اجتاز الامتحان الشفهي مثله. فحسبه برنار أحد التلامذة الكسالى ودهش لأنهم أنجحوه. وهذا الكسول لم يكن قد لاحظ برنار، أما هذا فقد رآه يضع في يد خادم الكنيسة مالاً ثمن شمعة. هز برنار كتفيه وخرج.

وحين أصبح فى الشارع رأى الملاك قد تركه. فدخل إلى محل لبيع التبغ، ذلك المحل الذي دخل جورج قبل ثمانية أيام مخاطراً بقطعته النقدية الزائفة لقد صرف كثيراً على شاكلتها منذ ذلك الوقت. اشترى برنار علبة سكاير ودخن. لماذا ذهب الملاك؟ ألم يكن له ولبرنار ما يقولانه أحدهما للآخر؟ وأعلنت الساعه الظهر. كان برنار جائعاً. أيعود إلى البسيون؟ أيذهب إلى أوليفييه ويقتسم معه فطور أدوار؟ تأكد من وجود مال كاف في

جيبه ودخل إلى مطعم. وما أن انتهى من الطعام حتى سمع صوتاً عذباً يتمتم:

. حان الوقت لتصفية حساباتك.

والتفت برنار. كان الملاك بجانبه من جديد. وكان يقول:

ـ أصبح عليك أن تحزم أمرك، لم تعش حتى الآن إلا في المغامرة أتترك الصدفة تتصرف بك؟ أنت تريد القيام بعمل. والمهم أن تعرف بماذا.

فقال برنار:

ـ علّمني. دلّني.

فقاده الملاك إلى قاعة ملأى بالناس. وفي صدر القاعة منصة، وعلى هذه المنصة طاولة مغطاة بطنفسة عقيقية. ووراء الطاولة جلس رجل لا يزال شاباً، وكان ينكلم، كان بقول:

ـ ان افتراض عدم اكتشاف شيء هو من الجنون البالغ. أننا لا نملك شيئاً لم نكن تلقيناه. على كل منا أن يفهم، ما دام لا يزال شاباً، إننا نتعلق بماض، وأن هذا الماضي يُلزمنا. لقد رُسم مستقبلنا بواسطته.

وحين انتهى من شرح نظرياته حل محله خطيب آخر وبدأ كلامه باستصواب ما قاله زميله. ثم هاجم المعجب بنفسه الذي يزعم أنه يعيش دون مذهب، أو يقود نفسه وفقاً لأضوائه الخاصة. وقال:

ـ أن هناك مذهباً ورثناه قبلاً قد اجتاز كثيراً من العصور. أنه أفضل المذاهب بلا ريب وهو المذهب الأوحد. وعلى كل منا أن يثبته بالبرهان. أنه المذهب الذي نقله إلينا معلمونا، مذهب بلادنا التي ما جحدته مرة إلا دفعت ثمن ضلالها غالياً. لا يمكنك أن تكون فرنسياً صالحاً دون أن تعرفه، ولا أن تنجح في شيء صالح دون أن تقف في صفه.

وتبع هذا الخطيب خطيب ثالث فشكر الاثنين الآخرين اللذين اجادا تصوير ما سماه نظرية منهاجهم؛ ثم قرر أن هذا المنهاج لا يحوي شيئاً أقل من تجديد فرنسا، بفضل جهود كل فرد من أعضاء حزبهم. وقد ادعى أنه رجل عمل؛ وإن كل نظرية تجد في التطبيق نهايتها وبرهانها؛ وأن كل فرنسي صالح يجب أن يكون مقاتلاً وأضاف:

ـ ولكن مع الأسف!.. كم من قوى معزولة، ضائعة! لماذا لا تكون هذه القوى عظمة لبلدنا، وإشعاعاً للأعمال، وازدهاراً لكل فرد، إذا كانت منظمة، وإذا كانت هذه الأعمال تمجد النظام، وإذا كان كل فرد قد انضوى تحت لواء النضال.

وبينما ظل مستمراً بدأ شبان يتجولون بين الحضور، ويوزعون نشرات انضواء لا تحتاج إلا إلى وضع التوقيع عليها. وقال الملاك عندئذ:

ـ كنت تريد أن تقدم نفسك، ماذا تنتظر؟...

أخذ برنار أحدى هذه النشرات التي قدمت إليه والتي يبدأ نصها بهذه الكلمات: «أتعهد أن. . .» وقرأ. ثم تطلع إلى الملاك فرآه يبتسم؛ ثم تطلع إلى المجتمعين، وعرف بين الشبان حامل البكالوريا الجديد الذي أحرق شمعه في كنيسة السوربون تقدمة شكر عن نجاحه. وفجأة، وعلى مسافة غير بعيدة، رأى أخاه الأكبر الذي لم يشاهده منذ أن ترك البيت الأبوي. لم يكن برنار يحبه وكان يغار من التمييز الذي خيل إليه أن والده يخصه به فدعك النشرة بعصبية.

ـ أترى أن من الواجب أن أوقّع؟

وقال الملاك:

ـ نعم، بالتأكيد، إذا كنت شاكّاً بنفسك.

فقال برنار وقد ألقى الورقة بعيداً:

ـ لا أشكّ أبدا.

كان الخطيب لا يزال يخطب وحين بدأ برنار يصغي إليه، كان يعلّم وسيلة أكيدة تجعل المرء لا يخطىء أبداً، وهي أن يقلع المرء عن مقاضاة نفسه، وأن يسلم أمره إلى قضاء رؤسائه.

وسأل برنار:

ـ من هم هؤلاء الرؤساء؟

واستولى عليه فجأة غضب عظيم. وقال للملاك:

ـ إذا صعدت إلى المنصة وتماسكت وإياه فستلقيه أرضاً دون شك. . .

ولكن الملاك قال وهو يبتسم:

- إني سأصارعك أنت. هذا المساء، أتريد؟

فقال برنار:

- نعم.

وخرجا. ووصلا إلى الشوارع الكبيرة. وقد بدا الجمهور المسرع فيها أنه مؤلف فقط من أناس أغنياء. كل منهم يبدو واثقاً من نفسه، لا مبالياً بالآخرين، ولكنه مهموم.

وقال برنار الذي شعر بقلبه يمتلىء بالدموع:

- هل هذه هي صورة السعادة؟

ثم أخذ الملاك برنار الى الاحياء الفقيرة التي لم يكن يرتاب قبلاً ببؤسها. وهبط المساء. تاها طويلاً بين المنازل العالية القذرة التي يسكنها المرض، والبغاء، والعار، والجريمة، والجوع. عندئذٍ فقط اخذ برنار بيد الملاك. أما هذا فنحىًّ وجهه عنه ليبكي.

لم يتناول برنار طعامه ذلك المساء. وحين عاد الى البنسيون لم يحاول الذهاب الى ساره كما كان يفعل في الأماسي الأخرى، بل صعد رأساً الى تلك الغرفة التي يشغلها مع بوريس

كان بوريس قد نام لكنه لم يغف بعد. كان يعيد على ضوء الشمعة قراءة الرسالة التي تلقاها من برونجا صباح هذا اليوم نفسه.

كانت صديقته تقول له: «احشى ألا أراك ابدأ بعد

اليوم . لقد أصابني البرد على اثر عودتي الى بولونيا ، فانتابني السعال . اشعر بأنني لن أستطيع العيش طويلاً مع ان الطبيب يخفي ذلك عني » .

وحين سمع بوريس اقتراب برنار خبأ الرسالة تحت وسادته ، وأطفأ شمعته بسرعة .

تقدم برنار في الظلام . كان الملاك قد دخل معه الى الغرفة . ولكن مع ان الليل لم يكن شديد الظلام فإن بوريس لم يرى سوى برنار . وسأل هذا بصوت منخفض :

ـ أتنام ؟ .

وبما ان بوريس لم يجب فقد اعتقد برنار انه نائم . وقال للملاك :

ـ إذاً ، الآن ، جاء وقتنا نحن الأثنين .

وظلا يتصارعان طوال تلك الليلة الى الفجر .

ورأى بوريس باضطراب ان برنار يتململ . فظن ذلك نوعاً من الصلاة وحاذر أن يقاطعه . ومع ذلك فهو يريد ان يكلمه لأنه يشعر بكثير من الشقاء . نهض ، وركع بجانب سريره . يريد ان يصلي لكنه لا يستطيع سوى النحيب .

ـ أوه ، برونجا ، أنت التي ترين الملائكة . أنتِ التي فتحتِ عيني ، أتتركيني ! ماذا سيحل بي من دونك ؟ ماذا سأصبح ؟

كان برنار والملاك مشغولين جداً فلم يسمعاه . ظل الاثنان يتصارعان حتى الفجر . انسحب الملاك دون ان ينتصر أي منهما .

في ما بعد ، حين خرج برنار من الغرفة بدوره التقى راشيل في الرواق .

ـ عندي ما أقوله لك .

هكذا قالت . كان صوتها كثير الكآبة حتى ان برنار أدرك حالاً كل ما تريد ان تقوله له . لم يجب بشيء . خفض رأسه . وبدافع الشفقة العظيمة على راشيل احس فجأة ببغضٍ لسارة وبالرعب من اللذة التي ذاقها معها .

١٤

نحو الساعة السادسة سار برنار الى مسكن ادوار ، يحمل كيساً يدوياً كان كافياً ليضم القليل من الملابس ، والبياضات ، والكتب التي يملكها . ودع أزاييس ومدام فيدال ، لكنه لم يحاول ان يرى سارة .

كان برنار مهموماً . فقد انضجه صراعه مع الملاك . هو لا يشبه سارق الحقيبة اللامبالي الذي كان يعتقد انه يكفي المرء في

هذه الدنيا ان يكون ميسوراً . لقد بدأ يدرك ان سعادة الغير تشكل في الغالب نفقات هذه الجسارة . وقال لإدوار :

ـ جئت ابحث عن مأوى بجانبك . ها أنا من جدبد دون ملجأ .

ـ لماذا تركت آل فيدال ؟ . . .

ـ لأسباب سرية . . . إسمح لي ألا أقولها لك .

كان ادوار قد راقب برنار وسارة عشية الوليمة ، وكان هذا كافياً ليعرف على وجه التقريب سبب هذا الصمت . وقال مبتسمًا :

ـ يكفي . . . إن الأريكة في مشغلي تحت تصرفك ليلاً . ولكن يجب ان اقول لك أولاً ان والدك جاء البارحة ليحا.. ونقل اليه ذلك الجزء من الحديث الذي رأى ان لا غضاضة من قوله ـ ليس عندي يجب ان تنام هذه الليلة ، بل عنده انه ينتظرك .

وسكت برنار . ثم قال اخيراً :

ـ أريد ان افكر في الأمر . واسمح ، بانظار ذلك ، ان أترك أمتعتي هنا . هل استطيع رؤ بة أوليفييه ؟

ـ الطفس جميل وقد تعهدت له بأخذه في نزهة . اردت مرافقته لأنه لا يزال شديد الضعف ؛ إلا انه آتر ان يخرج وحيداً . والنتيجة ، ذهب منذ ساعة ولن يتأخر في العودة انتظره . . ولكن . على فكرة . وامتحانك ؟

ـ نجحت ، وليس لهذا أهمية . اما ما يهمني فهو ما اعمله في الوقت الحاضر . تعرف ما الذي يمسكني بوجه خاص عن العودة الى والدي ؟ . . هو اني لا أريد ماله . ما من شك في انك تجدني احمق لرفضي هذا الحظ ، ولكنه وعد قطعته على نفسي ان استغني عنه . يهمني ان اثبت اني رجل أفي بكلامي واستطيع الاعتماد على نفسي .

ـ ارى كبرياءً هنا .

ـ سمِّ ذلك كما تريد : كبرياء ، اعجاب بالنفس ، جدارة . . . إن الشعور الذي يحثني لن تستطيع ان تنقصه في عيني . ولكن ، في الوقت الحاضر ، اليك ما اريد معرفته : أمن الضروري ان يركز المرء عينيه على هدف إذا اراد ان يقود نفسه في الحياة ؟

ـ أوضح .

ـ لقد بحثت هذا الأمر طوال الليل . في سبيل ماذا استخدم هذه القوة التي اشعر بها في نفسي ؟ كيف انتفع بأفضل ما في نفسي ؟ هل يكون ذلك سيري نحو هدف ؟ ولكن كيف اختار هذا الهدف ؟ . . . كيف أعرفه وأنا في الطريق اليه ؟

ـ الحياة دون هدف ، يعني ان تتصرف المغامرة بك .

ـ أخشى انك لم تفهمني جيداً . حين اكتشف كولومبوس اميركا هل كان يعرف الهدف الذي يجدِّف نحوه ! كان هدفه

في ان يسير الى الامام ، رأساً . انه هو نفسه كان الهدف ، وهو ما كان يقذف به الى الامام .

فقاطعه أدوار :

ـ غالباً ما فكرت انه في الفن ، وعلى الأخص في الأدب ، وحدهم ذوو قيمة اولئك الذين ينطلقون نحو المجهول . لا يمكن اكتشاف ارض جديدة دون القبول أولاً بالابتعاد ولوقت طويل ، عن جميع الشواطىء . ولكن كتّابنا يخشون الذهاب الى عرض البحر وليس هؤلاء إلا من ملازمي الشواطىء .

وتابع برنار دون ان يسمعه :

ـ البارحة ، وعند خروجي من امتحاني ، دخلت قاعة كان فيها اجتماع عام . ولست ادري اي شيطان دفعني اليها . كانت هناك مسألة شرف قومي ، وخلاص للوطن ، وكدسة من الأشياء جعلت قلبي يخفق . ولولا قليل لكنت وقّعت على ورقة اتعهد فيها بشرفي ان اكرس فعاليتي لخدمة قضية بدت لي في الحقيقة حسنة ونبيلة .

ـ انا سعيد لأنك لم توقّع ، ولكن ما الذي أمسكك ؟

ـ انها غريزة خفية دون شك .

وفكر برنار قليلاً ثم أضاف وهو يضحك :

ـ اظن انه رأس الاشياع على الخصوص ؛ مبتدئاً برأس اخي الأكبر الذي عرفته في الاجتماع . لقد بدا لي ان جميع

هؤلاء الشبان كانت تحثهم افضل العواطف ، وانهم فعلوا خيراً بتخليهم عن مبادرتهم الشخصية لأنها لن تقودهم بعيداً ، وعن رجاحة عقلهم لأنها غير كافية ، وعن استقلالهم الفكري لأنه سرعان ما سيجد نفسه مذعوراً . وقلت لنفسي ايضاً ان من صالح البلاد ان تعد بين المواطنين عدداً كبيراً من تلك الأرادات الحسنة التي تقوم بالخدمة ؛ ولكن ارادتي انا نفسي لن تكون بينها . عندئذٍ تساءلت كيف يمكن اقامة نظام ما دمت لا أرضى ان اعيش دون نظام ، وان هذا النظام لا أقبله من الغير .

ـ الجواب يبدو لي بسيطاً . هو ان تحدث هذا النظام في نفسك ، وان يكون هدفك هو ان تنمي نفسك .

ـ نعم ، هذا ما قلته لنفسي . لكن ذلك لم يفدني شيئاً . لو كنت أيضاً واثقاً من تفضيل الأفضل في نفسي لجعلته يتقدم الباقي . ولكني لم اتوصل إلى معرفة ما هو افضل شيء في نفسي . . . قلت لك اني بحثت طول الليل . وعند الصباح كنت متعباً حتى انني فكرت في ان استبق دعوة صفي . أن أتجند .

ـ التفلت من المسألة ليس حلاً لها .

ـوهذا ما قلته لنفسي . وهذه المسألة إذا أُرجئت فسأجدها اصعب بعد انتهائي من الخدمة . حينئذٍ جئت اليك لأسمع نصيحتك .

ـ ليس لي ان أُسديكها . لن تستطيع إيجاد هذه النصيحة

إلا في نفسك ، ولا ان تتعلم كيف يجب ان تعيش إلا ان تعيش .

ـ واذا عشت عيشة سيئة بانتظار عقد العزم على كيفية العيش ؟ .

ـ وهذا ايضاً سيعلمك . جميل من المرء ان يتبع منحدره شرط ان يكون ذلك وهو يصعده .

ـ أتمزح ؟ كلا ؛ أعتقد انني فهمتك . وأرضى بهذه الصيغة . ولكن وأنا أنمي نفسي كما قلت ، يلزمني أن أربح معاشي . ما رأيك في اعلان براق في الصحف : « شاب ذو مستقبل كبير يعرض نفسه للعمل في أي شيء كان » .

فضحك أدوار :

ـ لا شيء اكثر صعوبة من الحصول على « اي شيء كان » .من الأفضل ان توضح .

ـ فكرت في واحد من تلك الدواليب الصغيرة الكثيرة في بنية صحيفة كبرى . أوه ! سأقبل بوظيفة مرؤوس : مصحح بروفات ؟ مصلّح مطبوعات في المطبعة . . . وما أدراني ؟ انا بحاجة الى القليل !

كان يتكلم متردداً . في الحقيقة كان يتمنى وظيفة سكرتير ؛ لكنه كان يخشى ان يقول ذلك لادوار بسبب خيبة أملهما المتبادلة . وبعد فليس الخطأ خطأه ، هو برنار ، اذا كانت محاولة

السكرتيرية تلك قد اخفقت بشكل يدعو للتفقة .

وقال أدوار .

ـ قد استطيع ادخالك في « الغران جورنال » التي اعرف مديرها . .

بينما كان ادوار وبرنار ينحدثان ، كان لساره مع راشيل استيضاح من اكثر الاسيضاحات مشقة . لقد ادركت سارة فجأة ان تنبيهات راشيل كانت سبباً لرحيل برنار الفجائي ؛ واستشاطت غيظاً من اختها وقالت عنها انها تمنع أي شيء من السرور من الطواف حولها . لم يكن يحق لها ان تفرض على الآخرين فضيلة كان مَثلها وحده كافياً ليجعل هده الفضيلة مقيتة .

اما راشيل التى ضايقتها هذه الاتهامات ، لأنها قد صحت دائماً بنفسها ، فقد احتجت ، وازدادت شحوباً ، وارتجفت شفتاها :

ـ لا استطيع أن اتركك تضلين

ـ ولكن سارة انتحبت وصرخت :

ـ لا استطيع الايمان بسمائك . ولا أريد أن أُنقذ .

وقررت حالاً العودة الى انكلترا حيث ستقبلها صديقتها لأنها « بعد كل شيء حرة ، وتنوي ان تعيش كما يحلو لها » .هذا الشجار المحزن ترك راشيل محطمة

١٥

حرص ادوار على الوصول الى البنسيون قبل عودة التلامذة . لم يكن قد رأى لابيروز منذ افتتاح المدرسة وهو يريد التحدث اليه اولاً . يقوم استاذ البيانو العجوز بواجبات وظيفته الجديدة كناظر جهد استطاعته ، يعني بشكل سيء للغاية . حاول في البداية ان يكون محبوباً ، ولكن السلطة تنقصه ؛ واستغل الاولاد ذلك ، فحسبوا تساهله ضعفاً وافرطوا في استغلال ذلك بشكل غريب . حاول لابيروز ان يلجأ الى العقاب ولكن فاته الوقت . لقد انتهت توبيخاته ، وتهديداته ، وتعنيفه بأن اثارت التلامذة عليه . فاذا ضخم صوته يقهقهون ، واذا ضرب بقبضته على الطبقة الرنانة يصرخون متظاهرين بالرعب ، ويقلدونه ، ويدعونه « الاب لابيروز » ؛ وكانت تنتقل من مقعد الى مقعد صور كاريكاتورية تمثله ، هو المفرط في الحلم ، مفترساً ، مسلحاً بمسدس ضخم (هذا المسدس اكتشفه جيريدانيزول وجورج وفيفي اثناء تفتيش غرفته) ، يقوم بمجزرة كبرى بين التلامذة ؛ او تمثله ساجداً امام هؤلاء ، ويداه مضمومتان ، متوسلاً ، كما كان يفعل في الايام الاولى : « قليل من الصمت ، بداعي الشفقة » . انه يشبه أيلا محاصراً بسرب من الكلاب المتوحشة . ان ادوار يجهل كل هذا .

يوميات ادوار

استقبلني لابيروز في غرفة صغيرة في الطبقة الارضية كنت اعرف انها اسوأ غرف البنسيون . كان كل ما فيها من اثاث يتألف من اربعة مقاعد ملتصقة باربع طبقات ، تواجه اللوح الاسود ، وكرسي من القش اجبرني لابيروز على الجلوس عليه . اما هو فقد انطوى على احد المقاعد باعوجاج ، بعد جهود فاشلة ليدخل ساقيه الطويلتين تحت الطبقة .

« ـ لا ، لا ، انا على أحسن حال اؤكد لك .

« وكانت نبرة صوته وتعبير وجهه يقولان :

« ـ أنا على اسوأ حال وآمل ان يظهر ذلك ، ولكن يعجبني ان اكون هكذا ، فكلما ازدادت حالتي سوءاً يقل استماعك لشكواي .

« حاولت ان امزح ولكني لم استطع ان اجعله يبتسم . كان يتصنع طريقة احتفالية ، ووقاراً كفيلاً بابقاء شيء من المسافه بيننا وبأن يجعلني اسمع : « انا مدين لك بوجودي هنا » .

« ومع هذا فقد قال انه مسرور جداً من كل شيء ؛ لكنه

كان يتجنب اسئلتي وتثور من إلحاحي . ولما سألته اين غرفته اجاب :

« ـ بعيدة قليلاً عن المطبخ .

« وحين دهشت أضاف :

« ـ اشعر بالحاجة الى الأكل في الليل احياناً . . . حين لا استطيع النوم .

« كنت قريباً منه ، وقد اقترب ايضاً . وضعت يدي بهدوء على ذراعه ، فقال بنبرة طبيعية :

« ـ يجب ان اقول لك اني انام نوماً سيئاً ، وحين يصدف ان انام لا افقد الشعور بنومي . ليس هذا بنوم حقيقي ، أليس كذلك ؟ . . ان من ينام حقيقة لا يشعر بانه ينام ؛ بل ببساطة يرى عند استيقاظه انه كان نائماً .

« ثم تدفق بالحاح حول هذه التوافه ، ومال علي :

« ـ احياناً احاول الظن انني اوهم نفسي ، وانام حقيقة ، بينما يخيل الي انني لم انم . ولكن البرهان على انني لم انم حقيقة هو انني افتح عيني اذا اردت ان افتحهما . وعادة لا اريد ذلك . وانت تدرك انه ليس لي مصلحة في فتحهما . وما الفائدة في ان اثبت لنفسي انني لست نائماً ؟ . . اني احتفظ دائماً بأمل النوم وذلك بايهام نفسي انني نمت قبلاً . . .

« وازداد انحناؤه ، وقال بصوت منخفض :

« ـ ثم ، هناك امر يزعجني . لا تقله . . اني لا اشكو منه لأن ليس هناك ما يمكن عمله . وما لا يمكن ان نغيره فلا فائدة من الشكوى منه . . . تصور ان هناك شيئاً يحدث ضجة ، مقابل سريري ، في الجدار، على علو رأسي بالضبط .

« وحمي وهو يتكلم . عرصت عليه ان يقودني الى غرفته . فقال وهو ينهض فجأة :

« ـ نعم ، نعم . قد تقول لي ما هو . . . انا لم اتوصل ان افهم . تعال معي .

« وصعدنا طبقتين ، ثم دخلنا في رواق طويل . لم آت قط في السابق الى هذا القسم من البيت .

« غرفة لابيروز تطل على الشارع ، انها صغيرة لكنها لائقة . لاحظت على طاولته الليلية ، بجانب كتاب الصلاة ، علبة المسدسات التي أصر على الاتيان بها معه . امسكني من ذراعي ، ودفع السرير قليلاً :

« ـ هناك . انظر . . . قف بجانب الجدار . . . أسمعت ؟ . .

« أرهفت سمعي ، وأطلت انتباهي . ولكني لم اتوصل الى سماع شيء رغم افضل ارادة في العالم . وغضب لابيروز . ومرت شاحنة فهزت البيت وجعلت الزجاج يصطفق . فقلت ، على امل ان اعيد اليه بشاشته :

« ـ الضجة التي تزعجك تتغطى بجلبة الشارع في هذه

الساعة من النهار .

« فصرخ بحدة :

« ـ تتغطى عليك انت الذي لا يستطيع تمييزها عن غيرها من الضجات الاخرى . اما انا فأسمعها مهما كان الامر . اني استمر في سماعها رغم كل شيء . واتعب منها احياناً بحيث انوي ان اتحدث الى أزاييس او الى صاحب الملك . . . اوه ! اني لا أدعي بانني سأجعلها تنقطع . . . ولكني اريد على الاقل ان اعرف ما هي . . .

« وبدا انه يفكر بعض الوقت ، ثم تابع :

« ـ انه يشبه صوت قضم . . . جربت كل شيء حتى لا اسمعه . أبعدت سريري عن الجدار . وضعت قطناً في اذني . علقت ساعتي الصغيرة (ترى اني غرزت مسماراً صغيراً هناك) في المكان الذي يمر منه الانبوب بالضبط ، وافترضت ان تكتكة الساعة يمكن ان تعلو على الضجة الاخـرى . . . ولكن هذا زادني تعباً ، لانني كنت مضطراً الى بـذل الجهد لأميـز بـين الاثنتين . مستحيل ، أليس كذلك ؟ ولكني لا ازال افضل ان اسمعها بوضوح لأني اعرف انها هناك . اواه ! ما كان علي ان اقص عليك كل هذه الامور . . . انت ترى اني لست سوى عجوز .

« وجلس عـلى السريـر ومكث كالمشـدوه . ان الانحطاط المشؤوم الذي يسببه التقدم في السن لا يمكن ان نؤاخذ لابيروز

عليه ، سواء أكان من ناحية الذكاء ام من ناحية اعمق الطباع . ان الدودة تسكن قلب الثمرة . هكذا فكرت وانا اراه ، هو الذي كان شديد الصلابة كثير الكبرياء ، يستسلم ليأس صبياني . حاولت اخراجه من هذا اليأس بأن حدثته عن بوريس . فقال وهو يرفع جبهته :

« ـ نعم ، غرفته بجانب غرفتي . سأريك اياها . اتبعني .

« وتقدمني الى الرواق وفتح باباً مجاوراً :

« ـ السرير الآخر الذي تراه هو سرير برنار بروفيتانديو (رأيت الا فائدة من اعلامه ان برنار سينقطع عن النوم عليه ابتداء من هذا النهار بالضبط . وتابع) : بوريس مسرور برفقته . واعتقد انه يتفاهم جيداً معه . ولكن انت تعرف ، هو لا يكلمني كثيراً . انه كثير الانطواء على نفسه . اخشى ان يكون هذا الولد ذا قلب جاف .

« قال ذلك بكثير من الكآبة مما اضطرني الى الاعتراض والى ان اضمن له عواطف حفيده ، فقال لابيروز :

« ـ اذا كان كذلك فلماذا لا يظهر محبته ولو قليلاً ؟ إسمع : في الصباح حين يذهب الى المدرسة مع الآخرين ، انحني على نافذتي لأراه وهو يمر . وهو يعرف ذلك . . . إيه ! . . . انه لا يلتفت ! . . .

« حاولت إيهامه ان بوريس يخشى دون شك ان يصبح

عرضة لانظار رفاقه ويخشى سخريتهم ولكن في هذه اللحظة تصاعد صياح مس الساحة . فامسكني لابيروز من ذراعي ، وقال بصوت مضطرب :

« ـ اسمع ! اسمع ! ها هم يدخلون .

« تطلعت اليه . كان يرتجف بكل جسده . وسألت :

« ـ أيخيفونك ، هؤلاء الصبيان الاشقياء ؟ . .

« فقال باضطراب :

« ـ لا ، لا . كيف افترضت ذلك . . . ـ ثم بسرعة : ـ يجب ان انزل . الفرصة لا ندوم سوى دقائق ، وانت تعرف انني اراقب الدرس . وداعاً . وداعاً .

« واندفع في الرواق دون أن يشد على يدي . وبعد لحظة سمعته يتعثر على السلم . بقيت لحظات مرهفاً السمع ، غير راغب في المرور امام التلامذة . وقد سمعتهم يصرخون ، ويضحكون ، ويغنون . ثم دقة جرس ، وفجأة ، استتب الصمت .

« ذهبت لرؤ ية أزابيس لأحصل على أذن منه يتيح لجورج ان يترك الدرس ويأتي ليكلمني . جاء على الاثر الى تلك الغرفة الصغيرة التي استقبلني لابيروز فيها اولاً .

« ما ان اصبح جورج امامي حتى ظن ان عليه ان ينخد هيئة ساخرة . كانت هذه هي طريقته في اخفاء قلقه . ولكني لا

اقسم انه كان اكثرنا قلقاً نحن الاثنين . وقف على اهبة الدفاع لأنه كان ينتظر تأنيباً دون شك . بدا لي انه حاول ان يجمع السلاح الذي يمكن ان يحاربني به لأنه سألني قبل ان افتح فمي عن اخبار اوليفييه بلهجة ساخرة جعلتني اود صفعه . لقد قطع علي الطريق . « ثم ، انت تعلم اني لا اخافك » ، هكذا بدا ما تقوله نظراته التهكمية ، وطية شفتيه الساخرة ، ورنة صوته . فقدت حالا كل اطمئنان ولم يبق لي من هم الا ان أخفي ذلك . والخطاب الذي هيأته لم يعد يبدو انه مقبول . لم تكن لي الحظوة اللازمة لألعب دور الرقيب . في اعماقي كان جورج يسليني جداً . وقلت اخيراً :

« ـ لم آت لأوبخك . اريد فقط ان انذرك (وغطت الابتسامة وجهي بكامله رغمًا عني) .

« ـ قل اولاً اذا كانت والدتي هي التي ارسلتك ؟

« ـ نعم ولا . تكلمت عنك مع والدتك ؛ ولكن هذا كان قبل ايام . اما البارحة فقد كان لي عنك حديث مهم جداً مع شخص عظيم الأهمية لا تعرفه ؛ وقد جاء الي ليحدثني عنك . قاضي تحقيق . وانا آت من قبله . أتعرف ما معنى قاضي تحقيق ؟

« شحب لون جورج فجأة ، وما من شك في ان قلبه توقف لحظة عن الخفقان . صحيح انه هز كتفيه ولكن صوته كان يرتجف قليلاً .

« ـ إذاً ، هات ما قاله لك الاب بروفيتانديو .

« أقلقتني رباطة جأش هذا الصغير ومما لاشك فيه ان السير رأساً الى الهدف كان بسيطاً ، ولكن نفسي تخالف البساطة وتميل الى المواربة بشكل لا يقاوم ، ولإيضاح سلوك يبدو حالاً انه احمق ، ولكنه تلقائي ، استطيع القول ان حديثي الاخير مع بولين عمل عمله في بشكل غير عادي . والانعكاسات التي نتجت عنه سكبتها حالاً في روايتي بشكل حوار يلائم تماماً بعض اشخاصي . ونادراً ما انال نصيباً مباشراً مما تحمله الي الحياة ، ولكن مغامرة جورج خدمتني لمرة واحدة . كان يبدو ان كتابي ينتظرها ما دامت تجد مكانها الملائم فيه . لم اغير منها سوى القليل القليل من التفصيلات . ولكن هذه المغامرة (واقصد سرقاته) لم أقدمها مباشرة انها هي وما يتبعها تستشف استشفافاً من خلال المحادثة . سجلت هذه التوابع على دفتر صغير احمله في جيبي . وبالعكس ، فان حكاية العملة الزائفة ، كما نقلها الي بروفيتانديو بدا لي انه لا يمكن استعمالها . ولهذا السبب وحده راوغت بدلاً من ان اطرق مع جورج هذه النقطة المعينة ، موضوع زيارتي . وقلت :

« ـ اريد اولاً ان تقرأ هذه الاسطر . وستعرف لماذا .

« وقدمت اليه دفتري مفتوحاً على الصفحة التي يمكن ان تثير اهتمامه .

« واكرر : هذه الحركة تبدو لي حمقاء الآن . ولكن في

روايتي ، كنت افكر ان علي ان اخبر اصغر ابطالها وذلك عن طريق قراءة مشابهة . وكان يهمني ان اعرف رد الفعل عند جورج . كنت آمل ان يعلمني رد الفعل هذا . . . حتى عن قيمة ما كتبته .

« وها انا انقل المقطع موضوع الحديث :

*

« كان في هذا الولد منطقة مظلمة ينصب عليها فضول أوديبر الودود . كان لا يكفيه ان يعرف ان اودولف قد سرق ، بل يريد من اودولف ان يسرد له كيف وصل الى السرقة وما كان يشعر به عندما سرق للمرة الاولى . الا ان الولد ، رغم انه واثق به ، لم يستطع ان يقول له دلك . ولم يجرؤ أوديبر على استجوابه خوفاً من الوصول الى أعذار كاذبة .

« وذات مساء بينما كان أوديبر يتناول الطعام مع هيلدبران ، حدثه عن حالة اودولف دون ان يدكر اسمه ، ورتب الامور بحيث لا يستطيع الآحر معرفه . وقال هيلدبران حينئذٍ :

ـ الم نلاحظ ان الاعمال الاكثر حسماً في حباتنا ، واريد القول : تلك التي تجازف اكثر من عيرها لتقرر مصيرنا كله ، هي في الغالب اعمال صادرة عن عدم تبصر .

فاجاب أوديبر :

ـ اعنقد دلك . انه قطار يصعد البه دون التفكير فيه ،

ودون التساؤل الى اين بسير . وفي الاغلب ايضاً لا تعرف ان القطار قد نقلك الا في ما بعد ، حين تهبط منه .

ـ ولكن الولد موضوع حديثنا قد لا يتمنى ان ينزل منه ابداً . . .

ـ ما من شك في انه لا يحرص على النزول منه في الوقت الحاضر ، لقد انتمل . المناظر الطبيعية تسليه وقليلاً ما يهمه اين يذهب .

ـ هل اعطيته دروساً في الاخلاق ؟

ـ كلا بالتأكيد . فهذا لن يفيد . كان مشبعاً بالاخلاق « حتى التقيؤ .

ـ لماذا سرق ؟

ـ لا اعرف تماماً . اكيداً ليس بدافع حاجة حقيقية ، بل ليحصل على بعض الفوائد ، لكي لا يبقى في مؤخرة رفاق اكثر حظاً منه . . . وما ادراني ؟ . . بدافع ميل طبيعي ولذة بسيطة بالسرقة .

ـ وهذا اراداً .

ـ بالتأكيد ، لأنه حينئذ سيعاود من جديد .

ـ هل هو ذكي ؟

ـ ظللت طويلاً اعتقد انه اقل ذكاء من اخوته . ولكني اظن في الوقت الحاضر انني ربما اخطأت . ان فضوله قد

تضلل حتى الآن ؛ او بالحري ، انه ظل فى حالة ابتدائيه ، في مرحلة عدم التبصر .

ـ هل كلمته ؟

ـ انوي ان اجعله يضع في الميزان تلك الفائدة القليله التي يجنيها من سرقاته ، وما يخسره بسبب عدم استقامتـه . ثقة اقربائه ، اعتبارهم له ، كذلك اعتباري انا . وكل شيء مما لا يحدد برقم والذي لا يمكن تحديد قيمته الا بضخامة الجهد المبذول للحصول عليـه . ان بعض الناس افنـوا حياتهم فى سبيل الحصول على ذلك . سأقول له ، وهو لا يزال اصغر من ان يعلق اهمية على ذلك ، ان الشكوك ستتجه اليه دائماً من الآن فصاعداً كلما حصل شيء مريب بالقرب منه ، او شيء ملتبس قد يتهم باعمال خطيره ، خطأ ، ولن يستطيع الدفاع عن نفسه ، لأن ما عمله قبلاً يدل عليه وقد اصبح ما يسمى « محروق » . واخيراً فان ما اريد قوله له ولكني اخاف احتجاجاته .

ـ ما تريد قوله له ؟ . .

ـ هو ان ما فعله قد خلق سابقه ، وانه اذا كان قد احتاج الى « بعض العزم عند اقدامه على سرقته الاولى فلن يحتاج الى شيء في السرقات التاليه ، الا ان يخضع للعادة . وكل ما يأتي بعد ذلك ليس الا استسلام للعادة ان ما اريد قوله له هو

ان الحركة الاولى التي يقوم بها المرء دون ان يفكر بها ترسم في الغالب صورتنا بشكل لا برء منه ، وتبدأ برسم سمة لا تستطيع جميع جهودنا بعد ذلك ان تمحوها . واريد . . . ولكني لن اعرف ان أكلمه .

ـ لماذ لا تكتب حديثنا هذا المساء ؟ . . . وتعطيه اياه ليقرأه .

فقال أوديبر :

« ـ انها فكرة . . . ولماذ لا ؟ . . »

*

« لم أحول بصري عن جورج طوال وقت قراءته . ولكن وجهه لم يكشف عما يمكن ان يفكر فيه .

« وسأل وهو يقلب الورقة :

« ـ ايجب ان اكمل ؟

« ـ لا فائدة من ذلك ، فالحديث انتهى هنا .

« ـ مؤسف ! . .

« واعاد الي الدفتر . وبلهجة شبه فكاهية :

« ـ كنت اريد ان اعلم بماذا اجاب اودولف بعدما قرأ الدفتر .

« ـ هذا بالضبط ما انتظر انا نفسي ان اعرفه .

« ـ أودولف اسم مضحك . الم يكن في امكانك ان تعمده باسم آخر ؟

« ـ ليس لهذا اهمية .

« ـ كذلك ما يمكن ان يجيب به . وماذ صار بعد ذلك ؟

« ـ لا اعرف بعد . ان هذا يتوقف عليك سنرى .

« ـ اذاً ، اذا كنت فهمتك جيداً ، فأنا الذي يجب ان يساعدك على اتمام كتابك . اعترف بأن . . .

« وتوقف ، كأنه يشعر بشر في ايضاح فكرته.

« ـ بأن ماذا ؟ . .

« هكذا قلت لأشجعه . واجاب اخيراً :

« ـ اعترف بانك ستصبح مخدوعاً لو ان اودولف . . .

« وتوقف من جديد . ظننت انني فهمت ما كان يريد قوله وأتممت عنه :

« ـ لو اصبح غلاماً فاضلاً ؟ . . كلا يا صغيري .

« وفجأة صعدت الدموع الى عيني ، فوضعت يدي على كتفه لكنه تخلص منها .

« ـ لأنه لو لم يسرق لما كتبت كل هذا .

« عندئذ فقط ادركت خطئي كان جورج مزهواً في اعماقه لأنه . اشغل تفكيري طويلاً . شعر انه موضع اهتمام . وكنت نسيت بروفيتانديو ؛ وجورج هو الذي ذكرني به .

« ـ وماذا سرد عليك قاضي تحقيقك؟ . .

« ـ كلفني انذارك انه عالم بانك تروج عمله زائفة . .

« ونغبر لون جورج من جديد ، وادرك ان انكاره لن يفيد شيئاً ، ولكنه احتج باضطراب :

« ـ لست الوحيد .

« فأكملت :

« ـ . . . وبأنك اذا لم ننقطع حالا عن هذه التجارة ، انت ورفاقك ، فسيجد نفسه مضطراً الى سجنكم .

« كان جورج قد اصبح كثير الشحوب في البداية ، اما الآن فقد اشتعل خداه . كان يتطلع امامه ، وحفر حاجباه المتقطبان غضنين في اسفل جبهته . وقلت له وانا امد يدي اليه :

« ـ وداعاً . أنصحك بانذار رفاقك ايضاً . اما انت فقد أنذرتك .

« وضغط على يدي بصمت وعاد الى صفه دون ان يلتفت .

« باعادتي قراءة صفحات « مزيفو النقود » التي أريتها لجورج وجدتها سيئة . نقلتها هنا كما قرأها جورج ؛ ولكن هذا الفصل كله ستعاد كتابته . من الافضل التكلم مع الولد . علي ان اجد الناحية التي اثير فيها تأثره . في الحالة الراهنة (سأغير هذا الاسم ، وجورج على حق) من الصعب اعادة اودولف الى النزاهة . ولكني انوي ان اسير به اليها . وهذا هو الامر الاكثر

اهمية ، مهما كان تفكير جورج ، لأنه الاصعب . (ها اني اخذت افكر كدوفييه !) لنترك للروائيين الواقعيين حكاية الاسنسلام للعادة . . »

ما ان عاد حورج الى قاعة الدرس حى أطلع رفيقيه على انذارات ادوار . كل ما قاله هدا حول موضوع سرقات جورج انزلق عن هذا الولد دون ان يحدث تأثيراً فيه . ولكن القطع الزائفة التي يخشى ان تلعب معهم دوراً سيئاً كان من المهم التخلص منها بسرعة . كان منهم يحمل بعضاً منها وينوي تصريفها عند الخروج القريب من المدرسه جمعها جيريدانيزول وأسرع وألقاها في الحفر . وفي المساء نفسه اخبر ستروفيلو الذي اتخذ الاحتياطات حالاً

١٦

في هذا المساء نفسه ، بينما كان ادوار يتحدث مع ابن اخته جورج ، كان أوليفييه قد تلقى زيارة أرمان بعدما تركه ادوار

كان أرمان فيدال لا يكاد يعرف الا بالجهد ؛ حليق الذقن حديثاً ، مبتسمًا ، عالي الجبهة ، في ثوب جديد كثير التقوس ، مضحك تقريبا ، وكان يشعر بذلك ويظهر انه يشعر به .

ـ كنت اريد ان آتي لأراك قبلاً ، ولكن كان لدي

ما يشغلني! . اتعلم انني اصبحت سكرتيراً لباسافان ؟ اي اذا كنت تفضل : رئيس تحرير المجلة التي يديرها ؟ لن اطلب منك المساعدة فيها لان باسافان بدا لي حاقداً عليك . وهذه المجلة تميل نحو اليسار . ولهذا بدأت بالتخلص من بركاي وزرائه

ففال اوليفييه :

ـ لا تهمني . . .

ـ ولهذا استقبلت قصيدتي « المبولة » التي ، بين فوسين ، ستهدى اليك اذا سمحت .

ـ واأسفاه .

ـ اراد باسافان ان تظهر قصيدتي العبقرية في رأس العدد الأول ؛ وهو ما يتعارض مع تواضعي الطبيعي الذي اخجله مديحه شديد الخجل . لو كنت واثقاً من انني لن اتعب اذنيك الناقهتين لسردت عليك حكاية مواجهتي الاولى لمؤلف « الحاجز الثابت » الشهير الذي لم اكن اعرفه قبل اليوم الا من خلالك .

ـ ليس لي ما اعمله افضل من الاصغاء اليك .

ـ الا يضايقك الدخان ؟

ـ سأدخن انا نفسي لأطمئنك .

ـ وبدأ أرمان بعدما اشعل سيكارة :

ـ يجب القول ان تخليك عن الوظيفة اوقع عزيزنا الكونت في الارباك . وقد قيل ، دون ان نبعث فيك الزهو ، انه لا يمكن

الاستعاضة بسهولة عن تلك الباقة من المواهب ، والفضائل ، والمزايا التي تجعل منك واحداً من . .

ـ باختصار . .

قاطعه اوليفييه بعدما احنقه تهكمه الثقيل .

ـ باختصار ، كان باسافان في حاجة الى سكرتير وكان يعرف واحداً يدعى ستروفيلو اعرفه انا ، لأنه ابن عم وعميل لأحد نزلاء البنسيون ، وهذا يعرف جان كوب ـ لافلور الذي تعرفه انت .

فقال اوليفييه :

ـ الذي لا اعرفه .

ـ لا بأس ! . يا عزيزي كان عليك ان تعرفه انه شخص غير عادي ، مدهش ، نوع من طفل ذابل ، متغضن ، مطلي بالمساحيق ، يعيش بالمقبلات ، ويضع اشعاراً بديعة حين يكون ثملاً . ستقرأ له في عددنا الاول . رأى ستروفيلو اذاً ان يرسله الى باسافان ليشغل مكانك . تستطيع ان تتخيل دخوله الى قصر شارع بابيلون . ويجب ان اقول لك ان كوب ـ لافلور يرتدي ملابس مغطاة بالبقع ، ويترك حزمة شعر كمشاقة القنب تسترسل على كتفيه ، بحيث يبدو انه لم يغسل منذ ثمانية ايام . وباسفان الذي يقصد دائماً السيطرة على الموقف أكد ان كوب ـ لافلور قد اعجبه كثيراً . وقد عرف كوب ـ لافلور ان يبدو

هادئاً ، مبتسماً ، جحولاً وكان حين يربد ، يستطيع ان يشبه غرانغوار دي بانفيل . الخلاصة بدا باسافان مفتوناً به وكان على اهبة التعاقد معه . يجب ان اقول لك ان لافلور كان مفلساً تماماً . . ها هو ينهض مستأذناً بالرحيل : « ـ قبل ان اتركك اظن ان من الافضل يا سيدي الكونت ان اخبرك ان لي بعض الاخطاء . ومن منا بلا اخطاء ؟ ـ وبعض العيوب ، انا ادخن الافيون . فقال باسافان الذي لا يضطرب لشيء تافه : لا اهمية لذلك . وعندي منه جنس ممتاز اقدمه اليك . فقال لافلور : « نعم ، ولكن حين ادخن افقد تماماً اصول الاملاء » . فظنها باسافان مزاحاً ، وحاول ان يضحك ومد اليه يده . وتابع لافلور : « ثم اني ادخن الحشيش » . فقال باسافان : لقد دخنته انا نفسي بعض الاحيان . فقال لافلور : «نعم، ولكن تحت سلطة الحشيش لا استطيع امساك نفسي عن السرقة » . بدأ باسافان يرى ان الآخر يسخر منه . اما لافلور وقد خطا بعيداً ، فقد اكمل بحدة : « ثم اني اشرب روح الكحول ، عندئذ امزق كل شيء واكسر كل شيء » . واستولى على اناء بلوري وتظاهر بأنه سيلقيه في المدخنة ، فانتزعه باسافان من يديه وقال : اشكرك لأنك حذرتني .

ـ وطرده ؟ . .

ـ ثم راقبه من النافذة ليرى اذا كان لم يضع قنبلة في القبو وهو ذاهب .

فقال أوليفييه بعد صمت :

ـ ولكن لماذا فعل لافلور ذلك ؟ هو بحاجة ماسة الى الوظيفة كما قلت لي .

ـ لابد ان تسلم يا عزيزي بان هناك اناساً يشعرون بالحاجة للعمل ضد مصلحتهم الخاصة . تم ، اتريد ان اقول لك : لافلور . . . ان فخفخة باسافان قد أقرفته ، كذلك اناقته ، وتصرفاته المحبوبة ، وتنازله ، والتظاهر بتفوقه . نعم ، ان هذا قد اثار قلبه ، واضيف اني افهم ذلك . . . ضمناً ، ان باسافانك هذا يبعث على القيء .

ـ لماذا قلت « باسافانك » ؟ انت تعرف اني لا اراه ابداً . ثم ، لماذا قبلت منه هده الوظيفة ما دمت تجده مقرفاً ؟

ـ لانني بالضبط احب ما يقرفني .. مبتدئاً بنفسي او بشخصيتي القذرة .. ثم ، فان كوب ـ لافلور هو ضمناً خجول . ما كان ليقول شيئاً من كل هذا لو لم يكن قد شعر بالضيق .

ـ اوه ! هذا ، مثلا . . .

بالتأكيد كان متضايقاً، وهو يرتعب حين يتضايق من واحد يشعر في أعماقه أنه يحتقره. لقد تغطرس لكي يخفي ضيقه.

ـ أني أجد هذا بلاهة.

ـ ليس كل الناس أذكياء مثلك يا عزيزي.

ـ قلت لي ذلك في المرة الأخيرة.

ـ يا لها ذاكرة! . .

أظهر أوليفييه أنه مصمم على العناد وقال :

ـ أحاول أن أنسى مزاحك لكنك في المرة الأخيرة حدثتني بشكل جدي. قلت لي أشياء لا أستطيع نسيانها.

واضطربت نظرات أرمان، وضحك ضحكة مغتصبة:

ـ أوه! يا عزيزي، في المرة الأخيرة حدثتك كما ترغب أن أحدثك. ماذا تريد؟ أني لا أكن صادقاً إلا حين اكذب.

ـ لن تحملني على الاعتقاد أنك لم تكن صادقاً وأنت تكلمني كما فعلت. أنك الآن تمثل.

ـ أوه! أيها الكائن المليء بالسذاجة. بأي روح ملائكية تقدم البرهان! . . . كأن كلا منا لم يمثل، أكثر أو أقل صدقا ووعيا. الحياة يا عزيزي ليست سوى مهزلة. ولكن الفرق بيني وبينك، هو أنني أعرف إنني أمثل؛ بينما. . .

ـ بينما. . .

ردد أوليفييه بشكلٍ هجومي.

ـ بينما والدي مثلاً، لكي لا أتكلم عنك، يغش حين يمثل دور قسيس. مهما قلت أو فعلت فإن قسمًا مني يبقى في المؤخرة ليرى القسم الآخر وهو يخاطر بنفسه، فيراقبه، ويسخر منه، ويصفر له ، أو يصفق له. كيف تريد أن يكون المرء صادقاً حين يكون مقسوماً هكذا ؟ . . لقد توصلت أن لا أفهم شيئاً مما يمكن

أن تعنيه هذه الكلمة . . . ما من شيء يمكن عمله في هذا الصدد : فاذا كنت حزيناً اجد نفسي مضحكاً وهذا ما يجعلني اضحك ؛ واذا كنت مسروراً اقوم بممازحات بلهاء تدفعني الى البكاء .

ـ وتدفعني انا ايضاً الى البكاء يا عزيزي المسكين . ما كنت لأعتقد انك مريض الى هذا الحد .

فهز أرمان كتفيه ، وبنبرة تختلف تماماً :

ـ لكي اروّح عنك ، اتريد ان تعرف مم يتألف عددنا الاول ؟ . .

ستكون فيه « مبولتي » ؛ واربع اغنيات من كوب ـ لافلور ؛ حوار من جارّي ؛ قصائد نثرية من جيريدانيزول الصغير ، الموجود عندنا في البنسيون ؛ ثم « المكواة » وهي تجربة واسعة في النقد العام ، تتوضح فيها ميول المجلة . لقد اشتغلنا كلنا لنبيض هذه التحفة .

اما اوليفييه الذي لم يكن يعرف ما يقول فقد اعلن بحماقة :

ـ ما من تحفة تكون نتيجة تعاون .

فانفجر أرمان ضاحكاً :

ـ ولكن يا عزيزي قلت تحفة على سبيل المزاح ليس هناك حتى تأليف ، اذا تكلمنا الحق . يجب اولاً ان نعلم ماذا يفهم

بكلمة « تحفة » . ان « المكواة » بالتأكيد ستهتم بايضاح ذلك .
هناك كثير من المؤلفات تنال الاعجاب عن طريق الثقة لان جميع الناس يعجبون بها ، ولم يخطر ببال أي شخص حتى الآن ان يقول انها بلهاء ، او انه لا يجرؤ على قول ذلك . لقد وضعنا ، مثلاً ، في رأس العدد صورة تقلد الجوكندة وألصقنا لها شاربين ، وسترى يا عزيزي ان لهذا مفعولاً ساحقاً .

- أيعني هذا انك تعتبر الجوكندة حماقة ؟ . .

- ولكن كلا يا عزيزي (وايضاً فانا لا اراها اكثر ادهاشاً من ذلك) . انت لا تفهمني . الحماقة في الاعجاب الذي تحاط به . العادة وحدها هي التي لا تجعلنا نتكلم عما يسمى « تحفة » الا وقبعتنا منخفضة . و« المكواة » (وسيكون هذا هو عنوان المجلة العام) من هدفها ان تجعل هذا الاحترام مضحكاً ، وان تقضي على هذه الخطوة . . . وهناك وسيلة صالحة ايضاً ، هي ان يفرض على اعجاب القارىء بعض المؤلفات البلهاء (« مبولتي » مثلاً) لمؤلفٍ خالٍ تماماً من العقل السليم .

- هل يستصوب باسافان كل هذا ؟ . .

- ان هذا يسليه كثيراً .

- ارى انني احسنت بانسحابي .

- الانسحاب . . . عاجلاً ام آجلاً يا عزيزي . وسواء شاءه المرء ام لا ، فيجب دائماً الوصول اليه . وهذا التفكير الحكيم

يقودني بحكم الطبيعة الى الاستئذان منك بالانصراف .

ـ إبق هنيهة بعد ايها المهرج . ما معنى قولك ان والدك يمثل دور القسيس ؟ ألا تظنه مقتنعاً ؟

ـ السيد والدي رتب حياته بشكل لا يجعل لـه الحق او الوسيلة لان لا يكون مقتنعاً . نعم ، انه افتناع مهني . استاذ الاقناع . لقد تشرب الايمان ؛ وهذا سبب كينونته ؛ انه الدور الذي يقوم بأعبائه والذي يجب ان يسير به الى النهاية . امـا معرفة ما يجري في ما يدعى « دخيلته » ؟ . . سيكون من الطيش ان نسأله عن ذلك . وأعتقد انه لا يسأل نفسه . فقد كيّف نفسه بطريقة لا تجعل له وقتاً ليسأل نفسه عن ذلك . لقد حشا حياته بكدسة من الالتزامات تفقد كل معنى اذا ضعف برهانه ؛ بنوع ان هذا البرهان تتطلبه وتتعهده هذه الالتـزامات . هـو يتخيل انه يؤمن لأنه استمر في التصرف كأنه كان يؤمن . هو ليس حراً في ان لا يؤمن . ولو تقهقر ايمانه يا عزيزي ، ولكنها تكون المصيبة ! . . الانهيار ! . . فكر في ان عائلتي لن يبقى لها فجأة ما تعيش به . هذا امر يجب ان يؤخذ في الاعتبـار يا عزيزي ؛ ان ايمان والدي هو مكسب خبزنا . اننـا نعيش كلنا على ايمان ابي . وانت تأتي وتسألني اذا كان ابي مؤمناً حقيقة . سوف تعترف ان هذا ليس لطيفاً منك

ـ كنت اظن انكم تعيشون من دخل البنسيون .

ـ هذا صحيح نوعاً . ولكن ليس من اللطف ان تقطع علي تأثيري الغنائي .

فسأله اوليفييه بكآبة ، لأنه كان يحب أرمان ويتألم من خسته :

ـ اذاً انت لا تؤمن بشيء ؟

ـ « آمر بتجديد الآلام . . . » يبدو انك نسيت يا عزيزي ان اهلي ينوون ان يجعلوا مني قسيساً . لقد هيأوني لاجل هذا وعلفوني تعاليم دينية آملين الحصول على تمديدٍ للايمان ، اذا جرؤت على القول . . . يجب الاعتراف باني لا املك هذا الميل . وهذا مؤسف . والا لكنت اصبحت واعظاً مدهشاً . لقد كان ميلي ان اكتب « المبولة » .

ـ لو تعلم يا عزيزي المسكين كم اشفق عليك ! . .

ـ عندك دائمًا ما يسميه ابي « قلباً من ذهب » . . . وانا لا اريد استغلاله طويلاً .

وأخذ قبعته . وكان قد اوشك على الذهاب حين التفت فجأة :

ـ لم تسألني عن اخبار ساره .

ـ لأنك لن تخبرني بشيء لم اعرفه قبلاً من برنار .

ـ هل قال لك انه ترك البنسيون ؟

ـ قال لي ان اختك راشيل دعته للرحيل .

كانت يد ارمان على مقبض الباب ، والاخرى على عصاه . ابقي الباب مرفوعاً ؛ ودخلت العصا في ثقب في الباب فوسّعته . وقال وقد اتخذ وجهه تعبيراً رزيناً :

ـ فسر هذا كما تستطيع . اعتقد ان راشيل هي وحدها التي احبها وأحترمها في هذا العالم . احترمها لانها فاضلة ، واتصرف دائمًا بطريقة تهين فضيلتها . اما في ما يتعلق ببرنار وساره فهي لم تكن ترتاب بشيء . وانا الذي حكى لها كل شيء . . . ان طبيب العيون الذي اوصاها بعدم البكاء كان هازلاً .

ـ هل يجب ان اعتبرك صادقاً الآن ؟

ـ نعم ، اعتقد ان هذا اصدق شيء عندي : النفور ، بغض كل ما يسمى فضيلة . لا تحاول ان تفهم . لا تعرف ما يمكن ان تفعله بنا التربية الاولى المتزمتة . انها تترك في قلبك حقداً لا يمكن ابداً ان يشفى . . . اذا قست ذلك على نفسي . ـ وأكمل وهو يضحك . ـ بالمناسبة عليك ان تقول لي ماذا اصابني هنا .

ووضع قبعته واقترب من النافذة .

ـ انظر . على حافة الشفة ، في الداخل .

وانحنى على اوليفييه ررفع شفته باصبعه .

ـ لا ارى شيئاً .

ـ ولكن بلى ، هنا ؛ في الزاوية .

ورأى اوليفييه بجانب الموصل (موضع يصل بين بعض اجزاء الجسد commisure) بقعة بيضاء . فشعر بشيء من القلق .

ـ انها قلاع Aphte .

قال ذلك ليطمئن ارمان . اما هذا فهز كتفيه .

ـ لا تقل حماقات . انت رجل جد . اولاً القلاع مذكر . ثم ان القلاع رخو ويزول . اما هذا فهو قاس ، ويكبر من اسبوع الى آخر . ويجعلني اشعر بطعم كريه في الفم .

ـ هل معك هذا منذ زمن طويل ؟

ـ لاحظته منذ اكثر من شهر . ولكن كما يقال في « التحف » الادبية : ان ألمي يأتي من البعيد البعيد . .

ـ اذاً يا صديقي ، اذا كنت قلقاً فعليك باستشارة طبيب .

ـ وهل تظن انني انتظر نصيحتك ؟

ـ وماذا قال الطبيب ؟

ـ لم انتظر نصيحتك لأقول لنفسي ان عليّ ان استشير الطبيب ، كذلك فاني لم أستشر الطبيب لانه اذا كانت هذه الاصابة كما اظن فمن الافضل الا اعرف .

ـ هذه بلاهة .

ـ اليس كذلك ؟ ولكنه تصرف بشري ايضاً ، يا عزيزي ، بشري . . .

ـ عدم الاعتناء بنفسك بلاهة .

ـ وكذلك استطاعتي القول لنفسي « فات الوقت » حين ابدأ الاعتناء بنفسي . وهذا ما اوضحه كوب ـ لافلور في قصيدة ستقرأها :

يجب التسليم بالبداهة :

لان الرقص في هذا العالم غالباً ما يسبق الاغنية .

ـ يمكن عمل ادب من اي شيء .

ـ قلتها : من اي شيء . ولكن يا عزيزي ، هذا ليس بالامر السهل . . هيا ، وداعاً . . . آه ! كنت اريد ان اقول لك ايضاً : تلقيت اخباراً من ألكسندر . . . ولكن نعم ، انت تعلم جيداً ! . . اخي الاكبر الذي هرب الى افريقيا حيث بدأ يقوم باعمال سيئة وأكل كل المال الذي ارسلته راشيل اليه . استقر الآن على شواطىء الكازامانس . كتب الي ان تجارته تزدهر وانه سيسدد كل الديون .

ـ تجارة بماذا ؟

ـ وهل هناك من يعرف ؟ . . مطاط ، عاج ، وربما زنوج . . . يعمل في بضع حرف ويطلب مني اللحاق به .

ـ وهل ستذهب ؟

ـ ومنذ الغد ، لو لم تكن عندي وظيفتي . الكسندر ابله من

نوعي . واظن اني اتفاهم جيداً معه . . . اتريد رؤيتها رسالته معي .

وأخرج من جيبه غلافاً ومن الغلاف بضع اوراق ، واختار واحدة منها وناولها لأوليفييه .

ـ لا ضرورة لقراءتها كلها . ابتدىء هنا .

وقرأ اوليفييه :

« اعيش منذ خمسة اشهر برفقة شخص عجيب استقبلته في بيتي . ضربته شمس هذه البلاد على جمجمته . لقد حسبت أولاً جنونه هذياناً . هذا الغلام العجيب في الثلاثين من عمره تقريباً ، كبير ، وقوي ، وجميل ومن « عائلة طيبة » كما يقال ، اذا حكمنا عليه من خلال تصرفاته . لغته ويداه ناعمة جداً مما يدل على انه لم يقم باعمال ضخمة ـ وهو يعتقد ان به مساً من الشيطان ؛ او بالأحرى يعتقد انه هو الشيطان نفسه ، اذا كنت قد فهمت جيداً ما قاله . ربما قام بمغامرة لانه حين يسقط في الغالب في حالة حلم او نوم نصفي (عندئذ يحدث نفسه كأنني غير موجود) يتكلم دون انقطاع عن ايد مقطوعة . وبما انه يتململ كثيراً عند ذاك ويدير عينين مخيفتين ، فاني احتاط بأن ابعد عنه كل سلاح . اما عدا ذلك من الوقت فهو غلام طيب ، ذو عشرة لطيفة ـ وهذا ما أستحسنه بعد شهور من

العزلة ـ انه يحل محلي في العناية بتجارتي . لا يتحدث ابداً عن حياته الماضية ، لذلك لم اتوصل بعد الى اكتشاف من يكون . هو يهتم على الخصوص بالحشرات والنبات ، وبعض احاديثه يجعلني استشف انه متعلم جيداً . ويبدو انه راض معي ولا يتحدث عن الرحيل ؛ عزمت على ابقائه هنا ما شاء ان يبقى . من المؤكد انني كنت اتمنى مساعداً فجاء في وقته .

« وهناك زنجي شنيع كان يرافقه . وقد صعد الكازامانس معه ، واستطعت ان اتحدث قليلاً مع هذا الزنجي ، فتكلم عن امرأة كانت ترافقه وغرقت في النهر ذات يوم بعد انقلاب مركبهم . لن ادهش اذا كان رفيقي قد عمل على تسبيب الغرق . ففي هذه البلاد اذا ارادوا التخلص من شخص ، فهناك وسائل كثيرة يختارونها ، وما من احد يهتم به . اذا توصلت ذات يوم الى معرفة المزيد فسأكتب اليك . ـ او اقوله لك حين تأتي الى عندي . نعم ، انك اعلم . . . مسألة وظيفتك . . . لا يهم ! . . . سأنتظر . اقنع نفسك بانك اذا اردت رؤيتي فما عليك الا ان تصمم على المجيء . اما انا فان رغبتي في العودة تقل شيئاً فشيئاً . اني أحيا هنا حياة تعجبني وتلائمني كبدلة على قياسي تماماً . تجارتي تزدهر . وطوق المدنية الزائف يبدو لي كغل لا استطيع احتماله ابداً .

« طيه حوالة جديـدة ، تتصرف بهـا كما يحلو لـك . اما الحوالة السابقة فكانت لراشيل . احتفظ بهذه لنفسك . . . »

وقال أرمان :

ـ الباقي ليس شائقاً .

واعاد اوليفييه الرسالة دون ان يقول شيئاً . لم يخطر بباله ان القاتل الذي تحدثت عنه الرسالة هو اخوه . فقد انقطعت اخبار فنسان منذ وقت طويل ، واهله يعتقدون انه في اميركا . وحقيقة القول ان اوليفييه لم يكن كثير الاهتمام به .

١٧

لم يعلم بوريس بموت برونجا إلا إثر زيارة قامت بها مدام سوفرونيسكا للبنسيون بعد شهر . لقد ظل بوربس دون اخبار منذ رسالة صديقته المحزنة . رأى مدام سوفرونيسكا تدخل الى صالون مدام فيدال حيث كان من عادتـه ان يمكث في فترة الراحة   ولما كانت فى ملابس الحداد فقد ادرك كل شيء حتى قبل ان تكلمه . كانا وحيدين في العرفة . احذت سوفرونيسكا بوريس بين ذراعيها ، وامزجت دموعهما . لم تسـتطع إلا ان تردد : « يا صغيري المسكين . . . يا صغيري المسكن . . . » كأن بوريس بحاجة للشفقة ، وكأنها نسيت حـزنها كأم أمـام الحزن العظيم لهذا الولد

ووصلت مدام فيدال التى أنبئت بالزيارة . وابتعد بوربس وهو لا يزال يهتز من النحيب ليترك السيدتين تتحدثان . كان يريد ألا تتحدثا عن برونجا . فمدام فيدال لا تعرفها وكانت تتحدث عنها كأنها تتحدث عن ولد عادى . والأسئله نفسها التي وجهتها بدت لبوريس عبر لطفه فى نفاهتها . كان يريـد ألا تجيب سوفرونسكا على ذلك . وتألم لأنه رآها تنشر حزنها . اما

هو فقد طوى حزنه وخبأه ككنز .

ما من شك في ان برونجا كانت تفكر فيه حين سألت قبل موتها :

ـ ماما ، اريد ان اعرف الكثير قولي ، ماذا يقصدون بالحب ؟ .

هذه الكلمات التي ثقبت القلب ، كان بوريس يريد ان يكون الوحيد الذى يعرفها .

قدمت مدام فيدال الشاي . وكان هناك فنجان لبوريس شربه بسرعة بينما كانت فترة الراحة قد انتهت ؛ ثم استأذن من مدام سوفرونيسكا التي عادت في صباح الغد الى بولونيا حيث تدعوها بعض الاعمال .

بدت له الدنيا كلها مقفرة . كانت أمه بعيدة جداً عنه ، غائبةً تماماً ؛ وجده شيخ عجوز ؛ حتى برنار لم يكن هناك حيث كان يشعر بالاطمئنان الى جانبه . . . ان نفساً رقيقة كنفسه تحتاج الى واحد يحمل اليه نبله وطهارته كتقدمة . لم يكن كثير الكبرياء ليعجب بنفسه . وقد أحب برونجا كثيراً ولم يعد يستطيع الامل في إيجاد سبب الحب الذي فقده معها . والملائكة الذين تمنى رؤيتهم كيف يؤمن بهم من الآن فصاعداً بدونها ؟ ان سماءه قد فرغت الآن .

دخل بوريس الى الدرس كمن يغطس في الجحيم . كان في

وسعه ان يجعل من غونتران دو باسّافان صديقاً ؛ ان هذا غلام طيب والاثنان في سن واحدة ، ولكن ليس هناك شيء يلهي غونتران عن عمله . وفيليب أدامنني ليس خبيثاً ولا يطلب شيئاً أفضل من الارنباط ببوريس ؛ ولكنه ترك زمامه في يد جيريدانيزول الى درجة انه لا يجرؤ على الشعور بأية عاطفة شخصية واحدة ؛ انه يقرب الخطى بينها جيريدانيزول يسارع ؛ وجيريدانيزول لا يستطيع ان يحتمل بوريس . فصوته الموسيقي ، وكياسته ، وهيئته التي تشبه هيئة الفتاة ، وكل ما فيه ، يثير ، ويُغضب ؛ حتى ليقال انه يشعر عند رؤيته بالكراهية الغريزية التي تحمل الأقوياء على الانقضاض على الضعفاء في القطيع . قد يكون سمع تعالبم ابن عمه ، ولعل بغضه نظري الى حد ما لانه يتخذ في عينيه مظهر النفور الشديد . انه يجد أسباباً لتهنئة نفسه على البغض . وقد ادرك جيداً مقدار احساس بوريس بهذا الاحتقار الذي يوجهه اليه . كان يتلهى به ويتظاهر بالتآمر مع جورج وفيفي لسبب وحيد هو ان يرى نظرات بوريس مشحونة بنوع من الاستفهام القلق . وقال جورج :

- اوه ! كم هو غريب . ايجب ان تقول له ؟ . .

- لا لزوم لذلك ، فلن بفهم شيئاً .

« لن يفهم شيئاً » . « لن يجرؤ » . « لن يعلم » كانت هذه الصيغ تقذف في وجهه دون انقطاع وكان يتألم كثيراً لكونه مبعداً عنهم . وبالفعل لم يفهم جيداً تلك الكنية المتينة التي

ألصقوها به « ليس عنده شيء » أو يشمئز اذا فهمها . ما الذي يمكن ان يعطيه ليتبت انه ليس بالأحمق الذي يظنونه ! . .

وقال جيربدانيزول لستروفيلو :

ـ لا استطيع احتمال بوريس . لماذا طلبت مني ان اتركه وشأنه ؟ انه لا بطلب اكثر من ذلك ، ان اتركه وشأنه . انه دائماً يتطلع الى ناحيتي . . . وقد اضحكنا ذلك النهار لأنه كان يعتقد ان « امرأة على الوبر » تعني « امرأة ملتحية» . وفد غضب جورج منه . وحين ادرك بوريس انه أخطأ ظننت انه سيبكي .

وألحف جبريدانيزول على ابن عمه بالأسئلة ؛ وانتهى هذا بأن اعطاه « تميمة » بوريس وعلمه طريقة استخدامها .

بعد أيام قليلة وجد بوريس على طبقته عندما دخل الى الدرس تلك الورقة النبي لا يكاد يذكرها . كان قد أبعدها عن ذاكرته مع كل ما ينتج عن هدا « السحر » في طفولته الأولى ، ؛ أو التي يخجل اليوم منها . لم يعرفها في بادىء الأمر لأن جيريدانيزول اعتنى بوضع صيغة الرفية في اطار :

«غاز . . تلفون . . . مئة ألف روبل . . . »

ضمن حاشية حمراء وسوداء مزينة بصور فاحشة لشباطين صغيرة ، ولعمري إنها رسمت بشيء من الاتقان . وكل هذا اعطى الورقة مظهراً غريباً « جهنمياً » كما كان يفكر جيريدانيزول ، مظهراً يظن أنه قادر على التأثير في بوريس .

قد لا تكون كـل القصة اكـثر من لعبة . ولكن اللعبـة نجحت اكتر مما كان يؤمل . واحمر وجه بوريس كثيراً ولم يقل شيئاً . تطلع يميناً وشمالاً فلم ير جيريدانيزول الذي كان مختبئاً وراء الباب يراقبه . لم يستطع بوريس الارتياب به ولا ان يفهم كيف وجدت التميمة هنا؛ لقد بدا انها وقعت من السماء ، أو بالأحرى ، انبثقت من الجحيم . ما من شك في ان بوريس كان في سن تجعله يهز كتفيه امام هذه الشيطنات الطالبية ، ولكنها حركت ماضياً مضطربـاً . اخذ بـوريس النميمة ووضعهـا في دراعته . ولازمته ذكرى ممارسات السحر طول النهار . كـافح حتى المساء ضد هذا التحريض الغامض . ولما لم يكن هناك ما يجعله يستمر في كفاحه فما ان دخل غرفته حتى تلاشى .

خيل اليه انه هلك انه هبط من السماء البعيدة ؛ ولكنه شعر بالسرور في الهلاك ، وجعل من هذا الهلاك لذته

ومع ذلك احتفظ في اعماق استسلامـه ، رغم شقائـه ، بمدّخرات من الحنو ، والألم العنيف للاستخفاف الذي تتظاهر به رفاقه حياله . انه يخاطر بأي شيء خطر ومستحيل ليحصل على قليل من الاعتبار .

وسنحت الفرصة بعد قليل .

بعد ما اضطر حيريدانيزول وجورج وفيفي الى الاقلاع عن تجـارة العملة الزائفـه لم يظلوا طـويلاً عـاطلين عن العمل .

والألعاب القليلة المضحكة التي انصرفوا اليها في الأيام الأولى لم تكن سوى تمهيد ؛ ولم تلبث مخيلة جيريدانيـزول ان جهزتهم بشيء أكثر قيمة .

ان « اخوية الرجال الاقوياء » لم يكن لوجودها من سبب في البداية سوى لـذة عـدم قبول بـوريس فيها. ولكن ظهـر لجيـريـد انيـزول في ما بعـد آن قبولـه فيهـا سيكـون الذ ، لأنه سيكون اكثر ملعنة . انها ستكون الوسيلة لتجعله يقوم بتعهدات يمكن بواسطتها جره الى اي عمـل شيطاني . واستولت عليه هذه الفكرة منذ ذلك الوقت . وكما يحصل غالباً في كل مشروع فإن جيريدانيزول كان يفكر في المشروع نفسه أقل من تفكيره في الوسائل اللازمة لإنجاحه . وهذا يبدو تافهاً ولكنه يستطيع ان يوضح الكثير من الجرائم . ومع هذا فإن جيريدانيزول كان ضارياً ، ولكنه يشعر بالحاجة لاخفاء هـذه الضراوة ، عن عيني فيفي على الاقل . وفيفي لم يكن شريراً فقد ظل مقتنعاً حتى اللحظة الاخيرة ان الأمر لا يتعدى اللعب .

كـل اخويـة يجب ان يكـون لهـا شعـار ، وقـد اقتـرح جيريدانيزول ، الذي كان له مأرب من ذلك ، عبارة « الرجل القوي لا يتعلق بالحياة » ؛ وقد اختير هذا الشعار ونسب الى شيشـرون . وكعلامـة مميزة ، اقتـرح جورج وشماً في الذراع اليمنى ؛ ولكن فيفي الذي يخشى الألم اكد ان افضل صانعي الوشم هم اولئك الموجودون في المرافىء . واعترض جيريدانيزول بأن الوشم يترك اثراً لا يمحى ، ويمكن ان يضايقهم . وبعد ،

فإن العلامة المميزة ليست ضروريه . واكتفى المشتركون في الجمعية أن يلفظوا تعهداً إحتفالياً .

عندما كان الأمر يتعلق بتجارة العملة الزائفة كان هناك مسألة رهن ، فأبرز جورج رسائل والده . لكنهم انقطعوا عن التفكير في هذه الرسائل . ومن حسن الحظ ان هؤلاء الأولاد لا يثبتون كثيراً على امر . والخلاصة ، لم يبتوا شيئاً في موضوع « شروط القبول » ولا « الصفات المطلوبة » . وما الفائدة من ذلك ما دام الثلاثه يعرفون أنهم، هم ، مقبولون وان بوريس هو الغريب . ومقابل ذلك قرروا ان « من يتراجع يعتبر خائناً ويطرد من الأخوية الى الأبد » . وجيريدانيزول الذي صمم على ادخال بوريس فيها ألح كثيراً على هذه النقطة .

ويجب الاعتراف بأن اللعبة دون بوريس تظل بلا لون . ولخداع الولد كان جورج موهوباً اكثر من جيريدانيزول ؛ فقد كان هذا يخشى ان يوقط حذره ؛ أما فيفي فلم يكن كثير المكر وآثر ألا يخاطر بشرفه .

وهنا ، في هذه الحكاية الفظيعه ، فإن ما بدا لي اكثر شناعة هي مهزلة الصداقة التي رضي جورج بتمثيلها فقد تصنع الكلف ببوريس وابدى محبة فجائية كأنه لم ينظر اليه قبل الآن . ويبلغ بي الأمر حد الظن انه ربما يكون هو نفسه قد أخذ بتمثيله . وان العواطف التي تظاهر بها قريبة من ان تكون

صادقة ، حتى اذا لم تكن صادقة من اللحظة التي استجاب لها بوريس . لقد انحنى عليه بمظاهر الحنو ؛ وحدثه بما علمه اياه جيريدانيزول . . . ومنذ الكلمات الأولى ، فإن بوريس الذي كان يلهث وراء شيء من الاعتبار والمحبة ، وقع في الفخ .

عندئذٍ اعد جيريدانيزول خطته التي كشفها لفيفي وجورج . كان الأمر يتعلق باختلاق « برهان » يخضع له من تقع عليه القرعة من افراد الجمعية . وقد افهموا فيفي ليبعثوه على الاطمئنان ، ان الأمور سترتب بنوع ان القرعة لن تقع إلا على بوريس ، والهدف من « الرهان » هو ان يتأكدوا من شجاعته .

أما ما هو الهدف فإن جيريدانيزول لم يظهر . كان يتخوف من ان يبدي فيفي بعض المقاومة .

ـ بالفعل صرخ عندما بدأ جيريدانيزول في ما بعد يشير الى ان مسدس الأب لابيروز يمكن استعماله هنا :

ـ لا ! لا ! لا أوافق !

واجاب جورج الذي كان قد وافق :

ـ كم انت احمق ! ما دامت القضية لعباً .

وأضاف جيري :

ـ ثم ، انت تعلم ، اذا كان مما يسليك ان تكون أبله فما عليك إلا ان تقول . ولسنا بحاجة اليك .

كان جيريدانيزول يعرف ان حجة كهذه تؤثر دائماً على

فيفي ، وبما انه كان قد اعد ورقة التعهد الذي على كل فرد من أفراد الأخوية ان يكتب اسمه عليها :

ـ فقط ، يجب ان تقولوا حالاً . لأنكم بعد ان توقعوا يكون الوقت قد فات .

وقال فيفي :

ـ هيا ، لا تزعل . اعطني الورقة .

ووقعها .

وقال جورج وهو يضع ذراعيه بحنو حول عنق بوريس :

ـ انا ، يا صغيري ، لا أمانع . ولكن جيريدانيزول لا يريدك .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه لا يثق بك . ويقول انك ستهرب .

ـ ماذا يعرف عن ذلك ؟

ـ يعرف انك ستهرب منذ الأختبار الأول .

ـ سنرى .

ـ اصحيح انك تجرؤ على سحب القرعة ؟

ـ بالتأكيد .

ـ ولكن اتعرف بماذا يُلزمك هذا ؟

بوريس لم يكن يعرف ، ولكنه يريد ان يعرف . عندئذٍ اوضح له الآخر . « الرجل القوي لا يتعلق بالحياة » . المهم

اثبات ذلك .

شعر بوريس بانقلاب كبير في رأسه ، لكنه تصلب واخفى اضطرابه .

ـ خذ . انظر .

وناوله جورج الورقة التي قرأ عليها بوريس الأسماء الثلاثة . وقال بخوف :

ـ هل . . . .

ـ هل ماذا ؟

قاطعة جورج بعنف حتى ان بوريس لم يستطع ان يستمر . ان ما أراد ان يسأل عنه ، يفهمه جورج جيداً : كان يريد ان يسأل اذا كان الآخرون قد تعهدوا أيضاً ، واذا كان يستطيع ان يثق بأنهم لن يهربوا . وقال :

ـ كلا ، لا شيء .

ولكن منذ هذه اللحظة بدأ يرتاب بالآخرين . بدأ يرتاب اذا كان الآخرون يتحفظون ولا يلعبون لعباً صادقاً . وفكر على الأثر : لا يهم . وماذا يهم اذا هربوا ؟ سأريهم انني اثبت جناناً منهم . ثم تطلع رأساً في عيني جورج :

ـ قل لجيري ان من الممكن الاعتماد عليَّ .

ـ أوه ! هذا لم يكن ضرورياً : يكفيهم كلامه . وقال ببساطة :

ـ إذا شئت .

وفوق تواقيع « الرجال الاقويـاء » الثلاثـة ، وعلى الـورقة الملعونة ، كتب اسمه بحروف كبيرة دقيقة !

وجورج ، وقد انتصر ، حمل الورقة الى الاثنين الآخرين . واتفقوا على ان بوريس تصرف بجسارة . وتشاور الثلاثة .

ـ طبعـاً لن تحشو المسـدس . وبالنتيجـة لن يكـون فيـه رصاص .

الخوف الذي احتفظ به فيفي ناتج عن سماعه ان التأثر الشديد يكفي أحياناً لإحداث الموت. وأكد ان والده روى حالة تمثيل جريمة . . . .

ولكن جورج أخرسه قائلاً :

ـ والدك من الجنوب .

كلا ، جيريدانيزول لن يحشو المسدس ، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك . فالرصاص الذي وضعه لابيروز فيه ذات يوم ، لم ينزعه لابيروز منه . هذا ما تأكد منه جيريـدانيزول ، ولكنـه احترس من قوله للآخرين .

وضعت الأسماء في قبعة ، أربع ورقات صغيـرة متشابهـة ومطوية بشكل واحد . أما جيريدانيزول الذي كان عليـه أن « يسحب » فقد كتب اسم بوريس مرتين ، على ورقة خامسة احتفظ بها في يده ؛ وقد خرج اسم بوريس كأن ذلك حدث صدفة . وشعر بوريس بالشك في الغش ؛ ولكنه صمت . وما فائدة الاعتراض ؟

علم انه هالك ، ولم يقم بأية حركة للدفاع عن نفسه .

وحتى لو وقعت القرعة على واحد من الآخرين لقدم نفسه بدلاً عنه . كأن يأسه بالغاً .

ـ يا صديقي المسكين ، حظك عاطل .

ظن جورج ان من واجبه ان يقول ذلك . ورنت نبرة صوته بشكل زائف حتى ان بوريس نظر اليه بحزن . وقال :

ـ وقع المقدر .

وبعد ذلك عزموا على اعادة العملية . ولكن بما انتهم يتعرضون للخطر اذا فوجئوا فقد اتفقوا على عدم استعمال المسدس فورا ولن يخرجوه من علبته الا في اللحظة الأخيرة ، وحين يلعبون « عن جد » . يجب الا يوقظ الانتباه شيء .

اذاً اكتفوا هذا النهار بالاتفاق على الساعة والمكان الذي عينوه برسم دائرة بالطبشورة على ارض الغرفة . كان ذلك في غرفة الدرس ، في تلك الزاوية الى يمين المنبر ، عند باب مغلق كان يفتح في الماضي تحت قبة المدخل . اما الساعة فستكون ساعة الدرس . يجب ان يجري ذلك تحت اعين جميع التلامذة .

وراجع الثلاثة ما عليهم ان يفعلوه ، وذلك في الغرفه الفارغة ولكن ليس لهذه المراجعة اهمية . يمكن التأكد ببساطة من ان هناك اثنتي عشرة خطوة من المكان الذي شغله بوريس الى المكان المعين بالطبشورة .

وقال جورج :

ـ اذا لم تكن خائفاً فلن تزيد اية خطوة .

ـ لن اشعر بالخوف .

هكذا قال بوريس الذي اهانه هذا الشك المستمر . ان صلابة هذا الصغير بدأت تؤثر على الثلاثة الآخرين . وقد اعتبر فيفي ان من اللازم التوقف هنا ، ولكن جيريدانيزول بدا انه مصمم على السير بالمزحة الى النهاية . وقال بابتسامة غريبة من زاوية شفته فقط :

ـ حسناً ! . . . الى الغد .

ـ لو عانقناه ! . .

صرخ فيفي في ذروة حماسته . كان يفكر في عناق الفرسان الشجعان . وفجأة ضم بوريس بين ذراعيه . وبذل بوريس جهداً لامساك دموعه بينما قبله فيفي على خديه قبلة ولد . اما جورج وجيري فلم يفعلا كفيفي . ان موقف الاخير لم يبد لجورج كثير اللياقة اما جيري فلم يكن يعبأ باي شيء من هذا ! . . .

١٨

مساء اليوم التالي جمع الجرس تلامذة البنسيون .

وعلى مقعد واحد جلس بوريس ، وجيريدانيزول ، وجورج ، وفيليب .

سحب جيريدانيزول ساعته ووضعها بينه وبين بوريس . الساعة تشير الى الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين . الدرس يبدأ في الخامسة ويستمر حتى السادسة . وقد جرى الاتفاق ان ينتهي بوريس في السادسة الا خمس دقائق ، قبل تفرق التلامذة . وهذا افضل ؛ لأن من الممكن الهرب بسرعة على الاثر . وقال جيريدانيزول لبوريس بصوت مرتفع ، ودون ان ينظر اليه ، معتبراً ان ذلك يكسب اقواله صفة اكثر شؤماً :

ـ يا عزيزي ، لم يبق لك الا ربع ساعة .

تذكر بوريس رواية كان قد قرأها في السابق ، حيث اللصوص على اهبة قتل امرأة ، وقد طلبوا منها ان تصلي ليقنعوها بأنها تستعد للموت . وكغريب على حدود بلاد سيخرج

منها ، أعد بوريس اوراقه ، وبحث عن صلوات في قلبه ورأسه فلم يجد شيئاً . لكنه متعب ، مكدود الذهن ، فلم يهتم كثيراً . بذل جهده ليفكر فلم يستطع التفكير في شيء . كان المسدس ثقيلاً في جيبه ، ولم يكن في حاجة الى مد يده ليشعر به .

ـ لم يبق اكثر من عشر دقائق .

كان جورج الى يسار جيريدانيزول يتابع المشهد بطرف عينه ، لكنه تظاهر بعدم النظر . كان يشتعل بحمى . ما من مرة كان الدرس هادئاً مثله هذه المرة . ومع هذا فان فيفي لم يكن مطمئناً ؛ كان جيريدانيزول يخيفه ؛ لم يكن واثقاً تماماً من ان هذه اللعبة لن تنتهي نهاية سيئة ؛ وقلبه المنتفخ كان يؤلمه ، وكان يصدر آهة ضخمة بين لحظة واخرى . وفي النهاية لم يعد يستطيع المقاومة . مزق نصف ورقة من دفتر التاريخ الموجود امامه لأنه كان يهيء امتحاناً ولكن السطور تشوشت امام عينيه ، كذلك الحوادث والتواريخ في رأسه ـ فكتب في اسفل الورقة ، وبسرعة : « أأنت واثق على الاقل من ان المسدس غير محشو؟ » ، ثم اعطى الورقة لجورج الذي اوصلها الى جيري . ولكن هذا ، بعدما قرأها ، هز كتفيه دون ان ينظر الى فيفي ، ثم صنع من الورقة كرة صغيرة ، وبضربة من طرف سبابته ارسلها تتدحرج في المكان المعين بالطبشورة . وبعد هذا ابتسم ، مسروراً من اجادته التصويب . وهذه الابتسامة التي كانت في بادىء الامر تلقائية ، استمرت حتى نهاية المشهد ، حتى ليقال انها طبعت على قسماته .

ـ خمس دقائق ايضاً .

قيل هذا بصوت شبه مرتفع ، حتى سمعه فيليب نفسه . وقد استولى عليه قلق لا يحتمل . ومع ان الدرس كان على وشك الانتهاء فقد تظاهر بحاجة ماسة للخروج ، او لعله اصيب بمغص فرفع يده ، وفرقع باصبعه كما هي عادة التلامذة عندما يطلبون اذناً من المعلم . ثم ، دون ان ينتظر جواب لابيروز ، اندفع خارج المقعد . ولكي يصل الى الباب كان عليه ان يمر امام منبر المعلم . كان كأنه يركض ولكنه كان يترنح .

ووقف بوريس بدوره بعدما خرج فيليب . ورفع باسافان الصغير عينيه وكان يشتغل مثابراً وراءه . وقد قص في ما بعد على سيرافين ان بوريس « كان شاحباً بشكل مخيف » ولكن هذا ما يقال دائماً في حالات كهذه . وبالنتيجة كف عن التطلع ، واستغرق في عمله . وقد لام نفسه كثيراً بعد ذلك . لو استطاع ان يفهم ما جرى لمنعه بالتأكيد . هكذا قال في ما بعد وهو يبكي . لكنه لم يكن يرتاب في شيء .

إذاً ، تقدم بوريس حتى المكان المعين . سار بخطى متمهلة كأنه مسير بآلة ، ونظره مستقر ، كمن يسير في نومه . كانت يده اليمنى قد امسكت المسدس ولكنه ابقاه مخبأ في جيب دراعته ولم يخرجه الا في اللحظة الاخيرة .

كان المكان المشؤوم ، كما قلت ، امام الباب المقفل الواقع

الى يمين المنبر ، كأنه ملجأ ، بحيث ان المعلم لا يستطيع رؤ يته من على منبره الا اذا انحنى .

وانحنى لابيروز ، وفي بادىء الأمر لم يدرك ما فعله حفيده ، مع ان الاحتفالية الغريبة لحركاته كان من المفروض ان تقلقه . وبصوته الاكثر قوة ، والذي حاول ان يجعله ذا سلطة ، قال .

ـ يا سيد بوريس ، ارجوك ان تعود حالاً الى . . .

ولكنه تعرف فجأة الى المسدس ؛ كان بوريس قد رفعه الى صدغه . وفهم لابيروز ، وشعر حالاً بالصقيع كأن الدم تجمد في عروقه . اراد ان ينهض ويركض الى بوريس ، ويمسكه ، ويصرخ . . . خرج من شفتيه نوع من الحشرجة البحاء ، فظل جامداً ، مشلولاً ، يهتز باضطراب عظيم .

وانطلقت الرصاصة . لم يسقط بوريس حالاً . فقد تماسك الجسد لحظة كأنه معلق في الزاوية . ثم سقط الرأس على الكتف ، وجره معه ، وانهار كله .

اثناء التحقيق الذي قام به البوليس في وقت لاحق ، دهش الجميع من عدم وجود المسدس بجانب بوريس ، اريد ان اقول قرب المكان الذي سقط فيه ، لأن الجثة الصغيرة نقلت على الاثر الى سرير . واثناء الهرج الذي تلا الحادث ، وبينما ظل جيريدانيرول في مكانه ، قفز جورج عن مقعده ، ونجح

باختطاف المسدس دون ان يلاحظه احد ؛ أبعده اولاً الى الوراء بضربة من رجله بينما كان الآخرون منحنين على بوريس ، ثم استولى عليه وأخفاه تحت سترته ، ثم اوصله خفية الى جيريدانيزول . كان انتباه الجميع منصرفاً الى نقطة ، وما من احد لاحظ جيريدانيزول الذي اسرع دون ان يراه احد الى غرفة لابيروز ووضع المسدس في المكان الذى أخذه منه . وفي ما بعد ، وعلى اثر التفتيش ، حينما وجد البوليس المسدس في علبنه ، كان يمكنه ان يشك في ان احدا قد اخرج المسدس من علبته ، وان بوريس استعمله ، لو ان جيربدانيرول فكر في انتزاع الخرطوشة الفارغة . ما من شك في انه أضاع صوابه قليلاً . انه ضعف عابر لام نفسه عليه ، مع انه ، ويا للأسف ! لم يندم على جريمته . ومع ذلك فان هذا الضعف هو الذي أنقذه لأنه حين عاد واختلط بالآخرين ، وعند رؤ يته جثة بوريس التي نقلت ، أصابه ارتعاش ظاهر ، نوع من أزمة عصبية رأت فيها مدام فيدال وراشيل علامة تأثر شديد . يفضل المرء ان يفترض اي شيء كان ما عدا كون شاب خالياً من الشعور الانساني . وحين احتج جيريدانيزول لبراءته ، صدقوه . اما ورقة فيفي الصغيرة التي اوصلها جورج اليه ، والتي ارسلها تتنزه بطرف سبابته ، فقد وجدت تحت مقعد . هذه الورقة المدعوكة خدمته . طبعاً ما زال مذنباً ، كذلك فيفي وجورج ، لانصرافهم الى لعبة ظالمة؟ ولكنه أكد انه ما كان يمكن ان يقوم

بها لو اعتقد ان المسدس محشو . اما جورج فهو وحده الذي ظل مقتنعاً بمسؤوليته الكاملة .

جورج لم يكن من الفساد بحيث ان اعجابه بجيريدانيزول يصمد . بل تحول هذا الاعجاب الى رعب . وحين عاد هذا المساء الى اهله ارتمى بين ذراعي والدته ؛ وقد شكرت بولين الله الذي أعاد اليها ولدها بواسطة هذه المأساة الرهيبة .

يوميات ادوار

« دون ان انوي ايضاح شيء بالضبط ، فاني لا اريد تقديم اي حادث دون تعليل كاف . ولهذا لم انتفع بانتحار بوريس في قصتي « مزيفو النقود » ؛ تعذبت كثيراً في السابق لأفهمه . اني لا أحب « الحوادث المتنوعة » لأن فيها شيئاً مما هو حازم ، وثابت ، وعنيف ، وواقعي بشكل مهين . . . اني ارضى بان الواقع يسند تفكيري كبرهان ولكنه لا يسبقه . ويزعجني ان أفاجأ . . . فانتحار بوريس بدا لي كأنه عمل مخالف للأدب لانني لم اكن انتظره منه .

« هناك شيء من الجبن يدخل في كل انتحار ، وذلك بالرغم مما يعتقد لابيروز الذي يعتبر دون شك ان حفيده كان اشجع منه . لو استطاع هذا الولد ان يستشف البلية العظيمة التي سببتها حركته الفظيعة لعائلة فيدال لما كان له عذر . فقد

اضطر أزاييس الى اقفال البنسيون ـ موقتاً كما قال . ولكن راشيل تخاف الخراب . وهناك اربع عائلات سحبت اولادها . اما بولين فلم أستطع ان اصرفها عن اعادة جورج الى جانبها . وهذا الصغير الذي بدا متأثراً جداً لموت رفيقه اظهر انه مصمم على اصلاح نفسه . يا له من تأثير حققه هذا الموت ! حتى ان اوليفييه نفسه بدا متأثراً . وأرمان ، القلق رغم هيئته الوقحة ، فقد خشي الهزيمة التي يمكن ان تقضي على اهله ، وتبرع بان يخصص للبنسيون الوقت الذي يسمح له باسافان به ، لأن لابيروز العجوز اصبح غير صالح لما يطلب منه .

« كنت اخشى رؤيته . وقد استقبلني في غرفته الصغيرة ، في الطبقة الثانية من البنسيون . اخذ بذراعي ، وبهيئة غامضة ، شبه مبتسمة ادهشتني كثيراً لانني لم اكن انتظر منه سوى الدموع ، قال :

« ـ الضجة ، كما تعلم ... تلك الضجة التي حدثتك عنها ذلك اليوم .

« ـ وبعد ؟ . .

« ـ لقد انقطعت . انتهت . لم اعد اسمعها . وقد انتبهت جيداً .

« وقلت له كمن يستعد للعبة ولد :

« ـ يبدو لي الآن انك تأسف لعدم سماعها .

« ـ اوه ! لا ، لا . . . ان في ذلك راحة ! . . انا بحاجة ماسة للصمت . . . أتعرف بماذا فكرت ؟ . . . هو اننا لا نستطيع ان نعرف طوال الحياة ما قيمة الصمت . ان دمنا نفسه يحدث ضجة مستمرة . اننا لا نميز هذه الضجة لأننا معتادون اياها منذ طفولتنا . . . ولكني اعتقد ان هناك اشياء لا نتوصل في الحياة الى سماعها ، تآلف انغام . . . لأن تلك الضجة تخفيها . نعم ، اعتقد اننا لن نستطيع سماعها حقيقة الا بعد الموت .

« ـ قلت لي انك لا تؤمن . . .

« ـ بخلود النفس ؟ . . أقلت هذا ؟ . . نعم ، يجب ان تكون على حق . ولكني لا اعتقد العكس ايضاً . افهمني .

« ولما لم أجب استمر هازاً رأسه ، وبنبرة حكيمة :

« ـ هل لاحظت ان الله يصمت دائماً في هذه الدنيا ؟ . . ليس الا الشيطان يتكلم . او على الاقل ، او على الاقل . . . مهما كان انتباهنا قوياً فاننا لن نتوصل الا الى سماع صوت الشيطان . . . ليس لنا اذن ان نسمع صوت الله . كلام الله ! . . ألم تتساءل احياناً ما يمكن ان يكون هذا ؟ اوه ! لن احدثك عما يجري في اللغة البشرية . . . اتذكر اول الانجيل : « في البدء كان الكلمة ؟ » . فكرت غالباً في ان كلام الله هو الخليقة بكاملها . ولكن الشيطان استولى عليها . ان جلبته تغطي صوت الله الآن . أوه ! قل لي ، ألا تعتقد ان الكلمة الاخيرة ستبقى لله ؟ . . واذا كان الزمان لا وجود له بعد

الموت ، او اذا كنا ندخل حالاً في الأبدية ، أتعتقد اننا سنسمع صوت الله حينذاك ؟ . .

« بدأ يهزه نوع من الهياج ، كأنه سيسقط من عل ، واستولت عليه فجأة سورة بكاء ، وصرخ باضطراب :

« ـ كلا ! كلا ! ليس الله والشيطان الا واحداً . انهما يتفاهمان . ونحن نحاول جهدنا للاعتقاد ان كل ما هو شر في الارض مصدره الشيطان ؛ ذلك باننا ، بغير ذلك ، لن نجد في أنفسنا القوة لنسامح الله . انه يلهو بنا ، كهرة مع فأرة تعذبها . . . ويطلب منا بعد ذلك ان نعترف بالفضل . نعترف بماذا ؟ . . بماذا ؟ . .

« ثم انحنى نحوي :

« ـ أتعرف افظع شيء عمله ؟ . هو انه ضحى ولده ليخلصنا . ولده ! ولده ! القساوة . . . هذه اولى صفاة الله .

« وارتمى على سريره ، ودار الى ناحية الجدار ، وبعد لحظات هزته ارتعاشات تشنجية ، ثم تركته اذ خيل الي انه نام

« لم يقل لي كلمة عن بوريس ، ولكني فكرت انه علي ان أرى في هذا اليأس الصوفي تعبيراً غير مباشر عن ألمه ، هذا الالم الغريب الى حد لا يمكن معه ان يتأمله المرء تأملاً مباشراً .

« علمت من اوليفييه ان برنار عاد الى والده . الحقيقة ان هذا افضل ما كان يمكن ان يفعله . فحين علم من كالوب الصغير الذي التقاه بطريق الصدفة ان صحة القاضي العجوز سيئة لم يعد يصغي الا لنداء قلبه سنلتقي مساء غد لأن بروفيتانديو دعاني لتناول الطعام مع مولينييه ، وبولين ، والولدين . بي فضول كبير للتعرف الى كالوب » .

فهرس

منشورات عويدات ٨٦٨ / ١٩٨٤

Gide Les faux-monnayeurs

Traduction arabe de : Bahige CHAABAN

Revue par : Henri ZOGHAIB

MARIANNE / OUEIDAT